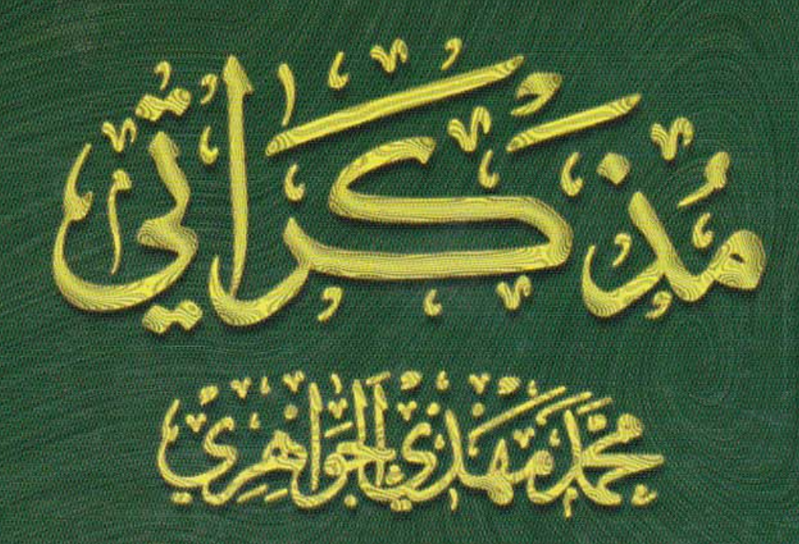
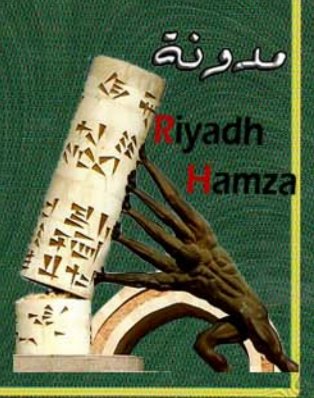




الجزء الأول

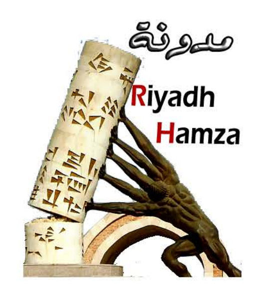



مذكراتي



الجزء الأول

دار المجتبى



http://riyadhhamza.blogspot.com/

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى
٢٠٠٥ م
١٣٨٤

منشورات
دار المجتبى للطباعة والنشر والتوزيع
مطبعة :قلم
الكمية : ١٥٠٠ دورة
شابك :٤-٨٦-٨٧٦٢-٩٦٤
شابك الدورة: ٦-٨٥-٨٧٦٢-٩٦٤

توزيع
بني الزهراء (س) للطباعة والنشر والتوزيع
اسواق القدس ، الطبقة الثالثة ، رقم المحل : ٨٢
الهاتف : ٧٧٤٨٥٥٥ - ٧٧٣٢٧٣٠ شارع ارم / قم المقدسة / ايران



وُلِـــدوا
فتعـــذّبوا
فمـــاتوا

حكيم صيني



أُهديه

إلى من هم أعزّ عليّ من صفو الحياة

إلى كلِّ مَن ودَّعني من أهل بيتي

وإلى كلِّ مَن أقام



الجواهري في مطلع شبابه

المقدّمة

أزِحْ عن صَدْرِكَ الـزَبَـدَا
ودَعــهُ يَبُــثُّ ما وَجَــدا
وخَــلِّ حُطامَ مَوْجَــدَةٍ
تَنــاثَــرُ فوقــه قصَــدا

المقدمة



هذه أول مرة، فيما أعلم، تشاء الظروف ان يتاح لشاعر عربي تدوين مذكراته

ماذا كان عسانا ان نقرأ (وانا بصدد المثل الأعلى) لو ان المتنبي أمسك القلم وكتب عما اعتمل في نفسه وهو يجوب الحواضر والبوادي، حاملاً قوافيه من مغامرة إلى اخرى، طموحاً وخائباً تارة، ومدللاً ومطروداً تارة اخرى، وبين الحال والحال، فمشردا ومجابهاً ومتحدياً ومقتولاً

ماذا كان يقيض لنا ان نقرأ (وبالمثل الأعلى من ذلك ايضاً) لو أن المعري جاهر ببواطن ما اختزله في لزومياته، ورسالة غفرانه، وأيكه وغصونه، وسجل لنا ساعاته ويومياته، وما اعتملت به نفسه، خلالها، وكيف كان يصبح ويمسي مع تلك الانفعالات. اخترت هذين المثالين، لأنه لم يبق من الشعراء، من تراثنا السالف، على الافواه والاقلام والحروف وفي المكتبات، أكثر منهما نموذجاً صادقاً للانسان وللانسانية بعامة، ولما انتفضا به على المجتمعات وتقاليدها، ولما اضطرتهما طبيعة الحياة إلى النزول على احكامها، وما تميزا به بسبب من ذلك كله من غوص في اغوار طبائع الانسان، واستخلاص الحكمة والعبرة من تناقضات الحياة واحكامها

قطع التاريخ، منذئذ، رحلة وعرة، تطورت خلالها مفاهيم الانسان، والشاعر منه بخاصة، وغدت الحياة، بعد هذه العصور، اكداساً بالغة التعقيد من النقائض والمتضادات والحيوات المتصارعة، عاشتها اجيال من الناس، وانا واحد من افرادها

عشت حياة عاصفة، اختلطت فيها عوالم بعوالم، الفقه بالشعر، والشعر بالسياسة، والسياسة بالصحافة، والصحافة بالحب، والحب بالصداقات، والبؤس بالنعيم، والتوطن بالترحل، والطفولة بالرجولة.

من حقي، وقد كتب عليّ أن أكون، أكثر من أي شاعر معاصر عشته وعاشني، انشداداً بالجماهير العربية، ولاسيما بالطلائع الواعية منها، واشد مشاركة في مطامحهم ومعاناتهم، طيلة أكثر من نصف قرن، من حقي عليهم ومن حقهم عليّ أن أضع صورة هذه المشاركة والمعايشة في إطارها المنشود، بما تستحقه من بساطة ووضوح، من جهة، ومن صدق وامانة من جهة أخرى.

اقول هذا ولست ناسياً أو متناسياً حصتي أنا بالذات من هذا كله، كفرد من الافراد أو واحد من الجماعات الذين يبتغون ان يزيحوا عن انفسهم وذواتهم بحد ذاتها، غشاوة ما عاشوه وكابدوه، وما اختلطت به عليهم سبل الحياة ومفارق طرقها، فيما بين تلك المعايشة والمكابدة، مما لابد له، بحكم الطبيعة والمنطق، من ان ينطوي على الشيء وضده، افراحاً واتراحاً، مسرّات واحزاناً، صعوداً ونزولاً، انتصارات وهزائم، جموحاً وكبوات، عداوات وصداقات.

أريد أن اعطي، في ذكرياتي هذه، صورة لهذه الحياة التي تؤلف نموذجاً لكل تناقضات ومفارقات المجتمع العربي، وكيف كانت صورة هذا المجتمع قبل مائة عام، وكيف هو الآن.

أريد أن أكتب ببساطة، بلا تقعر، ولا تصنّع، ولا تفصح، وان أسرد قصة هذا العالم الذي نعيشه، ببواطنه وظواهره، من أي نسيج حُبك، وأية طينة جُبل. وان اجيء على وصف اللقطات الهامة، والتي تستحق الذكر، فيما كان لي من مواقف ازاء الاحداث نفسها، أو المعنيين بها، في معمعان المراحل المتخالطة، بكل ما شق منها، وبكل ما اختلط فيها الحلو بالمرّ، والهادىء المنساب بالهائج المائج، والدافيء بالساخن.

ثم ـ وبصورة خاصة وهامة ايضاً ـ ان أكون ـ وأنا اتوسط جحيماً من الحزازات والمشاحنات والتحديات ـ قدر ما استطعت، مترفعاً عن مباذل الخصومات، ومدافن الاحقاد، ونبش القبور.

وليس معنى هذا ان اتقدم بأكاليل الغار لمنْ زرع في مدارج حياتي، الحسك والاشواك، ولكن ان اجعل القارىء، يرى بأم عينيه، زرّاع الاشواك هؤلاء، بل وان يشخصهم وهم يتحدثون بالسنتهم عما زرعته ايديهم، وان يراني أنا بالذات مدافعاً عن نفسي ليس إلا.

هناك حكمة صينية لفيلسوف من وراء سور الصين الكبير، تلخّص كنه الحياة: ولدوا، فتعذبوا، فماتوا!

ولا يخفف من هذه الحكمة بشيء ان يمرّ من يولد، وهو بين العذاب والموت، بمحطات استجمام أو لهو أو عبث أو قطوف من رغادة ولذاذة. فالحكيم الصيني، بحكمته تلك، كان أعمق غوراً من هذا كله، وأكثر ادراكاً لها، ولكنه يعدّها كلَّها غطاء شفافاً على الولادة، وعلى العذاب، وقبيل الموت.

اخيراً، لم اتعرّف على أحد آخر غيري من قبل، من دوّن هذه الحياة وهي على أبواب التسعين وفي الغربة عن وطنه ايضاً، على ذاكرته، وبشيء من الرجوع إلى تواريخ قصائده نفسها وكتاب الشيخ جعفر محبوبة (ماضي النجف وحاضرها) وتاريخ الوزارات العراقية للحسني، هذه الذاكرة التي عادت بي وأنا في التسعين إلى السنة التي كنت فيها على صدر أمي لأتذكّر أين كان فراش جدي وهو يُحتَضر، وفي أي زاوية، ومن أي غرفة في بيتنا العتيق.

واذا كان في هذا ما قد يحسبه القارىء تبجحاً، فأنا اطمئنه بقوة وحرارة، بل وبوجع ايضاً، بأنني أحسد كل ضعيف ذاكرة، لا يتمثل معها ما اتمثله، حتى ساعتي هذه، من اطياف واشباح وكوابيس.

ان كل ما أردته لكتابي هو أن يكون ـ قدر ما أستطيع وقدر ما يستطيع المجتمع ـ نموذجاً للأنكشاف وللتفتح على الحياة، وللصراع والعراك مع الطبيعة بل ومع القدر نفسه، فضلاً عن التقاليد والاعراف المألوفة والموروثة والمتخلفة، في كل ما كتب لي أو عليّ ان يكون من موقف وموقف وقناعة وخلافها، وايمان بهذه الشخصية والأخرى من حاكمين وسياسيين ومحكومين ثم بكفرانها والتمرد عليها وأكثر من ذلك، وبكل جرأة أيضاً فعن المراقي

الصاعدة والمهاوي المتحدرة التي شاءت لي نفسي قبل الاقدار ان تصعد إلى تلك أو تنحدر إلى هذه. . . انني ذلك القائل «يداي اعانت يد الحادثات»!

كل ذلك يجده القارىء في كتابي هذا وفي تلاحق صور حياتي ومفارقاتها واتساع مجالاتها، ومن شحنات تتفجر الواحدة من الأخرى بكل وقائعها، بكل الضربات النازلة بها، بكل ما تفتحت له من جسور للعبور، وبكل ما خرب منها، وبكل الفواجع التي حلت بي والتي بلغت في أكثر من واحدة منها حد الأساطير، انني في كل ذلك وفي أمثاله كنت اللوحة المتشابكة الصوّر والألوان والمعبرة اصدق تعبير ـ حاولته جاهداً ـ عن تفجر المجتمع العراقي بل وتعريته، وتعرية المجتمعات العربية كلها وقبل ذلك فانني لأعرى فيها نفسي بنفسي، وبكل ما في هذه الكلمة من معنى.

وأخيراً، فاذا كنت لم استطع بعد هذا كله ان اعطي الضوء الأخضر للقارىء ليلج معي كل مداخل هذه الحياة ومخارجها، وبكل ايجاز أيضاً فانني لا أجد له مثل هذا «الضوء» بأكثر من ان اضعه «على قارعة الطريق».

محمد مهدي الجواهري
دمشق
في ١/ ١٠/ ١٩٨٨

قال لي وقد عرج عليّ ـ وأنا في منتصف الطريق إلى حيث أريد ـ أأنت مسافر مثلي . . ؟

فقلت له : لا ! بل أنا شريد . قال : وأين وجهتك الآن؟

قلت : وجهتي أن أضع مطلع الشمس على جبيني وأغِذ في السير . . حتى اذا جنني الظلام في الليل أقمت حيث يُجنّني . . وسرت عند طلوع الفجر .

قال : والليل ليل والنهار نهار منذ الأزل وحتى الأبد . . . أفأنت مجنون؟؟ . . .

قلت له : لا ـ كما أعتقد ـ . . . ولكن أأنت جاهل؟ . .

قال : وكيف؟ . . .

قلت له : لقد علمنا علم المكان وعلم الزمان من جديد أنك كلما أغذذت السير قُدماً قصر الليل وطال النهار . حتى ليكادان يتحدان عند المنتهى .

ولقد كنتُ أجهل مثلك هذه الحقيقة طيلة ثلاثين عاماً كنت خلالها أهيم على وجهي وأتخبط في مجاهل الأرض ـ دون معالمها ـ اذ كنت لا أعلم من هذا العلم شيئاً .

قال : والآن؟؟ . . .

قلت : والآن . . فمنذ سبعة عشر عاماً ، ـ وقد عرفت هذه القاعدة ـ وأنا أمشي إلى الأمام على ضوء الشمس . . .

قال: وعندما تغيم؟...

فقلت له: إنني لأفتح عيني أكثر لأعتاض بهما عن نور الشمس وقد أزيغ وأنحرف! ويكلفني هذا تعباً يطول أو يقصر على قدر انحرافي.. ولكنه ليس على كل حال أكثـر من التعب في أن أعود وعلى ضوء الشمس من جديد، ومن حيث ابتدأتُ.

قال: وماذا أكثر من التعب؟

قلت: أكثر منه ألّا أتعب.

قال: أولا ترتجف من البرد؟؟

قلت: لا... فقد تعودته حتى لأكاد أرتجف من الحر.

قال: وماذا تأكل؟

قلت: لحوم الحيوانات السائبة فان لم تكن تقوتُ فقليل من لحمي...

قال: لحمك؟؟!!

قلت: أجل.. ولماذا لا.. واني لآكل من لحم أولادي أيضاً...

قال: آه... وعندك أولاد؟!!

قلت: بلى.. وهم سبعة ومعي أيضاً في طريقي..

قال: وكيف يطيقون هذا العناء؟؟...

قلت: أحمل العاجز منهم على كتفي، وأدع رعاية الصغير للكبير منهم، وآكل من لحمهم وأطعمهم من لحمي.. ومن مات منهم جوعاً، أو تعباً، تركته للكلاب..

قال: أولا يرتجفون مثلك من البرد؟؟...

قلت: بلى.. يرتجفون.. الآن.. وسوف يتعودون ذلك غداً.. فلا يرتجفون أبداً.

قال: أو لم تقدر ان تكسوهم، وتطعمهم فيما تمر به على المدن، والقرى، والناس؟؟..

قلت: أبداً..

قال: ولماذا؟؟

قلت: لأنهم يريدون لذلك ثمناً...

قال: أو تريده أنت بلا ثمن؟؟

قلت: وكيف أريده بدونه..

قال: فلماذا؟؟

قلت: لأنني أريد لهم ولي.. أن أعمل ويعملوا.. لنشبع ونكتسي..

قال: وهم؟؟..

قلت: هم يريدونني أن أرقص..

قال: ترقص؟؟!!!!

قلت: أجل، ومثل القرود تماماً.

قال: ولماذا لا ترقص؟.. ومثل القرود؟؟

قلت: لأنني لم أوهب سعة حيلة هذا الحيوان، وصبره على المجاراة.

* * *

ـ ألك اخوة؟..

قال لي صديق الطريق.. هذا!!... وقد صمت ورمق الأفق البعيد بعينيه.

قلت: أجل لي ثلاثة..

قال: وأين هم؟؟

قلت: واحد تشرّد مثلي، وآخر تخلف عني في المدينة، وثالث أكلته الحيوانات!!..

قال: أو لك أم؟؟..

قلت: وكيف لا؟؟!!!!

قال: وأين تركتها؟

قلت: تركتها على قارعة الطريق، وبيدها كتاب!، وإبريق!، ومبخرة!!

قال: وما هذا؟؟!!!!

قلت: هذا من عقائدها..

قال: عقائدها؟!!!

قلت: أجل من عقائدها . . . انها كلفتني أن أقبِّلَ الكتاب، وقد حملته باليمين، فقبّلتُه، ولكن . . بعد أن أخذته منها بالشمال . . وأرادت أن ترش الأرض من حولي بالماء، ومن أنبوبة الابريق . . فرشت به الأرض، ولكن بعد أن رفعت الابريق إلى فوق ومن فوهته!! . .

قال: والمبخرة؟

قلت: إني حطمتها . . وإن والدتي لمتشائمة وحزينة من أجل ذلك .

قال: مفهوم أنها حزينة، ولكن لماذا هي متشائمة؟؟

قلت: لأنها تعتقد أنني لا أرجع اليها سالماً وقد حطمتها . .

قال: وأين ولدتك أمُك؟؟

قلت: على قارعة الطريق أيضاً . .

قال: أكلّ شيء على قارعة الطريق؟؟!!!!

قلت: أجـل . . إنهـا من المعتقدات بـ ـ أسطورة!! ـ «سيادة النور» و «عبـودية الظلام» . . . وهي ترتجف رعباً من الليل، ولذلك فهي لا تضع حملها إلا على قارعة الطريق . .

قال: وأبوك؟

فقلت له: إنه لا يشغل بالي من أمره أكثر من أنه كان يتحمل الألم ولكن بصمت! بلا ثورة على الألم . وبلا تجديفٍ . وإنه كان يُغنّي ثم خاف فترك الميدان . وكل من هو على شاكلته من المغنين لا يشغل بالي من أمرهم شيء! .

قال: ومتى عهدك بالمدينة وأهلها؟

قلت: منذ تركتها، أما عهدي بأهلها فمنذ أن تشاجرت مع حاكمها لكثرة ما يحملهم على الرقص كالقرود .

قال: وبعد؟؟! . .

قلت: وبعد . . فقد استمروا يرقصون حتى بعد أن طردني الحاكم شر الطرد من أجلهم . . طردني أنا ومن معي . . .

قال: أفأنت حاقد عليهم من أجل ذلك؟؟!!

قلت: لا . . . . أبداً . . بل غاضب . .

قال: أولا تريد أن تراهم؟؟..

قلت: إن بريق الغضب في عينيّ ليصدني عن رؤيتهم..

* * *

قال لي عابر السبيل بعد برهة وجيزة استرحت خلالها من قال وقلت.

قال وقد فهمت أن عنده ما يخاله هو شيء جديد ـ ان هناك ـ من ورائنا!! غابةً.. وارفة الظلال كثيرة الأشجار، ناضجة الثمار، شاخبة الغدران،.. أفلا أدلك عليها فتستريح عندها.. ولو بالرجوع خطوات؟؟

قلت له عابساً: أفأنت خارج منها؟؟!!

قال: أجل.

قلت: أفأنت من أشباحها؟؟

فصمت مذهولاً! ولما أدركت أنه ليس منهم، وانّه مجرد عابر سبيل، انحدر اليها..

قلت له: لا.. لا أبداً.. فهل تريد أن أقص عليك أمري منها، وأدع لك أمرك وشأنك.. على أن نفترق بعد الآن، لأنك حديث عهد بها، وبأرواحها، ولأنني لا أطمئن إليك من أجل هذا...

قال وقد رأيت الألم الصادق! في عينيه: موافق...

قلت له: لقد مررت بغابتك هذه، بعد أن كنتُ قد انحرفت قليلاً أو كثيراً ـ لا أدري ـ عن شرع الطريق الذي كنت أريده، وكان الأمر في ذلك انني لقيت من على جانبي الطريق المنحرف أشباحاً وكأنها الأدلاءُ إلى الطريق السويّ فتبعتهم ـ شاكراً!!!ـ حتى إذا توسطت الغابة استقبلتني من خلال أغصانها المتشابكة رؤوس كأنها الشياطين، وأصوات كأنها حشرجة المحتضرين، وأطبق عليّ الظلامُ الذي أخافه.

ولا أنكرك.

انني كنت جائعاً، وإن ثمرها كان شهياً.

وإنني كنت ظامئاً، وإن ماءها كان عذباً سائغاً.

ولكنه، مع هذا كله فقد أنستني حاسة الرعب والهلع من الظلام المسيطر عليها كل الحواس الأخرى.

فلقد أدركت ياصديق الطريق العابر من بادىء الأمر ـ بغريزتي ـ وليس بعقلي أن طريقاً يقف عليه الأدلاء ليَدلّوا المارة عليه ليس هو بالطريق القويم، فمثل هذا الطريق ما تسير أنت مدفوعاً على هداه . .

ولقد علمت ياصديق الطريق العابر أن تلك الأشباح المبثوثة في طريقي إلى الغابة إنما هي من أرواحها!! وأن كل ما عوى عليّ من ذئابها!!!

وكل ما طلع عليّ من رؤوسها!!!

وكل ما أدمى قدميّ من أشواكها!!!

وكل ما حكّ جلدة رأسي من أغصانها وفروعها!!

كان جزءاً لا ينفك من أرواحها أيضاً.

وحتى تلك الحيوانات المتفرجة المسالمة فيها هي منها أيضاً.

وتلك الأشباح التي كانت تتسلل من خارج هذه الغابة فتتشابك مع ما في داخلها من أشباح وأرواح وكأنها تريد أن تتلاعب معها! أكثر من أن تتقاتل.

حتى تلك الأشباح التي كانت وكأنها تريد أن ترفع عنها كل البطر! وفتورَ الدلال! في معركتها هذه، آمنت أنها من سلالة أرواح الغابة ومن عناصرها!

ولقد ألفيت تلك الأرواح الشريرة ومن تابعها ترى ذلك الجنيّ الغضّ من الثمر العاجل في هذه الغابة، والماء العذبَ البارد خير العوض عن الظلام الرائن عليها!

وكنت أراه مجرد ثمرٍ عاجل. ومجرد سرابٍ لامع.

وكانوا يضحكون مني. وكنت أضحك منهم!!

وعندما هز عابر السبيل هذا رأسه باستحباب كمن يريد زيادة في الحديث. . .

قلت له: ومن الغريب أنني كنت أحمد!!! في خطواتي الأولى إلى هذه الغابة هؤلاء الأدلاء.

وكنت لا أنفك أغنّي إلى جانب ذلك أغاني التمجيد لنور الشمس، وكان هؤلاء الأدلاء أنفسهم ـ لا غيرهم ـ يهزون رؤوسهم وأذقانهم كالمؤمنين بما أغنّي.

والأغرب من كلٍ هذا ـ ياصديق طريقي العابر ـ أنني حتى بعد أن وليت منهم ومن غابتهم فراراً . . .

كنت أغنّي بحماس أكثر . . وأغاني أجود في تمجيد نور الشمس، وفي شجب عشاق الظلام . .

وكانوا ـ هم وليس غيرهم ـ أيضاً يهزون رؤوسهم وأذقانهم تأميناً على أغانيّ هذه . .

في حين كانوا يشيعونني معها بنظرات الأسف .

إنهم كانوا يفعلون ذلك وهم يقضمون من نبات تلك الغابة وأثمارها . . ثمر الظلام الذي يعيشون فيه . . .

ثم يرمون ببعضها . . أو ببقاياها إلى من وراءهم وحواليهم من تلك الأرواح .

وممن قصرت أيديهم أن تمتد إلى أغصان أشجار الغابة .

ثم قلت وقد انتهيت . .

والآن فوداعاً ياصديق الطريق العابر . .

قال : وداعاً ياأيها المغني لنور الشمس!!!

وداعاً أيها الشريد!!!

وكان هذا آخر عهد لي به، وآخر عهد له بي .

الفصل الأوّل

يادجلةَ الخير: شكوى أمْرُها عجبٌ
إنَّ الذي جئت أشكو منه يشكوني
ماذا صنعتُ بنفسي قد أحَقْتُ بها
ما لم يُحقْهُ بـ «روما» عسفُ «نيرون»
ألزمتها الجدَّ حيثُ الناسُ هازلةٌ
والهزلَ في موقفٍ بالجدِّ مقرون
وسُمْتُها الخسفَ أعدى ما تكونُ له
وأمنعُ الخسفَ حتى من يعاديني
ورحتُ أظمي وأسقي من دمي زُمراً
راحت تُسقي أخا لؤمٍ وتُظميني
وقلتُ بالزهدِ أدري أنَّه عَنَتٌ
لا الزهدُ دأبي، ولا الإمساك من ديني
خَرطَ القتاد أمنّيها وقد خُلِقتْ
كيما تنامَ على وردٍ ونسرين

هُنا وُلِدت

جَذوة الطُّفولة

صَبيّ في عالم الكبار

تَوْق إلى الحُرّيّة

عاشق في الثامنة

آلهة الشعر

نهضة وَانبِعاث

القَدَر يُحدّثني

الفقيه وَالشاعر

معارك مَع الكتب

حصار النجف

الفصل الأول

هنا ولدت

ولُدت فوق أرضٍ ملحية عطشى بالرغم من انها على مقربة ميل أو ميلين من مياه الفرات، على الحد الفاصل بين بساتين الكوفة والحيرة (التي كانت ذات يوم رياض العباسيين والساسانيين والمناذرة) وبين الصحراء الممتدة إلى نجد والحجاز حتى الربع الخالي. فأنفتحت نظرتي الأولى على أفق الصحراء الممتد إلى الأبدية، وتعلمت، أول ما تعلمت، التحمل والزهد الذي يميز «صل الفلاة».

وبين آونة وأخرى تضيق عيناي بمشهد الصحراء الجافة اللانهائية، فنفّر منها أنا وعائلتي إلى شواطيء النجف حيث كان (الخورنق والسدير) وقصور المناذرة، ومنها فإلى بساتين الشوافع والكوفة والحيرة، فألوذ كالحمامة بالماء الرقراق المزغرد والطين النديّ. واتملى واتلمس بأناملي الصغيرة أزهار الشيح والقيصوم والخزامى، وفيما بعد ذلك بكثير عرفت لماذا قال النعمان بن المنذر وهو يتملاّها: «انزعوا كفّ من قطع واحدة منها»! فسمّيت بشقائق النعمان. بل عرفت وأنا اقف بعد هذه البداية بسنين غير قليلة، على تلة من الجانب الغربي من النجف، أي الجانب الذي شاءت الطبيعة بنفسها ان يكون رملةً، ناعمةً، شفافة، خالية من أي قبر من تلك القبور الممتدة على الجانب الآخر، وكأنها حيّ قائم بذاته من احياء الاموات، اقف عليها لأخمن أين كان يجب ان يكون (الخورنق) و (السدير) وأين كان يقيم فيما بينهما هذا العملاق الرهيب، (النعمان)، صاحب اليومين الرهيبين مثله، يومي بؤسه ونعيمه حيث كان وكأنه يتلهى بقتل من يشاء له سوء حظه من ان يمرّ عليه وهو

بائس، وان يخلع على من يمرّ عليه ناعم البال، ثم لأتخيل أين كان يمتد الفرات قبل ما يقارب الألفي عام، وحتى العصور المتأخرة من تاريخ (الحيرة والنجف) و(الخورنق والسدير)، وكلها كما يقول التاريخ تكاد تكون شبه مربع، لا يفصل بين الواحدة والأخرى سوى مسافات صغيرة، ومتلاصقة ايضاً، أي ان الفرات كان ينسابُ إلى ما يمتد برمال نجد الفسيحة من هذه الشواطيء الجميلة، التي كانت ما تزال، وأنا في هذه البدايات، تنمو المزارع الخضراء فيها بما ينحدر اليها من خيط رفيع من ذلك البحر. لم يكن هناك، ان لم أقل فيما بعده حتى اليوم، رسام خلاق مثل (النابغة الذبياني) الذي يقول فيه في معلقته وهو يخاطب «النعمان» هذا، في احدى اعتذاراته التي بها يُضرب المثل:

نُبئتُ ان (ابـا قابـوس) يوعـدُني	ولا قرارَ على زأر من الاسـدِ
ومـا الفـراتُ إذا جاشت غواربـهُ	ترمـي أواذيُّه الـعَبـرَين بالـزبـدِ
يظل من خوفـه المـلّاح معتصمـا	بالخيزرانـةِ بعـد الأين والنجَـدِ
يومـا بأجـود منـه فيض نافـلة	ولا يحـول عطاء الـيوم دون غدِ

اعود لأقول، انني ولدت على ابواب (الخورنق والسدير) حيث كان يقف النابغة، وحيث كان يأكل بصحاف من الفضة والذهب كما يقول عنه المؤرخون. بفارق واحد، هو اني كنت منذ البدايات حتى يومي هذا آكل بالصحّاف العتيقة المتوارثة، وبما تيسر من لقمة العيش الزهيدة، اتلقى بثبات - وبدون اعتذار - زئير الاسود، وهم قلة. فضلاً عن عواء الذئاب وتكالبها، وهم كثرة.

ولا أدري كم كان هناك فيما بين (نابغة بني ذبيان) و(نابغة النجف)، كما سمته الصحافة العراقية، فيما تعاقبت به الاجيال من الشعراء ممن احبوا (نهر الفرات). وحتى لو كان هناك واحد أو أكثر من هؤلاء، فانني (واقولها بمصداقية الفن ومقاييسه) لم اقرأ، ولم اتعرف على من يقول فيه، بل ويتغنى

به، وكأنه يتبارى ويتسابق مع (زياد النابغة)، مثل هذا الفتى اليافع مما بين النجف والحيرة، وحيث كان (ابو قابوس) قبل اجيال واجيال. . .

طغَى فضوعف منه الحسنُ والخَطَرُ ... وفاض فالأرضُ والأشجارُ تنغمِرُ
وراعتِ الطائرَ الظمآنَ هيبتُه ... فمرَّ وهو جبانٌ فوقَه حذِرُ
كأنما هو في آذيِّه جَبَلٌ ... على الضفاف مُطلٌ وهي تنحدرُ
رب المزارعِ والملاّحِ راعَهما ... بالحَول منه عظيمُ البطش مقتدرُ
باتت على ضَفَّتيه الليلَ تحرسُهُ ... غُلْبُ الرجال لما يأتيه تنتظرُ
راحوا أُسارى مطأطين الرؤوسَ له ... وراح طوعَ يديه النفعُ والضررُ

أما النجف، التي ولدت فيها وعلى صورتها المفارقة، المتباعدة، فقد كانت مدينة بلا شجر، ولا عشب، وبما يشبه الشحة في المياه، ايضاً، عدا مياه الآبار. فقد زحف الملح من البحر اليابس إلى ارضها، وغطت رياح السموم كل ما فيها بلون التراب الرمادي.

إلا ما أصدق من قال: خليليّ ان الأرض تشقى وتسعد. ولربما كان من سوء حظنا، أنا والتربة التي ولدت فيها، ان تكون قد «شقيت» فشقيت معها. وان تكون قبل عصور مرت عليها وقد «سعدت» وسعد معها كل من درج فيها، بل سعد من شاء له ترف العيش ورغادته بل رغادة التاريخ وعصوره، ممن كانوا يقيمون، على سفوحها وعلى مسارب الفرات فيها، وعلى مشارف الخورنق والسدير، العمائر والقصور والمقاصير، فمن يصدق ان هذه الرملة الجرداء، كما سميتها، كانت جنائن بل وأديرة تضرب الأمثال بخمورها المعتقة، ومن يصدق ان سيد ملوك العالم ومفخرة تاريخ العصر الذهبي «هارون الرشيد»، كان في الجملة ممن يأمونها، مستجمين بخضرتها، وجمال مغانيها. حتى لكأن هذه الرملة الجرداء قد التقطت حصتها من هذا العصر الذهبي الذي انتقلت فيه بواكير الحضارة من بغداد

إلى كل انحاء الدنيا بما ازدهى به عصر الرشيد من كل عصارات الاذهان وكل عطاءات العقول من كل الشعوب وعباقرتها، مصبوبة لغاتها ومواطنها وجنسياتها في اللغة العربية الجميلة، ومنسوبة إلى الأرض العربية ومتحققة بكل تماسك وتشابك وتمازج مع الجنس العربي نفسه.

تلك كانت النجف وهي تسعد، كما يقول عنها «الحموي» في معجم البلدان، انها في الجملة من مناخ اقليمها العراق، هي اعدل أرض الله هواء وأصحها ماء. ثم أنها كانت المحج الأول لكل من تضيق به اجواء العراق، حتى عاصمته بغداد، بكل ما تضج به اجواؤها هي بالذات واهواؤها وملاهيها ومشاربها، فماذا كانت هذه الرملة الجرداء التي يتصيد بها المنصور، بأسمه ومسماه، وبعده فهارون الساحر والعظيم وحاشيته، الغزلان وهي تفرّ من كناساتها ومكامنها لتتنفس نسيم نجد وانفاس شقائق النعمان، ما بين الحيرة والخورنق والسدير ومسارب الفرات، وبعد ما يزيد على ألف عام من هذا، وفي سمر من أسمار النجف هذه، وفي مرحلة الصبا من أيامي أنا وشلة من اترابي، فيما يفصل بين هذه البقعة من بقاعها والأخرى، رأيت بعينيّ هذين، الغزال والآخر يفرّ من ذلك الكنَاس أو هذا.

حسب النجف «السعيد» آنذاك، انها «خدّ العذراء». ولابد ان لا يكون بشيء من العبث هذا الاسم ولا من سماها به. وليس عبثاً ايضاً ان يقول التاريخ انها كانت قصوراً للعباسيين، ملوكاً وشعراء ومغنين، ورمزهم الخالد «اسحق الموصلي» الذي تغنى بها بشعره وبألحانه.

وليس عبثاً ان يكون فيما بعد ذلك، ومن استمرار القصور فيها «قصر ابي الخصيب» بظاهر الكوفة، وواحداً من متنزهاتها، ممن تغنى به الشاعر العباسي:

يادار غيّر رسمها ... مرّ الشمال مع الجنوب
بين الخورنق والسدير ... فبطن قصر أبي الخصيب
فالدير فالنجف الاشمْ ... جبال ارباب الصليب

وارباب الصليب، هنا، تعني الاديرة والخمور المعتقة فيها. وأكثر من ذلك «فالقصر الابيض» ويقول التاريخ عنه ايضاً انه من قصور العرب قبل الاسلام، وقد شاء التاريخ ومفارقاته ان يدّون على أحد جدرانه، من أقام الحجر الأول للخلافة العباسية أيام كان يتخفى وهو يتهيأ واتباعه واشياعه للاطاحة بالدولة الاموية، ان يدون، وهو يغيّر من اسمه ليكون مجرد، عبد الله بن عبد الله.

تلك هي النجف في امسها الغابر أما وأنا في يومها الحاضر، فقد بقيت تجرر، فيما تجرر به من ذيول حضارتها، معالم تاريخها العربي وامتداد ملتقى الاطراف فيها حيث كانت «مشهداً» للاقوام والملل والنحل والقبائل. اليها يأتي البدو من الصحراء المترامية مع قوافل جمالهم، ويحطون الرحال في «المناخة» حيث مضت فترة غير قصيرة، وأنا واترابي في أول عهد الصبا، نتلهى باعتلاء ظهور هذا الجمل أو ذاك، جاهلين معها ما عرفناه بعد ذلك من حقد هذا البعير، الذي به يضرب المثل لكل الحاقدين. نكتفي من ذلك بساعات وداعته واستراحته، ريثما نبهنا إلى هذا الخطر فكففنا عنه، كان البدو يحطون الرحال ليتقايضوا من اسواق النجف ويعودوا ثانية إلى ديارهم. ولكن، قبل ذلك سيتركون في المدينة ذخيرة من طباعهم وحكاياتهم واشعارهم، ويندر ان تجد بين شيوخ النجف من لا يجيد حداء البدو واشعارهم وقصائدهم وباللهجة البدوية نفسها أحياناً.

وإلى النجف يأتي ابناء القبائل العربية العريقة من أرياف الفرات الجنوب والوسط.. يأتون بعدتهم الزهيدة، وبالقليل الذي أدخروه من معاركة الأرض، تبهرهم من بعيد لمعة الشمس على قباب المرقد العلوي حتى لكأن البحتري النسّاج وهو يتغنى بالقباب البيض في سامراء، عناها بقوله:

كأن القبابَ البيضَ والشمسُ طلقةٌ   تضاحكها أنْصافُ بَيض ٍ مُفلقِ

ويدخلون المدينة بوجل مرتبك، فكل ما في هذه التربة عندهم طاهر، مقدس.

وكانوا يلوذون من حرّ الظهيرة بالنوم أكداساً في الاروقة «واللواوين» وتكاياها والارصفة الظليلة، حول المرقد، مع اطفالهم وزوجاتهم. وبينهم كهول لم يتجاوزوا الخمسين. ومع ذلك فقد جاءوا إلى النجف ليقضوا بقية عمرهم بجوار قبورهم التي يعدونها وكأنهم يستقبلون الموت لا الحياة. وكنا نقول عنهم «معيدي مجاور قبره»!

ويأتي إلى النجف طلاب العلم والشعر والأدب من كل انحاء العالم: من جبل عامل في لبنان، من (الاحساء والقطيف) في الجزيرة العربية، ومن مناطق الخليج الأخرى، التي كانت آنذاك كيانات قبلية لم تكتسب بعد شكل دول وامارات. واضافة إلى العرب، كانت النجف محطاً لكل الوافدين عليها من كل انحاء الأرض. الوجوه الشقر مما كان يسمى حينئذ «بروسيا القيصرية» والآن بالاتحاد السوفييتي، أي من جمهورياته المسلمة المتعددة، والوجوه السود من العبيد المساكين المبتاعين، وفيما بين هذا وذاك من لون ولون، وكل الألوان الأخرى، فيما بين بلاد الهند والافغان وايران وحتى من المسلمين في دول البلقان. وينقسم هؤلاء، عندما يصلون النجف، إلى قسمين. فللأغنياء منهم قصور عامرة، مجهزة بخدمها وبأفرشتها الفاخرة، وبكل ما في هذا وذاك من مفارقات مع الأكثرية الفقيرة، المتواضعة، المتعبدة. فمنهم القريب الذي يأتي إلى النجف مشياً على الاقدام، والبعيد عنها فبوسائل النقل العتيقة والمتباطئة. وطالما مات البعض منهم وهو في طريقه اليها.

فلهؤلاء ما أهمله الآخرون من دهاليز واقباء وافياء مما يبتنون، يلجأون اليها بادىء الأمر، ويسمونها بيوتاً بعد ذلك. وما فضل منهم فعلى بلاطات الصحن العلوي، وحجره المتناثرة، يفترشونها بأسمالهم، جنباً إلى جنب مع القادمين من ارياف الفرات الاوسط والجنوب... يتقاسمون لقمة الخبز، حتى وان لم يفهموا لغة بعضهم.

وبين هؤلاء وهؤلاء افراد وجماعات يصل بهم حد السعة أو الكفاف في الحياة إلى الحصول على ما يتهيأ لهم، وليس ذلك، بقليل، من بيوت معدة

«للايجار والاستئجار» وهناك فريق يحتل ملاجىء وملاذات مما كان المجتهدون الكبار يقومون به بما يفضل عندهم من الأموال المجبية اليهم من ابواب الخمس والزكاة، وتركات الوراثة في العقار أو الفضة أو الذهب، ليشيدوا ما يسمى بـ «المدارس الدينية» ذوات الحجر العديدة والجميلة احياناً. وفي النجف حتى اليوم بقايا من هذه المدارس التي يختص بها الوافدون اليها من بيوتات دينية عريقة من هنا وهناك. وكانت لي، أنا بالذات، حجرة مشتركة بيني وبين أخي عبد العزيز.

كان البيت الذي ولدت فيه ونشأت بقرب الصحن العلوي. ولذلك تفتحت عيناي أول ما تفتحتا، على هذه الفسيفساء الآدمية العجيبة، المتداخلة، المتعارضة، التي يضمها الصحن والحضرة والسور المرمري الذي يحوطهما، وتلك المدارس التي اشرت اليها ولن انسى في الجملة من ذلك ما يتعالى على مقربة من سطح الدار من غناء المغنين بآذان الفجر بخاصة.

وبعد، فلقد كانوا ابناء مدن عراقية شتى، ابناء قوميات مختلفة، لم يكونوا ليحلموا ان تتلاقى وجوههم وان تختلط لغاتهم. رأيت كيف يجتمع الفقر الذي «يكاد ان يكون كفراً» مع هذا الغنى الفاحش.

ومع مشهد الحياة المتحركة المتقاطعة هذه، عرفت مشاهد الصراع بين الموت والحياة، وشواخصه وألفتهما منذ طفولتي. فلصق اسوار المدينة يقع (وادي السلام) حيث تمتد إلى نهايات الافق أكبر مقابر العالم في «غابة» من القبور.

وفي أديمها، اختلطت أجداث آلاف، ولربما ملايين، الناس من عصور عديدة، وفيها وليس في غيرها مما في العالم كله، تتمثل حكمة المعري العظيم:

ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً   ضاحكاً من تزاحم الأضداد

وفيها كما تقول الاساطير قبور (هود) و (صالح)، وكما يقول التاريخ

فقبور البويهيين والحمدانيين والجلائريين، ونموذج من الفاطميين.

وفي عهد الصبا وبمحض الصدفة من تعمير قطعة صغيرة تمتد مما يسمى باسم باب الطوسي، اشارة إلى الامام والعلامة الفذ (الشيخ الطوسي الكبير) ـ نسبة إلى طوس، من اقليم خراسان ـ، حتى العتبة التي يتحفى عندها الداخلون إلى الحضرة العلوية، بمحض هذه الصدفة وتوثيقاً للتاريخ اكتشفت فيها ما يستحق التنويه بل والتقدير، قبور ملوك البويهيين، وفي الوسط منهم فقبر اكثرهم شخوصاً وذكراً على فم التاريخ، عضد الدولة البويهي، وهي مغلفة بالحديد الضخم الذي لا يبليه الزمن، وعلى هذا الحديد البارد والضخم، منقوش وكأنه قد خط أمس القريب، اسم كل واحد منهم.

الغريب ان عضد الدولة هذا والذي ختم المتنبي حياته بآخر قصيدة له فيه، والذي كان وكأنه يقرأ الغيب عندما يقول له فيها:

اروح وقد ختمتُ على فؤادي مخافةَ ان يحُلَ به سواكا

عضد الدولة هذا مدفون طيّ الحديد الخالد كأسمه، ولا يبعد قبره عما يفترض ان يكون قبر المتنبي، اجل يفترض، لأن رمز هذه الامة ومفخرتها وعنوان قوميتها لم يشخص قبره حتى الآن.

عضد الدولة هذا، مرة اخرى، هو الذي أمر بتخطيط الحرم العلوي القائم حتى الآن، وفي عهد المتنبي نفسه، ابن الكوفة، وابن الكوفة هو ابن النجف. ترى هل يكتشف التاريخ سراً يقول ان المتنبي الخالد وممدوحه عضد الدولة قد تعرفا وجهاً لوجه وهما على أرض واحدة قبل ان يلتقيا، ووجهاً لوجه أيضاً في (شيراز) عبر (شعب بوّان)، الذي يقول فيه المتنبي العظيم:

«مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمانِ»

ومنها:

يقـول (بشـعب بوّان) حصـاني أعـن هذا يسـار إلى الـطعـانِ
ابـوكـم (آدم) سن الـمـعـاصـي وعـلمكـم مفـارقـة الـجـنـانِ

هذا ما لا أريد ان اتخيله تخيلاً شعرياً، ولكن بشواهده المفترضة.

ولا ينسى القارىء ما يجمع عليه التاريخ من تقارب النسب بينهما في «التشيع» وفي «العلوية»، وان تخفى المتنبي في ذلك لفرط غلوه الذي تجاوز به الحدود حد ادعاء النبوة.

أما وأنا اتقارب شيئاً فشيئاً من المتنبي وممدوحه عضد الدولة بل وعلى مقربة من قبره المفترض في النعمانية، فلقد وجدتني وأنا على ابواب الدخول إلى (جذوة الطفولة) وبما يشبه السبق للزمن، وجدتني وأنا صغير السن وكأنني اريد هذه المرة التعرف على أي بقعةٍ من (حيّ كندة) في الكوفة، كان مولد هذا العبقري، فهل يصدق القاريء، انني كنت اقف على ما تبقى من دقائق الاحجار المتناثرة على اطراف مسجد الكوفة وأنا اقلبها الواحدة بعد الأخرى وكأنني بذلك اريد ان اشم روائح عطرها متخيلاً انها كانت وصلة من اوصال (حيّ كندة) بل ومن اوصال الدارجين عليها. وكلهم يتمثلون لديّ في شخص العبقري منهم ابي محسد، أجل، هذا ما كان مني، وعلى مصداقيته.

الفصل الأول

جذوة الطفولة

ولدت مع مولد هذا القرن المضطرب، الصعب، واخشى ما أخشاه وأنا اكتب هذه السطور، ان اتحدث عن السنوات العشر الأولى من طفولتي، لأنني احاول جاهداً ان اعرف نفسي، وأنا اتحدث كمن يبوح بسره! فرغم انني نقلت رحالي من أرض لأرض، مسافراً أو متنزهاً أو شريداً، إلا ان جذوري بقيت في تلك المجدبة الواقعة بين الصحراء والبساتين ونهر الفرات.

ورغم اني قاربت التسعين، فأنا في حقيقتي، لمن لا يعرف هذا السر، ذاك الطفل الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره. وكل كياني المتضارب، المتصاعد، المتنازل، المتخالف، المتناقض، يقوم على هذه الحقبة الأولى من حياتي.

وقد اتعبتني السنوات العشر الأولى منها أكثر من العشرات التي تلتها. فاليها تعود العقد، والرواسب، واختلاط الحسنات بالسيئات، اختلاطاً يصعب عليّ، أنا صاحبه، ان أجد له مبرراً غير ان اعود القهقرى إلى هذه المرحلة من العمر التي حكمت كل حياتي التالية. ففيها الوجه وضده، فالذكرى والذكرى المضادة، والموقف ونقيضه، وغالباً ما كانت ذكرياتي عن هذه الفترة مريرة، وكثيراً ما اختلطت هذه المرارة بالسخرية. ولست أريد بهذا ان أنكر اللقطات الحلوة منها، أو الساعات والأيام والليالي التي خلفت هي أيضاً ذكرياتها عندي بما يشبه المعادلة. واذا نسيت كل تلك اللقطات فلن انسى لقطة «العشق» بكل ما في كلمة «العشق» من معنى، لدى الشباب المراهق، ولكنه هذه المرة كان من صبي في السابعة من عمره.

وأشد ما يتعبني الآن اني أطيل وأناور قبل ان ادخل هذه الفترة. ولدت ونشأت في بيت ديني، عربي، متوسط وعريق كذلك، يجاور المرقد العلوي، مكون من بضع غرف تحيط بساحة يتوزع منها الضوء والهواء. ويتوسط الباحة حوض ماء نغسل فيه وجوهنا، ونتطهر فيه، ونغسل ملابسنا. وقبل ان نعرف أو نسمع بأسم (المكروب)، وحتى بعد ان سمعناه وعرفناه، كنا نتجاهله. لقد ارتبطت بهذا الحوض، بل بهذا البيت كله اللقطات التي ليس بالسهل تجاوزها. فمنها ما نجوت به من ميتة أولى، وذلك عندما أفلت وأنا في الثانية أو الثالثة من عمري من يدي والدتي في هذا الحوض، وأنقذت من الغرق بأعجوبة، وميتة ثانية ـ حتى لكأنني اعددت لاموت وأحيا مائة مرة ومرة ـ، وذلك عندما سقطت من مدرج عال وضعتني عليه والدتي وأنا في الثانية من عمري. فكان فيّ ما أنا عليه حتى الآن في شيخوختي من قلق وتحرك بل وتمرد أيضاً. فسقطت وكسرت يدي اليمنى وجبرت بما يشبه الغلط، فأعيد جبرها مرة أخرى. وثمة إلى الآن شيء من هذا الكسر باق عليها، حتى لقد ظل لاحقاً بي لقب «الأعضب» حقبة طويلة من حقب فتوتي وصباي. ولقد كان الفتيان من عمال البناء في دارنا هذه يتلقونني وأنا، فيما بين الثالثة والرابعة بأغنية مشفوعة بالتصفيق، أول ما فيها «مهدي عنيبي» مبدلين الضاد بالنون لبقايا خنة في لساني، ما يزال حتى الآن أثرها باقياً عندي، أي انهم كانوا يقصدون «مهدي عضيبي، يفور فورة ويستوي». وإلى يومي هذا وأنا ذلك الرجل «عضيبي وافور الفورة الساخنة الثائرة، ثم سرعان ما استوي واعود إلى طبيعتي»، لكأن هذه الاهزوجة المرسلة عفو الخاطر، هي حتمي وخاتمي.

في هذا البيت تعلمت لأول مرة كيف يكون «الاعتداء». فقد كان عمال البناء هؤلاء يطلون الحوض بالقار، وعمل لي احدهم، والغريب انه في معرض الدلال والتلطيف، «مقواراً صغيراً» (وهي كلمة دارجة قريبة من الفصحى) وحملته وأنا خارج بصحبة والدتي، واعتملت في داخلي الرغبة في تجربة هذا «المقوار» على رأس احدهم. وصادف ان رأيت ابن عمي (حسين)، وكان عمره آنذاك حوالي العشرين، جالساً في الزقاق. لقد اغراني

رأسه الحليق فجربت الآلة الجارحة به، واحتميت من غضبته بعباءة أمي. والحقيقة ان هذا النموذج من التجربة الأولى لما يهدى إلى طفل وديع، بريء، جزء لا يتجزأ مما كان يهديه ذلك الوسط ولا ينسى المرء - انني اتحدث عما يشبه القرن الكامل بل حتى وعما قبله - فيما يتعامل به لا مع الاطفال البريئين، حسب، بل مع بعضهم البعض، ان لم يكن «بالمقوار» فـ «بالحراب» وإلا فـ «بمشاكسات شتى» لقد كان العالم الثاني، كما تقسم العوالم اليوم، فضلاً عن العالم الأول الحضاري، يهدي إلى الطفل وردة ليشمها، أو بدلة جديدة ليتباهى بها، أو لعبة من الالعاب الحلوة ليسد بها الفراغ. أما ان يهدي عصا مقيرة، كما هو الأمر في ذلك العالم المسمى حتى اليوم بالثالث (وتوقفت طويلاً عما اذا كان هناك العالم الرابع، لو لم يسبقني اليه البابا يوحنا بولص الثاني قبل أيام وأنا أدون هذه السطور وفي عيد الفصح، طالباً المغفرة لكل من في الأرض)، فانه لابد ان يجربها برأس أي كان، حتى لكأن الرأس خلق للمقوار، وهذا ما كان.

وتعودت السرقة، بفارق واحد، هو ان قصة «المقوار» الصغير، كان تعلماً ولتجربة واحدة، أما حديث السرقة فقد كانت تعوداً وليس مجرد تجربة.

وبعد، فلا أدري، وأنا احاول قدر ما استطيع، وقدر ما يستطيعه المجتمع، ان أكون (الرجل، حتى في مباذله)، مما تعاطيته من هواية «السرقة» وأنا في طفولتي وبعد ذلك فلفترات معدودة.

لا أدري وأنا ادون ذكرياتي، هل اسميه صراعاً بين الطبيعة والتطبيع، أم ان ذلك كله قاسم مشترك - كما يقولون - بينهما وبين ما خلق للمرء المسؤول عن تصرفاته في ان يكونه. وأياً كان الحال، فلن يخفف - إلا بقليل - ان تكون هذه السرقة من أهل بيتي نفسه لا غيره، وبكل ما في كلمة (لا غير) من معنى، واحياناً فمن اقواتهم ومن مسيس الحاجة اليه أيضاً.

وللسرقة من أهل بيتي حديث، سأحاول ايجازه، ولن تقلّل طرافته من هجانته.

فقد كانت أول تجربة فاشلة، عندما خطر لي ببال، وكل من معي من أهل بيتي نيام، في اعمق الدهاليز الباردة، وفي جمرة القيظ المرعبة، ان

نصعد أنا وأخي الاصغر إلى حيث يكون الصندوق الذي يحفظ به انفس ما عند والديّ، ومنها ساعتان ذهبيتان، لنسرقهما ـ لماذا؟ لا أدري.

سرقنا الساعتين، لأجل ان يحتفظ كل منا بواحدة منهما، لا لأجل ان نبيعهما، ولا لأجل ان نرهنهما.

لم تكن هناك واحدة من ذلك كله، وكل ما كان ان نحملهما ونحن نقطع الرملة الحارقة فيما بين النجف والكوفة كسارقين يدركان فعلتهما وان يدركنا العطش المميت لولا ان يتعرف علينا من ركاب (الترامواي) أحد الملتصقين بوالدي، ليتوسط لدى سائق «الترامواي» في ايقافه ثم ان يصعد بنا اليه، وليقطر سائقه في فمينا ما كان عنده من وعاء ماء، ثم لنعود، ونرجع الساعتين إلى محلهما، واهلنا ما يزالون يغطون في نومهم.

بعد هذه التجربة الأولى، يستمر أخي الاصغر، فيما يحلو له من اصناف السرقات لأجل السرقات، وليس لأي غرض آخر حتى يصل الأمر إلى سرقة «عنزة» بعرضها وطولها، من الجيران ليربطها في الممر الضيق للداخل والخارج إلى الدار. ثم ان يعود اصحابها ليأخذوها وقد علفت بأطيب مما كانوا يعلفونها.

أما أنا فقد استقللت بدوري من هذه الهواية، وفي هذه المرة فمن أهل بيتي، وبشيء زهيد ـ باديء ذي بدء ـ من زهادة ما اكلف به من التسوق لضرورات الحياة اليومية، وعلى نمط فريد من نوعه، فشيء من الصنف وشيء من الوزن وشيء من الثمن! ليتجمع لي من ذلك، ما يسمى اليوم (بمصروف الجيب). فربع من كيلو الرز، على سبيل المثال، وصنف اقل جودة وارخص ثمناً ودرهماً من خمسة دراهم للمجموع، ثم ليتصاعد بعد ذلك ولمرة واحدة إلى الليرات الذهبية من سلة الذهب التي حملتني اياها «الملّه وحيدة» لترهنها والدتي (مما سيرد ذكره في هذه الذكريات).

وبعد هذا وبعد ان اصبحت شيئاً مذكوراً بل وشهيراً ومحفوفاً بألف «صديق وصديق!!» فقد تناقص العد التنازلي، أي ما لا يزيد على عشرين فلساً وفي هذه المرة فمن الجيران وذلك عندما سرقت ـ وكان هذا في اوائل الخمسينات ـ وكل من معي نيام بدون عشاء، عندما سرقت «رقية» من بائع

«الرقي» ـ أي البطيخ الرقي نسبة إلى الرقة ـ وما يسمى في سوريا بالبطيخ الاحمر، وهو في غفوة بعد منتصف الليل، لاجيء بها اليهم مفززاً اياهم، من نومهم، غطاء مزعوماً على انهم لن يناموا بدون أكل، وبعبارة أمر واوجع فلكي ازيدهم جوعاً، فالرقي كما يعرفه الجميع هاضم للأكل.

وفي اليوم التالي عدت اليه معتذراً ودافعاً الثمن.

وكان ذلك مني بعد ان ظللت اتلوذ على فرن (الخباز) المجاور لنا، بلهفة انفضاض من حوله، للتجرؤ على استدانة رغيفين أو ثلاثة، ولم يسعفني الحظ.

ومهما كان من الأمر، فقد ارتبط هذا البيت بوجداني وبكل حياتي اللاحقة. واكاد أرى كل زاوية من زواياه، ومسقط الشمس والظل فيه، بل اكاد أشم رائحة طابوقه الساخن عندما يرش بالماء بعد الظهيرة الحارة، وان أرى والدتي وعمتي «سعودة» ومربيتنا السوداء «تفاحة»، وهن يتحركن داخل باحة البيت، بتلك الألفة وبذلك الأحساس العميق بالانتماء إلى المكان ومع ارتباطي العميق بكل زاوية من ذلك البيت الذي اودعته أعمق ذكرياتي يحز في نفسي، ان ارباب الحكم في الستينات، لم يتركوا حجراً واحداً يدل على هذا البيت الذي يحمل اسم من ينتمي اليه، عندما هدموه، في جملة ما هدموه من بيوت النجف، وأقاموا مكانه عمارات لا هوية لها.

هدموا البيت ولكنهم لم يهدموه من ذاكرة مدينة برمتها، ومن ذاكرتي بنحو خاص، وهذه الذاكرة قوة عجيبة، قد يحسدني الناس على قدرتها في حفظ دقائق الأمور، غير اني أحسد ذوي الحافظة الضعيفة. فالذاكرة الحادة، القوية، الدقيقة، لا تحمل لى سعادة الذكرى الزاهية، بل اضغاث الاحلام السيئة والكوابيس التي عشت ورأيت، واكتويت فيها باكثر من ذكرى واحدة.

وفي معرض قوة الذاكرة هذه وهي وحدها تقص رحلة هذا العمر المديد الغريب، كان لي حديث من حق المرء ان يدهش منه، بل حتى ان لا يصدقه. فلقد كادت والدتي نفسها لا تصدقه، فضلاً عن ان تدهش منه. لا أدري ما الذي احضر هذه الذكرى إلي، عندما قلت لها، قبيل ان افارقها الفراق الأخير (اوائل العام الأول بعد الستين، أي السنة التي كتب علينا ان

نتشرد فيها من جديد). . . اصحيح ياأمي ما اتذكره من ان جدي «عبد العلي» توفي في تلك الغرفة الصغيرة على يمين الداخل إلى بيتنا. قالت وبدأت الدهشة تدب اليها. . . «أجل ياولدي» قلت. . . والفراش الممدود على الأرض بوسائده البيضاء الذي يواجه باب الغرفة قالت. . . «أجل»، قلت. . «والرجل الاسمر الاقرب إلى السواد الذي يعاطي» القهوة «للعوّاد». وهنا تجاوزت الدهشة عندها إلى لطم خديها، لطمة خفيفة بيديها لتقول لي. . . «والله والله يامهدي لقد كنت رضيعاً على صدري».

كان والدي شيخاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وعلى خلاف من ابيه ـ عبد العلي ـ، درس على ايدي افاضل علماء عصره، واخترق أعلى الحلقات في الاصول والفقه، حتى حقق مكانة مرموقة. وليس هناك من أرخ للنجف وبيوتها في هذا القرن العشرين من لم يأت على ذكره.

كان في الثالثة والعشرين من عمره حين قال فيه، الشاعر الشهير السيد «حيدر الحلي»:

فات الشيوخ يافعا وسادها	نذْبٌ ثنت له العلى وسادها
ما أظلمَتْ في الدينِ من مُعْضلةٍ	إلا جلا بفكره سوادَها
سينتضي دين الهدى من فكره	صوارماً ما سكنت اغمادَها

أما الشاعر الحلي الكبير الثاني، والمحلق على وجه التقريب بعد السيد «حيدر»، وهو «جعفر الحلي» صاحب الديوان الشهير، فقد هنأ والدي بولادة أخي الأكبر «عبد العزيز» ببيتين من الشعر:

بشراكمُ هذا غلامٌ لكم	مثل الذي بُشّرَ فيه (العزيز)
سمعا أباهُ ان تأريخهُ	أعقبت يا بشراك «عبد العزيز»

وفي هذا البيت، ومن جملة اعقبت يابشراك إلى آخره، يكون تاريخ

الـولادة بما كان متعارفاً عليه، بما يسمونه حساب (الجُمّلْ) أي ان تجمع الحروف من ألفها إلى يائها، ليكن المعدل منها تاريخ هذه الولادة أو تلك، وهـذا العرس وهذه الوفاة أو الأخرى، ولا تقل والدتي «فاطمة بنت الشيخ شريف» عن والدي في التعبّد والايمان. ورغم انها ربة بيت، إلا انها تعلمت القراءة وقليلاً من الكتابة وشيئاً من التذوق في مجال الشعر والأدب. وعنها ورثت ذلك، بل وزادت عليه، شقيقتي الوحيدة (نبيهة). ورغم تعبد والديّ، وايمـانهما النظيف، إلا انهما لم ينجيا من عقابيل العوائل النجفية العريقة كلها، وهو حب التنافس ـ وهذه المرة وفيما يخص والدي بالذات، وبحق، على زعامة الأسرة الجواهرية.

لقد نشأت ووجدت أمامي عقدة تحكم البيت، هي احساس والدي بالضيم الشديد من ان لا يكون الزعيم، بجدارة، للأسرة الجواهرية. ولكن والدي، وأنا اعتذر له واعاتبه، يبدو انه لم يفهم الواقع المرّ الذي آلت اليه زعـامات العوائل النجفية، بل وكل بيوتات العراق وما شابهها، فقد اصبح المال والاملاك المتوارثة والقدرة على التحايل وعلى اعطاء الأبهات حقها من المظاهر، فضلاً عما يمتاز به الواحد عن الآخر من الدهاء في ذلك، أساس الزعامات الأولى، وهذا ما لم يكن والدي قد خلق له، فالحقيقة ان الذين خلقـوا لذلـك كله هم القادرون ـ على سبيل المثال ـ ان يتوارثوا عمن قبلهم من عنعنات وفخفخات لا يعلم أحد كيف تلتقي بحقيقة الدين وجوهره، وان كان كل أحد يعلم بمظاهره وملامحه. وإلى جانب ذلك فهم القادرون على ان يسجلوا كل الاوقاف المسجلة هي بدورها للعشيرة إلى املاك خاصة بهم.

انهم القادرون على ان تعدّ لهم الموائد الفخمة والمطابخ الشهية وان يشم عطرهـا ونفحتهـا الجائعون حولهم، بل والجدار على الجدار منهم، فيزدادون بذلك جوعاً وألماً، وان يشتروا من خدمهم عشاء لياليهم.

وبسبب من هذا كله، فالدواوين العامرة ليستقبلوا ويودعوا فيها القادم والذاهب من شخصيات وشخصيات، وليضيفوا وجاهات إلى وجاهات، لم يكن والدي، الذكي جداً البسيط مع ذلك كله جداً، قادراً ان يعي كل هذا، كان يتخيل الزعامة مجرد استحقاق ومجرد كفاءة، ومجرد صدق في الامانة

وفي التعامل، فضلاً عن الصدق المصدق في الايمان والتعبد وفي التعفف. ولأستدرك القول فحتى لو كان واعياً كل هذا، وهو الشيء المفترض في ما عرفته وفي ما عرفه الناس به، من حدة في الذكاء وشدة في المراس، ومرارة في التجاريب التي عاشها والتي عاشها الآخرون معه ومن اشباهه ونظائره، فهل كان يقدر ان يكون خلقاً جديداً ومن ذلك القبيل؟ ومن هذا النمط نفسه؟ الجواب هو الحقيقة نفسها، لا. . . .

كان والـدي يراقب ذلك، هو ووالدتي بشيء من الضيم والاحساس الممض بالفقر الذي كما قلت، يكاد ان يكون كفراً. واقلب الحكمة لاقول، «ان الكفر يكاد ان يكون فقراً». ولكي ازيد بالتحدث عن الجهد الذي بذله لكي يلقي الستار الكثيف على فقره، فقد كان يغطي على نفسه فوق حدود الاحتمال.

ورغم ضنك حياتنا، فقد أصرّ والدي، وكأنه بذلك يحاول القاء استار على تلك الهوة العميقة، على ان تكون في بيتنا، بمثل من هم في مكانته، زنجية سوداء، سميت من باب التلطيف، والتعطف «تفاحة». ويعز عليّ، وأنا اتذكرها، ان اسميها «خادمة». فقد كانت لي أماً مثل والدتي وربما أكثر. كانت تتلقاني في احضانها بمثل ما تلقت به قبلي أخي الأكبر «عبد العزيز»، حتى أخي الأصغر الشهيد جعفر ومن بينهما. وكان ينافسني على حنانها هرٌّ اسـود مثلها، تحنو عليه بشكل غريب، حتى لكأنها، تعوض من خلاله ما عسى ان يكون قد اغتصب منها بمثل ما اغتصبت هي منه، من ولد أو بنت أو أم أو أسرة برمتها.

لقد رأيت وعرفت، كما رأى وعرف كل الناس في هذه الكرة الجوفاء من الأرض ما تتسم به الكلاب، هذه الحيوانات الجميلة، الوفية والامينة، من إلتصـاق بمن يقتنيهـا، ولكنني، ولأول مرة في حياتي، أرى هذا الهر الاسود وهو يؤدي وظيفة ذلك الحيوان، فما كانت «تفاحة» لتخطو خطوة واحدة أو مسافة واحدة وهي في طريقها إلى السوق أو إلى هذا البيت أو ذاك، إلا وهـذا الحيوان الجميل ينتفض على طبيعتـه المتمـردة «المعتـزّة»، ليصبح الاليف، الامين، الـوفي لها.

لقد وصل التكابر على ساعات الفقر (وهي الاطول والأشد) حد الافراط، أما في ساعات اليسر فالى حد التفريط وهذا ما أنا عليه وعلى (سرّ ابي) حتى الآن كان باستطاعة والدي، بكل سهولة وبساطة، زحزحة غيمة الفقر السوداء المخيمة على البيت، وذلك بأن يفعل ما يفعله الكثير من شيوخ ومعممي البيوت الكريمة، الذين يقومون في مواسم معينة بزيارات إلى معارفهم واقاربهم من القبائل البدوية وشيوخ العشائر في مناطق الفرات المتصلة بالنجف حتى البصرة وما جاورها من اطراف الحويزة والمحمرة.

ويعودون من رحلاتهم هذه وقد اشبعت ايديهم بقبلات التبرك وجيوبهم بمال يكفيهم لعام أو أكثر من الحياة الكريمة. كان والدي، رغم فقر حاله، وحاجتنا الماسة، يمتنع عن مثل ذلك، حتى لو كانت مسافة السفر ساعة فقط، كما هو الحال بين النجف والحلة، حيث كان فيها اخواله اللح، لأن والدته، أي جدتي، «صيته» هي حفيدة شيخ مشايخ زبيد

ان عزّة النفس والمكابرة اللتين تجاوزتا الحدود، كانتا تمنعانه عما يجب ان يكون. وللاقدار حساباتها ومعادلاتها. ومن باب المعادلات هذه ان يكون هناك نموذج شهم، كريم، لم اعرف، وربما لا يعرف كل من في النجف، نموذجاً بديلاً عنه، هو الفقيه والمتعبد، والزميل الوفي لوالدي من بين كل زملائه ومعارفه واقاربه الشيخ «جعفر البديري» الرمز المتدين الوحيد لعشيرة «آل بدير» المعروفة في الفرات، كان هذا الوجه الفريد من نوعه ينير ظلمة البيت بين الفترة والفترة، ليزوره ويشرب القهوة ثم يمد تحت الغطاء، وفي غفلة من والدي احياناً، مبلغاً غير قليل من المال يساعدنا على تدبير حياتنا بشكل يليق بنا. وقد واصل الشيخ «البديري» هذا الكرم حتى ما بعد وفاة والدي بقليل، وكنت السبب في انقطاعه عنا فيما بعد.

وأوجز ذلك بجملة واحدة وهي عدم اخذي بنصيحة الشيخ في ان أكف عن اكون من ابناء العصر الجديد، أي ان أكون شيئاً مستحيلاً. ومع الاسف، ومع تمردي على نصيحته، فانني لا أجد هذا كله مبرراً له في ان يحرم العائلة من لطفه المعهود.

وكان والدي يبدد ما يتوفر لدينا من مال، بالتفريط كما قلت، حيث وصل الأمر بنا ان نبيع اثاث بيتنا تباعاً: السجاد، الثريا، الاسرجة. وبقينا على الحصيرة، كما كنا قبل ذلك.

وفي بعض من هذا المجلس أو ذاك من المجالس التي يأخذني اليها والدي، كنت أجد من يسألني بهمس، أو في غفلة عنه:

ـ ماذا تغديتم؟

فأجيبه بتلقائية طفل:

ـ جبن وكراث.

ويضحكون وأنا غير دار ان سبب الضحك هو ان والدي سبق ان اخبرهم، عن طريق حفظ الكرامة والترفع، اننا تغدينا اصنافاً شتى من الطعام. هذه بعض مفارقات تلك المكابرة العنيدة التي تعتبر الفقر عورة يجب ان تستر عن عيون الآخرين. وهي ضريبة لابد منها في البيئة النجفية والعوائل العريقة.

صَـبيّ في عـَالم الكبــار

اني أعيش مرارة تلك الأيام حتى الآن، لأني دفعت طفولتي ثمناً لها. وكانت السبب في كل هفواتي وسقطاتي اللاحقة بدافع طموحات لم اخلق لها. دفعت الثمن غالياً ايضاً عن عقدة جديدة عليّ، لصقت بي قبل الأوان بكثير. فقد شاء والدي ولسوء الحظ، ان يدفعني دفعاً إلى عالم الكبار ووجاهتهم المتزمتة مختزلاً طفولتي فوق ما تتحمل، بل لاغياً لها احياناً. والأشد مرارة هو انه فعل ذلك بدافع الحب... ومن فرط هذا الحب تحتم عليّ ان انام إلى جانبه كلما أخذ قيلولته. وقد استمر هذا الحال حتى قبل وفاته المفاجئة، بل والاسطورية، بيوم واحد.

دفعت من طفولتي ثمن هذا الحب. اذ تناوب عليّ وأنا الطفل الغض كثرة متخالطة من المعلمين، لقنوني ما يصعب على الكبار تعلمه... فقبل الخامسة، علمني شقيقي (عبد العزيز)، وابن عمتي (علي الشرقي)، القراءة والكتابة. وتعلمت أوائل سور القرآن، عند (ملّه أم جاسم)، وهي سيدة فاضلة من عائلة (آل محيي الدين)، تسكن بيتاً متواضعاً في دريبة ضيقة، اقامت فيه صفاً لتعليم القرآن. وهنالك تعلمت مع أقراني «جزء عمّ» ونحن نتهجاه بصوت عال.

وفي هذا البيت تعرفت على اصغر رجل دين في العالم كله، وهو ابن الملّه، بدا لي فيما بعد انه النموذج الأول الذي سبقني فيما كتب عليّ من طفرات في المراحل الأولى من حياتي، لقد وضعوا العمامة على رأسه، واصبح «شيخاً» قبل ان يتجاوز العاشرة. وقد احتار جاسم في بداية الأمر بين الهيبة التي تتطلبها عمامة فرضوها عليه فرضاً، وبين طفولته.

كان منظره يثير فينا السخرية فنناكده ـ «شيخنا جاسم، ياشيخنا!» ولم يكن جاسم نفسه يصدق عمامته هذه ولا مشيخته، ولذلك فقد غلبه الطفل الكامن فيه. وبدأ يلعب معنا لعبة الحج إلى الكعبة، وذلك بأن يصف مقاعد الدرس وما كنا نسميه (بالرّحلة)، وهي تأنيث الرحل، على شكل ركب من ركاب الجمال، يصبح هو قائده ونحن من اتباعه، وفي هذه الرحلة على مسافة سطح صغير كنا نصل إلى البيت الحرام، ونحج في رحاب خيال طليق. كنت كثيراً ما أناكد هذا الشيخ الصغير، وما دريت أني سأكون مثله بعد سنوات قلائل.

وبعد (الملّه أم جاسم) انتقلت، وأنا بين السادسة والسابعة من عمري، إلى مرحلة أكثر جدية، والأصح أكثر جهامة، وقساوة في التعلم، فقد قدر والدي سوء خطي وحاجتي لمزيد من القراءة، فأخذني إلى سيد مشهور في المدينة، لقب نفسه، بـ(جناب عالي) وأقام كَتّابه في الطابق الثاني من أحد لواوين الصحن العلوي. والسبب الاساسي في علو هذا الجناب المزعوم هو قسوته على الاطفال. ولهذا فقد كان الآباء يرسلون اولادهم اليه ولامثاله منهم وبخاصة منافسه الشيخ (محمود) ويتفقون معهم:

ـ لك اللحم ولنا العظم والجلد.

وبناء على هذا الاتفاق مع الأهل، سيبالغ الشيخ في عقاب الاطفال، لسبب أو بدونه، ليكون الجلد جلداً وليس العظم احياناً، المهم هو ان يفرض بالتخويف، سطوته على الاطفال.

ومازلت اتذكر ذلك السلم اللولبي الضيق المؤدي اليه، والذي طالما سبب لي الصفرة أو الدوار.

وفي واحدة منها كنت ملقى وأنا فاقد الوعي من هذا الدوار بين يدي سيد العائلة «الرفيعية» وبالنسبة الاصح (فالرفاعية) «السيد جواد» سادن الروضة الحيدرية آنذاك، حيث كان السلم اللولبي ينتهي بالايوان المخصص له. ووعيت على نفسي بعد ان كان مَنْ عنده قد عرفني بحكم الملازمة المألوفة مع وُالدي وبعد ان اخذوا يرشون الماء البارد على وجهي.

وعن هذا (الجنـاب العـالي) كانت الـواقعة الفريدة التي أشار اليها الدكتور (علي جواد الطاهر) في مقدمته لطبعة (بغداد) من ديواني، هي انني ذات يوم، وقد ابتدأ هذا (الجناب العالي!) بسبب أو بدون سبب، يجرب عُصيهُ الغلاظ في ضرب كل من يقع تحت يده من الطلاب. وعندما كان وهو يكاد يقترب مني لكي آخذ حصتي من ذلك، لا أدري كيف برقت اللمحة الخـاطفة وهي ان اقفز قفزة لا تصدق، لكي أكون في وسط كوز ماء كبير ناشف، فلقد اصبحت في نجوة منه، ذلك لأن كسر هذا الكوز كان أعز عليه بكثير من جَلْدي بل ومن حياتي أيضاً.

لم اتعلم عند هذا «الجناب العالي» أكثر من علم «التخويف والقلق» وعلم «الاشباح». كنت قد حفظت الكثير من سور القرآن قبل ذلك، فالبيت الذي درجت عليه يشهد في كل يوم من ايامه، آيةً تتلى وسورةً من سور القرآن تعاد. وحتى يومي هذا وأنا اتسابق مع بعض المتعبدين في هذه الآية والأخرى من سور القرآن الكريم، ومن خطب نهج البلاغة، ادخرت وما ازال افتخر بذلك، نفائس لم التقط مثلها في كل ما تنزل به الالهام والايحاء على الشعراء والبلغاء، وبقي خطي رديئاً كما كان من قبل، وكما هو الآن. وعلى سبيل المثـال، بل ومن باب «الـطرفـة»، فقد كتبت وأنا في بداية الثلاثينات من عمري، رسالة إلى عمي الشيخ جواد، في النجف فكان الرد منه على هذه الرسالة قوله بالحرف الواحد «ياولدي اذا كتبت رسالة مثل هذه بعد اليوم، فأرجوك ان تجيء معها اليّ»!!

كانت الـــدراسـة طوال هذه المـدة عبئـاً ثقيلاً، ولم أكن في حياتي الدراسية عند الملّه أو الشيخ، أو حتى في «المدرسة العَلَوية» بل حتى في ما يسمى حينئذ بالثانوية في المدرسة العثمانيةوالتي كانت تدرس بالتركية، وفي ما يقرب من نهاية هذه اللغة ومدارسها، طالباً مجدّاً، بل ان خيالي الصغير كان يشرد دائماً خارج (هذه الدائرة وهذا المحيط) حتى عندما كنت أردد مع المرددين آية من الآيات أو جملة من الجمل.

وقـد تحملت الكثير من العقوبات بسبب هذا الشرود أو التهرب من فريضة الدراسةالثقيلة.

لقد اضطر (جناب عالي) في نهاية الأمر ان يقدم لوالدي ورقة، وكأنه يحاول بذلك ان يعلمني كيف يكون الكذب. عن خط «جميل منسوخ» كان يعطيني اياه لأنسخ عليه، ليريه كيف ان خطي تحسن، وليتلقى منه هدية على الكذب والكاذبين والمكذوب عليهم. وبذلك فلم أتم من دراستي في المدرسة العَلَوية «الابتدائية» إلا عاماً ونيفاً.

وإلى جانب هذه الاجواء كلها فقد دخلت بعد ذلك المرحلة الاصعب، وفي الحقيقة فالانفع، هي الأكثر التصاقاً بما وجدت وخلقت له فقد تحتم عليّ ان احفظ عصر كل يوم خطبة من «نهج البلاغة» أو قطعة من «آمالي أبي علي القالي» وقصيدة أو قطعة من ديوان المتنبي، ومادة من الجغرافيا. وفي الوقت نفسه، وفي صباح اليوم التالي، كان ينبغي ان ادرس النحو والصرف على يد الاديب، الطيب الذكر «محمد علي المظفر»، وهو من عائلة معروفة في العلم. وقد فوجيء بما لم يفاجأ به أحد قبله، وهو مدى قدرتي، التي تتجاوز الحدود، في الحفظ والحافظة، وكأنني بذلك اردت ان اختزل الزمن، أي ان اتم دراسة «الاجرومية» مثلاً، وهي أول ما يجب دراسته من كتب النحو على المبتدئين به، ثم كتاب «القَطر» لابن هشام، ثم الفية ابن مالك، وهي التي يتكلف بها اصعب تكليف في ان يجيء على كل قواعد النحو والصرف شعراً بألف بيت، لأتم كل ذلك بتفهم، وان بقليل منه، بشهرين أو ثلاثة مثلاً، بدلاً عمن يتممها بسنة أو سنتين بكل وعي وادراك وبحفظ وحافظة طبيعيتين.

وبعد النحو الصرف درست علم البلاغة والبيان على يد شيخين مقتدرين هما «علي ثامر ومهديِ الظالمي».

وطوال مراحل الدراسة هذه كنت اقضي النهار، بكامله، احفظ واحفظ وأنا استمع بغيظ وألم لصوت أترابي يلعبون في الشارع، ومع ذلك كنت اواصل الحفظ بانتظار ساعة الامتحان الرهيبة، التي قال عنها نابليون بحق: «خضت جميع الحروب فوجدت الامتحان اصعبها» فكيف اذا كان الممتحن والدي الغضوب!؟

كنت اجتاز الامتحانات وتُختصر عليّ مراحل الدراسة اختصاراً. ومع

كل امتحـان تطوى مرحلة من مراحل طفولتي المتضاربة، وأدُفع إلى عهد الرجولة دفعاً عجولاً، وكان في المقدمة من ذلك ما يكلف به رأس من يحمل طاقية الصوف أو القطن المعروف بـ «العرقجين» ـ وهي كلمة فارسية دارجة في العراق ـ.

وقبل ان اعتاد هذه الطاقية واتكيف معها كانوا يرفعونها، ليضعوا في مكانها كوفية وعقالاً، على أمل ان أدفع نحو الشباب الجميل الانيق المدلل، ولكن قبـل ان يأخـذ العقال مكانه جيداً فوق رأسي المكوّر، كانوا يرفعونه ليضعـوا العمـامـة، حيث وجدت نفسي مدفوعاً إلى عالم «الشيوخ» حتى لكأنني اصبحت «ابن جلا، وطلاع الثنايا».

كانت سنـوات حياتي، خلال ذلـك، تختصـر قسراً إلى شهور، بل اسابيع، وقد حملت إلى سنوات حياتي اللاحقة، تبعات كل تلك الفترة التي سرقت مني، حَمّلتها بكل تناقضاتها، ومباذلها، وعقدها، ومفارقاتها، حيث انعكست على حياتي وشعـري، بل وعلى تعـاملي مع النـاس ومن معي.

دائماً، كان هذا الطفل الذي انتزعت منه طفولته يخرج من جديد بشكل ما، مشاكساً عنيداً غافلاً متغفلاً، متناقضاً، مبلبلاً، وبقي هذا الأمر حتى مراحل متقدمة من حياتي ـ كما سيأتي الحديث ـ وكان الطفل يفلت حالماً ينتهي من امتحاناته اليومية الرهيبة، ليخرج وقد اطلق سراحه إلى الزقاق في وقت متأخر من النهار يكون فيه كل الاطفال قد شبعوا لعباً وعادوا، أو اوشكوا ان يعودوا إلى بيوتهم. فاهرع لاتسابق مع هذا أو ذاك من اترابي ممن يكون قد تبقى منهم، وكـأنني بذلـك كمن يتنشق بكـل ما يقع بين يديه وفي أي جو من الاجـواء، نسيم حريتـه وطفولته، لا يدري ماذا يفعل وكيف يصرف الطاقة المكبـوتـة فيه. وكان مما ينغص على هذه الطفولة الحبيسة المكبوتة وهي تنطلق من عنانها كما تتصور، ضيق الوقت ورهبة القلق، وحسبان الدقائق ريثما تعود لتُجَرْ، من جديد إلى مجالس الشيوخ، فهي تبعاً لذلك كله كانت تختار أكثر الالعاب عنفاً واسرعها حركة، واضيقها مسافة. ولذلك وجدتني شئت أم أبيت، قبل دقائق معدودات مع «القالي» ومع «المتنبي»، وأكثر من

هذا وذاك فمع الأمام علي بن ابي طالب، لأكون بعد دقائق، مشارك المشاكسين وشبه السائبين لعبة الحراب الخطيرة. ففي هذه اللعبة تجتمع روح المنافسة والمغامرة والبراعة معاً بل والمبغضة أيضاً. وبعد هذا كله وبكل مفارقة بل ومناقضة يجيء العبء الاثقل، عليّ وهو تقحم المجالس الفقهية تلك التي كنت مجبراً على حضورها بصحبة والدي. ولكم ان تتصوروا، طفلاً بين الثامنة والتاسعة ملزماً، وان برغم انفه، ان يحضر كل يوم تقريباً مجلساً أو أكثر، مكتظاً بعمائم سود وبيض، ولحى طويلة، بعضها غزاه الشيب ووصل اعلى الصدر، يدور بينهم جدل لا أول له ولا آخر حول أمور لا يفهم هذا الطفل منها شيئاً، عن الوضوء، والتيمم، عن عقود الزواج والطلاق أو مدى ما ينزح من البئر تطهيراً له من سقوط عصفور فيه، أو مدى ما يكون من ذلك عند سقوط حيوان مثلاً، وما يستحق من الخمس والزكاة ويطول الجدال إلى ما بعد منتصف الليل، والطفل وسط هذا المجلس الجهم مركون لحاله، لا يهتم به أحد ولا هو مهتم بأحد، فلدى هذه اللحى، ما طاب منها وما لم يطب، الكثير من المعضلات (غير الفقهية) التي تشغلهم عنه.

كنت اضيق واوشك ان اصرخ، ثم ازجر نفسي، بدافع وحيد هو رهبة والدي بذاته، وليس بدافع رهبة كل من هناك. حتى اذا ما انفض المجلس بعد منتصف الليل، ايقظني والدي من نومتي القلقة، واخذني وكأنه يسحل بي سحلاً وأنا اجرر خطاي خلفه إلى البيت.

لقد كان والدي غضوباً حاداً في طباعه، ولكن حدته معي تزداد باطراد حبه لي ورهافته على نباهتي. فأنا الوحيد بين اخوتي المطالب بأن لا أقصر ابداً في التحضير والحفظ... واذا ما ارتكبت يوماً «جريمة» كهذه فالويل لي من غضبته وعقابه. ويكفيني خوفاً ورعباً ان تحمر عيناه غضباً. وقد تعدى الأمر ذلك إلى نوع آخر أشهده لأول مرة وأنا في العقد الأول من عمري، واتعرف عليه بعد ذلك وأنا في مرحلة الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة، وبفارق بعيد جداً، وهو ما يسمى حتى هذا اليوم من هذه الذكريات بـ «الفلقة». فقد كان ذلك من والدي بما يشبه التخويف، وفيما بعد ذلك

فبنوع من انواع التعذيب الرهيبة للمسيطرين والحاكمين، والذي يصل في احيان كثيرة إلى فقدان هذا الشاب أو ذاك من المكافحين قدميه حتى «العرج».

كانت تلك فلقتي الأولى والأخيرة على يدي والـدي، عندما غضب عليّ ذات يوم فخرجت من البيت هارباً، فلم يكن منه، وهو بمكانته الرفيعة، وقامته المديدة، وشخصه وشخصيته المعروفتين، إلا ان يكون مطارداً لي وإلا ان يخسر الرهان في هذه المطاردة لخفة حركتي ونشاط قدمي، فيناشدني بضراعة ان اقف وان استسلم. وبالطبع فقد نزلت على حكمه، واستسلمت لأعود إلى البيت ولأجدني مشدوداً إلى خشبة من خشباته، وفي المعمعان من هذه الـرهبة وجدت الشفاعة المنزلة عليّ بما توسطت به والدتي فيما بيني وبينه، ولا اتذكر جيداً هل كانت هناك ضربة أم ضربتان أم لا.

ومهما كان من أمر ذلك، فقد حزنت والدتي كثيراً، وهي الشاهد العدل الأول على كل هذه الاجواء المتضاربة، المفروضة عليّ فرضاً، وعلى كل الاهواء المقلقة، بل المخيفة، التي كانت تتجاوز كل ذلك لتصبح كوابيس موحشـة، طالمـا فزت عليها من حلاوة النوم، بما يشبه الصراخ. فراحت تعالجني بالتعاويذ والادعية والحروز والرقى، وقد اقلقها حال الطفل هذا، وهي لم تعـرف بعد مدى ضغوط الشارع والبيئة والمجتمع عليّ، فحذرت الوالد من مغبة ضغطه على مزاج الطفل، ولكن قرار الوالد لا يرد. فقد اختار لي طريقاً لا يحيد عنه، هو ان يجعل مني، إلى جانب ذلك كله، فقيهاً نابهاً يعيد المجد الغابر لـ «صاحب الجواهر».

شوق إلى الحرية

وفيما كانت تمليه عليّ اجواء الطفولة البريئة التي تتلقف كل ما يملى عليها، وبخاصة فما لا يتصل وان بخيط واحد من فطرتها وطبيعتها، وفي ما كان من تلقينها الدرس الأول في الاعتداء بـ «المقوار الصغير» وفيما امتد بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى ما كانت تمليه عليها البيئة والمحيط والشارع.

في هذه الاجواء المفروضة على تلك الطفولة فرضاً، كانت الطبيعة تعود لينتصر فيها الطبع على التطبيع، والصنعة على التصنيع، والمثول على التمثيل. كانت هذه الطبيعة تعود من جديد إلى ما فطرت عليه، وما فطرت عليه كل طفولة وبكل براءتها، إلى مدارج الحنان والتعاطف. وعلى هذا الخط نفسه، وبهذه الطبيعة نفسها، وفيما بين العصا المقيرة المهيأة حتماً للاعتداء، وبين تلك الالعاب الناشزة، كانت لعبتي الحلوة الجديدة بل هوايتي، هي حب اقتناء الطيور بكل ما كان يوجد في اسواق النجف من ذي جناحين يطيران من العصافير التي كنت اهرول إلى السوق المختص ببيعها، لأجيء بأكثر من واحدة منها لمجرد ان الهو بها ولاطلقها بعد ذلك إلى الهواء، كيما تخترق عالمها حرة، لا يد تقيدها ولا قفص. لكأنها كانت، بانطلاقتها تلك، تطلقني أنا من أساري، ولكأنني كنت بذلك اعبرّ عن دخائل نفسي فأنا أيضاً أريد ان اطير من هذه الاقفاص المهيأة لي. ويا لحسرتي عندما كنت أجد بعضها يحاول ان يطير ثم يسقط على الأرض، لاعرف بعد التجربة الأولى والثانية انه كان ممسوساً بجناحيه فيما يطلق عليه من خرادل صغيرة يتلهى بها الصبيان أو غيرهم، لصيد العصافير، ولتصاب اصابة غير مميتة ثم

ليغشّ بها اللاهون من امثالي ممن لا يحسون بجراحاتها، حماماً كانت أم عصافير أم هدهداً.

أما حديث الحيوانات الاليفة وما كان من ولعي بها، وبما لا يكاد يوم واحد ولفترة طويلة يخلو منها، فحديث أليم في اكثره، وجميل في البعض منه وفي ما ابقيت لنفسي من ذكريات. فلقد بلّلت والدتي، لأكثر من مرة، أكثر من منديل، بدموعي المتناثرة على وجهي وثيابي، وأنا اتسمع بلهفة، وبما يشبه الموعد المضروب بيني وبين هذا الديك والديك، والدويك والدويك، التي كنت أجيء بها لأتمتع بأغاريدها سَحَرا، ثم لا أكاد اسمع غير التغريدة. الأولى من هذا أو ذاك، ثم لتقطع وهي في انفاسها الأولى، ذلك لأنها كانت وكأنها تذّكر الهر المعتر الواقف لها بالمرصاد، بوجودها، ليتلقفها الواحد بعد الآخر فيما بين تلك الفترات ولأنحب نحيب الثكلى على فقدان عزيز عليّ.

وأما حديثي مع حبيبتي «الغزالة» التي كان والدي قد ابتاعها لي فهوّ ما يكاد ينطبق على ما يكون من امر الحبيب والحبيب فعلاً. اتمثلها الآن على لوح الذاكرة، وقد عدت من (الكتّاب)، وهي تلقي بساقيها (اللتين كان وما يزال الشعراء والفنانون يتغزلون بجمالهما) على كتفيّ لتجرني بأكثر مما أجرر بها إلى ساحة الدار، ثم إلى الأيوان الملتصق بها، ريثما انزلهما بيديّ، برفق وحنان وامسح عليها وأقبلها. وللمرء ان يتصور مدى ألمي وحزني وأنا اتلقى ما يشبه الفجيعة بفقدانها في الايام التالية من ذلك، حيث تواطأ من في البيت على كتمان أمر ضياعها بادىء ذي بدء، لاكتشف بعدئذ ان والدي قد ذبحها.

لا أدري كيف أعبّر عن قساوته عليّ وعليها. لقد ذبحها لمجرد انه كان قد أعد وليمة لأترابه. ولابد لي ان أفترض انه لم يجد ما يبتاع به اللحم، وإلا كيف يذبح حبيبتي هذه، واضربت عن الطعام يوماً وليلة بأكملها، وها أنا اليوم وكأنني اضع مرثية في فقد هذا الكائن العزيز.

وقد تجاوز الأمر ذلك حداً لا يصدق. فقد كنت هذه المرة صاحب (العنزة) الحلوة الوديعة، والتي ظلت معي مدة طويلة في البيت، اتفقدها

واحسن اختيار العلف لها، ثم اودعها لدى الراعي لكي استقبله واياها ومن معها بلهفة، في موعد عودته من المراعي، بعيد الغروب بقليل، فاتعرف على (عنزتي)، بالذات وبدون علامة عليها، اجدها وكأنها تقترب مني وأنا اتقرب اليهـا، ثم اضع عباءتي عليها تميزاً لها عن غيرها، واعود بها عبر الاسواق والشوارع، فاجتاز الصحن العلوي نفسه، إلى البيت وعمامتي المكورة على رأسي! فهل يصدق هذا؟ أجل يصدق من طفولة هي بحد ذاتها نادرة، ويحق لي القول بألم انها مكبوتة وناشزة عن طفولة الآخرين من كل من عشتهم وعاشوني.

وعودة إلى عالم الطيور والطيران. فقد كانت لي معه ما هو كائن حتى اليوم من عالم الطيران وهواية الطيار مع طائرته، ولكنها هذه المرة كانت طيارة من ورق. كانت تلك هواية كثير من اتـرابي وامثالهم، فقد كنا نصنع هذه الطيارة من ورق مشمع، على شكل كرة مدورة، مربوطة إلى قاعدتها بخيط طويل، ومشمع ايضاً، نحاول ان نمد به لأقصى ما نتمنى ان تطير إلى السماء طائـرة بلا طيار، بل ومسـرجـة احيانـاً اسراجاً خفيفاً ببقية من شمع مضاء بداخلها. ولطالما كنا نتسابق، وكأننا نستبق الزمن بما يتسابق فيه الطيارون اليوم، متنـافسين بطائراتنا الورقية، كل يحاول السبق بطائرته مع الأخرى، ليصل الأمر إلى حد احتراقهما وتناثرهما في الهواء معاً. وبطبيعة الحال فقد كانت المحطة الأولى لهذا الطيران هي سطح الدار وجدير بي وأنا اقولها، بمحض الـطبيعـة وبدون محاولة للتشاعر، ان هذه البداية الجميلة، وهذه الهواية المنطلقة بطبيعتها وفطرتها، كانت وكأنها خلقت نفسها بنفسها لتنتقل من حب الحيوان الأليف إلى حب الانسان ثم إلى عشقه، أي حب الطفولة وعشقها.

الفصل الأول

عاشق في الثامنة

فيما أنا بين السابعة والثامنة من عمري، تلقيت درساً جديداً عليّ، وهو الأعجب والألطف من بين كل الدروس التي تعلمتها، ومن صميم دمي ولحمي وحب الحياة المكبوت فيّ، هو العشق العنيف والعميق بكل ما في هذين الوصفين من معنى. ذلك انني كنت قد انتقلت مع العائلة، وكما كانت عليه الحال آنذاك لكثير من البيوت النجفية، وليس بيتنا وحده، من أمر الانتقال من حرّ النجف اللاهب والداخن إلى ما لا يتلاقى معه بشيء، وعبر مسافة قصيرة بينها وبين الكوفة ونهر الفرات الجميل، كنا نتلهى بقطعها ذهاباً واياباً مشياً على الاقدام، حيث كانت الشقق المتلاصقة والممتدة، والنسائم المنسابة على الجانب الغربي من النهر، وتشاء المصادفات ان تكون مقابل شقتنا شقة أجمل واوسع وأدلّ على الرفاه وعلى الرغد، هي شقة لعائلة شهيرة ببغداد ظلت وكما هي عليه حتى يومي هذا، عالقة بي بأسمها وحروفها، اعني عائلة «الهويدي»، وان التقي وباللحظة التي كتبت عليّ، بفتاة ما أروع صورتها الماثلة أمام عينيّ، وكأنها منقوشة على هذه الورقة بجمالها وصباحتها وجذلها، لم يكن بيني وبينها من مسافة بعيدة في العمر ما يبرر ذرة واحدة من ذرات هذا العشق الجامح الذي لم اعرفه مرة ثانية إلا بعد أكثر من عشرين عاماً.

لقد كانت تكبرني في اقل تقدير بما يزيد على عشر سنوات. وأياً كان الأمر فقد عشقتها، وهي بدورها احبتني حباً عنيفاً، حب الفتوة للصبوة طبعاً، ومع هذا فقد كنت، وأنا في تلك اللحظات من عمري نفسها، اتخيله وكأنه تجاوب عشق بعشق. ما كنت بنائم ليلة في شقتنا هذه إلا حالماً بأنقضائها

وانفتاحها على وجه الصباح الباكر لكي أقتحم شقة الحبيبة، لتتلقاني بكل ما عندها من بشاشة وحنان، وفي احيان كثيرة فلتلفني بعباءتها الحريرية، واظل لاصقاً بها، وبمن معها من اهلها، لا يفصلني عنها فاصل إلا عندما يتذكرني أهل بيتي فيفتقدونني ثم يرجعون بي من عندها.

حتى الفاصلة ما بين الظهيرة والقيلولة، حين كانت العائلة «الهويدية» تخرج بين اليوم والآخر إلى الشواطىء والبساتين كنت بقلب العاشق وبعنفوان العشق، وبجمال المعشوق أترقب هذه الساعة ترقبي الصباح المسفر، فأعد نفسي لالتحق بالركب الجميل، ولأشارك، وعلى الأقل في حمل ما يخف من متاع هذه السفرة الجميلة، بل ولاضيف اليها ان اتشاغل معها باعداد «سماور الشاي».

وذات يوم، وأنا في هذه الغمرة من الحب، وبكل ما فيّ من براءة، تنزل عليّ الهام شعري لا يلهمه الكثيرون هو انني وقد خجلت من نفسي ان لا اكون ذا شأن في أمر هذا المتاع، لم أجد ما استطيعه من ذلك سوى ان اعدّ حفنات من الفحم لغلي (سماور الشاي) وباللحظة الملهمة فعلاً فقد ابتدأت أعدّ هديتي هذه بما احمله (واهلي نيام) من كيس الفحم. ونغص عليّ ذلك خالي «المتعبد»، «عبد الرسول»، بدخوله البيت ليتوضأ، وليصلي وليضبطني متلبساً بالفحم المسروق، فلم يكن مني إلا ان اتظاهر وكأنني أريد به كتابة هذه الآية أو تلك من القرآن على الحائط! وعددت الثواني والدقائق. وانهى الشيخ صلاته وخرجت والتحقت بالركب وشاركت البيت وعشيقتي بمتاعي المنشود.

كيف تأتى لهذه الذكرى ان تندس بسحر ساحر، بين تلك الذكريات! فما اجملها صورة «مبرأة» بل وملهمة للسرقة، سرقة ما يقدر عليه العاشق لارضاء المعشوق. وهنا، وأنا اطفر الزمن بكثير إلى موقف شبيه في السرقة - نقيض في العشق والعاشق والمعشوق - فكم يسرني ان أجيء بالصورة المفارقة ايام قاربت العشرين من عمري، أي في الذروة من عهد المراهقة، واقفاً على ابواب عشق هو في هذه المرة ليس بـ «محله من الاعراب» لأجمل بنت قريبة اليّ، من عائلتنا بالذات بنت مسماة بحق وعلى اسمها «نهاية»

كنت واياها، وأنا في هذه الصبوة (وكأننا قد خلقنا لنكون جزءاً لا يتجزأ) وجهاً لوجه، وعيناً لعين، وصورة لصورة ومع هذا كله، وعودة إلى كون العشق وحياً يوحى، فقد وجدتني هذه المرة في صميم الفراغ من استلهام هذا الجمال أو من اختطافه واقتطافه. كانت تطعم التنور بالحطب في الطابق الاسفل من البيت وكنت ارقبها عن كثب. ولكن خاطراً آخر داهمني. صعدت إلى ساحة الدار لأسرق مقصاً كبيراً (وليس خفنه فحم) يكون من سوء حظه - وحظي - ان يمتد إلى شعرها الطويل، المتدلي إلى قدميها ليقص منه اكثر من خصلة. وطبيعي ان اتلقى عن ذلك غضباً، واحتجاجاً من تلك الصبية، الجميلة، التي يفترض ان تكون خطيبتي. وانتقل غضبها عليّ إلى من معي، في شكوى مريرة، وفي المقدمة منهم أخي الأكبر (عبد العزيز)، وان يكون فيما بيني وبينه ما هو أقرب إلى الحوار منه إلى الاحتجاج. وليسألني عما اذا كانت فعلتي هذه حباً لها؟ - لا والله يأخي - اتريد ان اخطبها اليك؟ - لا والله يأخي. لماذا كان هذا منك؟ قلت له ورب السماوات لمجرد ان اختصر هذا الطول من هذا الشعر الاسود بالمقص ليس إلا!!

هذه صورة صبوة، وفي نهاية العقد الثاني من شبابي، وتلك صورة صبوة اخرى وأنا في الثامنة، فأي الصبوتين أصدق؟

الفصل الأول

آلهة الشعر

كان الشعر لي، منذ البداية، لعبة خطرة مهيبة، فرغم ان بيتي كان كله بيت شعر وأدب، شأن بيوتات وأسر كثيرة في النجف، ورغم المنزلة التي يتمتع بها رجل الدين والفقيه، إلا ان هيبته بالنسبة لي تقاس بهيبة الشاعر.

في مدينتي النجف يرى المرء العجب العجاب، فحتى القصاب أو البقال، اذا أراد الاستراحة من عناء العمل، قرأ شيئاً مما يلقى على المنابر الحسينية، أو على الأقل فمن ابلغ ما كان يتغنى به الشعراء الشعبيون الأوائل.

وبلدتي، من هذا المنطلق الأدبي، تتميز عن كل مدن العراق، بل عن كل البلاد العربية.

من هنا اقول، ان الظاهرتين الدينية والأدبية كانتا تلتقيان وتصب كل منهما في مجرى الأخرى، وذلك بحكم فصاحة القرآن الكريم وبلاغته دينياً. أما أدبياً، فمن منطلق الكتب الأدبية، مثل «نهج البلاغة وامالي القالي والمرتضى والاغاني للاصفهاني» وما ترك الجاحظ من معاجز وما خلف الشعراء من تحف ونوادر حتى ما لا يوجد قسم منه من المخطوطات النادرة، وامثال ذلك، ثم من كتب النحو والبيان وبما فيهما من تقويم الكلمة وتصعيدها. كل هذه الكتب الأدبية كان يلتزم بها طالب الدين أيضاً.

رهبة الشعر بدأت عندي وأنا في أول طفولتي عند وفاة جدتي أم والدي «صيته»، وهي امرأة تملك من رجاحة الرأي وقوة الشخصية، ما غطت بهما على أسم والدي، فكانوا يسمون بيتنا «بيت صيته»، وليس بأسم والدي

المدويّ، وعند وفاتها، ولتشابك العروق الذي كان يمتاز به بيتنا، فقد اقيم لها مجلس عزاء، هو الأول من نوعه، وتمرد على التقاليد المعروفة في كل انحاء العراق، بل وما تزال ذيوله مجرورة حتى يومنا هذا على كل العالم العربي إلاّ فيما ندر. خلفية هذا التمرد تشي بما كان من امر الاستهانة بأقدار المرأة والنيل من كرامتها والحط من سيادتها. وهذه الخلفية، بحد ذاتها، وليدة خلفيات كثيرة، تعبر عن تأخر المجتمعات العربية في هذا المجال، فضلاً عن غيره.

لقد تقاطر على مجلس عزائها كبار رجالات المدينة، والصفوة من العلماء والأدباء والشعراء، وفي الطليعة منهم السيد «الحبوبي» الكبير، وفيه سمعت لأول مرة كيف يُتغّنى بالشعر فيزيد ذلك من رونقه وحلاوته وحلاوة الشاعرية على شفاه القارىء الشهير الشيخ «محمد شريف» الملقب بـ «بلبل الفرات» وهو ينشد أكثر من قصيدة واحدة في رثاء جدتي. وهذا بحد ذاته، وفي مجال الأدب والشعر، تمرد جديد أيضاً وسمعت قصيدة الشيخ جواد الشبيبي، وقصيدة عبد المطلب الحلي التي اتذكر مطلعها حتى الساعة وهو:

رأيتَ؟ كيف ترّقت همّةُ النوب
إلى ذَرى خيمَةٍ مضروبة الطنبِ؟

ولئن استعصت عليّ المعاني الصعبة للقصائد، فقد اخذني ايقاع الشعر، المتين، الساحر، الصاعد، النازل، الموشوش هامساً، أو الصارخ منذراً، ورأيت أكابر أهل البلد يهتزونَ على هذا الايقاع وتتفتح عيونهم على قدر ما شنفت به آذانهم وهم يستعيدون القارىء لحظة وصوله إلى ما يسمى «بيت القصيد»، فيحيون الشاعر ويتثوبون على القارىء بما كان يهيىء لمثل هذه المواقف من خلع وهدايا ثمينة، وأتذكر انها في هذا المجلس بالذات بلغت حد النصف أو أكثر من درجات المنبر الذي يعلوه (الشيخ الشريف).

وكنت استمع وأرى ما يفعله الشعر بالناس، وأحس في داخلي بمهابة ما بعدها مهابة، وبما يشبه غوصاً يتجاوز كثيراً مرحلة طفولتي، وينقلني إلى عوالم رحبة.

وقد عرفت رهبة الشعر بعد ذلك بسنوات، ومن جديد، عند وفاة ما كان يدعى بحق، «أبو الاحرار» الملا (كاظم الخراساني). كنت آنذاك قد تجاوزتُ العاشرة من عمري بقليل. وقد ذهبت إلى الجامع الهندي لأسمع وأرى كيف يوّدع الشعراء هذا الرجل الثائر. ولثلاث مرات اصل باب الجامع ثم اتراجع وجلاً أمام الوجوه البارزة من شيوخ الشعر، الذين تقاطروا على المجلس. ورغم ان اغراء الشعر كان يلحّ عليّ بالدخول، إلا ان رهبته كانت أشد.

فعدت إلى البيت والصفرة تعلو وجهي. وفي المرة الثانية، وبعد ذلك بمسافة غير قصيرة من الزمن، اصابتني رعشة العاشق بحضور أحب الشعراء والرجال إلى قلبي، أعني السيد (**محمد سعيد الحبوبي**). لقد وضعت والدتي بيديّ صينية الشاي وامرتني ان اصعد بها إلى مجلس والدي. وعندما وصلت ورأيت السيد بطلعته البهية، ارتجفت فسقطت الصينية من يديّ، وعدت إلى والدتي خجلاً ومرتجفاً، فأعدت الشاي من جديد وشدّت أزري لاعود به ثانية.

لقد كانت صدمة الشعر عليّ شديدة إلى حد يشبه التقديس، وقد ايقظت هذه الصدمة موهبتي الدفينة.

وعند الحديث عن هذا الموضوع، وهو سر تكوّن الموهبة، اجد نفسي في حيرة لما هي عليه من حراجة وأنا اتحدث عما ينبغي لغيري ان يتحدث عنه. فلربما كانت كلمة «الالهام» أقرب إليّ من كلمة «الموهبة»، لأن الموهوبين كثيرون والملهمين قليلون. واتساءل وأنا الج هذا الموضوع: هل تتجاوز الموهبة نفسها لتصبح نوعاً من الالهام؟ أي تتجاوز سيطرة الانسان على نفسه وعلى ارادته ويصبح خاضعاً لايحائها بدلاً من ان يكون هو من يوحي اليها؟! اقول ذلك، لانني اعتبر نفسي، بحق أو بباطل، ممن تتكون موهبتهم وهم ما زالوا نطفة، وتتفجر مع دم الوراثة، ثم تنتقل منه إلى العالم

الخارجي وتتغذى وتغتني بما تتفتح عليه العين والنفس فتؤثر بما تراه وتتأثر به، وتتكيف مع الحياة وتكيِّف الحياة وتطوعها هذه المخيلة الملهمة، أو تتمرد على الحياة لتعيد خلقها على الصورة التي تريدها. لا احب ان اخوض غمار موضوع شاق ـ اعني فلسفة الابداع ـ وانما اطرحه على ذوي الاختصاص من علماء النفس، أو علماء الجمال أو غيرهم، بنوع من التساؤل، عارفاً المساعي التي انتهت لدى كثير من الباحثين والدارسين والفلاسفة، إلى اختزال الأمر بما يشبه الالغاز عن سر الخلق والمخلوق، وبخاصة ففي سر الالهام، أكان رواية أم شعراً، أم ملحمة، رهافة خاصة، حساسية بالغة، عبقرية ملهمة، روح مبدع، تلك هي بعض احكام واوصاف اجدها لدى باحثي الأدب بعامة، مع هذا فالسؤال المحير ماثل ما يزال.

لقد بدأ والدي حياته شاعراً، وديوانه الصغير المخطوط هو الآن في مكتبة (آل كاشف الغطاء) في النجف، والتي وهبت للدولة بعدئذ، ثم انتهى فقيهاً. وارادني ان ابدأ من حيث ما انتهى اليه. وقد قسر نفسه، وقسر الصبي الصغير اضعاف ذلك، ليكيفه، كما يحب له ان يكون، ولكن الموهبة المتمردة اللجوج كانت تفعل فعلها من الداخل وتخرب في غفلة من الجميع، كل ما يشيده الوالد لتبني هذا الطفل بالكيفية التي خلق لها، ولتعود به إلى ما هيء له. وهنا تبدأ المفارقة المريرة. . .

لقد كنت اخطف في خلسة من والدي عيون الشعر من كل الشعراء، من تقدم منهم ومن تأخر.

كنت أحس بلمحة غاضبة من عينيه وهو يفاجئني وبين يديّ ديوان من تلك الدواوين، فأفهم من تلك النظرة، بالفطرة، ان عليّ ان اتصنع بالبديل عنه مما يريده هو لا ما أريده أنا بالذات. فيكون مني ان اختطف بدون قصد ولا تعيين أي كتاب أو كتيب مما هو جديد أو عتيق من كتب الفقه في مكتبة بيتنا. وكان شيطان الشعر ينزغ في مطاوي نفسي وعلى لساني عندما يغادر ابي البيت، وكان يطيل الغياب في زيارة الاصدقاء والمعارف فانتهز فرصة هذا الغياب السانحة لأفر إلى لعبة الشعر ولاتغنى به غناء ما كان اجمله قبل اليوم وما اضعفه الآن وحينئذ يخرج شيطان الشعر من القمقم شاخصاً أمامي بكل

كيانه الساحر إلى العلن لأرتل ما يلقي بين يدي من نتاج العباقرة والشعراء الضخام بمثل ما يتغنى به حداة البدو وشداتهم. وقد لازمتني هذه العادة إلى الآن، فلا استطيع قياس القصيدة إلا على مقياس الاصداء من انفاسها وانغامها، وانسجام حروفها، وكلماتها، ومدى التصاقها بقوافيها ومعانيها. وكان للمنابر الحسينية، ثم منابر التهاني والتعازي وما شابهها من مناسبات أخرى شعرية كثيرة، تأثيرها عليّ لكأن هذا الترتيل الساحر للشعر كان رداً مباشراً وبريئاً على ما كان لوالدي من كبت له. وعندما كان يعود إلى البيت اتوارى عنه، وانزل إلى السرداب الأعمق في بيتنا، ونسميه «سرداب السن» (وهذه التسمية فصيحة بكل معنى الكلمة أي حيث يصل العمق فيها بروز سن الرمل الخالص منها) لأواصل ترديد الشعر لوحدي، وبذلك الحداء الذي كان يطرب أمي ويؤثر فيها إلى ما يشبه حدّ البكاء... وعندما تهرب عائلتنا من حر الظهيرة الكافر، حيث كان يتهاوى أكثر من حمام واحد مشوياً به، ضحية من ضحاياه، كنت اصعد إلى الغرف العلوية المدفأة، هرباً من النوم تحت السن الرملي ذاك، لأختلي باحبائي الشعراء ودواوينهم ولا اكتفي بحفظ ما يعجبني بل واعيد كتابته.

كنت استنسخ الدواوين والكتب الأدبية التي يصعب عليّ اقتناؤها أو الاحتفاظ بها لفترة طويلة. ويستغرق استنساخ ما اختار من أكبر الدواوين أو الكتب الأدبية ما لا يزيد على ثلاثة أو أربعة أيام ومن هنا وبحكم المنطق اشتدت رداءة خطي حتى يومي هذا. وكنت استل خلسة الدواوين من مكتبة شقيقي (عبد العزيز) منتهزاً غيابه لأعيدها قبل ان يحضر. ومع حبي الخاص للشعر الذي بدأ من البيضة، فقد كنت محاطاً بالشعر والشعراء إينما ذهبت، وفي أي بيت دخلته وعرفته كنت أجدهم أمامي: من عهد «امرؤ القيس» في الجاهلية و«الكُمَيت» و«دعبل» في العهد الاموي، وكل عباقرة الشعر في العهد العباسي والعهد الاندلسي، وعهد شعراء المماليك والنموذج الفريد منهم «البهاء زهير» حتى عهد المرحلة التي كنت اعيشها.

وما من مناسبة إلا وكان الشعر حاضراً فيها، يجري كالطعام والماء.

فاذا كانت المناسبة فرحاً زغردت القصائد جميلة كالاغاني، واذا كانت المناسبة حزينة خيمت القصائد مذكرة بالحادث الجَلَل أو غير الجَلَل. وبعد هذه المجالس تعود تلك القصائد واصحابها حديث الناس من جديد حيث يقيّم كل ذلك ويجادل فيه، ولتأخذ هذه القصيدة أو هذا الشاعر محلهما من الاعراب في موازين النقد قدحاً أو مدحاً أو فيما بين هذا وذاك.

وكان الشعر متعة المجالس الأثيرة، حيث المطاردات الشعرية التي تمتد ليالي وأياماً، وفي المقدمة منها مسابقات التقفية الصعبة، حيث يقرأ المتسامرون هذا البيت وذاك ويتركون للآخرين استنباط القافية...

لقد بدأت في هذه المجالس مستمعاً، صغيراً، مسحوراً بايقاع الشعر وصوره، ثم اصبحت وأنا أتصاعد شيئاً فشيئاً ممن يشبه المثل به والتحدث عنه في هذا المجال، وأنا ما ازال في عنفوان الصبا. فحيثما ذهبت كان أترابي وحتى من درست عليهم يتسلّون باختبار حافظتي الشعرية. وكانوا يتلون عليّ أربعة أو خمسة بل حتى سبعة أبيات، وعليّ ان اعيدها على الفور، فاعيدها فعلاً ولمرة واحدة، ويصل الرهان فيما بينهم بهذا الصدد حداً بعيداً. فقد تقدم صديق عزيز عليّ ومن صميم مشابك العروق العائلية في الأسرة، وهو السيد «علي الجصاني»، ووضع أمام عيني ليرة رشادية ذهبية، كنت أحلم بامثالها وقال: ـ انها لك اذا حفظت كل هذه الابيات في يوم واحد! بين اغراء الليرة الذهبية واغراء التحدي، أخذت حزمة الورق تلك وفيها أكثر من اربعمائة بيت من الشعر، أبيح لي فيها عشرون غلطة، البيت بكامله غلطة، والكلمة غلطة. وعدت إلى المجلس في اليوم التالي وبدأت اتلوها عن ظهر قلب وأنا أرى العيون والوجوه من حولي مدهوشة، وقد كانت غلطاتي المفروضة عليّ دون ذلك. وحين انتهيت كانت الليرة الذهبية في جيبي، وهي تكاد ان تكون كفاف عيش لشهر واحد لمن اراد الكفاف، وإلى جانبها فوليمة فخمة لشلة كبيرة من اترابي. في نهاية المطاف ادرك والدي استحالة ما اراد منعي عنه. وأريد ان أشير إلى ان هذا الوالد المتزمت، بدلاً من ان يصوغ ولده كما أراد، أخذ يتأثر به...

كان الجو الذي يعيشه أخي «عبد العزيز» وأترابه، وكانوا من طليعة

رجال الشعر والأدب، يتفتح على ضوء من عصر جديد، وهذا الجو نفسه بدأ يؤثر حتى بوالدي المتعبد والمتفقه، والبعيد كل البعد عن كل ما هو جديد. فأخذ يتفاعل معه. ولذلك بدأ يتابع اخبار الدستور العثماني الذي جاء «بعد خراب البصرة» كما يقولون، لأن «الرجل المريض» بدأ يحتضر.

وأخذ والدي يتابع على لسان أخي «عبد العزيز» في الصحف المتواردة عليه، أخبار ما يجد من تطورات العالم الحديث. وبسبب من هذا التأثر والمسايرة، سلم والدي بما لابد منه، وبدأ يشتري لي دواوين الشعر بنفسه. واتذكر بالتحديد أولها كان ديوان «الأَرَّجاني» الشاعر المبدع والمجهول، المظلوم، ومثله فديوان (مهيار الديلمي).

وبقي الشعر، مع ذلك كله، وبقليل من المفارقات بالنسبة لي، لعبة مسروقة وكأنه تعويض عن طفولة وصبوة سليبتين.

الفصل الأول

نهضة وانبعاث

كان الحكم العثماني البغيض يحكم بلادنا باسم الدين، وبالكرباج، ووعيت منذ البداية التململ الصاعد المطالب بالدستور وبالحقوق القومية والدينية. وكانت سوريا ولبنان والعراق تتحمل الثقل الاشد للاحتلال والتمرد الأكثر للتخفيف من هذا الثقل، اذ كانت لا تقدر على التخلص منه، ولكن بين هذه البلدان الثلاثة، تحمل العراق الوزر الأكبر.

وتحت وطأة الاحتلال العثماني كانت المشاعر القومية تتنامى ويتضح للمتوهمين الحقيقة القاسية والمتخفية وراء القناع الديني، فكانت القوميات المغلوبة تنهض وتنتفض.

جاء اعلان الدستور العثماني بمثابة فتيل تفجير، لكل القوميات. وقد بدأ التفجر العربي من سوريا، واستمر حتى بداية الحرب العالمية الأولى، ثم شمل العراق والنجف بصورة خاصة.

لماذا النجف بالتحديد؟

لأن بغداد كانت مركز الحكم العثماني وحلقة اتصال ثقافية، وفيها تركزت المدارس الرسمية التي تقوم بالتتريك... ومقابل ذلك اخذت النجف بمدارسها الدينية الأدبية والفكرية دور القلعة التي حفظت الثقافة العربية أمام حملة التتريك هذه.

اتذكر اني كنت صغيراً ادرج في دروب المدينة خلف والدي وفي ازقتها واسمع من نوافذ البيوت، تباعاً، الاصوات الموشوشة المتجادلة المتصايحة للمداخلات العلمية وحلقات الحديث التي تعقد في دواوين كثير من البيوت

والمدارس العلمية التي بدأ انفتاح العهد الجديد يدب اليها، والتقط فيما بين هذه الوشوشات لقطات عابرة تبدو لي وكأنها متناقضة في حديث عن «الدستور» وعما كانوا يطلقون عليه اسم الحرية أو «المشروطية». وعلى المؤمنين بها اسم «الاحرار»، والمقصود بهم الطلائع الجديدة. لقد كان ذلك منهم، إلى جانب ما كانوا يتناقشون فيه من الفقه والاصول وعلوم الأدب والنظريات الفلسفية. وكان الشعر آنذاك، ولاسيما في هذه الفترة بالذات، وبخاصة فمما التقط من هذا الشاعر أو ذاك وهذه القصيدة أو تلك من قبسات يمتد إلى جانب ما يشبه استراحة بين الدروس الثقيلة، يتحدث الناس عنه، ويتسابقون في قراءته وتقفيته. وباختصار كانت المدينة كلها، بيوتها ومدارسها تبدو لي، وإلى جانب كل مفارقاتها وتناقضاتها، وكأنها مدرسة واحدة، والناس فيها طلاب أو مدرسون... وهذه المدرسة الخلفية لم تكن قلعة معزولة عن الثقافات الأخرى، ولذلك اتصلت النجف بسرعة بالنهوض القومي الآتي من سوريا.

كما اتصل علماؤها المتفتحون، بالافغاني والكواكبي ومحمد عبده وبحكم موقعها الديني، فقد استنفرها وكل طلائعها ما واكب الدستور العثماني من عهد جديد يكاد يصل مرحلة انقلاب وكذلك ما كان من أمر هذا العهد في ايران والهند ودول البلقان. وكان في النجف علمان من اعلام هذه النهضة لهما اثر بالغ في القيم البطولية التي فطنت عليها، وهما «محمد سعيد الحبوبي» و«الملا كاظم الخراساني».

وتعرف الاجيال الجديدة «الحبوبي» من خلال اشعاره الحلوة وبخاصة غزلياته الرقيقة وفي الطليعة منها موشحته:

هزت الزوراء اعطاف الصَّبا
وصفت لي رغدةُ العيش الهني
فأرعَ من عهدكَ ما قد سلفا
وأعِدْ يافتنةَ المفتَتِنِ،

ومنها القطعة الفريدة:

ياغَزالَ (الكرخ) واوجدي عليك
كاد سري فيك ان ينهتكا
هذه الصهباء والكأس لديك
وغرامي في هواكَ احتنكا
فأسقني كأساً وخذ كأساً اليك
فلذيذ العيش ان نشتركا
واذا جُدْتَ بها من شفتيك
فأسقِنيها وخذ الأولى لكا
فلماكَ العذب أحلى مرشفاَ
من دم، الكرم، وصفوُ المُزُنِ

ولكن الذين يعرفون هذه الجوانب الأخرى من هذه الشخصية قلة، ومن هذه الجوانب مكانته العلمية الرفيعة ودماثة اخلاقه وروحه الفكهة، والأهم من كل ذلك قدرته على التأثير في الناس، وبالتحديد الفقراء منهم، فكان أول شاعر ومثقف يقود حرباً شعبية ضد أحتلالين، تركي وانجليزي. ويكفيه انه مات أشرف ميتة. سقط في محراب صلاته في معركة الشعيبة، وهي السدّ الأول بوجه القوات البريطانية الزاحفة، وتمثاله الفخم والرائع شاخص للناس وللتاريخ في اكبر ساحات محافظة الناصرية، حيث لفظ انفاسه الاخيرة. وقد وصفه الشيخ (جواد الشبيبي) عن حق عند وفاته:

تقدم للجهاد أمير دين ... وساق المسلمين له جنودا
ومذ لاقى المنية أرخوه ... «سعيد في الجهاد قضى سعيدا»

وهنا مما يزيد روعة الشعر ان الشطر الأخير من البيتين هو أيضاً على حساب حروف (الجَمَلْ) أي انه يؤرخ بالسنة الهجرية، أما على شاهدة قبره فقد كتب:

لواء الدين لُفَّ فلا جهادُ   وباب العلم سدّ فلا اجتهاد

ولقد عشت اليوم المشهور لقدوم نعشه من لواء الناصرية إلى النجف والموكب المهيب الذي رافقه، والضباط والجنود الاتراك الذين اصطفوا على الجانبين اكراماً له.

لقد عشت كما سبق القول كل ذكرياتي عن السيد الحبوبي أيام المحافل الشعرية المدوية به وشعره حتى اليوم الاخير الذي جئت عليه في معرض اكواب الشاي المكبوبة.

أما الشخصية الثانية فهي «الملا كاظم الخراساني» صاحب الكفاية والاصول الذي لقب بـ «ابي الاحرار» لدوره في النضال من أجل «المشروطية»، وعلى يديه تخرج الشيخ «الشيرازي» الذي افتى بثورة العشرين، والسيد الامام «ابو الحسن» والشيخ «النائيني». واني لمدين في تصوراتي اللاحقة عن البطولة لهذه الشخصيات التي جمعت قيم السماء والأرض، ولم يشغلها البحث العلمي والدين عن هموم الناس اليومية وعن دور رجل الدين والمثقف في معركة التحرير ولكن إلى جانب هذه النماذج الساطعة شهدت، مع الأسف، انحسار الدور الريادي للعوائل الدينية مثل، آل الجواهري، وكاشف الغطاء وبحر العلوم، ففي ما عدا شخصيات معدودات من هذه البيوت حفظت لها مكانتها وتاريخها وفرضت نفسها بنفسها، اكتفى الابناء بالمجد الذي حققه الآباء، واتكأوا على عصي الوراثة والقابها وفخفخاتها وبلا جدارة احياناً كثيرة، مكتفين بالقول «كان أبي» واصبحت هذه الزعامة المركزية بالنسبة لهم وسيلة للاثراء والوجاهة وراحة

البال. . . ولكي لا أكون متجنياً على أحد سابداً مستشهداً بعائلتي نفسها (الجواهرية):

فقد ارتبط اسم اسرتنا بجدنا الفقيه الكبير (الشيخ محمد الحسن) النجفي المولد هو وسبعة من آبائه، والمسمى باسم موسوعته الفقهية «جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام». فقد كان هذا الكتاب في المقدمة من ثلاثة كتب لازمة لكل من يريد الاجتهاد، ولا يمكنه الترشيح للامامة دون تفهمه والمحاضرة به، واليه تعود تسميتنا بالعائلة الجواهرية.

واخيراً وفي صميم العهد الملكي وعندما استقدم الخبير الفذ بالتشريع وبأحكام الدساتير (عبد الرزاق السنهوري) لغرض تنظيم القضاء في العراق وبخاصة منه القضاء الجعفري، والاحوال الشخصية فيه فقد خص كتاب «جواهر الكلام» بالذكر دون أي كتاب من كتب الفقه الجعفرية كلها.

وبموجب نظام الوراثة انتقلت الزعامة الدينية من الشيخ (صاحب الجواهر) إلى ابناء واحفاد لم يكونوا جديرين بها امثال جدي عبد العلي الذي كان بعيداً عن الاهتمام العلمي. انما هو من طبقة الاشراف المدللين. فقد كان حسيّاً يفضل متع الدنيا وراحة البال والسفرات خارج العراق وكثرة الزوجات.

ومنه انتقلت زعامة الأسرة إلى واحد من اعمامنا، الذي كان معروفاً بانه (حلّال المشاكل)، وإلى جانب ذلك فجمّاع النقائض.

لقد تركزت الوجاهة والمال في هذه العوائل عند اقدر الورثة على تصيد الزعامة، حتى وان لم يمتلك الكثير منهم شيئاً من المؤهلات العلمية والدينية بل ومن كل المواهب الأخرى التي تؤهلهم لهذه الزعامة، وانما توجه جهدهم وجهد ابنائهم من بعدهم نحو توسيع الاقطاعيات والاملاك الاميرية والتجارة على حساب من لا يملك قوتاً من هؤلاء وعلى حساب الطلائع البارزة والشاخصة في مجالات التفقه والتدين والتأدب منهم. وفيما يختص هذه المرة بذوي الزعامات المغتصبة في البيوتات الدينية، فقد كانوا يفعلون ذلك كله بما لهم من ابواب متفتحة للوافدين والتكايا والوسائد الوثيرة وهذا الخادم

أو ذاك من سقاة القهوة والشاي و «العصائر الحلوة»، بل والافظع من ذلك فبما لهم من قدرة في التستر على من لا يجوز مطلقاً التستر عليهم من نماذج سيئة الصيت والذكر في النجف. وعلى كثرة هذه النماذج يحق لي ان اعطي صورة واحدة منها حسبها ان تكشف الستار عن الآخرين وذلك في ما كان لبعضهم من إعمار مجلس «مرابٍ» شهير يضرب به المثل في ما يستغله ممن تعوزهم الحاجة اليه في مبالغته بالربا الفاحش، كنت واحداً ممن اعوزتني الحاجة اليه مرة، وفي الساعة الرهيبة من ضرورات الحياة ذهبت اليه لاستدين منه عشرة دنانير وليقايضني عنها بعشرين ديناراً لمدة شهر أو شهرين كما اتذكر كل هذا وأنا موظف في الدولة وذو راتب مقرر شهرياً. لقد كان هؤلاء الزعماء يزكون هذا المرابي وبمشهد من كل ذاهب أو آيب في السوق الكبير في النجف بمداومتهم بين اليوم والآخر ان لم يكن في كل يوم عنده.

اما الصورة الأخرى المتناقضة والمشرفة فمن ذوي الجهود الدائبة العاكفين على ضوء الاسرجة المشبعة فتائلها دخاناً والتي ترشح المتفرغين بل والمستميتين على الامتحان العسير للدرجة الأولى من الترشيح للامامة والاجتهاد، وهو امتحان المنابر واركز على المنبر بالتحديد فمن فوقه يتواجه رجل الدين مع الناس متمثلين بالصفوة المختارة منهم في عملية اخذ وعطاء متبادلين.

وعندما اتحدث عن المنبر استشهد بقول (عبد الملك بن مروان): «شيبني صعود المنابر». والمنبر الذي اعنيه ليس مكاناً لكلام مرتجل يوجه لمستمعين يبتلعونه دون ان يهضموه، أو دجل يراد به اشغال الفقراء عن فقرهم بالاستشهادات الكاذبة بهذا الحديث أو ذاك وهذه الآية المنزلة أو تلك ـ والمحرفة عما يراد بها ـ وممن يسمون بحق (وعاظ السلاطين).

المنبر الذي اقصده هو الاختبار الاصعب لعلم رجل الدين أو جهله وكما قال المثل السائر «في الامتحان يكرم المرء أو يهان»، ولن ينقذه صوته الجهوري أو الغريد، مهما كان مؤثراً، فتحت المنبر لم يكن طلاب العلم وحدهم وانما علماء يمكن ان يكونوا حكاماً ومُحَكِّمين ومحَلَفين أيضاً بل

ومرشحين للاجتهاد والفتوى، فتحت منبر ابي الاحرار الخراساني كان يجلس الامام «ابو الحسن» والشيخ الشيرازي الذي افتى بوجوب الثورة «ثورة العشرين» وتحت منبر هذا الأخير كان يجلس شيخ الشريعة ولذلك كان على الرجل أن «يصبح بحراً بعد أن كان نهراً».

لقد قلت العاكفين «على اضواء الاسرجة وفتائل الدخان» ونسيت ان أقول «وقوفاً صفوفاً على ابواب الخبازين». فمن يصدق اني رأيت بأم عينيّ، الامام السيد «ابو الحسن» نفسه، امام حانوت خباز مشهور في النجف وهو ينتظر طويلاً ليصل الدور اليه من الصفوف التي تقف أمامه وليتناول «وأنا اقولها وكأنها اليوم» رغيفين من الخبز.

ومرة أخرى قصدت داره لأراه وهو ينادي باعلى صوته على سقاء الماء فلا يرد عليه، وحزرت لماذا؟ لأن المفترض كما هي العادة آنذاك في كل بيوت النجف ان يتقاضى السقاء اجرته بين الاسبوع والثاني، ويبدو انه قد كثر على السيد حساب السقاء وكثر على السقاء ان يستجيب لنداء السيد فتجاهله. هذه لقطة لمن أصبح بعد ذلك بعقد من الزمن لا أكثر يجبى له كنز من المال والذهب والفضة مما يستحق من فرائض الخمس والزكاة ودفع المظالم كما تسمى ليوزعها على المحتاجين وممن يقفون مثله قبل ذاك ينتظرون رغيفي الخبز وقربة الماء وهو نفسه الذي سيأتي الحديث عنه إذ هو يرفض مقابلة الملك فيصل الأول اياه، فيا له من جليل يرفض جليلاً.

لقد أخفقت العوائل النجفية في امتحان المنبر وانسحبت منه إلى الدواوين وبدأ دور جيل جديد لا تشفع له الالقاب ولا الزعامة الموروثة.

أما بصدد الطبقة التي يصح ان نطلق عليها اسم طلاب العلم لأجل العلم فقد كانوا يتهافتون تهافت الجائع على مائدة سمينة، عدتهم خفيفة لا تتجاوز صرة ملابس وبعضاً من زاد الطريق وبضعة دراهم ادخرها الأهل من كدح طويل.

الفصل الأول

القدر يحدثني

آمنت بالقدر ورأيته، حدثني وسمعته، قرات عنه مرة بعد الأخرى، والكتاب بعد الكتاب، والآية بعد الآية، وفهمت عنه ومنه انه يتحكم بالمصائر، شاء الناس أم ابوا.

في البدء كنت امر به مرور العابرين، غير اني آمنت به وتوثقت منه، حين رأيته يلوح لي شاخصاً.

في يوم من أيام صيف عام ١٩١٧ عاد ابي من قيادته فريقاً من العشائر في مجابهة الانجليز في موقعة الكوت الثانية والسد الأخير لزحف الجيوش البريطانية على بغداد. رأيت ابي ينزل ادراج السلم المؤدي إلى الدهاليز الباردة (السراديب). ورأيت القدر ينزل درجات السلم نفسه، الواحدة بعد الأخرى، مع الرجل المديد القامة، الجميل الوجه، الاسمر، الحافل بحيوية من هم في ريعان الكهولة في الخمسينات. تكلم وقال:

«ابني مهدي سأموت»!

ظللت صامتاً وكأنني أكاد اسخر من شيء لا محل له من الاعراب عندي. انه يتناهب الدرجة بعد الدرجة من هذا السلم الطويل، وبكل فتوته، يموت! لماذا يموت؟ كيف يموت؟ أين يموت؟ كما هي عادتي، لم أرد عليه.

في اليوم التالي كنت عائداً مع أحد ابناء عمومتي فيما نتفسح فيه كل يوم بين تكايا الصحن العَلَوي أو بين هذه المحلة أو تلك من محلات النجف ونحن في زهو الشباب وبيننا احاديث تستدعي الضحك والقهقهة، وكانت آخر قهقهة منها وأنا افارقه وبيته ليس بأكثر من امتار معدودات مقابل بيتنا،

لاودعه وادخل بهو الدار، لأجد اخي «عبد العزيز» يهرول إليّ مسرعاً وقبل ان ادخل صحن الدار ليقول لي «تضحك وتقهقه وابوك على هذه الحال؟»، عجيب، ابي؟ بالامس شاركته في قيلولته في مثل هذا الوقت، حيث كنت متمدداً إلى جانبه، توقفت عن الضحك ودخلت الدار، ووصلت الغرفة لأجد أبي، وهو بكل ما فارقته عليه صباح اليوم من حيوية ونشاط، بفارق واحد، هو انه قد اعد له فراش جديد وتكايا جديدة وشيء من تمدد في رجليه.

لم يكن في وجهه ولا في اساريره ولا في منطقه ما يدعو للاضطراب على مصيره، والشيء الوحيد الذي انبأني بأن الحال ليس طبيعياً، هو ان «الشيخ جواد»، ومعه السيد «محمد علي بحر العلوم» ولا اتذكر حتى يومي هذا انهما دخلا بيتنا، قبل هذا اليوم بالذات، فوجدتهما يستنهضانه أو بعبارة أصح انهما يتظاهران بانهما يستنهضانه وان لا يطيل هذا التمدد منه، وبمثل هذه التسليات المألوفة وبعبارة أوضح، أي انهما كانا يعرفان من أمره ما لم يخطر لي على بال، ورأيت والدي يجيبهما بضحكة ساخرة، بليغة، قوية، ببيت من شعر انتظرت أكثر من ثلاث أو أربع سنوات لأجده (لابن الرومي)، العبقري، الخالد:

والنـاس يلحـون الـطبيب وانمـا خطأ الـطبيب اصـابـة الاقـدار

في اليوم نفسه بعد الغروب بقليل، أي موعد صلاة العشاء الفيته يقول لمن تبقى معه وكلهم من أهل البيت، أخي «عبد العزيز» وربيبه «علي الشرقي»: «انهضاني للصلاة»، كل هذا وأنا مدهوش وكأنني اتفرج على فرجة جديدة لا تستحق مني أكثر من الصمت المطبق والعينين المتفتحتين بقوة، والنفس الحائرة. وإنهضاه للصلاة، وكل ما ادركت منه، وهو يركع ويسجد ويقوم وللمرة الاخيرة انه كان يخلط بين الآية والأخرى، وركع ثم سجد، فانتهى.

في صباح اليوم التالي وأنا ما ازال لا املك غير الدهشة، لا دمعة، ولا

نحيب، ولا بكـاء، ولكن مجـرد انسـان يتفرج على مصير انسان معه قبل ساعـات. وقفت عليه وجهـاً لوجـه لأودعه الوداع الأخير وهو في ما يسمى بـ «المغيسل»، وهي كلمة فصيحة، وردت على التصغير لتشير إلى موضع غسل الموتى. كانوا يغسلون جلده لتطهيره. أما روحه فتطهر مع مثيلاتها في عالم آخر. تزدحم فيه الارواح الطاهرة بالشريرة ايضاً.

وربمـا كان شيئـاً يستـوقف القـارىء وأنا الشاعر المنطلق من ايامي الأولى، من صبوتي وفتوتي، المنطلق من كل ما للناس من عوالم غير عالمي الخاص بي، انني اؤمن بالارواح قدر ايماني بالقدر، وبأن روحي ستلتقي مع ارواحهم، وربمـا ستتخـاطب بلغتها أيضاً، لابد من ان تكون هنالك لغة أخرى ليست بديلاً حسب، بل وبأبلغ ما يتخاطب به اللسان واللسان:

فلعـلَّ ذا، ولـعـلَّهـا لُغـةٌ   من غيرِ ما جَرْسٍ نُعـوِّده
ولـربَّـمـا ضَحِكتْ بسـائـطُهـا   هُزْءاً بنـا ممَّـا نُعَـقِّـده

وسيعـود القدر بعد عشرين عاماً من يومه هذا، ليمثل أمامي غضوباً رهيباً مخيفاً وفي هذه المرة فبضربة ساحقة من ضرباته التي هي الاساطير نفسها وليس ما يشبهها والتي ظلت تحز في نفسي وقلبي ان لم أقل وليلي ونهاري حتى الآن، حتى بعد نصف قرن.

الفصل الأول

الفقيه والشاعر

بعد وفاة والدي انفردت بشخصي وتفردت بشخصيتي، مثلما ينبغي لكل مخلوق. قبل ذلك كنت مجرد ظل له ولوصايته المحكمة عليّ. ورغم انه اضطر في الفترة الاخيرة ان ينزل على حكمي بعد ان يئس في صرفي عما خلقت لاجله، فان فترة التنازل كانت قصيرة جداً بالقياس إلى فترة الاملاء والتلقين، وأقول بصراحة اليمة انه رغم اهتمامه بي وحبه الاستثنائي لي واصراره على مصاحبتي اياه حتى ليلة وفاته، اقول رغم هذا، فانني لم اسمع منه كلمة توجيه أو نصيحة من تلك الكلمات والعظات التي اشبعت بها من كان وما يزال ممن معي من اهل بيتي ليتدبروا أمر يومهم وغدهم. قد تكون هذه الحقيقة مرّة ولكن ليست لدي اجابة عنها غير القول: ان الأمر كان هكذا: فقد كنت لأبي ظلاً صامتاً.

وقد اثر ذلك على مدارجي اللاحقة في الحياة، وكان سبباً في هفواتي وزلاتي الكثيرة وتغيري من حال لحال نقيض، وفي كل ما احاسب نفسي عليه بلا انقطاع.

بدأت استعيد ذاتي وشخصيتي بعد رحيل والدي رغم احساسي الأليم بالفراغ الذي تركه بعد ان كان فانوس البيت وعموده والروح الجميل في مجالسه...

بعد رحيله خرج الشاعر الحبيس من جبة الفقيه ورجل الدين، التي فرضت عليه، ومن والدي انتقلت هذه الوصاية إلى رعاية شفافة، لطيفة، خفيفة الظل، اغدقها عليّ أخي «عبد العزيز» الذي كان أشرفنا وأكثرنا عطفاً وتفقداً نحن الاخوة الاربعة وكان تقدميا وواقعياً في نظرته إلى الحياة في ما

كتب ونظم ونشر، ولا اغالي اذا قلت انه كان من الطلائع المعدودة للنهضة الأدبية في النجف. ففضلاً عن دراسته الفقهية وتأثره بالثورة الدستورية التي قادها الملا «كاظم الخرساني»، كان شاعراً مجدداً في موضوعه، تجاوز المواضيع الشعرية التقليدية، كما كان مجدداً في ثقافته أيضاً، فقد قرأ الرياضيات والطبيعيات والفلسفة ونشر ما اعتصره من ذلك كله في مجلات النهضة الفكرية من امثال: المقتطف والهلال في مصر، ومجلة العرفان وامثالها في لبنان.

لقد تفتحت على النقاشات المجددة الجريئة في مجالسه التي كان يحضرها معه اترابه وزملاؤه من الطلائع الجديدة.

كانت هذه النخبة الطليعية التي لا يتجاوز عددها اصابع اليدين تتناول كل ما تقرأه بحثاً ونقاشاً وتساؤلاً في مجالات السياسة والأدب والشعر الجديدة برمتها على المجتمع النجفي بخاصة وعلى العراق بعامة ساخرةً بجمود القديم ومعجبةً بالتحرر الحديث، وكنت اتسمع احاديثهم بلهفة، أنا الخارج تواً من وصاية والدي، واشارك فيها، وكنت التقط، من مكتبة شقيقي الكتب الجديدة التي اتشوق اليها مما لا اجده في المكتبة الشهيرة (لجدي الأكبر) كما اسميه، والمؤرخ الامين «الشيخ علي كاشف الغطاء» زائداً على ذلك ما كنت اقتنيه من كتب يعتبر مجرد قراءتها كفراً، مثل كتاب داروين «النشوء والارتقاء» ومجلة العصور للمفكر الكبير اسماعيل مظهر، وكتب الثائر المتمرد (سلامة موسى) ـ وما شابه هذا وذاك ـ عدا ما كنت اتلقفه مما يترجم إلى العربية من نتاج العباقرة.

لقد اثر فيّ هذا الجو الثقافي المجدد وعجل في انطلاقتي خارج الجو النجفي التقليدي، ومع ذلك فقد بقيت رعاية أخي شبه ثقيلة عليّ، على الرغم من رحابتها ولطفها، ومن ذلك ما كان من أمر التهيب في ما قد يعثر عليه من قطع أو قصائد شعرية مما كنت أحاول نشره في الصحف العراقية وذلك بسبب ما يساورني من قلق وأنا اواجه من هو أعلم وأشعر مني حتى لقد فضلت باديء ذي بدء ان انشر باسماء مستعارة وهكذا فعلت مع أول قطعة

نشرت لي في جريدة «العراق» وأنا في الثامنة عشرة من عمري على وجه التقريب. اكان شعوراً باطنيا ان يكون عنوان القصيدة: الشاعر المقبور؟.

دعا الموتَ فاستحلتْ لديه مرائرُهْ   اخو مورد ضاقت عليه مصادُرهْ
عراه سكوتٌ فاسترابت عُداتُه   وما هو إلا شاعرٌ كلَّ خاطره

كان ذلك مني دون ان اخبر احداً ممن معي، وعشت اياماً قلقة وممضة: تنشر أم تهمل؟ تهمل أم تنشر؟، واذا ما نشرت فماذا سيكون رد فعل أخي «عبد العزيز» والناس من حولي؟ وبعد فترة قصيرة وبلهفة الانتظار تلقفت الجريدة ذات يوم واذا بقصيدتي تحتل مكاناً بارزاً منها.

كيف اصف شعوري؟ لقد تعذر عليّ من فرط فرحي اخفاء السر حتى وصل الخبر إلى أخي «عبد العزيز» الذي جاء إلى البيت بعد ان سمع كثيراً من المديح لتلك القصيدة التي تتحدث عن وحدة الشاعر باسلوب ضبابي رمزي، وسألني على الفور: «أأنت ارسلت قصيدة إلى جريدة العراق»؟ فأجبته وأنا خائف من غضبه: نعم! ولم يكن خوفي في محله فقد قرأت في ملامحه ما يكاد يتمازج فيه المفاجأة وتقبل الأمر الواقع الجديد. وواصلت النشر. وكان ذلك بالنسبة لي حافزاً أكبر وبمسؤولية أكبر. وواصلت القراءة والحفظ ليل نهار متلقفاً الجديد ومستعيداً القديم ومتابعاً تيارات الفكر.

معارك مع الكتب

منذ أول قصيدة حتى العام ١٩٢٠، مررت بفترة يحق لي ان اسمها بميسم التطور والتبدل في اسلوب الحرف عندي، كان أهم انشغالاتي في الكتب والدواوين ونسخ ما صغر منها وارجاعها إلى مكتبة (الشيخ آل كاشف الغطاء) والد الشيخ (محمد حسين) العلامة المشهور، وكنت أسميه «جدي»، فجدتي (صيته) أم والدي، هي بنت عمه، كنت في هذه الفترة أقرب بكثير إلى الهوس مني إلى الهواية، فهي فترة انطلاقة في تناول هذا الكتاب وهذا المؤلف وهذه الدراسة أو المخطوطة وهذا المطبوع وغيره، وقد ترك ذلك تأثيره على تقويم الحرف العربي عندي.

كنت اقرأ بسرعة ونهم كي استطيع ارجاع الكتاب طبقاً لقانون الشيخ الكبير، فقد كان متشدداً كل التشدد في إعارة الكتب وفي سرعة ارجاعها وفي عدم جواز الكتابة أو التهميش عليها. ولازمني هوس القراءة هذا طيلة حياتي وإلى ما قبل عامين، يوم فوجئت بفقدان القدرة على القراءة وحرماني منها ومن المتعة الأولى في الحياة ان لم أقل الوحيدة عندي ولا اتذكر اني تركت ديواناً واحداً مما يقع تحت ايدي الناس لم أقرأه، ولم احفظ منه ولم انسخ عنه، وحملني هذا الافتتان بالكتاب يوماً ان ارتكب معصية. فقد خالفت قانون الشيخ، وحرمني من مكتبته، وطردني عندما اتيت اطلب منه كتاباً. وبلغ غضبه مبلغاً كان منه ان هشّ عليّ بعصاه وقال «روح وليّ». كنت وأنا في غمرة هذه الهفوة ناسياً ان جدي الأكبر هذا قد سبقت له قبل قصتي معه، ما كان من قصته مع أخي «عبد العزيز» وغضبه عليه وحرمانه من استعارة ما يحتاجه

من مكتبتـه العـامرة بسبب ما كان من أخي من كتابة «الهوامش» على هذا الكتاب أو ذاك.

وسعيت إلى ان اخرق اسوار الحرمان والتحريم، فنظمت قطعة شعرية رفعتها اليه استغفره واستعطفه عما كانت لي من هفوة «التهميش» على أحد كتبه. وتقدمت بها اليه وعلى يديّ أحد من في البيت، فكان منه ان استلطفها وأذن لي بالدخول إلى الدار، وهي كما اشرت، تكاد تكون البديل الأول عن دارنا. واخذت مجلسي في وسط العائلة وعلى اكواب الشاي والقهوة معها، وبعدها فالى مكتبته الفخمة الضخمة وإلى أحب ما يكون فيها من نفسي من الكتب الأدبية.

وتصاعد حب الشيخ الكبير وبلغ درجة لم يبلغها أحد قبلي عنده، هو ان يتفضل عليّ بمجلدين ضخمين هما وحدهما فهرست مكتبته لأستريح واريح، أي لالتقط منهمـا كل ما يعجبني، ولكي اكون إلى جانب دواوين الشعراء ولاسيما غير المتداول منها ونحن في عصرنا هذا بين أيدي الأدباء والمتأدبين والشعراء بل حتى ولا في اسواق الكتب: سبط بن التعاويذي، ابن النبيه، الأرجـاني، الابيوردي، البهـاء زهير، ابن سنـاء الملك، وكل دواوين الشعراء في عهد المماليك، هذا عدا دواوين الشعراء الضخام من عهد الجاهلية، وصدر الاسلام والعهدين الاموي والعباسي.

لقـد كان ذلك هوساً أتمنى، عبثاً، ان أعود اليه اليوم وأنا في العقد التاسع من عمري.

كنت اتناهب هذه الدواوين وإلى جانبها فكل ما يتعلق بها من حياة هؤلاء الشعراء وتواريخهم والنسخ النادرة منها: دمية القصر للباخرزي على سبيل المثال، موجز دمية القصر وبقلم مؤلفه أيضاً، والأيك والغصون لأبي العلاء المعري، هذا إلى جانب كل ما طبع من ذلك ونزل إلى الاسواق ومن امثالها مما لم يطبع حتى الآن.

لقد كنت في حرصي وأمانتي على ما استودعني اياه «جدي» هذا، من الكتب، اقضي النهار كله واشطاراً من الليالي بعد ذلك وعلى الاسرجة التي كانت تنار ببقايا الشموع تارة وبالزيت تارة أخرى وتطال أو تقصر فتائلها بين

الحين والآخر. وختم جدي افضاله عليّ، بأني دخلت التاريخ لأول مرة وأنا في عَهد فتوتي هذه بما دونه عني بخط يده في كتابه. (وكما اتذكر بعنوان ـ شعراء الشيعة ـ أو ما شابه ذلك) من تنويه وتذكير بأسمي في جملة ممن دوّن عنهم.

ولابد هنا من عودة، وان تكن عابرة، إلى نموذج من نماذج المجتمعات العربية كلها وليس في العراق أو النجف وحدهما مما قد لا يعرف عنها شيئاً من هو ابن الستين في يومنا هذا.

ففي مثل تلك الاجواء التي اتيت على ذكر جوانب كثيرة منها، كنت نموذجاً من نماذج عديدة هنا وهناك في العراق وفي كل ما يشبهه من المجتمعات العربية شبه الحائرة، وشبه المتخلفة، فيما كان يسيطر عليها بكماشات من حديد ما تتوارثه عن اجيال قبلها من مخلفات عهود لا نظير لها في تضارب الاهواء والنزعات والنكسات التي تكاد ان تمثل الضياع والتمزق بكل معانيهما وبما تتجاذب به الناس من قبليات جاهلية في الأكثرية الساحقة من الجماهير من عشائر وقبائل وبدو رحل أو مقيمين، أقول كنت في مثل هذه الاجواء نموذجاً في الافراط والتفريط بالشعائر الدينية ما هو بحق منها وفي الصحيح، وما هو بالنشاز منها وفي الصميم أيضاً، وبمثل ذلك مما كان وما يزال ظله القائم مخيماً حتى يومنا هذا من عصبيات في الطوائف والمذاهب والاديان والاحساب والانساب.

كنت أنا ـ النموذج هذا ـ حائراً وشبه ضائع بين ما تلقيه عليّ العمامة والذقن النابت الناشىء من ظلال النزعة الدينية مما تقتضيه «فلسفة الملابس» كما يسميها الكاتب الانجليزي (توماس كارليل)، وبين وثبات النفس المتفتحة على مرحلة جديدة وعهد جديد، فمن تعبد صادق احياناً ومتظاهر احياناً، وقسر للفراغ تارة ثالثة، بين (الحضرة العلوية) و(مسجد الكوفة) و(مسجد السهلة) فيما بينهما وما يشبه الحج المفروض ولكن لأربعين ليلة وليس لسبعة أيام وإلى (مسجد السهلة) هذا وبما يكتنف ذلك من ظلام الليل الدامس وتعرجات الوادي الذي تكثر فيه الحشرات بل حتى الحيوانات المستكلبة، هذا الحج الذي قطعت أكثر من نصف ايامه أو لياليه ولم أتمّه

لكي أرى (المهدي المنتظر) أو (صاحب الزمان) كما يسمونه باللغة الدارجة.

من هذا كله، وبين هذا وذاك كنت استنفذ ما أقتطعه من معاشات البيت كما مرت الاشارة اليه متجاوزاً الحدود المألوفة لكي أبتاع لا الكتب والمجلات الحديثة حسب، بل ولأنفق ما يفضل منها على هذه السهرة أو تلك أو هذه الندوة أو الأخرى في شواطىء النجف أو على (ضفاف الفرات) أنا وثلة غير قليلة من اترابي.

أما في ما يخرج عن هذا النطاق إلى عالم أوسع وأكثر التصاقاً بعصر النهضة الوافدة من الغرب إلى الشرق فقد كنت لا أدع كتاباً واحداً يفلت من يدي وما أكثر هذه الكتب، مترجماً ومنقولاً إلى العربية من أشهر كتاب الغرب: «الاوباش» لأميل زولا و«اللصوص» لشيلر و«ابن الطبيعة» لهايز باشيف و«مذكرات حمار» للكاتبة الفرنسية الشهيرة ـ التي نسيت اسمها الآن ـ ويخطر على بالي ان توفيق الحكيم استمد منها كتابه الجميل «حمار الحكيم».

واعود هنا إلى ما قبل قصيدتي الأولى، كنت قد بدأت (قرزمة) الشعر وأنا في الرابعة عشرة، وقد ابقيت أول قصائدي طي الكتمان لأنني لم أكن واثقاً من هذه البدايات ولأن النشر في الصحافة كان محرماً عليّ بتحذير شديد من والدي وليس أمامي إلا قراءة هذه القصائد في ما يسمى الآن بالصالونات الأدبية. وفي هذه المجالس صعوبات تصل حد الاحباط لشاعر ناشىء مثلي، فتهيب الشعراء الكبار يمنعني من القراءة امامهم. فكنت اعوض عن ذلك بأرتيادي مجالس النجف ومحافلها وإلى جانب الشعراء الضخام فيها والذين مرت الاشارة اليهم، فهناك كثرة كاثرة من النظامين والمتشاعرين الذين يتطلعون على هذه المجالس والمناسبات لقراءة الشعر من باب سد الفراغ أو طلباً لمكافأة، يتقاطرون على الاعراس والمآتم مثلاً ليقولوا في صاحب المناسبة (ترهات) يتعاطونها حتى وان لم تربطهم بالمهنأ أو المعزّى صداقة أو مودة أو جميل مقابل، ولكن لمحض ان هذه المجالس تتطلب ذلك، وكان التنافس فيما بينهم يصل حد التباغض والحسد والهجاء الفج بحيث تنطبق عليهم مقولة مالك بن دينار «تقبل شهادة القراء في كل شيء إلا بعضهم على

بعض فاني وجدتهم أشد تحاسداً من التيوس على النعجة». فكيف اذا كان الأمر بالنظامين والشعراء؟ وفي اجواء التحاسد هذه يستخدم بعض هؤلاء لصعودهم في المجالس اساليب بعيدة عن النظافة والشعر والأدب. وكان يأتي احدهم لمجلس لا يتسع لأكثر من اربعين شخصاً ومعه أو تسبقه جوقة من عشرين أو خمسة وعشرين وهم مهيأون للتصفيق لكل ما يمج من النظم الركيك والقوافي المهلهلة وعلى المصفقين لهذا كله ان يقابلوا من يليه أو يسبقه من شعراء مجيدين بسكوت أو تأليب متعمدين، لكي تخلو الساحة لهذا الشويعر أو ذاك.

وقد جُوبهتُ بمثل هذا الحسد والتأليب في بداياتي كما واجهتهُ طول حياتي اللاحقة، وحسبي شاهداً على هذا التحاسد والتباغض، بل التجاوز إلى الحقد الدفين ان اجيء بمثال واحد يدل على امثاله. لقد رافقت قصيدتي (ثورة العشرين) ضجة سيأتي الحديث عنها، ومع ذلك فلن انسى قط يوم رأيت وأنا اتمشى في ما يسمى (السوق الكبيرة) في النجف، أحد المتأدبين من آل بيت (كمال الدين) ومعه صاحبه ليقرب مني بما يشبه الالتصاق وعلى مسمع مني وكأنهما يتحدثان بينهما. «انها من نظم أخيه عبد العزيز»، ناسين لسوء حظيهما ان أخي (عبد العزيز) كان يومها قد غادر العراق من جهة وانني وفي هذه القصيدة وامثالها وكما تقول هي عن نفسها، كنت قد تجاوزت أخي الأكبر هذا نفساً ومستوى شعريين بدرجة أعلى وعلى المكشوف. واعود لأقول اكتفي بهذا صورة فاضحة لغيرها من صور الضغائن.

ومرة أخرى ولأقولها بثقة، فان بداياتي كانت أقرب إلى النضوج ومن جهة أخرى فأنا اكره ما يسمى بـ (التواضع). لقد كنت الصاعد اللامع بسرعة، وكانت الفترة الفاصلة بين (القرزمة) والشعر في بداياتي قصيرة جداً، قياساً للآخرين. لقد بدأت بقصائد قصيرة لا تتجاوز ابياتها أصابع اليدين. ولكن التراث الذي تلقفتهُ كان يتفاعل مع موهبتي ويدفعني دفعاً. وقد استطالت قصائدي وتوسعت واغتنت بقراءاتي لطلائع العصر الحديث التي بدأت تصل النجف عن طريق الصحافة والمجلات وحتى عن طريق الدواوين

الحديثة مما اغتنت به المكتبات هناك في اعقاب الانقلاب الدستوري في الدولة العثمانية. وقد أخذ هذا الجديد حيزه في مكتبة بيتنا وابتدأ سحره يدّب في نفسي ويثير من مخيلتي الشعرية والأدبية ويتجاوز بها أبعد من أسوار النجف. وكان من جملة ما اثر عليّ في سلم التطور الأدبي والفكري، اضافة إلى المؤثرات الأخرى فترة ما قبيل الحرب العالمية الأولى بسنة أو بسنتين. ففي اعقاب صدور الدستور العثماني وتأثيراته على منطقتنا كما اشرت دخلت الخلافة العثمانية طور السقوط بما كانت تقوم عليه من انكار خصائص وكيانات كل القوميات المنظوية تحت قبضتها، وعلى سبيل المثال حروبها مع دول البلقان التي انتهت بتحرر هذه الدول.

هذه الحركات المنتصرة حفزت المشاعر الوطنية والقومية والتحررية وخاصة لدى الشباب العربي المتنور، ولكن ائمة الدين في كثير من انحاء العراق لم يستوعبوا جيداً مغزى هذه الحركات التحررية وخلفياتها ولم يتفهموا اوضاع هذه الدول المُستعبَدة، وانما اكتفوا من كل مفاهيم هذه الخلافة وما كان فيها من استعباد الشعوب بمجرد بريق خداع من الدستور العثماني ومن مجرد ان الخلافة العثمانية تدين بالاسلام ولمجرد ان المتحالفين عليها كفرة.

الفصل الأول

حصار النجف

بعد وفاة والدي، وأنا الآن بصدد حادثة (حصار النجف) احاول ان اعطي صورة لما كان عليه بيتنا في هذه الفترة، بيتنا الذي يتكون من سبعة انفار، والدتنا و (الشهيد جعفر) الاصغر من بيننا، الذي لم يرّ والده بعينيه، حيث توفي وهو في السنة الأولى من عمره، ثم ومن بعده الاخت الوحيدة التي توفيت في الغربة ودفنت في دمشق إلى جانب (السيدة زينب) ثم أخي الأصغر مني و (المنتحر) وأنا ثم أخي الأكبر (عبد العزيز) ومربيتنا التي حملتنا كلنا على صدرها، وكنا في حالة بائسة لولا كرم الشيخ الشهم (البديري)، كما جاء الحديث، وبعد ذلك بسنتين، كان (حصار النجف)، وان لم تخني الذاكرة فقد كان عام ١٩١٩.

إن المصدر الأول لهذا الحصار هو كتاب «ماضي النجف وحاضرها» لـ (الشيخ جعفر محبوبة) صديقي والمؤرخ الموثق. وقد احببت كثيراً ان اراجعه من جديد هذه الايام بالذات فالصورة التي خلعها على (حصار النجف) تتجاوز حدودها بكثير، وهي في الواقع وكما قال محبوبة فقد كان حصار النجف يتجاوز فعلاً حدوده، وبالرغم من هذا وفي هذه المناسبة، فانني أجد أحداثاً ووقائع في التأريخ العراقي ما لا يصح ان ينطبق عليه هذا العنوان (الثورة)، فليست الثورة بمغزاها الحضاري أو السياسي أو الاجتماعي بالشيء الهين اليسير، ومثل هذا ما ينطبق على غير (حصار النجف) مما بعده من احداث في العراق انخلعت عليها صفات الثورة وما شابهها، فقد كان (الحصار) وأنا اعيش ساعاته وايامه ولياليه وعلى اجمل صورة، حركة تمرد وعصيان فريدين من نوعهما على أول حاكم بريطاني،

ولكنني أجد أن الشيخ محبوبة يناقض نفسه فيما يورده عن أمر هذا التحرك. ففي صفحة من كتابه هذا أتى على ذكر البواعث التي انطلق منها الحصار، وكأنها ما يشبه ثورة عارمة شعبية نجفية. وفي الصفحة التالية يقول: «وقد فز الناس على ازيز رصاص لم يألفوه». فمفارقة بعيدة بين ان تكون هناك ثورة لها ما يسبقها ويمهد لها ويتهيأ لكل من يعيش سوابقها وخلفياتها بل وتكون آذانه قد تفتحت عما قبل لأكثر من دوي الرصاص وبين ان يفزّ هؤلاء كلهم على ازيز رصاص لم يسبقوا به، أي كما يفز النائم على دق ابواب بيته فجأة. والحقيقة ان النجف، وبيتي واحد منها، فزّت فعلاً على اصداء الرصاص المتبادل بين المحاصَرين وهم أفراد قلائل معدودون، وبين المحاصِرين وهم كتيبة بريطانية طوقت النجف وعلى حين غرة.

شيء واحد يقرب ما بين المساف البعيد فيما بالغ به الشيخ محبوبة وبين ما عشته من هذه الفترة ومن هذه الحادثة بالذات، هو اني وقلة من أمثالي من الشباب، كنّا من الواعين المتتبعين لاحداث انحسار العهد العثماني، وما اعقبه من عهد الاحتلال البريطاني وتمركز قواته ونفوذه في حواضر العراق الأولى، وبخاصة ففي البصرة وبغداد وبما كان لذلك من ثغرات واسعة بين أكثر من مدن العراق التي كانت بحكم الواقع المرير شبه تابعة لما بين هاتين الحاضرتين، وبما يخص النجف بالذات، وأنا في معرض الاستشهاد بحادثة حصار النجف.. فان السياسة البريطانية كانت ترى النجف شيئاً آخر، أو بعبارة أصح وأوضح لم تكن تريدها ان تأخذ حصتها من الزحف البريطاني على سائر المدن العراقية، ولهذه الحقيقة بالذات حديث قد يطول ويحتاج إلى شيء من الصراحة ولتكن الاشارة اليه، بأن لبريطانيا في النجف، بالاضافة إلى مركزها الديني الذي لا تريد التحرش به كثيراً، أكثر من ضمانة واحدة وفي المقدمة من هذه الضمانات ما يسمى بـ(شيوخ النجف) «الزكرت وخصومهم الشمرت» والمتقاسمين فيما بينهم اطرافها الأربعة: (العمارة) (المشراق) (الحويش) (البراق). فالسياسة البريطانية والمسؤولون عنها في بغداد كانت تكتفي من جهة بانشغال هؤلاء فيما بينهم بالصراع، ومن جهة اخرى فيما تحتكره لنفسها منهم ومن غيرهم، كانت النجف شبه آمنة ومؤمن عليها،

ولهـذا السبب نفسـه، وفي هذه الفترة القصيرة التي سميتها (بالتمرد الوطني). كنا ونحن (شلة) في الطليعة من المهتمين بأمثال هذه الأمور أو بما يتضح لنا ونحن في الصميم منها أو حتى فيما يصل إلينا من صحيفة أو نشرة أو نَقَلة اخبار مشدودين بالاجواء التي سبقت الحصار وشبه ملمين بخلفياته.

الحقيقة لم يكن هناك ما أراد الشيـخ محبوبـة تصويره، اعني وجود جمعية سرية ثورية، على نطاق واسع وعلى اهداف بعيدة، وبعد هذا أو ذاك من الصور الملونة، فحتى الشيـخ محبوبـة نفسه قد جاء بما يشبه التناقض، مرة ثانية، مع هذا التصوير، ففي موضع آخر من كتابه هذا يقول، ما يكاد ان يكون بالحرف الواحد: انه كانت هناك جماعة من زعماء النجف يرون في هذه الحركة تعجلاً وتسرعاً من تصرفات تلك الجمعية السرية التي تحدث عنهـا، فالحقيقة، ان هذه الطليعة الخيرة التي اشعلت الشرارة الأولى في العراق كله، والتي شاء لها سوء الحظ، كما ستأتي الاشارة إلى ذلك، ان تكون هي المحروقة بها، والتي تذرّت رماداً بعدها، قد تُركت لوحدها لتصعد المشـانق على امتـداد قامـاتها، بل قامة النموذج الأول منها الشهيد «نجم البقال» الذي كنت أراه بين الحين والآخر شاخصاً في دكانه وبيده مسبحته، لاشتري منه بقصد وتعمد. وكان حانوته في آخر سوق النجف، وقريباً من الباب الكبير الذي يؤدي إلى الكوفة، وربما كان يقصده آخرون من الشلة التي تحدثت عنها. كنا نقصده لأنه كان معروفاً بفرط اخلاصه في التعبد ثم بتعصبه للخلافة العثمانية وبكره ما يسمونه حينئذ الكافرين أي «الانجليز».

هذا هو (النجم) الأول كأسمه، الذي التفت حوله تلك الطليعة من المؤمنين به والماشين على خطه، والذي استغله ومن معه، الآخرون.

ذلك شيء لا احب التشديد عليه، لأن الأكثرية من المشتركين الذين وردت اسمـاؤهم تحت شعـارات الـزعـامـة والـزعمـاء والشيوخ والثوريين والـوطنيين، كما صورهم صديقي «محبوبة» وكأنه يريد بهم من آزروا تلك الـطليعـة الثـائـرة، هو غير صحيح، لانهم كانوا من المتفرجين على هذه الضحايا لا أكثر.

ان شيوخ اطـراف النجف، وللحق والحقيقـة، كانوا في أكثريتهم،

كـ (سعد الحاج راضي) الذي ضحى بولديه ممن يحسنون التعامل والتعارف سواء مع الجمهـور النجفي أو مع الشخصيات البارزة منهم وبخاصة فمع البيوتات العريقة فيها، ومع هذا فقد كان كثير من اتباعهم بما يشبه العصابات من المسلحين وبما يهرّبون من الاسلحة، ثقلاء ظل على النجف كلها بحكم (عددهم) وعدتهم وغطرستهم، وفي احيان كثيرة ففي تصرفاتهم على هذا الطرف أو ذاك الذي يتحكمون فيه.

أما بعد ـ كما يقول المتفصحون ـ فان لـ (حصار النجف) أكان ثورة أو وثبة أو انتفاضة وهو الأول من نوعه، في العراق وبعده فلـ (ثورة العشرين) قصة لابد لها ولما تحت سطورها ومخلفاتها من استعراض سأعمل جاهداً على ايجازه، فقبل ان اجيء بما للمتقوقعين في ابراجهم العالية من رموز دينية ودنيوية وسياسية قد يطول ويطول الحديث عنهم وعن بصمات اصابعهم على كل تأريخ العراق، فلا مناص من ان يكون هذا كله المبرر الشاخص لهذا الاستعراض الذي أريده لـ(حصار النجف). فهو على قدر ما كان يفترض ان يكون الشرارة الأولى لثورة العشرين، فلربما يصح القول، ومن باب اجتماع النقائض، ان تكون النفخة الأولى فيما ابقته هذه الثورة المشتعلة من رماد لو صح ان يكون الرماد نوراً في عيون وسواداً في غيرها.

كان (حصـار النجف) تمـرداً وطنياً، بوسعـه ان يكون نموذجاً مثالياً لانتفاضة فريدة من نوعها على الاحتلال البريطاني البغيض في العراق كله، وان يجعل من ثورة العشرين نفسها أشد قوة وأكثر استمراراً وامتداداً بل وأشد بعداً عن استغلال المستغلين لها، على حد سواء ممن هم في الصميم منها، وممن تكشفت بواطنهم بعد ذلك بقليل، أو ممن استثمروها هنا وهناك في كل انحـاء العـراق لصـالحهم من المتهـافتين على المراتب والمناصب وعلى حساب «الدم الغزير» و «الدم الذي يتكلم» بما يشاء بعد ذلك بعشر سنوات*:

بعـد «عشـر» مشت بطاءً ثقـالا   مثـلمـا عاكسـت رياحٌ شِراعـا

---

* من قصيدة (الدم يتكلم).

عرّفَتْنَا الآلامَ لونَاً فلوناً وأرتنا المماتَ ساعاً فساعا

اختبرنا، إنّا أسأنا آختباراً وآقتنعنا، إنا أسأنا آقتناعا

وندِمنا فهل نكفِّرُ عمَّا قد جنينا آجتراحةً وآبتداعا

لو سألنا تلك الدماءَ لقالتْ وهي تَغلي حماسةً واندفاعا

ملأ الله دُورَكمْ من خيالي شبحاً مرعباً يَهُزّ النخاعا

وغدوتمْ لهول ما يعتريكمْ تُنكرون الأبصار والأسماعا

تحسبون الورى عقاربَ خضراً وَتَرَوْن الدُّروب ملأى ضِباعا

والليالي كلحاءَ لا نجمَ فيها وتمرُّ الأيّامَ سُوداً سِراعا

ليتكمْ طِرتُمُ شَعاعاً جزاءً عن نُفوس أسرتموها شعاعا

بالأماني جذّابةً قُدتُموها للمنيّات فانجذبن آنصياعا

وآدعيتم مستقبلاً لو رأته هكذا لم تُضع عليه صُواعاً

ألهذا هرقْتُموني وأضحى ألفُ عرض وأنف مُلك مُشاعا

أفوحدي كنتُ الشَّجاعةَ فيكمْ أوَلا تملكون بعدُ شُجاعا

كلُّ هذا ولم تصونوا رُبوعاً سِلتُ فيها ولم تُجيدوا الدفاعا

إنّ هذا المتاعَ بخساً لَيأبى الله أن تَفصِدوا عليه ذراعا

قلْ لمن سِلتُ قانياً تحت رجليهِ وأقطعته القُرى والضِّياعا

خَبَّروني بأنّ عيشة قومي لا تساوي حذاءك اللماعا

كانت تلك «حركة النجف» فيما ينبغي لها ان تكون وفيما لا تنبغي مما كان.

لقد كان هناك أكثر من سبب واحد يختفي وراء فشل هذه الحركة في ان تعطي ثمارها المنشودة، اهمها هو تخلي الطليعة الأولى المتحررة النيرة، عن المشاركة فيها، ثم عدم استمرار الطلائع الدينية والدنيوية، ذوي الكلمة النفاذة في شد أزر هذه المواقف ووقوفها موقف المتفرج منها، وعلى احسن

الصــور فموقف «الناصح» ـ والكلمة للشيخ محبوبة ـ أي بما يشبه المسارّة والتخفي، وبالاجمال، وبما يضاف إلى هذا كله من اسباب أخرى فقد كان أكثرها سوءاً ان يكون المستغل الأول لتململ المجتمع النجفي، والذي كان وبحق يمثـل تململ المجتمع العراقي برمته من الاحتلال البغيض الجديد وعلى انقاض الاحتلال العثماني، هو أقل زعماء النجف بل حتى المتزعمين فيـها شأناً واقلهم ثقافة وأبعدهم ادراكاً لاعماق الأمور واغوارها واقربهم إلى سطوحها وسطحياتها.

وبعد، فان منطق التاريخ في كل مراحله التي يمر بها ـ وبخاصة منها فمرحلة (الفجوات) ـ التي تبدو وكأنها طفرة غير محسوبة وغير متوقعة، يقول انها جزء لا يتجزء، من المجتمعات القائمة، ومن حصيلة الأمر الراهن فيها، وكل ما بوسع المعنيين بهذه (الفجوة) أو تلك (الطفرة) ليطوروا التاريخ هو ان يحسنوا استثمارها، والفرصة السانحة منها، لا ليطوروا الحدث نفسه، بل ان يجعلوا منه وسيلة لتطوير المجتمع.

وهذا (المنطق) ما لم يكن في حسبان من تسببوا في (حصار النجف) وضحاياه.

كانت هناك فترة غير قصيرة بين انحسار النفوذ العثماني عن العراق وما تركه هنا وهناك في كثير من المدن العراقية، وكما هو بحكم الواقع تقريباً، من بقـايا ذلـك النفـوذ على طول خمسمـائـة عام، من ثغـرات كثيرة يسـدهـا المتعصبون له أو المستغَلوّن من قبله بل حتى مما له من بقية عيون متلصصة وذمم مبتاعة، وبين زحف الجيوش البريطانية على العراق كله، والتي كانت ـ ولمثل هذه الاسباب ـ في غنى عن كثير من مشاكل الزحوف وتبعاتها على البصرة وبغداد وما بينهما من اواسط الفرات وهذا كله كان مما تغافله الشيخ محبوبة فيما استفاض به كتابه، والذي كانت قوالبه، للاسف، مفرغة على حساب الاعراف والتقاليد الدارجة أكثر مما هي عليه حقائق الأمور.

لم يكن في النجف في تلك السنة أو في ما قبلها من سنة ماضية أي اثر لوجود بريطاني، وكل ما كان قبله هو حاكم مدني من عائلة نجفية معروفة، وكل ما في الأمر انه كان يأتي من انحاء الفرات إلى النجف هذا المسؤول

البـريطاني أو ذاك، أي من الـوافدين عليها لتفقد ما هنا وهناك من شؤون النجف وفي فترات قصيرة جداً.

أمـا فيمـا كان من تلك الثغـرات بين النفوذين البغيضين والشخوص والضمائر والذمم التي كانت، بل وحتى الآن، يموه فيها ويزور بها وعلى مدى التـاريخ على الاجيال فهنـاك اسـرار واسـرار أهمهـا ما تحتفظ به الخزائن الحديدية التي يقسم المُؤتَمنون عليها على اقفالها بأغلظ الايمان، أما وأنا في هذه المـرحلة الواعية وفيما يختص بحادثة حصار النجف فقد وعيت على النمط «الأدنى» والمكشوف بكل معنى كلمة الانكشاف على النماذج التي ما تزال مدارجها ومسالكها وشخوصها ماثلة أمامي، وبعد فترة قصيرة تعرفت وأنا ببغـداد على النمـوذج الثـاني، وفي هذه المـرة لا المكشـوف ولكن شبـه المكشوف من الاسرار المزعومة، وسيأتي الحديث عنها مما يشبه التسمية والتعيين، ولأقلها بصراحة فمن «الوزراء» بأسمائهم وأنا في الاربعينات من هذه الذكريات، وأما الأدنى من الأدنى من هذه الأسرار وهو الأهم الأهم أيضاً فمـا تحتفظ به كمـا قلت الخزائن البريطانية المغلقة. فلدى «عبد الكريم قاسم» واحـدة منها وأنا شبه شاهد عدل على تسلمه اياها في آخر يوم من انفـاس «بهجت العـطية». لقـد كان يلوحُ لي بها ليقول بالحرف الواحد: «يااستاذ جواهري لو تعلم من هم في هذه القائمة؟».

واعود إلى أيام الحصار ولياليه ووقائعه، لقد دام شهراً أو ما يقرب بقليل لقـد كان قبل الحصار حاكم بريطاني، هو «الكابتن مارشال» ومقره كان ما يسمى بـ (خان عطية ابو كَلل) ويقع خارج اسوار النجف بأمتار معدودات، أي في المباني الواسعة التي شيدها «عطية» في النجف وكانت وكأنها مقر الحاكمين.

كان الشهيد «نجم البقـال» وشخص أو اثنان معه من المسلحين قد اقتحموا المقر فقتلوا الحراس والحاكم البريطاني، هذا كل ما كان من أمر المقتل والقتيل. بعد هذا فمعروف ما حصل. زحفت كتيبة أو أكثر، ولأول مرة على النجف لتطوق سورها وتضرب عليه حصاراً بغيضاً، شديد الوطأة، وليحتكر المحتكرون من جهة ما شاؤوا من اقوات الناس، وليمنع دخول أي

مواد غذائية من جهة أخرى، بحكم الحصار المضروب. ثم ليفر المتمردون ليضيق بهم البيت بعد الآخر بحكم ما كان للنفوذ البريطاني في النجف من اعوان وجواسيس، ثم ليضطروا معه إلى النزول أو ما يشبه الانحدار إلى القنوات الممتدة منذ زمن قديم بين النجف ونهر الفرات لغرض سحب الماء منه إلى شواطئها، وليكون للجيش البريطاني المحاصر علم بذلك كما اشرت، فيضرب الحصار حتى على آخر مخرج من هذه القنوات. ولكي لا يستسلموا إلى المعسكر البريطاني حيث مخارج القنوات فقد عادوا ليخرجوا من مداخلها في النجف نفسه كرامة وفروسية، وان يستعرضوا انفسهم وهم في اكفانهم في شوارعها واسواقها.

ولابد مما ليس منه بد فان يقبض عليهم الواحد بعد الآخر. ثم لتتشكل محكمة عسكرية تحكم على ثلة منهم بالاعدام وعلى آخرين بالنفي أو السجن، وليحكم بالسجن الشديد على المتزعم ظلماً وعدواناً لحركة العصيان هذه ثم ليعفى عنه بدخالة من كبار أئمة الدين في النجف. أما سعد الحاج راضي، شيخ المشراق، المشار اليه فقد شنق ولداه أمامه وهو رافع الرأس، أما «الشيخ جواد الجزائري» فقد كان شبه طارىء على هذه القصة. حقاً كان من المتحررين وفي الطلائع من الثائرين من احرار النجف ولكن وفي حقيقة الأمر كان يراد بنفيه مجرد ما يشبه الانذار للمتحررين الثوريين من امثاله. أما ما بلغت اليه الحالة الرهيبة خلال هذا الحصار وبخاصة منها اشتداد حالة العطش لقلة الماء بل وانقطاعه، فانني أذكر إلى الآن ان السماء شاءت ان تمطر في غير اوانها قطرات شحيحة، وضعنا تحتها ما يسمى بـ(الطاوة) ـ المقلاة ـ بما فيها من آثار الدسم. وأنا كنت ممن تعلل بها، وشاء النفوذ البريطاني الخبيث ان يخص بالامتياز والاستثناء بعض العوائل والبيوتات الدينية الشهيرة، وكان بيتنا في الجملة من هذه البيوت، حيث سمح لنا بان نتنفس من جديد وان نشرب من جديد وان نأكل من جديد ايضاً. وكنت أنا اتجول متمتعاً بالامتياز هذا في الكوفة قرب الساحة التي نصبت فيها المشانق ولم تشأ نفسي ان أرى هذا المنظر المفجع لهؤلاء الثائرين، هذا، هو التاريخ بأم العين وبالحرف الموثق الامين لحصار النجف.

الفصل الثاني

عجيبٌ امـركَ الـرَجـراجُ — لا جنـفـاً ولا صددا
تضـيق بعـيشـةٍ رَغَـدٍ — وتهـوى العيشـة الـرغـدا
وتخشى الـزُهـدَ تَعشقهُ — وتـعـشـق كلَ مَنْ زهــدا
ولا تقـوى مُصـامَـدةً — وتَـعبُـدُ كل من صَمَـدا
ظللت تُصـارِعْ الأسدا!! — تُريدُ المَجـدَ والصفَـدا
وتَـطمـعُ تجمـع القَمرينِ — فَخْـرهُـمـا ان انـفـردا

شبح في بغداد

أسلاف الشعر في النجف

رحلة الشعر

المرأة الأولى

الفصل الثاني

شبح في بغداد

ألـج هذا الفـاصـل من حياتي بمقتبس طويل. في حديث لمجلة (المجلة) يقارب العقد من الزمن، قلت متحدثاً عن اجوائي قبل وفي أثناء أول زيارة لي لبغداد:

ماذا كانت ردود الفعل على قصائدي الأولى التي نشرت بعضها في صحيفة (العراق) ١٩٢٠؟

فوجئت في أحد الأيام بالشاعر المبدع محمد الهاشمي يرد عليَّ في جريدة (الرافدين)، الجريدة الثورية الأولى آنذاك قائلاً في قطعة مؤطرة وعلى الصفحة الأولى معنونة «إلى نابغة النجف» ومطلعها:

أيهـا الـبـلـبـل غرد
وانـظم الآلام شعـرا
كلنـا مصـغ حزين
كلنـا يطلب امـرا

قرأت قصيدة الهاشمي مرات ومرات وذهلت. أصحيح أنني الانسان الذي استطاع ان يهز هذا الشاعر، فيرد عليّ شعراً على القافية نفسها؟ اذن، أنا انسان مهم. الأرض لم تعد تحملني. . وبدأت الاحقاد تنمو

في مجتمعي النجف، ضد انسان صاعد في بلد التناقضات،بلد الفقر المدقع والغنى الفاحش، جنباً إلى جنب.

باختصار، بدأت أعي لعبة الحياة، بدأت احسّ ان بلدي مجمع أدب ومجمع دين ومجمع فقر. وخلاصة الموضوع ان سيئاتها أكثر من حسناتها.
وتشجعت كثيراً، واعطتني قصائدي المتتابعة زخماً وانطلاقاً في «بحور الخليل» ومن هذا المنطلق فأنا نصير ومشجع للمبتدئين في عالم الشعر.

كما ان طموحي تعدى حدود العراق فصرت ارسل قصائدي إلى مجلة (العرفان) في صيدا (لبنان) وكان صاحبها (أحمد عارف الزين) وإلى مجلة (الهلال) في مصر. بل وتجاوبت معي طموحات الطلائع الأدبية من شباب العراق في العاصمة نفسها، فما احلى تلك الرسائل المتبادلة ـ والآسف على فقدانها الآن ـ بيني وبين أكثر من واحد منهم وفي مقدمتهم (أحمد حامد الصراف)، مما يصح حتى الآن، ان تكون حواراً جميلاً لذيذاً، كان ذلك وأنا لم اتخطّ بعد اسوار النجف إلا بقليل...

وبدأت اشعاري تبدو وكأن صاحبها أكبر مني سناً!
ففي أول زيارة قمت بها لبغداد، كان من الطبيعي ان أزور الصحف التي تنشر قصائدي، وفوجيء اصحابها بصغر سني، خصوصاً وان شكلي في ذلك العهد كان لا يتناسب بشيء مع اسمي اذ كان وزني لا يتعدى الاربعين كيلو غراماً إلا بقليل، وكنت يومها ارتدي الجلباب والعباءة العربية (الزي النجفي) وعمامة صغيرة.
كنت مثل شبح، ولشد ما فوجئت بحقيقة هذا الشبح عندما تصورت ولأول مرة في بغداد.
بعد ذلك صارت نظراتي تشتد بالمرآة يوم عرفت ان هناك شيئاً اسمه الاناقة في حياة الانسان، أي بعد بلوغي عامي العشرين بفترة. بغداد كانت بالنسبة لي عالماً مجهولاً، ذهبت اليها لاكتشاف هذا العالم الجديد، زيارتي اليها كانت اشبه بعربي ملهوف يزور باريس لأول مرة. ورغم بقائي يومين لا غير في بغداد، بقيت اشهراً اتحدث إلى محيطي عن اكتشافاتي فيها.

وبلا مبالغة، كنت أروي القصص كما كان يروي كولومبس اكتشافه لاميركا.

أنـا «كولومبس النجفي» يروي مغامراته المزعومة في بغداد. رسمت لهم صورة من الاسـواق الكبيرة، ومـا تحـويه المحلات، وكيف ان الغيد الحسان من بنات النصارى يمشين سافرات في الشوارع وكأنهن حوريات، ياسبحان الله! وهنا فما أبدع قول الحبوبي الشاعر والامام في وقت واحد:

حيِّ اقـمـارَ الـنـصـارى
تخـذت بـ «الـكـرخ» دارا

ما زلت اذكر أول مرة نزلت فيها إلى السوق، وكيف بهرتني الاشياء المعروضة في الواجهات. بعضها لم أكن اعرف ما هو.

وقفت أمـام حانـوت. اقسم، ان الـذي استوقفني لم يكن البضائع المعروضة، وانما كان وجهاً جميلاً لفتاة في عمر الورود، تتحدث مع صاحب الحانوت، ربما كان يغازلها، لا أدري!

كل ما أعرفه انني وقفت في مكاني مبهوراً بجمالها رغم العباءة التي كنت ارتديها والعمامة التي كنت اعتمرها. هذا «الشبح النجفي» لم يستطع مغـادرة المكـان. ياسبحان الخالق. ما تزال صورتها إلى الآن مطبوعة في ذاكرتي. وكذلك نظرة صاحب الحانوت الذي بدأ وكأنه يقول لي: «ماذا تريد ايها المتطفل؟ اذهب بعيداً ودعنا وشأننا». ومع ذلك بقيت مكاني.

أنا المتطفل المعدم، تسمرت قدماي داخل الحانوت. حاولت شراء أي شيء مقابل بقائي، فما استطعت ان ادفع أكثر من ثمن صورتين صغيرتين لبعض الممثلات اللواتي كانت صورهن معروضة.

مفارقة طريفة: شيخ ذو لحية وعباءة وعمامة يشتري صوراً لممثلات كن مشهورات في ذلك الزمن! والأكثر من ذلك، انني حملت هذه الصور إلى النجف وكـأنني اشتـريت هدية كبيرة. كمـا انني لم أنسَ ان احـدث أهل

عشيرتي عن العربات التي تسير في شوارع بغداد، وكيف انني دخلت دور الصحف واستقبلت استقبالاً كبيراً. وكانت ليال طويلة قضيتها وأنا لا أمل الحديث عن بغداد. كما اعطتني تلك الرحلة شحنة من الاندفاع، وكبر غروري بنفسي.

وفي هذه الزيارة ولأول مرة، وهذا شيء طريف، كنت اجرب ركوب السيارات فكل ما كان عندي خلال مرحلة البدايات حتى بداية العشرينات كانت كل رحلاتي ما بين النجف واطرافها هي ركوب العربات التي تجرها الخيول. ولا أنسى أول سيارة رأيتها في النجف كان ذلك اثناء دراستي في (المدرسة العثمانية) ربما كنت في العاشرة من عمري آنذاك، فقد خرجنا من الصفوف لاستقبال جاويد باشا وزير المالية في الدولة العثمانية. وطبعاً لا يمكن ان تزور العراق أية شخصية مهمة ما لم تحضر إلى النجف، وتقوم بزيارة المرقد العَلَوي. يومها حضر جاويد باشا في سيارة ضخمة ظلت حديث الناس لفترة طويلة. سيارة تمشي وحدها؟ كانت تعتبر ظاهرة فلكية لا تصدق. وكأنها المركبة الفضائية الأولى.

الفصل الثاني

أسلاف الشعر في النجف

الفترة الممتدة من بداية عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٤ تتصل بما قبلها، فهي امتداد لمدارج حياتي الخاصة في النجف مما قبل العشرين بثلاث سنوات تقريباً، ولما بعده حتى عام ١٩٢٤. أي انها استمرار لمشاركتي في المحافل الأدبية والشعرية، والتي تقلصت ظلالها الوارفة بعد رحيل الرعيل الأول من النمط التراثي المتعارف عليه وفي نماذجه الأوائل.

واعيد ما يشبه الحصر آملاً ان لا يفوتني الكثير من اسمائها، وفي المقدمة الشاعر السيد «الحبوبي» وقبله السيد «حيدر الحلي»، الذي لم افطن عليه، ثم السيد «جعفر الحلي» ثم السيد «عبد المطلب الحلي»، وعندما اقول الحلي، أي من بلدة الحلة على الفرات، فانني أريد التذكير بان هذه الاوائل الثلاث كانت شبه نجفية أكثر من انتسابها إلى موطنها الأول، لأن النجف هو المرجع لكل من ينبغ من هذه الطبقة أو تلك، ولاسيما بعد انحسار موجة ما تبقى من التراث العربي الاصيل، ومن هؤلاء السالفي الذكر ممن يصح ان يكون همزة الوصل بينه وبين المرحلة الجديدة من بداية تفتح الشعر الذي يواجه الزمن والمجتمع.

وبانحسار هذه الطليعة، انحسرت تلك الموجة من المجتمع النجفي بوفاة من توفي وبأنطواء من انطوى، وبانتقال من انتقل. كانوا وكأنني اتذكر ملامح كل واحد منهم وأنا فتي، بل وحتى قاماتهم بين الطويل منها والقصير، وبين السمين والنحيف، والجامعة الوحيدة بينهم تقاطيع وجوههم المعبرة، الشيخ الشبيبي الكبير، «جواد»، والسيد «رضا الهندي»، ووالدي الذي تحدثت عنه كثيراً، والشيخ «عبد الكريم الجزائري».

ويصح تاريخ انحسار هذه الموجة مباشرة بتاريخ بداية مواكبة طلائع العصر الحديث، أي بمرحلة الدستور العثماني، وتفتح العالم العربي والقومية العربية بخاصة وهي في الاستانة، هذا التفتح الذي لم يقتصر على اضواء الحرف العربي في الشعر والنثر فحسب، وفي شتى مجالات الحياة، الأولى التي مهدت لأول وهلة فيما بعد للعهد العربي الجديد في العراق لكن بما كان فيها ممن تولوا الحكم بعدئذ فيه، حيث كان هناك في الاستانة حزبان متصارعان، حزب يؤيد، بل ويفخر ويعمل ويتكتل في إطار القومية العربية، وضرورة ان يقوم لها كيان خاص، حتى ولو كان ذلك على يد حلفاء جدد كبريطانيا، على سبيل المثال، كما هو واقع الحال فيما انضم به العرب آنذاك إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، والذين كانوا وهم يقضون على الخلافة العثمانية، يعدون العرب بكيانهم القومي، وهذا الحزب يضم الطلائع الأولى من العرب في الاستانة وفي المقدمة منهم الامير فيصل، أي انهم يعملون على الانفصال عن الكيانات الأخرى والاستعباد العثماني.

أما حزب الاتحاد، والاتحاديون فكانوا الحزب المقابل، أي في الطرف الذي يقول بوجوب أو بضرورة بقاء سيطرة الخلافة العثمانية على كل القوميات.

اجيء بهذه الفاصلة لأقول، ان الطلائع الأولى في النجف لهذه الفترة التي عشتها لمجرد التنفيس عن هوايتي الشعرية لامهد بها للقول، ان المحافل والمجالس الأدبية في النجف كانت صورة لانحسار الموجة الاصيلة، سواء في بقايا التراث القديم أم في طلائع العراق الجديد، وذلك بعد رحيل السيد الحبوبي الذي انتهت به زعامة المحافل الأدبية والشعرية. فقد كانت الطبقة الأولى بين من انسحب من الميدان وانطوى على ذاته، وبين من قد توفي منهم، أما الثانية والمجددة، فقد رحل البارز منها إلى خارج النجف. كنت قد ابتدأت مرحلة جديدة مختلفة، وهذا من باب المفارقات، بشيء كثير عما قبلها بعام أو عامين، أي انها كانت قفزتي الشعرية ونفسي الشعري الجديد، الذي تمثل في الصحف والمجلات، كان يبدو وكأن

الفارق بينه وبين ما قبله بعيد، أي بفارق التصاعد فيه، اذ كانت القطعة، بين اسبوع واسبوع، تتقوى وتفوق ما قبلها بسرعة.

وكانت أشهر جريدة في بغداد، وهي جريدة (الرافدان)، وكما أشرت جريدة ثائرة بحق، يصدرها الاخوان الشاعران الأديبان، (رشيد الهاشمي) و(محمد الهاشمي) وقد عطلتها السلطات الانجليزية في عهد الانتداب، كانت تصل وكل قطعي منشورة فيها على الصفحة الأولى.

ومن هذه المقاطع والقصائد الشعرية ما كانت تختص به جريدة (العراق)، لصاحبها رزوق غنام وهي أول جريدة منذ بدء الاحتلال الانجليزي وحتى الخمسينات.

حتى جريدة الاستقلال التي تمثل الخط القومي، وان على نمط غير مستقيم شبه متبلبل، كانت هي التي تفردت بنشر قصيدتي في رثاء شيخ الشريعة، الذي عاش انتكاسة الثورة بعد ان شارك في تواليها.

كانت هذه هي الصحف الشهيرة المتداولة في العراق والتي كنت اشارك فيها، أي انني كنت أبدو وكأنني مزدوج المواقف لا متناقضها فيما كنت وأنا في محيط النجف الضيق، وقد بدأت محافله تتهاوى، اشارك بدون حساب كل من يستحق أو لا يستحق ان يكون شاعراً. وفي حين كنت اطلع على الناس بكل ما لا يلتقي وتلك الاجواء الضيقة والمتشاعرة في صحف العراق ومجلاته وفي غير قليل من المجلات الأخرى خارج العراق، وكنت وأنا بهذا الصدد ما يشبه الشيء الجديد المبتكر في التطور الشعري الحديث من جهة، وفي التطرف الوطني الثوري من جهة ثانية.

وأحب هنا أن أنوه بكتاب جبرا ابراهيم جبرا بما اطلعت مما لم اطلع عليه من قبل من انه قد تناول قطعاً من هذه الفترة بالذات متحدثاً وبما لا استطيع أنا صاحبها التحدث عنها، من التقاط الصور وتدوينها في كتابه القيم «النار والجوهر» وبوسع القارىء ان يرجع اليه في ما يستدرك من هذا الجزء. وحسبي من ذلك كله ان يقول عن نماذج من هذه البدايات، انها تضاهي اجمل ما كتب (وودزوورث) شاعر الطبيعة الانجليزي ومفخرة التاريخ الأدبي في بريطانيا وفي العالم.

هناك احداث تقع خارج هذه الحدود الفنية والأدبية، وتقع داخلها ايضاً وابرزها قدوم الامير فيصل إلى النجف للمرة الأولى وفي الفترة القصيرة التي أصبح بعدها ملكاً على العراق، والذي كان قد خرج أو أخرج بشرف وكرامة من قبل الاحتلال الفرنسي لسوريا، وكان الامير الأول الجديد الذي تكتحل به عينا سوريا التي قدمت الشهداء على المشانق على يديّ (جمال السفاح)، وهو ابن الشريف حسين أول شهيد في سبيل القضية العربية وقضية فلسطين بالذات والذي ضحى بنفسه معتقلاً في البارجة البريطانية وهي تنقله إلى منفاه ومثواه الأخير في قبرص، ولعلني كنت الأول والأخير حتى الآن ممن كانوا الاوفياء له في قصيدتي (سجين قبرص).

هي الحياة باحلاءٍ وإمرارِ تمضي شعاعاً كزَند القادح الواري

ولربما كانت هذه القصيدة مفارقة فريدة في بابها ذلك انني استلهمتها وأنا في الصميم من الشباب العراقي الواعي بكل حواسه واحاسيسه لهذه الفترة من تمخض الاجواء العربية مما ستنبثق عنه من عهود جديدة، استلهمتها بمحض الاندفاع النفسي قبل ان يخطر لي ببال حتى ان يكون هناك عندي ما يشبه الصحوة بين النوم واليقظة من ان أكون بعد سنتين أو ثلاث عند ابنه الملك العربي الأول فيصل.

أما فيما يتعلق بسوريا والتي كانت طوال عهود كثيرة مؤثرة ومتأثرة بكل الاحداث التي تصل ما بينها وبين العراق فقد كنت في الصميم من الواعين آنذاك، على ما تمتاز به سوريا على كل البلدان العربية في مقاومة الحكم العثماني منذ بداية عهد الدستور وعبر نهاية الحرب العالمية الأولى حتى ما بعد تنصيب أول أمير عربي فيها. ومن هذا المدخل بالذات أجدني مشدوداً بذكرى هذه الزيارة الأولى التي اشرت اليها لأول امير عربي هناك وقد وصل النجف ليعود منها إلى بغداد ملكاً على العراق.

لقد كنت بين المتجمهرين على صحن الدار الفسيحة لعائلة (حميد

خان) حيث نزل الامير فيصل ضيفاً عليه لأتملى الملامح البدوية لأول نموذج عربي ، كان همـزة الـوصـل بين المتقـاسمين للمنطقة العربية في معاهدة «فرساي» وبين كل من كان من طلائع العهد العربي الجديد في باريس إلى القاهرة أو سوريا، من شيوخ وكهول وشباب .



الأمير فيصل بن الشريف حسين
(قبل تنصيبه ملكاً على العراق)

ومن المفترض وأنـا على ما اتيت عليه من مشـاركة في متابعة تلك الأدوار، ان اكون في جملة الذين حفوا بهذا الامير من وجوه النجف وبخاصة فمن شبابها، في حين كنت من بين المحرومين من ذلك .

وأورد مثـالاً على حرماني هذا وعلى تجاهلي أو جهلي بنفسي وبما يجب ان تكون عليه من وعي على نفسها هو انني وأنا على السطح من بيتنا وكان يفصل بينه وبين سطح دار (هادي الرفيعي) سادن الحرم العلوي حينئذ والحافل بوجوه عديدة تحف بالامير فيصل وفي هذه المرة فقد كان ضيفاً على

(الرفيعي) في مأدبة عشاء اقيمت له رأيت وأنا أتسلق الحائط وفيما بين تلك الوجوه وجه صديقي 'باقر الشبيبي في هذه الليلة بالذات أحسست وكأنني احاول محاولة عسيرة ان اتسلل إلى هذا الحفل لأتنافس مع الشبيبي وهو يلقي كلمة مؤثرة، وغير عسيرة عليّ في الترحيب بمقدم الامير.

أما في الزيارة الثانية للامير السابق إلى النجف فقد مرت عليها سنتان تقريباً، وهو ملك على العراق، وفي هذه الزيارة كانت قصيدتي المرفوعة اليه على يد العم الأكبر الشيخ جواد، ولا أدري لماذا لم ارفعها اليه بنفسي، وهي من القصائد الرقيقة:

أَعِدَّ لك النَّهَجُ الواضحُ فسِر لا هفا طيرُك السانحُ
وحيّاك ربك من ناصحٍ اذا عزّنا المشفقُ الناصحُ

حيث كانت الضجة الكبرى لنفي العلماء الأوائل في كل انحاء العراق بل في كل ما يتجاوز حدوده، وفي عهد وزارة (عبد المحسن السعدون) وبهذه المناسبة فقد عرفت لأول مرة ما هو جار حتى اليوم من ان الدين يختلط بالسياسة وكان نفي القطبين الاولين وهما (السيد ابو الحسن) و(الشيخ النائيني) بسبب احتجاجهما على نفي الشيخ (مهدي الخالصي) الذي كان يمثل مكانتيهما على وجه التقريب في ما يختص بالعاصمة العراقية نفسها ولا فرق بينها وبين الكاظمية أو الأعظمية فهما استمرار واحد على ما يشبه الفتوى بمقاطعة المجلس التأسيسي. ويكاد هذا السبب ان يكون امتداداً لسبب ثان هو تأييد الشيخين القطبين في النجف لنفس الفتوى التي افتى بها بمقاطعة المجلس التأسيسي، وكان آنذاك في العاصمة وما يتبعها وفي النجف وبعبارة أدق ففيما يختص بالفرات وعشائره وقبائله حتى البصرة ايذان باشارة للفتنة الطائفية مما اضطر معه (السعدون) نفسه إلى الاعتذار أو التراجع ثم ما كان بعد ذلك من اضطراره إلى الموافقة على عودتهما إلى العراق في هذه السنة

نفسهـا. كانت قصيدتي تلك المشـار اليهـا من أولهـا إلى آخرها استلطافاً واستعطافاً بل وبما يشبه الاستفزاز للملك فيصل في ما كان من مظلمة لحقت بهؤلاء الاقطاب ولأهمية عودتهم إلى العراق.

ومن باب المفارقات ان عودتهما هذه المرة كانت وكأنها بمثابة زحزحة للتفـرقـة، بل ومثالاً شاخصاً للتوحيد. فخلال تلك الفترة غير الطويلة بين تسفيرهما واعادتهما كان ما يمثل بحق التقاء الاطراف كلها في العراق على موقف وطني واحد لمقاطعة المجلس التأسيسي الذي كان يمثل صورة من صور التدخل الاجنبي المباشر لبريطانيا نفسها ولمن لها من اجناد واتباع في الحكم ونظامه والمتصارعين عليهما.

وعاد الزعيمان الدينيان إلى النجف ـ أما الفقيد الشيخ الخالصي فقد اختاره القدر شهيداً في منفاه ـ وعبر طريقهما إلى بغداد كنت في جملة من خرج من النجف لاستقبـالهم وكنت اصغـرهم سناً، ونحن على مقربة من محـطة القـطار الخاص الذي يقلهم كانت مفرزة من الشرطة معدة لغرض استقبالهم يترأسها رجل عرفته بعدئذ هو (نوري السعيد) الذي كان استناداً إلى ما أرخ للعراق مديراً لشرطة بغداد يومذاك.

الفصل الثاني

رحلة الشعر

تحدثت في البدايات عن بداية معاطاتي الشعر، ولمزيد من الدقة والتثبيت، قمت بمراجعة هذه العشرينات في الجزء الأول من ديواني. وهو على بساطته، اساس لحياتي الخاصة والعامة، فوجدت انني وكما ازعم من ولادة ثلاثة بعد الألف والتسعمائة. وبهذا فأكون قد ابتدأت استعد لتلاوة قصائدي في محافل النجف الأدبية المألوفة وبعدها فلنشر القصائد، فضلاً عن الارهاصات وأنا ابن السادسة أو السابعة عشرة ولابد انني كنت في هذه الفترة قد مزقت والغيت الكثير والكثير وهي طبعاً بداية كل شاعر وقاعدة لكل الشعراء، فليس بالسهل ان ينشروا كل ما يكتبون وكل ما يقرزمون ويُرهصون، لأول مرة. واتذكر انني لم أجرؤ على قراءة كثير من هذه القرزمة التي تعاطيتها حتى لمن معي، وهنا وفي معرض تعدادي للسنوات من عمري، فلا أدري ما اذا كان يصح الاختلاف بيني وبين الدكتور (علي جواد الطاهر) في مقدمته لديواني - طبعة بغداد - في السبعينات، حيث يصر على ان ولادتي كانت عام الف وتسعمائة، واصر على انها كانت بعد ذلك بعامين أو ثلاثة.

لقد وجدت في نهاية العشرينات، أو بداية الواحد والعشرين قصيدتي «ثورة العراق» أي، ثورة العشرين، وهي منشورة بعد نكسة الثورة التي خنقت على ايدي القوات الانجليزية. ولم تطل سوى شهرين وثالث على أكثر تقدير وبدا لي بوضوح أن هذه القصيدة كانت منشورة في عام واحد وعشرين، عدا ما سبقها مما احتواه ديواني ومما لم يحتوه من قطع وقصائد صغيرة، قبل ذلك بعامين.

وعندما افكر بدقة، فقد كانت بداياتي وأنا راض عن نفسي وان عزّ عليّ

هذا القول، يلوح بعضها وكأنه من نهاياتي، وإلا فكيف يقول من هو في التاسعة عشرة، وحتى لو كان في العشرين من عمره:

لعلَّ الذي ولَّى من الدَّهر راجعُ　　فلا عَيشَ إنْ لم تَبقَ إلَّا المطامعُ
غرورٌ يُمنينا الحياةَ: وصَفْوُها　　سرابٌ وجناتُ الأماني بلاقعُ

ولكي اضع القارىء في الصورة، فان هذه القصيدة، وهي متلازمة بالنفس الواحد، والمستوى الواحد، تتصل بحكاية ذات مغزى عميق، يستحق ان ينتظره القارىء إلى ما بعد عشرين عاماً، أي في ذكرياتي في الاربعينات.

أما المغزى المبسط المؤرخ عنها والدال على مدى تأثيرها في الاوساط العراقية، فهو ان (الشيخ الخالصي) نفسه كان ممن تأثر بها، فطلب اليَّ على يد (محمد رضا الصافي)، عميد أسرة آل الصافي في النجف، ان اتقبل منه ما أشاء من هدية عليها، ولا أدري لماذا اخترت الموسوعة المسماة بدائرة المعارف لفريد وجدي، وحين لم يجدها في الاسواق فقد اهداني مبلغاً اعتز به وأحمل ذكراه.

وعلى كل حال فقد ابتدأت النشر في صحف ومجلات عديدة في العراق وخارجه، وعلى سبيل المثال ففي مجلة (لسان العرب) التي كان يصدرها العلامة والمؤرخ (الاب انستاس الكرملي) ببغداد. وفي مجلات عديدة أخرى. وقد وجدت في سنة ١٩٢١ وحدها ان لديّ احدى وعشرين قطعة وقصيدة، أي بمعدل قصيدة واحدة أو قطعة واحدة ما بين الاسبوع والثاني.

لقد ابتدأت الجري في مجال الشعر وميادينه، بوجه بريء متهلل تبشر اساريره الناطقة بشيء غير قليل من البساطة والفكرة والاسترسال وعدم التكلف وبخاصة بانعكاس صور الطبيعة لا التطبع بمختلف الوانها، على الحرف والقافية، والحقيقة ان جميع تلك القطع وما يصح تسميته مجازاً

بالقصيدة، هي بين العشرة والعشرين بيتاً ـ وقسم منها بسبعة ابيات ـ ذلك اذا استثنيت منها قصيدة (ثورة العشرين). فقد كانت تدل بنفسها على نفسها، بل حتى هذه القصيدة وللأمانة في التاريخ فهي تخضع لهذه الشواهد، ففي بدايتها بمثل ذلك العدد تقريباً، ثم اضفت اليها ما يزيد عليه في فترات أخرى متقاربة، انه تدرج طبيعي لشاعر يلوح وكأنه يعي ما يقول من جهة ومن جهة ثانية فانه لا يريد ان يتجاوز حدوده وحجمه ولا مستواه كما تصنعه قبل ذلك، وتصنعه بعد ذلك كثيرون وحتى يومنا هذا انني اتعجب الآن من الجيل الجديد الذي يحاول عبثاً ان يقلد الجواهري مثلاً، أو غيره من الشعراء الذين فرضوا انفسهم، فيجرب القلم، وربما لأول مرة بسبعين أو ثمانين بيتاً. أي بمستوى قصائدي في الاربعينات أو الخمسينات، ان ذلك لم يحصل عندي بسهولة واذكر ان نفَسي الشعري وبالضبط في العشرينات، بدأ يتصاعد، وبدأت القصيدة تطول بحكم الطبيعة والتمعن والعمر.

هكذا كان تفجر الشعر عندي طبيعياً. وهكذا كانت الفكرة عندي محدودة ولم تأخذ مجراها المتفرع والاعمق، إلا عاماً بعد عام وهزة بعد هزة وتجربة بعد أخرى. ان فكرة تولد فكرة كما هو الآن، وكلمة تذكر بكلمة، وموقف يذكر بموقف لكي تكون القصيدة متكاملة بتناسلها الفكري والأدبي والفني وبتسلسلها.

أنا لا ازال اتحدث عن الناحية الأدبية والشعرية عندي، وليس من السهولة بمكان انفكاك هذه الناحية عن ناحية البيئة والمجتمع وحتى عن ناحية حياتي الشخصية، حياة كل شاعر يعيش مشاعره بأفراحها واتراحها فضلاً عن انه وجد ليكون وكأنه مكلف بمشاعر الآخرين وافراحهم واتراحهم:

حَملتُ همومي على مَنكِبٍ   وهمَّ سوايَ على مَنكِب
ولاشيتُ نفسيَ في الأبعدين   أفكّرُ فيهمْ، وفي الأقرب!

وكل ذلك يترابط بالبيئة والمجتمع والظروف العائلية التي مرت عليه.

وبعبارة موجزة فكل صحوة أو غفوة من حياة الشاعر ـ بكل ما تعنيه هذه الكلمة ـ تدل على انها جزء لا يتجزأ عن اخواتها. وبهذا الخصوص فلو كنت ممن يحاول ان يعطي صورة واضحة لكل وحدة من هذه الوحدات لكان ذلك يلزمني بأن أؤلف كتاباً بمفرده.

وهناك وفي هذا المجال شيء آخر أود التحدث عنه وشاهدي عليه دواويني ذواتها، وآمل ان لا يكون ذلك من قبيل المباهاة، ولكن من قبيل التوثيق وبوسع الناقد ان يؤيدني أو ان لا يؤيدني عليه حسب مقدرته ان مجرد خروجي من هذا القفص الشائك والبيئة الضيقة المعقدة الممزقة التي تحدثت عنها بقدر ما يتسع عنه مجال الحديث قبيل العشرينات، فان مجرد خروجي منه، ومنها وبنقلة بعيدة الغور وعميقة الفوارق، كان كفيلاً لوحده لا ان تتطور لدى صور المجتمعات والحياة حسب بل وبمدى تجاوبي النفسي والفني معه ويمكنني القول عنه بحق انه ـ في هذه المرة ـ كان طفرة تكاد تكون غير متصلة الحلقات بما قبلها في تطور الاسلوب والفكرة والصورة عندي.

فمن ذلك البيت الديني الذي يتلى به القرآن صباحَ مساء، كانت تطوف بي بكل براءة الطفل وبساطته اطياف الجنة، بنهر من عسل ونهر من لبن، والحور الحسان، والمخلدين من الولدان، والاعناب والزيتون، كل هذا وذاك رأيته في اليقظة وبالعين المجردة، ومن الصعوبة ان يتذكره الانسان بشكل دقيق من قبل أكثر من ستين سنة. فمن النجف المحاطة بالسور العتيق المتهاوي وقبورها، ولا أريد ان اظلم شواطئها الصغيرة والجميلة معاً، من هذه البيئة وبحق وامانة ففيما يفصل بين صورها الحزينة هذه وبين بهجة الرملة الحمراء التي تمتد منها إلى شواطىء الفرات من شمالها وإلى نجد و «صبا نجد» وإلى عاصمتها بالذات (حائل)، فقد شاءت الصدف ان اتجاوز ذلك بسفرتي الأولى إلى ربوع ايران، واذا بي بين الينابيع الدرارة والسهول الخضراء والجبال الشاهقة العملاقة واغاني الرعيان والبدو الرحل اصحاب المقامات الشهيرة وبانغام الناي الجميل والحان (التار) الساحرة واللذين ظلا يأسران النفوس قبل الاسماع منذ آلاف السنين:

لا أريدُ «النـاي» إنـي حامـلٌ في الصـدرِ نايا
عازِفـاً آنـاً فآنـاً بالأمـانـي والشَّـكـايا

وكل ذلك قبل ان اصل إلى طهران ومن ثم إلى شمراناتها، وحتى الآن وأنا محروم من كل بقايا الجنائن في كل الانحاء الأخرى من ايران، ما عدا الطريق القصير الواصل بين جلولاء وطهران، واذا كان بوسع العشرات والمئات ممن عاشوا بيئة النجف، خلال هذه الفترة التي انتقلت منها إلى هذا العالم الجديد عليّ، ان يتعرفوا إلى ما بين تلك البيئة وذلك السجن الصغير، وبين الدنيا الفسيحة التي تتفجر كل بقعة من بقاعها بكل ينابيع الصباحة والجمال، وبعبارة اوجز، فبكل ما يشبه الاتصال بالحضارة والظروف بينها وبين التخلف اذا كان شيء من هذا القبيل، فبحسب من لم يعش هاتين البيئتين المتضاربتين والمتناقضتين ان يشارك هؤلاء الذين عاشوها بما افرغت من صور البيئة الأولى في بداياتي هذه وبما افرغته قصائدي من صور ملونة عن البيئة الثانية. وهذا ما يلمسه القارىء بكل سهولة حينما اقول فجأة بعد الكثير من القطع المتناثرة التي يطفح غالبها بالالم، وبالشكوى، وبالبرم وبما يمتد بين كل ذلك من ثورات العنف والغضب والتمرد:

كلُّ أقـطارِكِ يا «فـارسُ رِيفُ طابَ فصـلاك: ربـيعٌ وخـريفُ

ثم قصيدتي (وقفة على كرند) وهي من المصايف الأولى قرب الحدود العراقية، ومن أجمل المصايف الايرانية والطفها، وهي ليست (كرند) الثانية، التي لا تقل عن الأولى، ان لم تزد عليها بهجة وجمالاً ودهشة، في الجملة من جنائن كردستان العراق بفارق واحد عن الأولى انها ظلت تقصف بالمدافع وترشّ بالرشاشات وترمى بالصواريخ لتدمر هي ومن يدرج عليها منذ أكثر من خمسين عاماً وحتى الآن. وكذلك قصيدتي المدوية في (شمرانات) طهران

وفيها البيت الذي اثار عليّ ضجة مفتعلة ومحمومة بدّلت مسيرة حياتي بل ومسيرة حياة خصومي فيها كما سيرد ذلك لاحقاً :

هبَّ النسيم فهبتِ الأشواقُ وهفا إليكمْ قلبُه الخفّاقُ
هي «فارسٌ» وهواؤها ريح الصَّبا وسماؤها الأغصانُ والأوراق

انني اذكر هذه الوقائع باعتبارها من المراحل التي افتخر بها واعتز بذكراها، وقد كتب عنها قبل خمسين عاماً الأديب المصري المعروف أحمد حسن الزيات في مجلته الشهيرة (الرسالة) لقد كانت قصائد الجواهري في مصايف ايران نقلة بديعة تستحق الذكر في تطوره الشعري.

ان سفرتي لايران، عامي **١٩٢٤، ١٩٢٦** كانتا بمناسبة وجود أخي عبد العزيز الذي كان قد استدعاني في السفرة الأولى للاستجمام عقب مرض خطير اصابني، أما في الثانية فقد استدعاني لكي أكون مشرفاً على بيته خلال عودة من عوداته الكثيرة إلى الوطن.

ولقد وضعتني السفرتان هاتان اواسط العشرينات بالمصب الجديد الذي تفجرت به وهو الذي جعلني بعدئذ أرقى إلى قصائدي ما بين بداية العشرينات والثلاثينات، والتي ابتدأت تأخذ مساراً جديداً لا انفكاك فيه بين البيئة ومفارقاتها ومخلفاتها وبين الوثوب والغضب والتمرد. وفي هذه المرة فغضب بأوسع نطاقه وهو نطاق مصائر الناس والجماهير وتمرد بأوسع نطاق أيضاً فعلى كل الاعراف والتقاليد وعلى من يتلاعب بمصائر الجماهير من طبقات حاكمة. وفي كل ذلك صورة واضحة الدلالة على ما يخلق له الشاعر والفنان المستحقان هاتين الصفتين وبمدى تأثرهما وتأثيرهما، على ما يتلاحمان به في هذه البيئة وتلك، والمجتمع والآخر، وإلا فمن أين جاءني ذلك الخلق الجديد في ان أكون بعد عام أو عامين من تينك السفرتين صاحب (جربيني) و(ليلة من ليالي الشباب) و(عريانة) وما بين هذه وتلك

من انـطلاقة تكاد تكون خرقاً لكل من قبلي ومن بعدي لأعراف مخيفة في مجتمع مخيف، ومن أين كان لي، لولا ذلك، وفي هذه المرة، فمن اقتحامي الابـواب الحديدية المغلقة، أبواب الانتفاضة على من تكفي كلمة واحدة منه، ومن باب ما يسمى بالفتوى، ان يقتل الكثير ممن يغضبون عليه، انهم حملة لواء الدين في العراق كله وفي ما يتجاوزه، من أين كان لي (الرجعيون) ومن أين كان لي بعـدهـا بقليل (مدرسة البنات)؟، ومن أين لي بعد ذلك بسنوات قليلة (الاقطاع) و(عبادة الشر) و(الانانية)؟.

ولابد لي من ان أشير إلى انني في هذا الوقت قد بدأت لكيما أكون بديلاً لكل من ابتدأ يلفظ نفسه الشعري، من الرعيل الأول قبلي.

كان الرصافي حتى عام **١٩٢٥ ـ ١٩٢٦** محتفظاً بمكانته ومن ثمَّ بدأ بالنزول، لماذا؟ لأن هناك عوامل مختلفة، كان الرصافي بريئاً منها كلها، ولكنه، وللتاريخ، فقد بقي شاعراً ـ وهو لا يستطيع ان يكون إلا كذلك ـ حتى لو اعطي الدنيا كلها، وهذه طبيعة كل شاعر اصيل وبحق.

لقد دفع بسبب مواقفه اثماناً غالية حتى وفاته، ولم يغير ذلك شيئاً مما خلق له ولما بعده، وكانت آخر قصيدة له في هذه الفترة من العشرينات، وفي النموذج الأعلى من شعره هي:

لواعــج الهم في جنبّيَ تضــطرم ... والـهـم مقــداره من اهـلهِ الـهممُ
من كان يَكــذبـني أنّ الحياة منىً ... فليس يَكــذبــني أنّ الـحـياة دمُ

ثم ابتدأ يتنازل بل يكف ريثما يثار أو حتى يحين مجال القول الذي يحرجه وهذا ما يميزه عن الزهاوي...

لقد توسطت العشرينات ما بعد قصيدة الرصافي هذه، ولم يصل أحد المستـوى العالي الذي وصل اليه... بقيت لوحدي بديلاً عنه في العراق وللزهاوي حساب آخر، سيأتي الحديث عنه، وبما يتوقعه القارىء بعد هذا

بقليل. ومما كان للزهاوي من اسلوب رهيب في الدعاية، وكذلك امكانياته ومهاراته في استثمار الاسم.

في البلدان العربية كانت هناك قلة من الافذاذ شوقي في مصر، بدوي الجبل في سوريا، الاخطل الصغير في لبنان.

ولا أجدني وأنا بصدد الشاعر الشاعر، والفنان الفنان، إلا ان احاول تصحيح التأريخ المزور والذي يحاول الكثيرون لغرض بل ولأكثر من غرض واحد، ان يتناسوا ما هو أمر مفروغ منه في كل تاريخ الشعر العربي من قرابة عشرين قرناً حتى اليوم من ان الشاعر الاصيل والفنان الاصيل لا يمكن ان يكون بوسعه معاطاة الشعر والفن في مرحلة من حياته ثم ان يمسخ بعدها خلقاً آخر ليكون تاجراً مثلاً أو موظفاً وحتى «الوزارة» و «النيابة» أو «العينية» في مجلس اعيان فكلها وظائف ليس إلا، وكلها ارادات ملكية ومراسيم، ثم ان يبقى المحرفون المثرثرون والحاقدون والحاسدون، لمجرد النيل من ذلك الشاعر الاصيل، وهذا وذلك الفنان الاصيل، وغيره وهم يجررون ما تبقى من اذيال من كانوا قبل اليوم شعراء وبعد اليوم فموظفين. خلق (شوقي) ليكون شاعراً وليموت شاعراً ولمثل ذلك خلق (حافظ ابراهيم) في مصر و (بدوي الجبل) في سوريا و (الرصافي) في العـراق.

هذه لقطة ان لم تكن عظةً يتعظ بها المضلّلون أو يعيها المخدوعون. فحسبي أن أكون قد دونتها للحقيقة وللتأريخ وللأجيال.

الفصل الثاني

المـرأة الأولى

حتى السابعة والعشرين من عمري، لم يكن للمرأة، ولا لشهوة من الشهوات معها، وجود في قصائدي، بعد ذلك اخذت المرأة تقتحم اشعاري.

وما أريد قوله بتحفظ هو وارد تقريباً على لسان كل عارف لهذه البيئات، ولاسيما تلك التي يسيطر عليها الدين، بما صلح منه وما لم يصلح وبما زيف وما حرف، وما لم يزيف، هو إنني عشت بيئة تسيطر عليها الاعراف والتقاليد البالية، بيئة يكاد يمنع فيها حتى مجرد التلامس والتقابل بين الرجل والمرأة، فيما هو أمر مفروغ منه في المجتمعات الأخرى.

هذا في ظواهر الأمور منها أما في بواطنها وخفاياها، فكل ما يتجاوز الحدود من شبهات وريب فيما بين الجنسين، واذا نزلت على حكم الصراحة المطلوبة لمن لا يحرف التاريخ فحتى بين الجنس والجنس ولا أريد وأنا بهذا الصدد، وفي معرض تلك المجتمعات، ان أكثر الشواهد بأشعاري في هذه الذكريات، عدا ما يستدرك منها في ملحقاتها، وانما اكتفي عن ذلك وبما يشبه الاستمرار الطبيعي الملتصق كل الالتصاق بهذه الصورة من الحرمان، لأقول فيها:

أنــا إنْ كنتُ مُرهقــاً في شبــابي ... مُثــقــلاً بالــهـمـوم والأوصــابِ

فمتى أعــرف الــطلاقــةَ والأنسَ ... ألــمَّــا أكــونُ تحـت الـتــرابِ؟

خبِّــرونـي فانـنـي من لُبــانــاتـي ... وعــيشـي رهــينُ أمــرٍ عُجــابِ

أيُّ حالٍ هذي، ومـا الـسـرُّ في | تكـوين خلقٍ بهـذه الأعـصـاب
أبـداً ينـظرُ الحـوادثَ والعـالَمَ | والـنـاسَ من وراءِ ضَبـاب
ليس شيءٌ من التجانس في نفسٍ | نواسـيَّةٍ وعـيشٍ صَحـابـي
شمـتـتْ بي رجـعـيَّةٌ ألـهـبـتـهـا | فكـرةٌ حرَّة بسـوطِ عذاب
وشـكـتـنـي مَسـرَّةٌ وارتـيـاحٌ | وبـكـتـنـي مُجـانـةٌ وتـصـابـي

* * *

تدَّعـيني لِمـا وراء ثياب البعض | نفسٌ سريعـةُ الالـتـهـاب
فتَـرانـي وقـد حُرمـت أُسـلّي | النفس عنهـا بلمس تلك الثياب!
فإذا لم تكـنْ تعـوَّضْـتُ عنـهـا | صُوراً من تخـيّلاتٍ عِذاب
ولقـد تخـطر «المبـاذل» في بالي | بشكـلٍ يدعـو إلى الاضـطراب
أو بشـكـل يدعـو إلـى استحياءٍ | أو بشكـلٍ يدعـو إلى الإعجاب
فتُراني مُفكّـراً هل مواتاة التراضي | .. أحـلى من الاغـتصـاب..؟
وهـل «الـفَعلةُ» التي خنتُ فيهـا | خَلَّتـي، والـتـي دعت لاجتنـابي
والـتـي جِئتُـهـا أُكـفّـر عنـهـا | بكـتـابٍ أردفـتـه بكـتـاب
كنتُ عينَ المصيب فيهـا، وكانت | فَعلةٌ مثـلُ تلك عينَ الصـواب.؟
بشَـرٌ جاش بالـعـواطـف حتـى | جذبـتـهُ جريمـةُ الارتـكـاب
أم تُرانـي لبست فيهـا على حين | انـدفـاع منـي لبـاسَ ذئـاب؟
أتُـراهـا نتيجـةَ الشـرب أم أنّيَ | ظُلمـاً ألـصـقـتـهـا بالشـراب؟

وافـظع من هذا، ومن يصدق ذلك، فبعد ان انتقلت من هذه البيئة الخانقة بل ومن هذا المجتمع الذي هو صورة طبق الاصل لكل المجتمعات العربية في تلك العهود إلى البيئة شبه المتناقضة معها بيئة المجتمع الآخر المنـطلق والفـاتن والسـاحـر والمسحـور وأعني به أبـواب الحياة المتفتحة

مغـاليقُها، بنسب بعيدة جداً، أي بالمجتمع الايراني وبانطلاقتي الشعرية الجديدة فيهما وبانطلاقة طهران العاصمة، هي أيضاً، وجمالاتها ومغانيها.

من يصدق، وأنا حينئذ في الذروة من ريعان الشباب، بل وفي الذروة من سعة الجيوب للدراهم والدنانير ومن طيلة الفترة التي كانت لي فيما بين السفرتين انني لم أذق المرأة، واتذكر أكثر من واحدة كانت تريد ان تتذوقني.

بهذا استبق الزمن لأعود إلى ما قبل ذلك بأكثر من سبع سنوات إلى التحدث عن أول امرأة تذوقتها فقد كانت من المترددات على البيت، امرأة جميلة ولطيفة ولا علاقة لي بها سابقاً، بل ولا حتى مجرد شعور بجمالها، سوى ان صورتها تكونت عندي بعد فترة، وبعد محاولات متكررة وشبه مداومة منهـا، ظلت هذه المـرأة تتردد أكثر من سنتين، تأتي عندما ادخل البيت، وتعرف أوقات نومي وصحوي وخروجي، وفي ذات يوم وأنا اروم السفر إلى بغداد للمرة الأولى وكنت بحاجة لرهن بعض ما في البيت لتسديد تكاليف سفري، وكان ذلك أمراً دارجاً عندنا ومنذ زمن طويل وقد استمر وإلى الآن، وهو متوارد في النجف في البيوتات المتعارفة والمتصادقة، ففي وقت الحاجة يطلبون الذهب أو غيره من النفائس لرهنها، وأذكر ان والدتي لجأت إلى ملّه «وحيدة» الشـاعـرة الفذة والمبدعة في اعراس ومآتم النجف والتي يكاد ان ينـطبق الاسم على المسمى فيهـا، فهي وحيدة آنذاك ومتفردة عن غيرها. فأرسلت لهـا سلّة صغيرة من الـذهب الخالص وقد رهنتها بيدي واستأثرت بقسم كبير منه وبعدئذ سدد أخي «عبد العزيز» الرهن المطلوب.

واعود إلى الحكاية، ذات يوم وأنا أريد الذهاب إلى بغداد طلبت من هذه البنت من معارفنا قليلاً من الذهب لغرض رهنه، فقالت، «حالاً، تعال معي للبيت» فدخلت وكانت مصادفة مقصودة، فالبيت فارغ من كل نفْس أو نفَس، ورفعتني على يديهـا إلى أحـد السقـوف بحجـة البحث عن مكان الذهب، وحتى وأنا على هذه الحال التي تعيد حتى المغفلين إلى وعيهم، لم أكن يقظاً ولا واعياً، اخذت الذهب وعدت، حيث سافرت إلى بغداد ثم رجعت ثانية إلى النجف وفككت الرهن.

وذات يوم وأنا اتوسط كتب الشعر والنسخ والتدوين وكان جميع من في البيت نياماً، وفجأة وأنا نازل إلى ساحة البيت وهي صاعدة منه، كانت مني عثرة وكان منها ان تظاهرت بأن تقيلني منها، وعندها ذقت المرأة، وكانت تلك المرأة الأولى وحتى لما بعد عام ١٩٢٧، كما أشرت.

لقد كانت المراهقة عندي ذات تأثير مباشر حاد على حياتي اللاحقة، في بيئة مثل النجف حيث لا يوجد فيها ما ينفس عن الانسان، حتى عن حيوانياته، وليس عن شهواته فحسب، وكنت أريد ذلك ولكن بالشكل الطبيعي المألوف والتقليدي القديم المتوارث، وهو الزواج والذي كنت افكر فيه، وقد كلفت والدتي مرة بخطبة فتاة من بيت (الحويزاوي) - نسبة إلى بلدة الحويزة - وهو من البيوتات الشهيرة في النجف، وكان عندهم بنت جميلة حقاً، وتكررت هذه الحال، على هذا البيت أو ذاك، واذكر منها بيتاً من بيوت اعمامي، ثم ابتدأت ابحث عن الزوجة بجهودي ذاتها، فتحدثت مع ابن عم لي، وصاحبي، وطلبت منه يد ابنته، وكانت مضرب مثل بالجمال، وسرعان ما تلقى طلبي بكل ترحاب.

وهنا تجيء فاصلة فريدة في بابها من الفواصل غير الكثيرة وشبه الحاسمة في حياتي، وإلى جانب ذلك فذات مغزى عميق آخر من مغازي الدين والمتدينين على غير ما تستحقه هاتان الكلمتان من حق وحقيقة، فقد ظلت خطيبتي الحسناء طيلة أكثر من عامين، وكان عليها ما يشبه الحجز أو الحجر، لمجرد ضيق ذات يدي في الصداق المطلوب على زهادته آنذاك، مما الجأني، وتلك حالة مألوفة، إلى زعيم نجفي له صلة موثوقة بي، لأطلب ان يتشفع لي لدى المرجع الديني الكبير الشيخ النائيني في دفع هذا الصداق، وكان مثل هذا الأمر شبه مألوف لدى المجتهدين الكبار، وماطلني الرجل الشفيع مدة طويلة ليفاجئني ذات يوم بتقبل الشفاعة وليصحبني معه إلى الامام النائيني وبعد جلسة لم تدم غير دقائق معدودات نهض الشيخ الجليل ليعود بصرة كانت، تخش، بالدنانير الذهبية، أي انها كانت تحمل مسيرة حياتي الجديدة والمفترضة ودسها شفيعي في جيبه، ورجعت معه متوقعاً في أول خطوة إلى الشارع ان يدفع إليّ بالصرة الذهبية وطالت

الخطوات حتى لصق باب بيته ولأول مرة وأنا الازم هذا الباب سنيناً عديدة ذهاباً واياباً، وجدته وهو يصفقه بوجهي . وادركت بطبيعة الحال ان الشيخ قد استغل تلك المماطلة ليوم الحاجة الماسة منه إلى الليرات الذهبية، وابتلعت الغصة صامتاً معتملة فيّ حتى يومي هذا .

الفصل الثالث

ملف خاص بساطع بك

عوت «الـذئـاب» علي ناهـزة
فرصـاً تثـير الـذئـب مفـتـرسـا
ينـهـشـن من لحـمـي وكـل دم
فيه لخـير الـنـاس قد حبـسـا
«أصـلاح»* انـي والـذي قدرت
يده الـنـفـوس، وقـدر الـنفـسـا
لأكـف نفـسـي وهـي جامـحـة
عن أن تروح لغـيظهـا فرسـا
واصـونـهـا ما اسـطعت عن شرس
وان ابتـليت الـحـاقـد الـشـرسـا

* من قصيدة مهداة إلى الفقيد الدكتور صلاح خالص.

قرعت أبواب عصبَة الأُمَم

جنسـيّة وشهـادة

أزمـــــة

تـحقـــيق

فصـلٌ أم استقالـة

ماقيــلَ وَيُقـال

في الحسَب وَالنسَب

امـارات تعصّـب

علمـانية أم طائفيـّة!

الفصل الثالث

قرعت أبواب عصبة الأمم

ثمة اسباب تدعوني للأفاضة في هذه القضية، اولها انها كانت موضوعاً تطرق اليه البعض في مذكـراتهم مثل طه الهاشمي وعبد الكريم الازري، فضلاً عن امين الريحاني وساطع الحصري، وثانيها اني طرقت بها ابواب عصبة الأمم.

في بداية ما يسمى بالحكم الـوطني في العراق، أي عهد الانتداب حين كان المندوب السامي البريطاني هو المسؤول عن العراق أمام عصبة الأمم. وهناك تقرير منه عن واقعة قرعت بها ابواب العصبة وأنا في الرابعة والعشرين من عمري، يقول فيه بالحرف الواحد:

وفي هذه السنـة كان الخـلاف بين الـوزير الشيعي، يقصد به (عبد المهـدي المنتفكي) وبين المـدير السني، ويقصـد به (ساطع الحصري) بسبب تعييـن شاب عراقي (يقصدني به) معلما في مدارس العراق.

وتضمن التقرير اشارة صريحة إلى الفتنة، اسبابها، مقدماتها، وخلفياتها.



عبد المهدي المنتفكي - وزير المعارف

وأود الاطالة في الحديث عن هذه القضية، لا رغبة مني في نبش احداث الماضي. فكل مبتغاي ان أجلي هذا الحدث، وان انفض عنه غبار التأويلات غير الدقيقة أو المغلوطة، أو المغالطة، مما تحفل به مذكرات عراقية، وأخرى غير عراقية.

وليس ذنبي ان اتحدث عن قضية شاء ان يتحدث فيها من انتصر لي، أو من انتصر لـ (ساطع) مثل (طه الهاشمي) الذي كان العضد الاقوى له. وكان هذا نموذجاً لآخرين في اعوام سابقة أو لاحقة.

وقبل الخوض فيما قيل ويقال، دعونا نرتب الوقائع حسب منطقها، زماناً، ومكاناً، وترابطاً، وارتباطاً، مقدمات ونتائج.

لقد اثيرت الخصومة ضدي في حينه من باب عنصري ـ عثماني، ومن باب طائفي.. وكان تلازم هذين خاصة من خصائص الروح العثمانية، المتأصلة لدى البعض من الناس عهد ذاك.

وقد اصطدمت أنا بهذين العنصرين المتلازمين اصطداماً جاء عفو الخاطر، اليكم جانباً من القصة. كان عبد المهدي المنتفكي وزيراً للمعارف، وهو ايضاً رمز مقابل آخر للطائفية. المقارنة الوحيدة ان هذا الوزير كان عربياً دماً وموطناً، وكان رمزاً لجمهرة كبيرة، مسحوقة، طيلة هذه الخمسمائة عام.

وكان هناك آخرون قبل عبد المهدي المنتفكي وبعده، وقد أُستَغِلوا لاغراض محددة، فقد كان يجاء بهم سدا رخوا وسترا مهلهلاً للطائفية الحاكمة، فلم يكونوا في جملتهم اصحاب نفوذ حقيقي. وكان للمنتفكي وقفة مشهودة مع (انيس النصولي)، والنصولي هذا كان مدرساً منتدباً للتدريس في العراق في الجملة ممن انتدبوا لهذا الغرض من سوريا ولبنان، وقد اصدر كتاباً اثار حفيظة الكثيرين في النجف وفي ما يتبعها من الخط الممتد من الكوفة حتى البصرة، وفي بغداد نفسها. وذلك فيما انتقص به من منزلة سيد شهداء أهل البيت الامام الحسين. كان موقف عبد المهدي المنتفكي، مبعث ارتياح هذه الكثرة التي اثارها الكتاب. ووجدتُني، وأنا في مثل هذا الموقف احيي الوزير، من دون ان أراه من قبل، بقصيدة موجودة في ديواني:

حيٍّ الــوزيرَ وحــيّ العلمَ والأدبــا وحيٍّ من أنصف التــأريخَ والكتبــا

وقد نشرتها بعض صحف بغداد. ولم يخطر ببالي، قط، انها ستكون الوثيقة الأولى بيد (ساطع) ومدخلاً قوياً لمعركة جديدة ينتصر بها، وان اكون، أنا بالذات، في هذه المعركة المفتعلة، الضحية «الحارة» بل «كبش الفداء» من هذه الضحايا الباردة للاكثرية المسحوقة.

الفصل الثالث

جنسية وشهادة

تلقيت في اوائل عام ١٩٢٧ وأنا في مدينتي «النجف» كتاباً من صديقي «باقر الشبيبي» يخبرني فيه، انني مرشح للتدريس في احدى ثانويات العراق، وكان ذلك خبراً طبيعياً، ولكن الشيء الذي فاجأني مفاجأة لا تخطر على بالي بحال من الاحوال ان يكون شرطاً في ذلك تقديم الجنسية العراقية.

ما هي الجنسية؟ ما هو الشاهد عليها؟ لم يكن والدي ولا جدي، يعرف ولا كل علماء الدين في النجف ولا عشائر الفرات العربية الاصيلة تعرف ما هي الجنسية وما يقصد بها؟ ما معناها وما شكلها؟ جنسية عراقية؟ أي جنسية غيرها؟ هذا كله فضلاً عن ان طيلة الحكم العثماني البغيض في العراق، وحتى بداية عهد الانتداب في هذه العشرينات، كان كل العراقيين، وعلى وجه التقريب، لم يتعرفوا بعد على هذا القانون أو ذاك من قوانين الجنسية. ان لم أزد على ذلك بان القانون الجديد منها، وفي هذا العهد، أريد له بقصد وعمد مسمومين ان لا يصل إلى كل أبناء تلك الأكثرية على وجه الخصوص ليظلوا كما هو شأني أنا، بعيدين كل البعد عن الالمام به. وعن مزيد من ضجة الاحتجاج على مجرد اصداره، وكانه قانون تبعية خالصة للاجنبي وليس للعراق. أقول هذا بالحاح الآن وكأنني ما أزال في تلك الساعة نفسها وقد مر عليها كما قلت أكثر من ستين عاماً فقد تلقيت اوراقاً هي بحد ذاتها غريبة عليّ، بعيدة عني، اوراقاً لا أكاد اصدق ما فيها، واحدة منها كانت استمارة بتعداد المذاهب والاديان والجنسيات وفيها أكثر من عمود يحمل تساؤلاً «هل أنت عراقي؟» مفهوم انني عراقي، ثم وبالحرف الواحد،

هل أنت مسلم؟ طبعاً مسلم. والمفاجأة الأخرى التي توقفت عندها بأكثر من غيرها: هل أنت شيعي؟ هل أنت سني؟ وهذه كلها وثائق محفوظة لدى وزارة المعارف الآن، وبالنص... وكان كل ذلك في عهد ساطع، وهو أول مدير للمعارف في العراق...

تسلمت الأوراق وفجأة وبكل بساطة كتبت مستهزئاً وساخراً بأكثر من تساؤل وعلى سبيل المثال، سؤال: ما هي شهادتك المدرسية؟ كتبت ان شهادتي (لا إله إلا الله!!)، كما اجبت على سؤال عن شيعيتي، اجل أنا مسلم، وعن سنيتي بمثلها. اجل أنا مسلم. وعن عراقيتي، وهنا أحب ان استوقف القارىء، اجبت، انني هندي!! وهنا ايضاً ومرة ثانية وبكلمة موجزة قد يزداد عليها فيما بعد شيء جديد لتوضيحها، هو ان «ساطع» المسؤول عما يكتب ليعرّف الناس بحياته وذكرياته عن خصمه وخصومته لم يجرؤ ان يستشهد بمثل هذه الاستمارة ولا بحرف واحد من ملفي أنا بالذات وهو المسيطر الأول على كل وزارة المعارف وملفاتها وذلك لأنه وجدها وثيقة دامغة عليه في ما يقول وليست له ولا لصالحه. فهل يريد بل وهل تريد الاجيال المتعاقبة أكثر من هذا شاهداً على الحقد الدفين والتعصب الذميم؟.

وهكذا فقد أودعت هذه الاستمارة البغيضة كما هو المطلوب، بالبريد ثم سافرت إلى بغداد وساعة وصولي اليها وليس في يومه حسب، قصدت الوزير (عبد المهدي) أي الرجل الذي استدعاني بنفسه لأكون مدرساً في المدارس الثانوية، واتذكر بالضبط انها كانت «الثانوية المركزية». وصلت إلى داره وكان عنده من لهم شبه قرابة معه واذا بي وأنا في هذا البيت أفاجأ بأنني سأتعين في مدرسة ابتدائية «عجيب! كيف يكون هذا ياسيد (عبد المهدي) انتم طلبتموني لذلك، وتريدونني الآن لهذا؟» قال «انها شيء مؤقت ولا بأس بذلك، فأنت أنت وهذه فوارق بسيطة» واشياء من هذا القبيل.

وبدا لي ومن هذه الأقوال بالذات ان الرجل بدأ ينهزم أمام خصمه وكنت أنا الضحية الأولى بهذه الهزيمة.

لقد فارقت النجف وكل اترابي وأهل بيتي يعلمون بالقصد من هذه السفرة، قدر ما يعلمون بمطامحي وتطلعاتي، رفضت هذا، لكنه عاد والح

عليّ بقبول الوظيفة، وشاركه في اقناعي الحاضرون في هذه الجلسة من اصدقائه واقاربه، وبهذه التبريرات نفسها.

قلت له: «أنا لا اعرف سراً في هذا التبدل المفاجىء».

قال: «انها قضية الشهادة المدرسية».

فقلت له ببداهة تخونني أحياناً كثيرة: «السيد بهجة الأثري أيحمل شهادة؟» وما كان ذلك مني ولم يكن حتى الآن الانتقاص من الأثري، حيث كنت على اتصال به وبأمثاله من طبقتي الصاعدة والمشاركة في كل المجالات الأدبية، في الصحف والمجلات بل حتى وبالمراسلات فيما بيننا.

قال: «ان لهذه ظروفاً أخرى».

عليّ ان اعترف أني وجدت نفسي ذاهلة وغافلة حتى مما كانت في الصميم منه قبل اسبوعين تقريباً أي من مدى ارتباط وقفتي هذه وأنا ببغداد وأمام (عبد المهدي) بوقفتي في النجف أمام (النصولي)، وعلى العكس فقد كان يجب عليّ ان اتذكر انني مهدت بذلك كله بيدي وبنفسي وبقدميّ لأكون هذا الصيد الجديد، هذه الرمية القوية والجارحة لي ولساطع ولعبد المهدي، وفي ما يخص (عبد المهدي) بالذات فلو كان غيره في محله لكانت (الرمية القتالة) له، ولهذا سر لم يكشف التاريخ عنه بعد ولربما سيكشف عنه المستقبل.

كل ذلك غاب عني لبساطتي التي كانت وما تزال حتى اليوم تعيق كثيراً من مسيرة حياتي، تشوش عليها، مع هذا كله وجدتني وقد توسطت المعركة غير المتكافئة وليس من السهل الخروج أو الفرار منها بقدر ما كان يصعب عليّ تقحُّمها، بل قبولها.

أما الذي كان يضمره القدر من ان تتطور هذه المعركة لتنقلب معركة خاسرة للمنتصر في بدايتها، ومنتصرة للخاسر، فذلك شيء آخر. وكما قلت، وساقول، انني اثق بالقدر، وعلى كل حال فقد تقبلت الأمر الواقع، وخرجت منه بغير ما دخلت عليه، حيث تبدل كل ما كنت اتخيله عنه، وابتدأت افهم

معنى ان يكون هذا وزيراً وان يكون ذلك مديراً وان يكون المدير هو الوزير، والوزير هو المدير في حقيقة الحال وعلى الأقل ففي ما يتعلق بي وبأمثالي من الضحايا.

رجعت إلى عش بسيط فقير، ببغـداد لأبيت ليلتي المشؤومـة هذه والمهينة ولأكتب في صباحها إلى عمي الشيخ (جواد) والذي ستجيء أكثر من اشارة إلى مركزه وشخصيته لا في النجف وحدها، بل في تاريخ العهد الوطني في العراق كله، رسالة مؤثرة ومثيرة، اقول فيها «أنت تعرفني وتعرف مطامحي وبعدي عن مثل هذه الدوامات، ومثل هذه الدهاليز المظلمة الشائكة المليئة بالغدر، بل وبكل المساوىء، لا أدري كيف ابلغك، انني وصلت بغداد وقد ثقل عليّ ان اكون مدرساً فاذا بي وقد استبدلت معلماً ابتدائياً بعد ان نكث الرجل بوعده وعهده، واكرر القول أنا الذي تعرفني ياعمي...» وانتظرت قليلاً ليصلني الجواب منه رغم ما بيني وبينه من فارق في السنين والمكانة، وكنت لا أكتب رسالة إلا ويحمل البريد اليّ جوابها بسرعة فوصلني منه جواب مؤثر، يشدد عليّ فيه بالصبر وبالصمود وبقبول ما ليس لك بد منه حتى وان لم يعجبك وهكذا وبمثل هذا التثبيت لأقدام شاب حبيب اليه. وجدتني السامع المطيع.

الفصل الثالث

أزمـــــــة

ابتدأ العد التنازلي (على الاصطلاح الدارج) من جانب الوزير، ذلك كما بدا واضحاً انه احساس منه بتزعزع مركزه، واعيد القول، لضعف انصاره وقوة انصار خصمه، فيطلب مني ان يصبح والدي الشيخ عبد الحسين ابن الشيخ عبد العلي وابن الشيخ محمد الحسن صاحب الجواهر، النجفي هو نفسه وبأكثر من سبعة من آبائه واجداده النجفيين، وليس العراقيين حسب قبورهم والشواهد المنقوشة عليها، ان يصبح عراقياً!.

طفت بكل البلدان العربية وسألت في بلدان عديدة أخرى عما اذا كان يوجد في أي مجتمع نظيرٌ لمثل هذه الفضيحة، ان يكون أهل البلد بعد انحسار الاحتلال الاجنبي، اجانب في التبعية اذا لم يثبت تمتعهم بجنسية الاجنبي المحتل، فلم أجده. ولا اعتقد ان هناك من يقدر ان يرد عليّ ويورد مثالاً لذلك في كل ما وجدته قبل وهذا وأنا في عز شبابي في النجف وتوسعت فيه بعد ذلك. ان من يولد «بمجرد الولادة» في امريكا فهو على حق من ان يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية واكرر هذه الكلمة ـ رئاسة الجمهورية ـ أما وأنا في براغ وما ازال حتى يومي هذا فان من تضعه امه في طائرة تحلق في سماء براغ وتحط فيها فهو بحكم دستورها، جيكوسلوفاكي لمجرد ولادته في سمائها وليس على ترابها حسب.

ولماذا نذهب بعيداً؟ والمثال الشاخص بين أيدي القراء في هذا اليوم، ان (كيسنجر) وزير خارجية الولايات المتحدة برمتها هو من مواليد المانيا وقد التحق هو بنفسه لا بأبيه ولا بأمه ليصبح وزيراً لاهم وزارة في موطنه الجديد.

وبأكثر من هذا كله وباقرب موعد منه، فالمرشح اليوم، وأنا في الشهر التاسع من عام ١٩٨٨ لرئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة الامريكية هو من ابوين فقيرين من اليونان.

لقد استمرت السلطة تلعب لعبة الطائفية في العراق، وتشد الاوتار، في هذه اللعبة المفضوحة، وفي عهد (عبد السلام عارف) بدأت حملة استهدفت افراغ العراق من ابنائه من الشيعة، قدر الامكان، واقول هذا لأجل الحقيقة وادانة لهؤلاء الناس الذين لا يكفون عن زرع هذه السموم في هذا البلد.

أقول هذا وأنا اتساءل عمن سيبقى في العراق من أهل البلد وسكانه بعد هذا التفريغ المصطنع، وبعدما يفترض مما ان يكون الشك في اصل التجنس أو طالب شهادة الجنسية يتساوى في الحالين. فقد يكون حامل الجنسية الايرانية من اصل ايراني فعلاً، بالقدر نفسه من الاحتمال والترجيح والامكان، يمكن ان يكون حامل الجنسية العثمانية تركياً وغير عراقي أيضاً! ذلك لأن العراق كان ولاية تركية لأكثر من اربعة قرون، فكان من الطبيعي والمتوقع بل والمفروغ منه، ان تتوافد عليه اعداد كبيرة من الاتراك الحقيقيين والاصليين وان يعيش هؤلاء في العراق ويندمجوا بأهله وينسوا لغتهم الاصلية فيصبحوا عرباً كغيرهم من أهل البلد ثم ان يحملوا الجنسية العراقية فيما بعد وفقاً لقانون الجنسية العراقي الذي شرّع بعد اقامة الدولة العراقية. ومع ذلك لم تبحث السلطات عن أمر هؤلاء الناس من ذوي الأصل التركي لأبعادهم عن العراق كما فعلت مع غيرهم.

مهما يكن الحال فقد استسلمت للأمر الواقع وتشرف جيبي بالجنسية العراقية وداومت في المدرسة الابتدائية في مدينة الكاظمية. كان ذلك مني وأنا شاخص في المنتديات الأدبية والصحف العراقية وصاحب القطع والقصائد المتواصلة بل وأنا «نابغة النجف» على لسان جريدة الرافدين.

الفصل الثالث

تحقيق

داومت قرابة الشهر واذا بي وأنا افاجأ قبيل عيد الاضحى بمدير المدرسة، وهو صديقي ورجل كريم، ليقول لي وبالحرف الواحد: «انك مطلوب للحضور لدى مديرية المعارف في العاصمة» وأنا بحكم تسلسل الوظائف تابع لها، «لماذا؟، لا أدري» ذهبت ووجدتني اقف بين حفنة من الهررة الجائعة، عرفت من بينهم (طالب مشتاق) و (نوري ثابت) الملقب بعد ذلك بـ «حبزبوز» وسيأتي الحديث عن كل واحد منهما في المناسبة المطلوبة. كانا من الرموز التي يضرب بها المثل في التعصب المذهبي البغيض والتي بعد ذلك بثلاث سنوات شملها التذييل «العزل» ولم يكن هناك وفي هذه الحفنة شخص واحد يمثل الأكثرية الساحقة في العراق وممن أنا في الصميم منهم. ولكي تكون الصورة واضحة وامينة فقد كان بينهم (أحمد امين) المدرس ـ كما اتذكر ـ للرياضيات والملازم وشبه المترجم لساطع، الحديث العهد بتعلم اللغة العربية.

ومهما يكن الأمر، فقد ذهبت إلى مديرية المعارف، لتفاجئني هذه الهررة برئاسة (ساطع) نفسه، بأنني نشرت قصيدة في جريدة اسبوعية كان يصدرها (عبد الرزاق الحسني) عن ذكرياتي واصطيافاتي في ايران والتي أوردت النماذج الحلوة منها قائلاً انني اعتز بها وبالنقلة الجديدة فيها، وكانت كلها لهفة مؤثرة وساخنة بالحنين إلى الوطن، أي من ذلك النمط الذي سبقني اليه (حسان بن ثابت) سيد الشعراء المخضرمين الذين تحلى بهم العهد الاسلامي وبالتحديد، عهد الرسالة النبوية الأولى، شاعر الغساسنة الكرام في بلاد الشام وهو يتشوق إلى دمشق عاصمته وعاصمة اخواله:

لله دَرُّ عصابةٍ نادمتُهم يوماً (بجلّق) في الزمان الأول

بل والذي زاد عليه، وفي هذه الحقبة الأخيرة بالذات الرصافي وهو يلعن بغداد بل والعراق كله في قصيدته التي يقول في جملتها:

«ويلٌ لبغدادَ مما سوف تذكرهُ عني وعنها الليالي في الدواوين»

أما البيت الشعري في قصيدتي والأصح جريمتي، تلك، هو:

لي في العراق عصابةٌ لولاهمُ ما كان محبوباً اليّ عراقُ

والذي ورد ـ كما أشرت ـ ضمن قصيدتي المشحونة بالحنين إلى العراق وحسبي مطلعها:

هبَّ النسيم فهبتِ الأشواقُ وهفا إليكمْ قلبُه الخفّاقُ

ومع هذا فقد «بربرت» الهررة الجائعة، مستشهدة به «ان فيه ما يشبه التنصل من العراق والتمدح لأيران» التي كانت خصمهم الوحيد دون كل القوميات والمذاهب الأخرى، بما في ذلك المحتل البريطاني الغاصب للعراق، أما لماذا ايران بالذات؟ فذلك لأن الدولة الفارسية كانت هي من دون كل الدول الاسلامية المسحوقة تحت كلكل ما يسمى بالخلافة العثمانية، الوحيدة التي تواجهها على طول الخط الذي يمتد بها نفوذها في مشارق الأرض ومغاربها قوةً ونفوذاً وعنصراً ومذهباً بل وحضارةً وعراقة

والتي امتدت الحروب فيما بينها وبين الخلافة المزعومة على العراق نفسه، ولأكثر من قرنين من الزمن. أقول عن يقين ان هذا البيت لو كان مدحاً لبريطانيا وتشوقاً اليها أو لتركيا لكان داعية للترقية وليس للفصل من الوظيفة واذا بي وكما قلت وكأنها هدية العيد، اسلّم امراً ادارياً بفصلي من وظيفتي.

ذهبت إلى الوزير لأخبره بذلك فبادرني هو ومن معه بالتهنئة على وظيفتي ودوامي فيها بينما كنت أحمل كتاب الفصل منها لأقدمه اليه تهنئة بتهنئة وعيداً بعيد، وكان ساعتها يتأهب للسفر إلى النجف كما هو المألوف عنده وعند امثاله في مثل هذه الاعياد. فيتصل فوراً بـ (عاصم الجلبي) مدير معارف بغداد ويسأله عن هذا الكتاب وعن هذا التبليغ، والحق ان عاصماً وهو من عائلة الجلبي المعروفة في الموصل، كان متجرداً من كل هذه الاجواء النواشز ولا يهمه ان يكون رئيسه ساطعاً أو غيره ولا ان يكون وزيره ومرجعه الأعلى (عبد المهدي) أم سواه، فيجيبه عاصم:

«انه بأمر من مدير المعارف العام، ساطع ياسيدي وليس مني»

فيقول له (عبد المهدي):

«يصلك التبليغ فيسحب وسيأتي دور ساطع بعد العيد».

وعدت أنا والوزير منتصرين بعد الانهزام في هذه المعركة، إلى تعليمي في المدرسة ذاتها. حينئذ دخلت المعركة صميمها، لأن ساطعاً وبدافع، من هذا الأمر الجديد لاعادتي بعد فصلي يعتبره تحدياً له فيعتزل منصبه ليعتكف في بيته احتجاجاً، ولسان حاله يقول: أما أنا ساطع المسؤول عن كل «الثقافة» و«التربية» في العراق، بل والوزير الأول بمعنى الكلمة الفعالة لا الرسمية، أما أنا بكل هذه الاوصاف، وأما هذا الشاب النجفي ذو العمة الصغيرة والذقن الخفيفة...

استمر اعتكافه في البيت شهراً واحداً هي مدة مداومتي في التعليم وليس كما يقول هو في مذكراته، انها كانت اسبوعين.

وابتدأت الضجة خلال هذا الشهر، وشهراً آخر بعده، واستمرت تتصاعد وتتصاعد وفي كل صحيفة من صحف العراق اشارة اليها. ولعل جريدة سليم حسون (العالم العربي) بخاصة كانت أكثرها الحاحاً على هذه

الفرجة الجديدة، كذلك جريدة (الاستقلال) لـ (عبد الغفور البدري) وكانت الأشـد انتصاراً لـ (ساطع) أو بعبارة أدق لما يمثله موقف (ساطع) في هذه النزعة المشؤومة ومثل ذلك وفيما بين هذا وذاك كان موقف جريدة (العراق) لـ (رزوق غنام) وعلى نطاق اوسع في ذلك كله فقد ابتدأت القضية تلف كل انحـاء العـراق ولاسيما بعد المقال الهزاز لباقر الشبيبي «من هم الاجانب يا بقية السيوف؟» وأحرج الوزير لسوء حظه وحظي معاً أكثر فأكثر بهذا الموقف واحس بأن المصيدة أوشكت ان تطبق عليه هو بالذات. مع هذا فقد كان (ساطع) اسوأ حظاً منا كلينا، أنا وعبد المهدي وان بفارق بعيد فيما بيني وبينه هو انني كنت في غفلة عن كل ما يجري حولي، فيما كان هو من الواعين على انفسهم ومصائرهم، فقد احس بحراجة موقعه وموقفه أكثر.

الفصل الثالث

فصل أم استقالة

لقد قلت هذا كله ولا أريد ان اخدع القارىء وليس من السهولة ان ينخدع القارىء نفسه، ان «ساطعاً» لم يكن مسؤولاً عن وزارة المعارف أمام الوزير العربي فحسب بل أمام المستشار البريطاني الاجنبي والأعلى منه ومن الوزير أيضاً. ويعيد التاريخ نفسه، فاذا بي، في اليوم الأخير أو قبيل الأخير من الشهر الذي داومت فيه بوظيفتي، واعتكف فيه «ساطع» في بيته منكفئاً على نفسه، أجدني وجهاً لوجه أمام عد تنازلي جديد من الوزير.

وفي ساعة مفاجئة لن انساها، كان «باقر الشبيبي» ماثلاً أمامي، وقاصداً اياي من بغداد إلى الكاظمية حيث أنا وأهل بيتي ووظيفتي ليقول لي:

«لنتمش قليلاً» وتمشينا خارج ابواب الكاظمية، وفهمت انه مرسل من لدن المنتفكي، ليبلغني ما يلي:

«ياأخي قد انتصرت في المعركة واخذت حصتك منها والآن وقد وصلت الأمور إلى حدود لها ما بعدها (ويقصد اعتكاف الحصري) فليس أمامنا إلا حل وسط مشرف لك وهو ان تستقيل». قلت له: «جزاك الله خيراً ولا عاب فمك ولسانك، ساقدم استقالتي. ثم قلت: «هات القلم وهات الورق، ولك ان تتركني لوحدي ساعة أو نصف ساعة» ذلك اني كنت أحب اختصارها ثم استدركت، فقال لي كما تحب، فرفعت استقالة لم اغادر فيها شيئاً مما يعتلج في نفسي إلا وقد جئت عليه من أمر هذه الورطة وبعبارة أصح فـ «التوريطة»، وهي في ملفات وزارة المعارف في العراق، وللمرء ان يتساءل لماذا لا يتجرأ ساطع، أيضاً، ان يأتي بشيء منها أو بغيرها من الوثائق.

وأبطأت على صديقي «باقر الشبيبي» فلم يكن مني إلا ان أحملها بيدي إلى «عبد المهدي» ولم يكن في ديوان الوزارة حينئذ، فسلمتها لأحد معاونيه ومن طبيعة الأمور ان تحيلها الوزارة إلى مديرية المعارف أي إلى ساطع نفسه. وحسبت ان الأمر قد انتهى، لولا ان افاجأ، بما هو مفاجأة لكل ذي ضمير من قراء ذكرياتي هذه، بأمر اداري، ومن جديد، يتضمن قرار فصلي من الوظيفة، وليس بقبول استقالتي بحجة اني تخطيت المرجع الرسمي فيها، حيث تقدمت بها إلى الوزير، ونص هذا الأمر الاداري يقول:

«بناء على استقالة فلان المرفوعة إلى وزير المعارف، وليس إلى مدير المعارف، فانه يعتبر مفصولاً لا مستقيلاً».

ولكن الوزارة انتصرت في النهاية على الحصري فالغت أمر الفصل وعدت إلى منزلي حاملاً كتاب استقالتي مرفوع الرأس موفور الكرامة، ومن هنا كانت بداية لتبدل الاوضاع، إنْ لم أقلْ تدهورها في حياة هذا الرجل حتى نهايتها.

الفصل الثالث

ماقيــــل ويُقــال

والآن، فهذه قصة الرجل.

ينبغي لي، وأنا في أرض خصومة تحفّها اهواء بالغة الضراوة، ان اتلمس طريقي في حذر واحتراس، بل بما يشبه السباحة في بحر من الالغام.

اعرف، ويعرف غيري ممن مرّ بتجربة مريرة كهذه، تجربة كرامة يراد لها ان تهدر على مذبح خصومات ذات منحى طائفي، ان الغضب يقلب الموازين، ويضيّع المقاييس، وان الأناة والتأني، ووزن الأمور بميزان مدقق، مطالبٌ لا غنى عنها.

ويجدر بي أن أورد مثالين، عمن تناولوا قضيتي وساطعاً، وان أتعفف عن امثلة كثيرة لمن انتصروا لي أو لساطع.

الأول مثال عبد الكريم الازري، والثاني مثال طه الهاشمي. كلاهما تناول القضية تناولاً غير مدقق.

ففي مذكرات اصدرت قبيل اشهر، عمد عبد الكريم الازري إلى ما يشبه تحاشي قضية ساطع معي، اعني اختصاره اياها اختصاراً مخلاً، في اعتقادي، بمعيار التدوين التاريخي للوقائع. يقول الازري بايجاز بالغ وهو بصدد (ساطع): «وصدر الأمر بعزله، بل وبطرده لاسباب معروفة».

لماذا يقول الازري، وهو الذي عاش تلك الفترة، واحتل فيما بعدها بقليل منصباً رفيعاً في وزارة المعارف، ان الاسباب كانت مجرد «اسباب معروفة»، صحيح انها معروفة للازري وللمثقفين من امثاله، ولكنها ليست معروفة لكل الناس.

وعلى أي حال فقد استدرك الازري بما نشره، فيما بعد ذلك، في جريدة (السفير) معدلاً ما قاله عن ساطع، بالاضافة إلى ما كتبه في المذكرات.

واذا كان الازري قد نسي أو اغفل تدقيق الأمر، فان (طه الهاشمي) ينظر اليه بمنظار آخر، يصح ان نسميه منظار التراتب الوظيفي، أي ان يُرى إلى الخلافات في ضوء مكانٍ يُنسب إلى المرء لا إلى مكانته.

شاء طه الهاشمي، في نظرته هذه، ان يراقب ويستذكر احداث تلك الضجة الطائفية الكبرى، من شرفة منصبه الوظيفي، بحكم ما فُطر عليه هو وامثاله من الطبقة الحاكمة واتباعها في العراق.

فمقياسه هو مقياس المنصب والوظيفة، مقياس الكرسي الوثير أو الفقير الذي يقتعده هذا أو ذاك. أما مكانة الانسان الحقيقية، أما مواهب ومعارف هذا الجالس على الكرسي، فلا شأن لها عنده. المهم عنده ان يكون المرء شاغل منصب مدير معارف، حتى ان كان خلواً منها كما شغل هو نفسه «الضابط العسكري» وظيفة ساطع بعده، أو متبوئاً مقعد وزير أو رئاسة وزارة. أما ما هو دون ذلك، فهو قليل الشأن في عرف السلطة، ورتبها ومراتبها وشاغليها.

بهذه العين راح ينظر إلى الأمر كله، قائلاً ان القضية كلها لا تستوجب الاشارة ولا تستحق الذكر، مادامت تخص معلماً أو مدرساً مثلي، أي تخص انساناً في قعر سلم الوظائف المألوف ومعروف كيف يجري تسلق هذه السلالم، بتوسطات وشفاعات، واحابيل، لا قِبَلَ لي ولا لامثالي بها.

انها لفرصة ان اعرض نموذجاً لضياع المقاييس عند هذه الطبقة التي يمثلها هذا الرجل.

كان طه، ويلقب بلقب «الباشا» المستحدث على يد الأمير عبد الله الذي أصبح ملكاً بعد ذلك على شرق الأردن بعد ان انحسر عنه غطاء الشخصية القوية، شخصية شقيقه ياسين «باشا» الهاشمي صاحب الباشوية الاصيلة ومن يد السلطان عبد الحميد نفسه! والآن وقد اصبح ظلاً مكشوفاً بعد وفاة أخيه فقد تقبل بحضور أكثر من عشرة من النماذج الشاخصة لطبقته،

بكل خضوع ورضوخ، اهانة بليغة من الامير عبد الاله، الوصي على عرش العراق، والملك غير المتوج، وهذه الاهانة جرت في اجتماع مدوّن ومؤرخ في ملفات البلاط الملكي وفي مذكرات وكتب كثيرة، ولا اظن ان بوسع أي امرء يتمتع باحترام للنفس، معلماً كان أو مدرساً أو شغيلاً، ان يتقبل اهانة كهذه.

وعلى الرغم مما في ذلك من استطراد طويل فحسبي ان استشهد بـ (كامل الجادرجي) زعيم الحزب الوطني الديمقراطي، المتحالف وقتها مع الجبهة الشعبية، أي حزب (طه الهاشمي). فبالاضافة إلى ما دوّنه من هذه الحادثة في مذكراته التي صدرت بعد وفاته بما يشبه التفصيل، فقد حدثني الجادرجي نفسه بما هو جدير بالتنويه عن الجلسة التي شهدت الاهانة، قائلاً ان عبد الاله كان يغادر المجلس بين الفينة والفينة إلى غرفة صغيرة خاصة (وأنا بالذات اعرف هذه الغرفة)، ليعود منها وقد تقوى بها علينا (الحديث للجادرجي) من رشفات كأس معدة له هناك.

وحين بلغ الامير درجة الغضب المنفلت واراد ان ينهال بالشتائم على الهاشمي استدرك الوصي الجادرجي بالذات، والتفت اليه ليستثنيه من دون كل تلك الزمرة وليقول له بالحرف العامي الدارج: «كامل أنت تكدر تطلع» أي بوسع الجادرجي الخروج كي لا يناله شيء من المهانة. وكان هذا استثناء، ولفتة، ازاء الجادرجي، وهنا اترفع عن ذكر النصوص لتلك الشتائم التي رواها لي أكثر من واحد من المجتمعين وبعد خروج الجادرجي ومنهم وبوجه خاص صادق البصام وهو من الجبهة الشعبية نفسها. ودوّن الجادرجي تفاصيل اليوم التالي من هذه الحادثة في مذكراته قائلاً:

«نحن انصار هذا الرجل (يقصد الهاشمي) اردنا في اليوم التالي ان نذهب إلى الامير عبد الاله لنحتج على ما لحق بزميلنا فما كان منه إلا ان يمنعنا هو نفسه عن ذلك».

أما الآن وأنا بصدد استعراض خصمي الأول، والأقوى، وأنا ابن العشرينات «وليس خصمي الثاني والاضعف امين الريحاني» فانني وقبل كل

شيء لا أريد لكتابي هذا «ذكرياتي» ان يكون نهزةً ومدخلاً لأثارة الحزازات من جديد بل أريده مجرد تاريخ واحداث وأشخاص وبكل ما في كلمة الترفع من معنى.

ولعلني بهذا أخيب آمال كل العاطفين على ساطع من جهة وكل آمال الكارهين بل والمبغضين أي انني لا أريد ان أزيد - على أهم وأصدق ما كتب - بحرف واحد عن حياة هذا الرجل ونزعاته ومعتقداته وقناعاته الشخصية بكل نزاهة وتجرد وبكل ما أتحملُه من مسؤولية عن ذلك تجاه حقائق وتاريخ وتجاه أجيال.

مرة ثانية، لعلني أخيب آمال المتربصين من اتباعه، وهم غير قليل، وآمال الخارجين عليه، وهم كثيرون.

لقد ساءلت نفسي أكثر من مرة ماذا كنت ساسرد من حياة الرجل ومواقفه وادعاءاته والتي عشتها قريباً منه وأنا في العراق أو بعيداً عنه وهو في سوريا ومصر أو فيما عداهما من البلدان العربية؟.. ماذا كنت ساقوله، وان بحق وامانة وتجاوز لكل خصوماتي وفي أكثر من مورد واحد منها، وأنا أواجه المتعصبين والشوفينيين والحاقدين والشاتمين ممن هم اكفاء لنكران كل حقيقة شاخصة أو كل حادثة مدوّنة لو لم تشأ الصدف النادرة من أمثالها والتي جاءت وكأنها على موعد معي بل ولنجدتي ونصرتي؟ ذلك ان يقع بيدي وأنا ادوّن ذكرياتي هذه وفي عامي هذا أي الثامن والثمانين بعد التسعمائة والالف كتاب فريد من نوعه وفريد في أهميته، وفريد في مكانة مؤلفه وشخصيته وفريد أيضاً في أنه يتحدث عن ساطع بما لم يتحدث به قبل وبعد أي مؤلف آخر موثق فيما يدوّن، مؤتمن على كل ما هو لصالح من يكتب عنه وما هو لغير صالحه.

كتاب يكاد ان يكتفي المرء بعنوانه، بالكلمات المعدودة، ان يكتفي من الدلالة على ما بعده، هو «ساطع الحصري من الفكرة العثمانية، إلى العروبة..»!! للمؤرخ الامريكي وليام ل. كليفلاند والمتخرج في «جامعة نيو جرسي» الشهيرة والمعني بساطع الذي يكتفي في كل كتابه بذكر اسمه مقروناً بـ «ساطع بيك» وليس بالحصري...

الفصل الثالث

في الحسب والنسب

ولكي أضع القارىء في الصورة أكثر فأكثر فانه لابد لي أن اشدّد على ما قد لا يحتاج إلى التشديد، من انني، بمحض الفطرة التي فطرت عليها، وبمجرد ما تعاملت به طيلة حياتي في كل مجالات الخصومة والمتخاصمين، والحقد والحاقدين، بل والغدر والغادرين، كان في المقدمة مما اعتز به، حتى يومي هذا، هو الابتعاد ما استطعت عن ان اظلم حقاً من حقوق خصومي، أو ان انكر عليه ما قد تكون له من حسنات، بل حتى ان اغتفر له ما هو بحدود القدرة على الغفران، وليس ما يتجاوز هذه الحدود، فذلك لابدّ من ان يكون طبيعة الملائكة لا البشر. بل على العكس من ذلك فأنا اتنازل كثيراً عن حقوقي في الدفاع عن نفسي.

ان كل ما في ذكرياتي بهذا الصدد هو ما يلتصق كل الالتصاق بالمرحلة والأخرى، والموقف الآخر، والحادثة وما بعدها. ولكي اكون واضحاً أكثر فأكثر، يمكنني القول ان مجرد ان يكون ساطع الحصري، بكل قوته واقتداره مَنْصِباً، وبكل ما كان منه مؤلِفاً، ومن الآخرين فمؤلفين عنه، ان يكون، وأنا «الشبح النحيف» وابن العشرينات، خصمي الأول، وان يشدّ ازره، وان بفارق غير قليل بين خصم تحكمه وتضغط عليه وتنتقص من اطرافه، على الرغم من مؤهلاته، عقدة الحسب والتعصب الطائفي، وبين خصمي الثاني، امين الريحاني، بحقيقته المريبة التي ستطالع القارىء في جزء لاحق. ومع هذا كله، وإلى جانبه، فلا أحد ينكر عليه انه كاتب شهير.

هذان هما خصماي في المرحلة الأولى من حياتي. وليس هذا بقليل.

بل ليس بقليل أيضاً، وانما بكثير، ان يكون ازاءهما، وعلى الجانب الآخر، ومن أعلى المستويات من ينتصر لي ويشد من ازري، واكتفي وعلى سبيل المثال لا الحصر بالمثقفة الأولى من طبقتها الدكتورة نجاح العطار من سوريا، وصاحب المدرسة في الأدب الحديث في كل العالم العربي الدكتور لويس عوض من مصر، والملهم المبدع، والأول في العراق جبرا ابراهيم جبرا وهو يعدّني، في هذه المرحلة نفسها، (أي العشرينات) بمنزلة الشاعر البريطاني العبقري وودزوورث، وان اكون، برأيه، بعد ذلك بثلاث أو اربع سنوات، وفي قصيدتي «القرية» أعلى منه وابدع وأروع[1].

هذه اللقطة هي التي احب ان تكون صورة صادقة لقضية الفتنة التي اثارها ساطع وكنت ضحيتها الحارة الأولى، كما قلت.

وقديماً قال الشاعر العظيم:

وعداوة الشعراء بئس المقتنى.

ولكن اقول أيضاً ان التأمل المترويّ يشد جماح الاهواء، ويطلق عنان الفكر المتأمل، الفاحص.

ولأبدأ، أول ما ابدأ، بقضية الانساب وهي عقدة العقد عند ساطع. تذكـرّوا انـا في القرن العشرين، في عصر الذرة، وتلاقي الأمم، وتقارب الحضارات وانفتاح العقل. قضية الحسب والنسب متاع غابر، يعود إلى عهود القبائل والعشائر، إلى اواصر الدم المشدودة بهذه الكيانات، وهذه المعاشر. وكان من القبائل ما يعدّ «وضيعاً» وما يعدّ «شريفاً»، بحسب ما تتخذه القبائل من مهنـة. ومن مفارقات الأمور، ان القبائل التي تكدّ وتصنع، كانت تعدّ وضيعة، وتلك التي تَسلب في الغزوات، تعدّ شريفة، حتى لكأن الوضاعة صارت شرفاً، والشرف وضاعة.

بل ان عوداً منا حتى إلى عهود الجاهلية نفسها، يذكرّنا بان هناك من طفر حاجز السباق بين الاحساب والانساب، بل ومن أجرى على السنتنا،

---

(١) راجع كتاب «النار والجوهر» لجبرا ابراهيم جبرا، ص ١٥.

ونحن في القرن العشرين، كلمة «عصامي» عندما قال، وهو يقصد عصاماً ابن عصام ابن شهير:

نفس عصـام سوّدت عصـامـا وعـلمـتـه الـكـرّ والاقـدامـا

أي اننـا حتى الآن نسميّ الـرجـل الذي كوّن نفسه بنفسه، بجدارة واستحقاق، بانه عصامي.

وبالمناسبة وبلفظة أدبية، فعصام هذا نفسه والحاجب لا أكثر هو الذي يسأله النابغة الذبياني العظيم وقد منعه «عصام» ان يدخل على النعمان وهو في أيامه الأخيرة:

فانـي لا ألـومـك في احتجـابٍ ولـكـن ما وراءك ياعـصـامُ
فان يهـلك ابـو قابـوس يهـلك ربـيع الـنـاس والشهـر الحـرامُ
ونـمـسـك بعـده بذنـاب عيش أجـب الـظهـر ليس له سنـامُ

وفي عهـود الاقـطاع المجرجرة بذيولها حتى الآن، بقيت الأحساب والانساب، صفحة مفتوحة على العصبيات من كل لون وشاكلة. ولكن ما شأننا بها اليوم؟! وأي شعب هذا الذي بقيّ، على مدى التاريخ الآدمي، منزهاً من اختلاط الاجناس وتخالط العروق، بعد كل هذه الغزوات والغزوات المضادة، وبعد كل هذا التداخل في مجتمعاتنا.

مع هذا كله، وبـرغـم هذا كله، اجـد ساطعـاً يولي لعقـدة الحسب والنسب التي يحملها اهتماماً كبيراً يدفعه إلى وضع قائمة طويلة من خمس عشـرة صفحـة يسلمها، عام ١٩٦٦ (أي ونحن على ابواب القرن الواحد

والعشرين) إلى الباحث وليم كليفلاند، الذي فتش أي كليفلاند[1] دون ان يعثر على النسب المدّعى في حلب الشهباء.

ويعود كليفلاند، مستشهداً بالمؤرخ التركي (حلمي ضيا)[2]، في كتابه «التاريخ الفكري المعاصر في تركيا»، حيث ينفي فيه وجود لقب لعائلة ساطع، ويقول ما نصه «وفي اثناء عمله للسلطنة العثمانية لم يكن الحصري يعرف باسم عائلة كان يعرف باسم ساطع أو مصطفى ساطع».

ومن باب الطرافة والاهمية أيضاً نود ان نورد جملة من كتاب حديث صدر للكاتب العراقي جمال الآلوسي، من اشياع ساطع وليس من مناوئيه، مفادها انه ـ أي الآلوسي ـ كان يرافق ساطعاً في مطار بغداد حيث التقى هناك بأمير لَحَج فاذا به يعانقه قائلاً له: «اهلاً بابن بلدتي».

ويعلق الآلوسي على هذه اللقطة وبما يشبه الحرف الواحد فيقول: وسألت ساطعاً انك، يااستاذ، تتحدث وتكتب عن مسقط رأسك من انه صنعاء والآن فانت من لحج فيرد عليه ساطع قائلاً: وما الضير في ذلك؟ ان العاصمة صنعاء.

ويشبه ذلك ان أقول لقادم من بغداد وباللغة الدارجة «اهلاً بابن ولايتي» فيسألني من معي «وكيف ذلك وأنت ابن النجف» فيكون الرد مني «وما الفرق فبغداد عاصمة العراق»!!..

وعند زيارتي صنعاء، اوائل الثمانينات، فلا أدري كيف خطر ببالي ان انتهز هذه الفرصة لا لأسأل من حولي من أدباء يمنيين عريقين حسب، بل وان أرجع إلى أكثر من كتاب واحد في المكتبة الوطنية وفيما دوّن عن بيوتات اليمن وعوائله فلم أجد ولا كلمة واحدة تنم عن ان هناك أباً أو أماً أو مولداً لساطع أو لعائلة باسم الحصري، وللقارىء ان يتثبت من ذلك بنفسه.

---

(١) راجع كتاب «ساطع الحصري في الفكرة العثمانية إلى العروبة» تأليف وليام ل كليفلاند تعريب: فكتور سحاب.

(٢) راجع ص ٤٩ ـ ٥٠ من نفس الكتاب.

وتروي كتب التاريخ عن اخويه بديع، وبشير، اموراً كثيرة عن حياتهما واعمالهما ايام خدمتهما للباب العثماني العالي. ومن غريب المصادفات، ان ساطعاً لم يأت على ذكرهما في كل ما كتب عن نفسه بقلمه، وعلى ما يختص بهما، وبخاصة ما يلتصق بأخيه بديع، الذي كان متصرفاً تركياً في الناصرية. وجهز عام ١٩١٣، حملة ترأسها بنفسه ضد المتمردين على الباب العالي من العراقيين وانتهى قتيلاً على يد (طالب النقيب) في البصرة.

علام كل هذا التشبث باروهة مصطنعة؟!

علام هذا الألحاف على الانتساب إلى أرومة عربية مشكوك فيها، في عصر يتعذر فيه وجود «الدم النقي»، بل تفاهة القول بـ «الدم النقي» و «العرق الأصيل» جرياً على منطريّ العرقية من المتعصبين لجنس آري أو جنس ابيض أو اصفر أو ازرق.

ويعنّ لي التساؤل، وأنا بصدد الاحساب والانساب كلها، وليس العربي بالذات منها، لماذا لم يكتف ساطع بأن يكون واحداً من المستشرقين والمستعربين فما العيب في ان يقول المرء للناس وللتاريخ، لو كان تركياً «انني أنا التركي ـ ولتركيا امجادها وعباقرتها وتاريخها ـ اصبحت في عداد المفتخرين بأن أكون مع العرب، بل ان اؤلف كتباً عنهم وعن امجادهم».

لقد زرت، وأنا في لندن، اواخر الاربعينات، السيد (هاملتون جب)، المستشرق الانجليزي الشهير، بدعوة منه في بيته، وفي وسط الدائرة الواسعة التي تتكدس فيها مكتبته، وكلها في التاريخ العربي والآداب العربية، والخالدات منها والمخلدّين فيها وكان وكأنه شاخص أمامي الآن، يتحدث بلهجة عربية، مبسطة، حلوة لا لكنة فيها وخرجت من عند السيد جب، وأنا معتز به وبأكثر من ذلك، فأنا فخور بأن يقتحم التاريخ العربي اناس من كل الاجناس والعروق الأخرى، بل وان يقتحم العالم كله على يد هؤلاء الذين التصقوا به بمحض ارادتهم، وبخلوٍّ من كل ادعاء أو تطفل، فضلاً عن أي تحوير وتبديل، على الرغم مما قد يكون هناك من اختلاف في وجهات النظر معهم، أو فيما بينهم انفسهم.

الفصل الثالث

امــارات تعصـــب

اعود لأقول ما العيب لو ان ساطعاً كان ينتسب إلى ارومة أخرى، وما العيب في ان ينتقل بوجدانه، وفكره، إلى صف العرب؟! . أو ما العيب في ان يكون من أصل متواضع، فيفخر بذلك. لكنه اختار طريق ابتداع نسب له، وانكار نسب للآخرين.

اقول هذا وأنا مبغض ذكر ذلك أيما بغض.

لقـد اتخذ ساطع من قصيدتي التي قلتها في معرض وصف زيارتي لمصايف الشمرانات الجميلة بطهران ـ وهي كلها حنين ولهفة إلى العراق ـ دليلاً على نفي انتسـابي العـربي والعـراقي. وقال انه أطلع الكثيرين على قصيدتي عن مصايف شمرانات، وانهم قالوا له انها شعوبية. حتى انه اقحم اسم الرصافي في هذا الأمر.

أية شعوبية هذه؟ بل قل: ما هي الشعوبية.

انني فخور بحبي لكل الشعوب، وطبيعي ان يكون شعبي العربي في الطليعة منها. افهذه شعوبية؟ لقد غنيت مصايف لبنان وسوريا وفلسطين، وامتدحت في شعري باريس وسواستوبول، وستالينغراد، وبراغ، بكيت شهيد ثورة العشرين وحييت قتيل العلمين، الأول في صراعه لانتزاع بلاده من براثن المحتلين، والثاني في كفاحه لطرد المتوحش الفاشي.

افهذه شعوبية؟

أحقاً ان الرصافي قال عن ابياتي في وصف مصيف انها شعوبية لمجرد ان المصيف كان في بلد غير عربي، أم ان من مفاخر الرصافي حبه للانسانية

بأسرها، وبكل شعوبها وأممها! أفحقاً كان ساطع ضعيف الذاكرة أو غير واعٍ على نفسه وعلى ما يكتب ويُدوّن وهو يشهد على ما سيجده القارىء بعدَ صفحات عديدة وبعد ما هو أقل من عام واحد من أثارته الفتنة الطائفية الكبرى مما كان بين الرصافي وبيني من أول علاقة وطيدة ومشرفة وأنا عند الملك فيصل الأول؟ عجيب أمر هذا الرجل وموقفه من نفسه قبل موقفه من الآخرين.. ثم أليس الرصافي، وساطع نفسه وهو ببغداد شاهد على ذلك، هو القائل عني وبعد قرابة عشرة اعوام من ذلك:

أقول لرب الشعر مهدي الجواهري
إلى كم تناغي بالقوافي السواحر

أو قصيدته الأخرى التي خاطبني بها بعد فترة من ذلك بقوله:

بك اليوم لا بي أصبح الشعر زاهرا   وقد كنت قبل اليوم مثلك شاعرا

بعد ذلك بقليل، كان ساطع قد طرد من العراق بسبب انتهازه حركة رشيد عالي للدفاع عن النازية وفي الحقيقة فللدفاع عن نظريته التي دونها بخط يده ـ والتي يستشهد بها كليفلاند[1] ـ وبالحرف الواحد، «ان النظام الذي يجب ان تتجه نحوه آمالنا هو الاتجاه البرلماني النازي والفاشي الايطالي».

واستشهد، وهو يكتب مذكراته في النصف الثاني من الستينات، بشهود كذب عليهم وقد رحلوا عن هذه الدنيا، وهم بالاضافة إلى الرصافي، ياسين الهاشمي، والحاج محسن شلاش وجعفر العسكري.

---

(١) راجع الاطروحة ص ٢٣٤ ـ نفس المصدر.

ان شهادة جعفر باشا العسكري المزعومة تدحضها وتكذبها مواقفه مني والتي ستأتي الاشارة اليها عما قريب. . .



عبد المحسن شلاش

أما استشهاده بالحاج محسن شلاش، فان كل من في النجف بل وكل من تجاوزها ممن اطلع على ديوان الحبوبي يكذب ما استشهد به ساطع. ان الحاج شلاش يكاد يكون من صميم العائلة الجواهرية. وأذكر انه (قبل انتقالي إلى بلاط الملك فيصل باسابيع) جاءني إلى بيتي المتواضع، كان حينذاك وزيراً للمالية، لأراجع له نصوصاً كان قد كتبها، وذكر لي: «كنت عند الملك فيصل وكان الحديث يدور عن قضيتك التي صارت قضية العراق كله» وقلت له «ياجلالة الملك، أنت سيد العارفين بالعائلة الجواهرية، وبمواقفها الوطنية، والجذور التي تمتد بها إلى أكثر من اربعمائة عام في العراق».

فالحاج شلاش حين أراد الانفاق على طبع ديوان «الحبوبي»، وبأقتراح من والدي، كان المشرف على طبعه وعلى الشروح من ابياته، أخي (عبد العزيز)، والذي دون اسمه على الصفحة من غلافه، بترافد الاسمين وبما يكون بالحرف الواحد، مطبوع على نفقة فلان واشراف فلان. وفي ثنايا الديوان وفي الشروح المطولة التي أشرف عليها العلامة الشهير الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء يرد التعريف المطول بالاشخاص البارزين من هذه الأسرة، أما في قصائد السيد الحبوبي نفسه فهناك أكثر من مورد واحد تعريف وتكريم بمن مدحهم السيد الحبوبي في قصائده. .

ومن دون افاضة أو اطالة اقول ان هؤلاء الشهود وعيرهم، أريد لهم ان بكونوا شهود اثبات ولكنهم، بمسلكهم، شهود نفي لما أراد.

وبعـد، فما كنت لاستنكف ان اكون من أمة أخرى لو كنت كذلك بالفعل، لكن ساطعاً أراد ان يفرض عليّ انتماء آخر، وان يقدمني هدية إلى أمة أخرى.

أي عيب يلحق بالانسان في ان يلتحق بهذه الأمة أو تلك، ان كان منها فعلاً. ولماذا يتنصل المرء من أمة عريقة ظلت ستة آلاف سنة تتقاسم العالم مع الاغريق، سياسة وحضارة، وساهمت مع العرب في بناء صروح الحضارة الاسلامية العظيمة، وكانت الأمة الثانية في ذلك البناء الشامخ؟.

أيضيرني في شيء ان أكون إلى جانب (حافظ) و(سعدي) و(عمر الخيام) وشيخ المتصـوفـة، شبـه القديس، السيد المولوي. هؤلاء عباقرة أفذاذ، للعالم كله، وماذا كان يعوزني ان أكون مع المتنبي العظيم في شعب بوّان، وهو يغنيه:

مغاني الشعب طيباً في المغاني

بمنزلة الربيع من الزمان

ومغاني الشعب هذه هي قطعة من جنائن شيراز، ومقر سلطنة عضد الدولة، ممدوح المتنبي. افكان المتنبي بمنطق ساطع غير عربي ولا عراقي.

ان غوتـه، مفخرة الأجيال والحضارة كلها، ليس مصادفة ان يستهل كتابه الخالد (فاوست) بكلمات من (سعدي)، ومثله، فالفيلسوف الالماني (نيتشه) صاحب «هكذا تكلم زرادشت». ثم ان اعيش في الجنان التي عاشوا فيهـا، وان أكـون بعـد ذلك إلى جانب اضرحتهم وهي حتى الآن مزارات للذاهب والآيب. فماذا كان يعوزني من ذلك كله لولا ان يجري في عروقي منذ خمسة قرون، وحتى الآن الدم العربي والعراقي والنجفي؛ ولولا انني من مواطن النعامنة والمناذرة.

الفصل الثالث

علمانية أم طائفية!

ما بي رغبة في ان انتقص من أحد ـ ومن ساطع نفسه ـ لأنه من قومية غير قوميتي، ولا ان اتخذ من العصبية مقياساً. ولكني اقيس حال ساطع بالمقاييس التي اطلقها هو، فأجد فيه مطعناً، بحكم تلك المقاييس نفسها.

فمعروف، كما يشهد باحثون من امثال كليفلاند[1]، ان ساطعاً تعلم العربية كلغة ثالثة في المرحلة العربية من نشاطه، أي وهو على ابواب الاربعين وبعد انهيار الخلافة العثمانية.

وهناك في مواقفه ازاء الرابطة القومية أكثر من مطعن واحد أيضاً. فتراه في جامعة اسطنبول بين عامي ١٩١٢ ـ ١٩١٣، يصوغ حول مقومات «الوطنية العثمانية» حيث يقول كليفلاند في اطروحته وبالحرف الواحد: «ومع ان ساطعاً كان صديقاً حميماً لعبد الكريم الخليل، أمين سر مؤتمر باريس وأحد قادة حركة الاصلاح العربية، إلاّ انه «اجتنب»!!! الانخراط في العمل العربي. والقى خطبة في المنتدى الأدبي نزولاً عند رغبة الخليل، لكنه ظل عزوفاً عن «الانتماء» إلى **أية حركة عربية** على التخصيص. وعندما اقترح الخليل، وأيد طلعت بيك ان يكون ساطع **المستشار العربي** لوزارة المعارف في استنبول، وهو منصب من مناصب أحدثت استرضاءً للعرب بعد مؤتمر باريس، «رفض» ساطع المهمة على الفور. وكان «يرغب» عن أي ارتباط بالانفصاليين العرب وحتى القوميين الاتراك عن السلطنة العثمانية. وكان

---

(١) راجع ص ٥١ ـ نفس المصدر.

موقفه من البدائل التي اقترحها نظام المشروطية في حل مشكلة الانتماء، الوقوف بثبات إلى جانب التغريب والانتماء العثماني»[1]. وكانت أجلّ مآثره في مجال التربية، حتى سمي بأبي التربية التركية[2]، أما مفهوم القومية في نظره وفيما دوّنه هو نفسه أو فيما دوّن عنه الآخرون فان الانتماء إلى العثمانية واصلاح اوضاعها بقي فوق كل اعتبار. اذ انه كان عارفاً بكل المفاهيم القومية هذه في ذلك الزمن وانه كان قادراً على تداولها بكفاءة، على نحو انه نبذ القوميتين التركية والعربية، وأيد الفكرة العثمانية. وفي زمن تعاظمت فيه النغمة العربية، بقي ساطع مجانباً هذه الحركة فلم يلتحق بأي من الحركات أو المنتديات السرية. وكان ولاؤه يتجه صوب الرابطة العثمانية الشاملة، ورغب في بقاء السلطنة وتجديد شبابها. وظل حتى بعد بوادر انهيار السلطنة العثمانية وبداية موقف القوميين الأتراك وبخاصة فعلى يد الضباط العسكريين بزعامة مصطفى كمال «اتاتورك» الذي أعاد تركيا إلى حجمها الطبيعي وإلى قوميتها وهويتها، ظل وفياً إلى «العثمنة» وهذا ما يفسر ـ لجوءه ـ إلى سوريا والتحاقه بالأمير فيصل وذلك لأنه كان لابد وبحكم المنطق شبه المطلوب بجلده من القومية الجديدة ومن العهد الجديد، وليس كما يزوّر به المزورون التاريخ والحق والحقيقة. وفي الرد على استجواب كليفلاند[3]. .قال ساطع انه اعتنق الفكرة العثمانية، لأنه أحس احساساً قوياً جداً بان اصلاح السلطنة العثمانية وتقدمها، يعني اصلاح جميع عناصرها وتقدمهم. بل انه سوّى بين الفكرة العثمانية والتقدم المتأصل، وكتب حينئذ: «ان عثمانية الغد، تُلقّن في مدارس اليوم»، وهو ـ والحديث ما يزال لكليفلاند ـ ما يزال في وظيفته وموقعه الثقافي والفكري ذا مصلحة ببقاء السلطنة. . .

---

(١) راجع ص (٦٧ ـ ٦٨) ـ نفس المصدر.
(٢) راجع ص (٦٨) ـ نفس المصدر.
(٣) راجع ص (٨٠) ـ نفس المصدر.

واذا كان الدين، كما كان ساطع يرى عهد ذلك وباسم الخلافة الدينية، هو الرابطة المعنوية الأهم، فان الأسرة الجواهرية هي في الصميم من هذه الرابطة.

وفعلاً فقد بدأ عهد الخلافة العثمانية بالزوال. فيأتي النصح اليه من بعض الاصدقاء في الاستانة، ويتوجه عملاً بهذا النصح، كما يقول مؤرخو سيرته الحياتية والفكرية إلى دمشق ملتحقاً بالامير فيصل، لا مستدعىً منه، كما يقول، وذلك بما يشبه الهرب كما مرت الاشارة.

وفي العهد الجديد، ما بعد سقوط الخلافة في الاستانة، نجد ساطعاً يولي وجهه شطر الفلاسفة الالمان ليأخذ بنظرية الأمة ـ اللغة.

وهنا اقول، اذا كانت اللغة حافظاً للروح القومي، معلماً من معالمها، فبأي لغة كتبت اشعاري؟ بل وأي لغة أخرى اعرضها غيرها.

ان هذه النقلة من الرابطة العثمانية إلى الرابطة العربية، بين ليلة وضحاها، هي مما لا ينطق عنه ساطع بحرف في ما دوّنه هو عن سيرته، ولكن لم يفت مطارحه كليفلاند أن يدونها صريحة حيث يقول وبالحرف الواحد[1]:

يعسر تقدير الأثر المباشر لهذه الاحداث في ساطع العربي العثماني ففي زمن الحرب تابع عمله التربوي في «استنبول» وخاض غمار سجال طويل آخر في هذا الشأن مع «غوكالب» سنة ١٩١٨ ولم يقل إلّا القليل في مقدار اهتمامه بمقدرات العرب. بل انه لا يقول كلمة، عن موقفه يوم نصبت المشانق في دمشق لطلائع اليقظة العربية، وبخاصة منهم (عبد الكريم خليل) صديق ساطع، وممن كان يلتقي معهم في الاستانة ـ والكلام ما يزال لكليفلاند في اطروحته عنه ـ وحين قال وهو يبلّغ بأمر صدور الحكم عليه بالاعدام: «ان ذلك لا يهمني».

أما بصدد الالتحاق بالملك فيصل، وقبوله، فقد كان من التقاليد المتوارثة ان لا يرفض الملوك والامراء من يلتحق بهم، وينزل ضيفاً عليهم بل حتى مولى من مواليهم.

---

(١) راجع ص (٨٤) ـ نفس المصدر.

ولم يكن بين الملك فيصل وساطع ما ينم عن علاقة متينة، فالملك كان غير راض عنه، ولم يكن ليستقبله خلافاً للمقربين اليه. وفي خلال فترة بقائي في البلاط لأكثر من ثلاث سنوات لم أره يدخل على الملك إلا مرة واحدة، ولخمس دقائق. فقد كان فيصل غاضباً عليه، اذ بينما كان الملك يحاول انقاذ العراق من سموم الطائفية، كان ساطع يسهم في تأجيج جمراتها المحرقات. كانت الطائفية مزروعة قبل ذلك بخمسمائة عام، منذ بداية الحكم العثماني، ثم اشتدت بما جاء به الاحتلال فالانتداب البريطاني.

وكانت تلك فترة عصيبة، حيث كان الملك فيصل والحق يقال لا يريد ان يبقي المسحوقين في العهد العثماني، لا الشيعة ولا غيرهم، على حالهم. وبدأت فترة التقاط الشباب الناشىء، فضلاً عن اللامع، من هنا وهناك. وكانت هذه صورة من البوم السياسة المرسومة للعهد الوطني الجديد.

واتذكر انه كانت في المجلس النيابي نسبة لا تزيد عن العشرة في المائة من الشيعة، وأقل من ذلك ففي مجلس الاعيان وبشيء من الادراك العقلاني، وبمثله فمن الوعي، فقد كان المطلوب ان ترتفع هذه النسبة بما لا يحس به، ابعاداً للجو البغيض من مخلفات العهد العثماني.

واعود لاتساءل، للمرة العاشرة، وقد:

تَقَحَّمْتُ الوَغى وتَقَحَّمَتْني وخُضتُ عَجاجها حَرْباً سِجالا
فكانَ أَجَلَّ مَن قارعتُ، خصماً بنُبْلِ قِراعه رَبِحَ القِتالا

لماذا لم يكن ساطع ذلك الخصم النبيل في قراعه مع خصمه، وقد عاشني وأنا ابن ثورة العشرين، ثم وأنا اغني فلسطين، وأنا «رب الشعر» على لسان الرصافي، وأنا في مصر ضيفاً على طه حسين مخاطباً مصر نفسها:

يا «مصرُ» تستبِقُ الدهورُ وتعثُرُ والنيلُ يزخَر والمسلَّةُ تُزهرُ

يامصـرُ لم تبخس جمـالَـكِ ريشةٌ   مرَّت عليه، ولـم يخُنْـكِ مصـوِّرُ

وكان ساطع في الصميم من الوفود العربية، وأنا اشدو لمصر والدكتور طه حسين يثني عليّ بمثله، ان لم يكن باروع منه، عني وعن التراث الاصيل.

ولئن كانت مقاييسه الطائفية المخلخلة، في المبتدى من هذا القرن، قد أملت عليه ان يتخذ مني ما اتخذ من موقف العشرينات، فكيف لي ان أفسـر اصراره بعد ٤٠ عاماً من ذلك، وهو يدوّن مذكراته، ان يبقى لصيقاً بعثمـانية غابرة، وطائفية قديمة، تشكلان، من وجهة نظر أي داعية متعقل للقومية العربية، معوقاً لمثل هذه الدعوة ذاتها، بل نقيضاً فاضحاً لها.

كيف يتأتى لساطع **وهو داعية القومية العربية!** ان يبدي اقصى ضروب العنت المذهبي، ويسفر عن أكثر اصناف التعصب الطائفي بغضاً لي. ثم ان يتغـاضى عن (نبـل القـراع) في الخصومات النبيلة المألوفة فلا يجيء بصفحة واحدة مجيدة في ذكرياته مما يتطلبها بل ويتشوق اليها كل قاريء عربي عامة وعراقي بخاصة عن خصمه وفي معرض تخاصمه، ثم ان يكون وعلى الأقل كمن يحترم نفسه قبل الآخرين شاهد عدل (على خصمه) وهو يختتم ذكرياته قبل ان تختتم حياته بشهور معدودات، أي في عام ١٩٦٨.

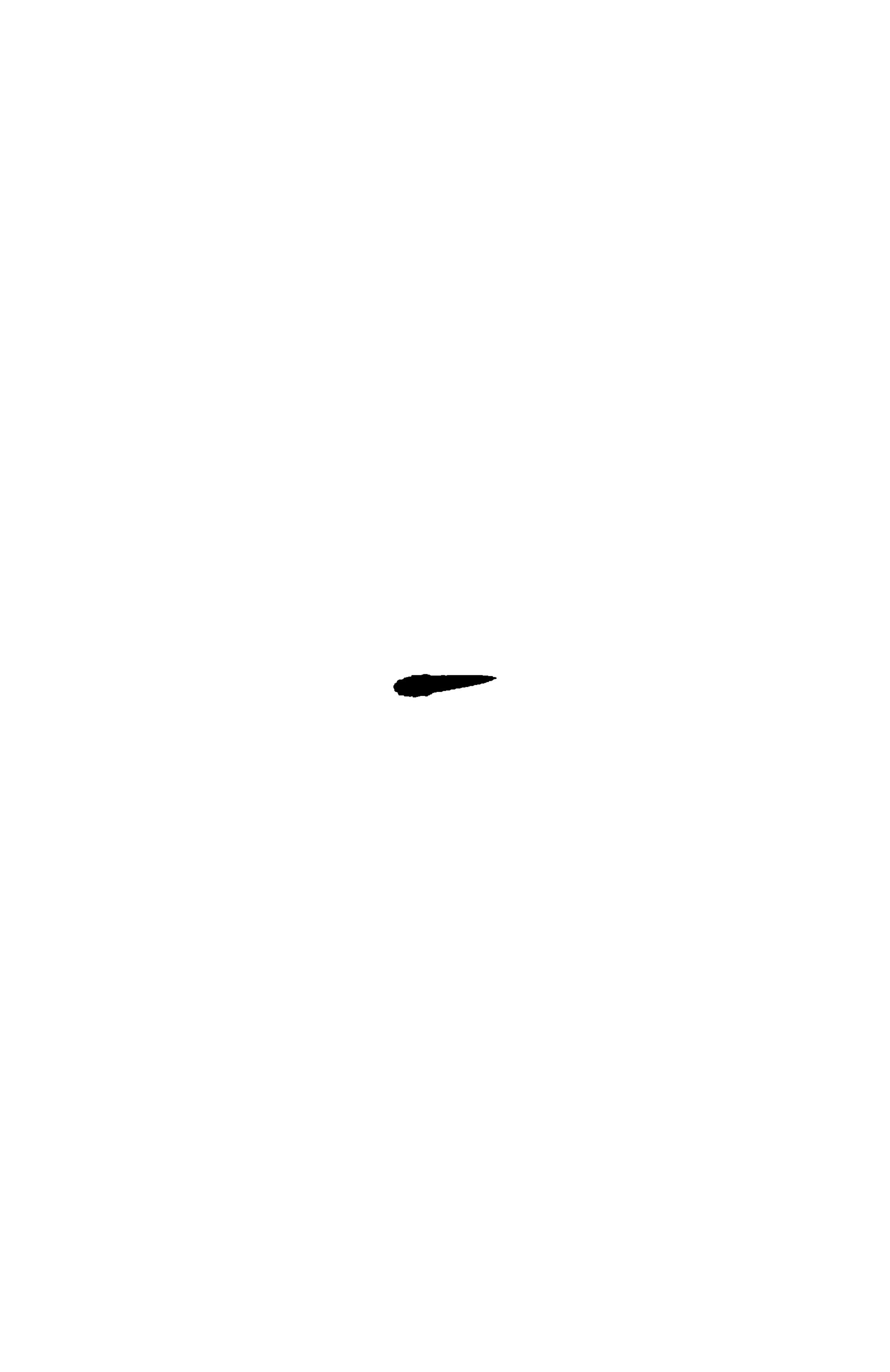
لقـد كتب ما كتب عني ناسياً ان يستشهد وان يوثق الضجة الطائفية العصبية التي أثارها حولي، وما رافقها وبخاصة فمما افترى فيها، لقد كان هذا الـرجل المسؤول الأول وفوق كل أحد، أي حتى فوق وزير المعارف وتحت يده كل ملفات المعلمين والمدرسين والاساتذة، فما عسى ان يكون ان لم يكن هو المسؤول الأول أيضاً، أي ان يجيء بشاهد واحد من ملفي أنا بالـذات في وزارة المعارف فضلاً عن ان يجيء به كله وعلى الأقل فلكي يصدقه الناس فيما يكتب ويقول... سؤال يحير الالباب!..

لقد استغل ساطع غربتي ومنفاي عام ١٩٦٧ ليكتب عني ما يشاء.

وختاماً لهذا الملف فقد كنت وما أزال فخوراً ان يستغل لا ساطع وحده بل وكثير من أمثـاله غيابي عن الوطن مغاضباً أو مشرداً أو منفياً ليفرغوا كل سمومهم وحزازاتهم وعصبياتهم، وان لا يقدروا على شيء من ذلك، وأنا في وطني وجهاً لوجه معهم..

* * * *





الفصل الرابع

مَضتْ حُجُـجٌ عشـرٌ ونفسي كأنهـا
من الغيظ سيلٌ سُد في وجهـه مجرى
خَبـرتُ بهـا ما لو تَخـلَّدْتُ بعـدهُ
لمـا ازددتُ علمـاً بالحياةِ ولا خُبـرا
وابصـرتُ ما اهـوى على مثله العمى
وأُسمِعتُ ما اهـوى على مثلهِ الـوَقـرا
وقـد أَبقَت البلوى على الـوجـهِ طَابعاً
وخَلفَت الاضغـانُ في كَبِـدي نَغـرا

* * *

بَعد الفتنة أو جسر للعُبور
طفولتان
الطموحات
وَجوه وَشخصيّات في البلاط
معارك شعريّة
مهمّة صحفيّة
خلاف في النجَف
أنا وَالزهاوي
أنا والرصَافي وَالملك فيصَل
الخروج من البلاط
إصدار الفرات وإغلاقها

الفصل الرابع

بعد الفتنة أو جسر للعبور

عن مثل هذه الدوامة كتبت خلاصة إلى عمي الشيخ جواد الجواهري، وللمرة الثانية، وجاءني الجواب منه سريعاً يشير عليّ، في جملة ما فيه، أن اراجع السيد الصدر، ويقصد السيد محمد الصدر، أعلى واقدر رجل على الزعامة، ولا يدانيه أحد في ذلك، رجل فرض نفسه بنفسه على هذه الزعامة، دون توسط ولا تطفل عليها.

ومعرفتي بالسيد الصدر قديمة. فقد كان من اتراب والدي في الدراسة في النجف، وقد توارث الزعامة، بحق، عن والده العلامة والمؤرخ السيد حسن الصدر والذي كان صاحب مكتبة شهيرة. وقد سبق لي، وأنا يافع ان زرته، مع أخي (عبد العزيز) قبل وفاته ولمعان اسم الابن.

عقدت العزم على ان اذهب إلى الصدر. وكانت تلك أول زيارة لي ولم يكن في مجلسه كثير من الناس وبينهم صهره المقبل (صادق الصدر) النابه والمتفقه والذي أصبح فيما بعد عضواً في محكمة التمييز ثم في مجلس الاعيان. تلقاني (السيد) وكأنه كان ينتظر هذه الزيارة، هاشاً باشاً مرحباً، ومتسائلاً «أين كنت في هذه المدة كلها؟» وبعد مجاملات، واحاديث وجيزة، حسبت ان المجلس قد انتهى، فاستأذنت واذا به يقول لي: «احب ان أراك غداً» في تلك الايام كانت المجالس مترعة باحاديث واحاديث عن الضجة التي اثيرت حولي. ومن بين تلك اشاعة تقول انني سأصبح مدرساً في جامعة «أهل البيت» وهي جامعة حديثة، وهامة حتى في نظر المسؤولين الاوائل في الدولة، بل لربما حتى الملك فيصل نفسه، والتي دخلت تأريخ ساطع بكل ما له وعليه من أمر الغائها الطائفي طبعاً.

وما هذا بحاجة لكثير من الايضاح، فهي جامعة «أهل البيت» وفي «الكاظمية» وكان يراد، من باب الاهتمام، ان يوجد لي بديل عن تلك الوظيفة، الموحشة، الاليمة المعذبة.



الملك فيصل الأول

وفي الصميم من هذه الاجواء، توجهت في الموعد، إلى السيد الصدر، واذا به يفاجئني بأننا سنذهب سوية إلى الملك فيصل، لقد كنت بعيداً كل البعد عن مثل هذه المفاجاة ـ أنا والسيد الصدر إلى الملك فيصل؟؟ ـ، كنت بطبيعة مزاجي ممن يغاضبون ويعارضون الحكم والنظام.

حسبي من ذلك دليلاً على ما كانت تحفل به الصحف من قصائد وقطع بهذا المعنى القائم حتى اواسط العشرينات. ومع هذا كان موعد اللقاء كما قلت، مفاجأة لي بشيء لا وشيجة لي معه. ولكن لابد مما ليس منه بد.

صحبني السيد إلى الملك، وبطبيعة الالماح منه في اليوم السابق كما ذكرت إلى مثل هذا اللقاء فقد اعتنيت بـ «هندامي» ورأيت الملك الجديد لأول مرة ببغداد. وقد كنت شاباً، اسمرا، نحيفاً، ذا عمّة صغيرة، وذا عباءة خفيفة. تلقى الملك، السيد الصدر كما هو مألوف بينهما من مودة بكل ترحاب وتكريم وحفاوة.

الحق، ان السيد الصدر، كما رأيت على مدى سنوات ثلاث كان يدخل على الملك فيصل بدون استئذان، ولا اذكر شخصاً، رئيساً كان أو مسؤولاً، له مثل هذه الحظوة.

كانت هناك ثلاثة مقاعد وكأنها قد هيئت لمثل هذا اللقاء. الملك في صدر الجلسة، وإلى يمينه السيد الصدر وأنا قبالة الملك نفسه، وجهاً لوجه.

وحزرت، ليس ساعتها والحق يقال، حزرت بعد ذلك، كما لو كنت عارفاً به قبل وقوعه، ان المطلوب هو ان يُري السيد الصدر، الملك فيصل، هذا الشاب «الاجنبي!» «غير العربي!».

ولابد ان يكون الملك عارفاً بي وبالضجة المثارة حولي قبل هذا اليوم، لا بما كان يتردد من اسمي بين الآونة والأخرى في الصحف، وانما وعلى الأقل فبتلك القصيدة، التي أشرت اليها، لدى زيارته النجف، وكانت الصحف تطلع، كل يوم، بشيء جديد من هذه الضجة. حتى ان صحيفة (العالم العربي) لسليم حسون، والتي مر ذكرها كانت تضرب أخماساً بأسداس. فتقول اليوم عن الاوامر المتضاربة بشأني، ابيض، وغدا تقول عنها: اسود. أبيض، أسود! أسود أبيض!

بعد كل هذا، كان لابد ان يكون الملك على بينة من وجودي. وكان السيد الصدر يريد ان يريه هذا الشبح، بنفسة، بعمتّه، وبدت لي اسارير الملك المتهللة معبرة أجمل تعبير عن هذا الفتى الشاخص أمامه بكل ما في ملامحه من بساطة وطلاقة ومنطق وحسن ديباجة في حديثه.

ولم يتكلم السيد الصدر كثيراً أما أنا فقد قلت له: «ياجلالة الملك، قبل ان اتشرف بهذه اللقيا، كنت صاحب القصيدة التي رفعت اليك عن نفي علماء النجف» فكان يهز برأسه بكل مودة وبشاشة «أجل»، وأنا صاحب قصيدة «سجين قبرص» عن والدك العظيم.

قال لي: «أجل أعرف» ثم اضاف ـ وللقارىء ان يعرف ما تحت السطور ـ: «ماذا أصنع ياابني محمد والحكومة حكومتي؟!» وكأنه لا يريد ان يزيد بذلك على القول عما في حكومته تلك من تصرفات وتصرفات.

ومنذ تلك اللحظة كانت كلمة «ابني محمد» تلازم حديثه معي. ولم يكن يسمي أحداً غيري بمثل هذه التسمية، منذ هذا اللقاء حتى يوم ان قدمت استقالتي التي لم تقبل. واكتفي بها (ابني) هنا لكي لا أعيد تكرارها فيما بعد.

عند هذا الحد كان يجب ان ينتهي الحديث، كما تقتضي الآداب والاعراف، وان أقوم لأخلي المكان لما ينبغي ان يدور بين السيد الصدر والملك من أحاديث بمستواها. ولغرارتي وبساطتي التي يمثل لها في العراق بكلمة هي بين الدارجة والفصحى أي بـ «الفطارة»، فقد ظللت جالساً، وكأن من طبيعة الأمور ان امكث مادام السيد الصدر والملك باقيين، غير ان السيد الصدر، بما عرف عنه من لباقة ومن أدب نهض موحياً ان الحديث قد انتهى. كانت تلك التفاتة بارعة. وقبل ذلك، لم تبدر من الملك نفسه ـ وهذا شاهد على مكانته ـ ولا من السيد الصدر، أي اشارة مهما صغرت، إلى انتهاء الحديث. ومن حق كل واحد منهما اتجاه هذا الشاب الغرّ، ان تجيء هذه الاشارة وبما تستحق ان تكون عليه من اللطافة، كما رأيت شيئاً من هذا القبيل من غيره!! على أي حال نهض السيد الصدر ليخرج فخرجت، إلا انه تشاغل عني، متظاهراً انه يريد ان يغسل يديه، فرجع، وفهمت ما لابد ان يفهمه كل احد، من ان المقصود هو ان ابقى لوحدي، فجلست في دائرة التشريفات. واتذكر ان السيد الصدر خرج من الملك وذهب لوحده. أكان عارفاً بمجلسي في هذه الدائرة أم غير عارف؟ لا ادري على وجه اليقين.

بعد قليل خرجت، وعدت إلى بيتي المتواضع، المتحمل اوزار غيره.

بقيت أياماً عديدات، مكتفياً، بل متجاهلاً، ناسياً، هذه الزيارة، عائداً إلى ما أنا فيه من فراغ وألم.

وتصرم اسبوع أو أكثر، وحملتني المصادفات إلى سوق الكاظمية، فوجدت السيد الصدر أمامي.

ومن باب التكريم، والتسليم، ومألوف الآداب، سلّمت عليه، وسرت إلى جانبه بقليل واذا به يلتفت إليّ ويقول: «أما ذهبت إلى الملك؟ انه يطلبك!» فقلت له بشيء من عدم اللياقة: «سيدنا ـ وهذا هو التعبير الدارج وليس سيدي ـ حتى الملك كنا نخاطبه بكلمة سيدنا ايضاً ـ سيدنا يقولون عن هذا الملك، انه كذاب!».

قلت ذلك مكرراً الغرارة والبساطة وأنا أجرر ذيول مجالس النجف والكثير من ثرثراتها عن السياسة وعن الملك والحاكمين، وكل (منهم) يتقعر بما يشتهيه، هازئاً بهذا أو ذاك، ثرثرة يراد بها سد الفراغ بكل ما في الكلمة من معنى، قلتها وأنا مشبع بذلك كله من حيث لا أشعر ولا أريد ولا أعي.

وكان ينبغي للسيد الصدر، وأنا اتفوه بما لا يليق، ان يعمد إلى تعنيفي، وان ينتصر للملك، ولكنه التفت اليّ، ليقول، وما ألطف ما قال: «ولك ياابني ـ وهذا تعبير دارج مكان، ويلك ـ أياً كان الأمر، سواء كان كذاباً أو غير كذاب، فهل عليك بشيء وقد طلبك الرجل وسأل عنك ان تذهب اليه؟!» عجيب! اعتذرت من السيد الصدر واستغفرت عما تجرأت به.

اسرعت إلى بيتي في اليوم نفسه لأقيم من مظهري، ثيابي، عباءتي، عمتّي الصغيرة. كان البيت يقع في منتصف الطريق بين الاعظمية والبلاط الملكي، وكان الوقت ضحوة، قبيل الظهر.

ذهبت إلى دائرة التشريفات، وقلت بالحرف الواحد: «جلالة الملك يطلبني».

كان السيد ناصر الكيلاني نائب رئيس دائرة التشريفات. أما الرئيس المسؤول فهو السيد الجليل، المتعبّد بحق، صفوة العوا، من بيت العوا الشهير في سوريا، وكان في الصفوة ممن صحبوا الملك فيصل مع (رستم حيدر) وكذلك (تحسين قدري)، وهو من عائلة قدري الشهيرة في سوريا

ايضاً، وهو صديق خلوص، ما يزال حياً، وأنا ادعو بأن يطول عمره، فهذا يبعث فيّ تفاؤلاً بأن يطول عمري أيضاً.

أما (صفوة العوا) فقد كان ومن دونهم كلهم يمتاز بأنه، من استودعه الشريف حسين تعليم وتوجيه ابنائه.

وعلى جري العادة، قدمّ اسمي إلى الملك فيصل فانتظرت هنيهة وأثناء ذلك وفي الفترة القصيرة من زيارتي هذه وقبيل صدور الارادة الملكية، كانت هناك لقطة فريدة من نوعها هي انني وأنا بانتظار ما سيكون من أمري اذا بشخصيةٍ بدا لي انها مرموقة، لمجرد اهتمام موظف التشريفات به، كان رجلاً أقرب إلى السمنة صبيح الوجه جميل الشكل، فصل ما بيني وبين «ناصر الكيلاني. وتشاء الصدفة ان يكون الحديث بينه وبين الكيلاني في أمر ما قد بدأ ينمو ويشتد من عهد النازية وانجر الحديث إلى ما يشبه الحيرة في تسمية المجلس التشريعي أو النيابي الالماني آنذاك، فما كان من هذه العِمّة والشبح الضئيل إلاّ ان يتطفل عليهما فيقول بالحرف الواحد: «اسمحوا لي بذكر اسمه انه الرايخشتاغ فيكون الشخصية هذه ان تتهامس وناصر الكيلاني.. ومفهوم انها كانت تسأل من هو هذا الشيخ الصغير... ويجيبه طبعاً باسمه ثم ليلتفتَ الرجل المهيب فيقول لي «مرحباً.. يافلان.. ماذا يكون منك الشيخ جواد الجواهري؟» - ويقصد زعيم العشيرة الجواهرية - فأقول له «انه عمي» ويكون هذا كله مدخلاً بعد ذلك لصلة وثيقة بيني وبينه. لقد كان جعفر باشا العسكري.. والذي تذكرتُ بعد التعرف عليه انني رأيته قبل ذلك باعوام قليلة وهو يزور عمي هذا في ديوانية (آل الجواهري) في النجف... وخلال فترة انتظاري هذه كانت هناك حركة آتية، وحركة ذاهبة. ورأيت جميل الراوي زميلي بعد اليوم يخرج ويعود. ثم جاء رستم حيدر، رئيس الديوان الملكي، ليلقي عليّ نظرة سريعة وعاد. واحاط بي من حولي، قائلين: «اننا مسرورين بان تكون معنا». ثم اخبروني ان الملك فيصل يطلبني فذهبت اليه، وفي هذه المرة وأنا واحد من معيته، ففي ما بين البابين المواربين ووجهاً لوجه ليبارك لي بعملي الجديد ويشير بيده اشارة ذات مغزى بعيد مردفة وبالحرف الواحد «هذا يامحمد جسر تعبر عليه».

ففي تلك الساعة احسست ان الأرض تهتز تحتي فرحاً، لا حباً بمال وجاه أو بمنصب، بل شعوراً بالكرامة. ها هو الرجل الذي كان صاحب اليد الأولى في استرداد كرامتي التي أرادت الذئاب تجريحها.

مرة ثانية، وثالثة... وعاشرة أقول: سرعان ما تدور، دورات الفلك، وسرعان ما يقذف بي صحن النجف واهواؤه وأطيافه وأنا بجسمي الشبح، وردائي المزرر وعباءتي الخفيفة، إلى بغداد، وصحونها واهوالها وأطيافها وأشباحها: سرعان ما يرمى بي إلى عالم جديد، عجيب لديّ، غريب عليّ.

الفصل الرابع

طفولتان

ما اشبه الليلة بالبارحة. بل قل ما أشبه المرحلة، بالمرحلة. عجيبة نفس هذا الطفل الكبير ابن السادسة والعشرين أو ابن الخامسة والعشرين. فقد عاد ليكون ذلك الطفل الذي كأنه، ابن السابعة أو الثامنة أو العاشرة أو حتى الخامسة عشرة. الطفل الذي نشأ، آسفاً، نشأة عجلى، متسرعة، مشوشة، متبلبلة، مشبعة باجتياز المراحل واختزالها.

ما اشبه الطفولة الكبيرة بتلك الطفولة الصغيرة في ما جمعت من نقائض ومفارقات، يحار المرء كيف يفيها حقها من الوصف. مبلبلة، نعم، قلقة، نعم، متناقضة نعم.

ما اشبه هاتين الطفولتين ببعضهما: يدخل هذا الطفل الجديد بعد فترة قصيرة بزي استبدل به العمامة، على ملك جليل فيأنس به ويفرح له، وينعم عليه ويتفضل بأن يكلف رئيس الديوان، رستم حيدر، ان يذهب به إلى الخياط الخاص به، ليفصّل له ثلاث بدلات رسمية «سموكن» و «فراك» وثالثة اخرى، بعد ان يعاتبه عتاب المحبة «هذا شيء جميل يامحمد، لكن اعتب عليك لأن تكاليف البدلة كان يجب ان تكون على حسابي». وتبقى البدلات جروداً عتيقة إلى سنين عديدة.

ما أشبه هذه الطفولة اللعوب، غير اللائقة بالشخص ولا بالمقام، ولا بالسن.

تارة اخرى يعود هذا الشاب الجديد ليكون طفلاً، فيرجع، بعد هذا المشهد الجميل، ويعتمر العمامة من جديد ويدخل على الرجل بها. انها

حالـة يصعب تصـورها. كيف يكون ذلك؟ ويغتفرها الملك، كل هذا من رواسب طفولة خنقت ولم تجد منفذاً للتنفس إلا بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً.

ومرة ثانية أو ثالثة فما أشبه هذه الطفولة بتلك الطفولة الجديدة التي ينتهي دوامها الرسمي مع من ينتهي دوامهم، فيذهب كلّ إلى بيته أو إلى سمره الخفيّ، بينما يذهب هذا الرجل، مرتدياً زيه الأول أو الثاني المعاد قاصداً الملاهي أو يؤم السهرات العابثة ويرتاد المشارب والحانات والمراقص انه يمثـل في هذا، ذلـك الطفل الصغير الذي يكمل واجباته الأدبية من شعر المتنبي ومن امالي ابي علي القالي ومن نهج البلاغة، يكملها في كل يوم، ثم يهـرع بعـد ذلـك، بدقـائق لا بسـاعات، إلى اتراب عابثين، لاهين، متشـاجـرين، فيلهو ويعبث ويتشاجر، وكأنه لم يكن هو ذاته صاحب تلك الساعات الأدبية المؤدبة.

ما اشبه هذا الطفل الصغير بذلك الطفل الجديد حيث يخرج من هذا المقام ومن هذا الرجل، ملك العراق، فيلعب ما يشاء، ويلهو ما يشاء ثم يرجع إلى القصر ليداوم من جديد ويغتفر له الرجل المهيب كل عبثه، ومن المفترض ان يكون كل ما يتعلق بحاشيته غير خاف عليه.

في بداياتـه، كان اليافـع ينكبّ ساعـات وساعات غائصاً في عيون الأدب، ثم يأتي والده ليسحبه، بل يجره جراً، إلى مجالس العلماء والأدباء، وهو لا يفقه شيئاً منها، فيغلبه النعاس وينام.

في مرحـلتــه الـجـديدة هذه، يأتـي، إلـى مجــالس السـاسـة الخبثاء، الشياطين، فيقتحمها وهو ليس بشيء منها ولا منهم. يقتحم بيوتها، بيت رستم حيدر، وبيت ياسين الهاشمي وصالون محمود صبحي الدفتري وصـالـون عبـد العـزيز الثعـالبي، المقـرّب من الملك، وغيرهـا. يقتحم الصالونات السياسية ويخلع عليها في الظاهر مظهراً أدبياً، غير انها تبقى ملتقى الساسة والحاكمين والخبراء الادلاء على كل ما هنالك من دهاليز وكواليس.

ما اشبـه تلك الـطفـولـة المخنوقة تحت وقع المظاهر المستعجلة، المتسرعة، بالطفولة الجديدة التي تنفست لدى الطفل الكبير على هذه الصور

المتعددة. ثمة ملمح أصيل يجيء هذه المرة ليكون من حسن الحظ هو ان يجمع الطفولتين ويكسبهما قوة وتواصلاً: ان عيني ذلك الطفل، النفاذتين، القويتين، عبرتا محيطات مجهولات لا قرار لها من عيون الأدب، دون ان تدري ما هي وأين هي. هاتان العينان عادتا لتكونا بأكثر مما كانت عليه من نفاذ وقوة عيونا للقوافي، رغم الجو المتناقض بل ولسبب من ذلك. وكأنهما تريدان ان تكونا البديل للمخلوق بالفطرة، وبالقدر وبالطبيعة.

هذه الاهواء كلها، هذه التبدلات والملاعب، طغتْ في هذه المرحلة الثانية والاخيرة، المتصاعدة وبقيت المراحل الطبيعية في التصاعد الشعري وامتزجت بتصاعد الفكر والعمق، واكسبتها التجارب المريرة، قوة ورهافة، أما الحلو القليل، القليل منها، فقد ترك اثره وطابعه حتى هذا اليوم.

كنت في وسط هذا الجو اللاهي، الساهي، العابث، وكأني وجدت لأقول «جربيني» لتثير ما تثير من ضجة كبرى. وتحمّل الملك رجل «جربيني»، ثم تحمّل منه اوزار ما هو أشد وأقسى، مما اثار عليه نقمة المجتهدين الاوائل بنفوذهم وتأثيرهم الكبير في الجماهير وإلى جانب ذلك فقد تحمل الرجل وللمرة الثانية وقع ما أثارته قصيدة «الرجعيون».

في هذا الجو، الصاخب، بلغ التصاعد الفكري شأواً بعيداً.

سَتَبقَى طويلاً هذه الأزَماتُ ... إذا لم تُقَصِّرْ عُمْرَها الصَّدَماتُ
سَيبقى طويلاً يَحمِلُ الشعبُ مُكْرَهاً ... مَساوىءَ مَنْ قد أبْقَتِ الفَتَراتُ

هذه مسحة جديدة، شيء جديد، وكأنه، في واقع الامر الثمن، الطيب، المقبول، عن كل هذه المرحلة، ولا اقول كل المراحل، من الطفولتين يكفي ان اذكر بعضاً مما قلت:

وانتحينا نُريد «مَهرانَ» نبغي ... وَرطةً في لذاذةٍ وارتكاسه

تارةً صاحبي يُصفِّقُ وأنا تارةً أُصفِّق كاسه
لا «الحسيُن الخليعُ» يبلغُ شأوينا ولا «مُسلِمٌ» ولا ذو «النُواسه»
قال لي صاحبي الظريفُ وفي الكفّ ارتعاشٌ وفي اللسانِ انحباسه:
أين غادرتَ «عِمَّةً» وآحتفاظاً قلتُ: إني طرحتُها في الكُناسه

ان هذه المرحلة حرجة في حياتي، فكيف اتحدث عنها وهي التي بنيت على اساس الحجر الفريد من نوعه، قبل ان تشيد أحجارها على المرحلة الثانية هذه، ومراحل اخرى شتى، وكل ما سحبت معها من عقد ومفارقات ومغامرات رجل «راميها على الساطور» كما يقول مثل دارج، متحدياً كل ما هناك وكل من هنالك.

الفصل الرابع

الطمـوحـات

ولنعد إلى الماضي، ومن جديد إلى حكاية هذا الرجل.

فقبل ما لا يزيد على عامين، كان يريد ان يتطور، ويطمح ان يتكوّن لوحده، وكل ما عليه من قماش لا يساوي ديناراً واحداً، وهو يعتمر عمة صغيرة طولها أكثر من ذراع واحد وعباءة خفيفة لا تساوي مائة فلس، ورداء بمثل ذلك.

وكل ما يشغل باله، في الوقت ذاته، حاجة لا فكاك منها، ان يوفر القوت لنفسه ولعائلته ولمن معه: أم، وأخت وولد اصغر وطفل كتب عليه ان يكون شهيداً، ان يوفر عشاء هذا اليوم وذاك وتلك الليلة وهذه، وبالرغم من ذلك كله بل وفيما بين ذلك كله وفي خلوته مع نفسه كانت عمامته تلك وكأنها توحي اليه بسؤال ملح: لماذا لا يصبح هو ايضاً وزيراً وبحق؟ بالرغم من انه وعمامته اصغر سناً وحجماً من عمامة كانت تلتف على شاعر قبله، انسحب من ميدان الشعر ومن سجل الشعراء لمجرد انه اصبح وزيراً، كان هذا الفتى وهو يريد ان يتنافس مع العمامة التي سبقته ناسياً ان الشاعر لم يخلق ولن يخلق حتى يوم الحشر إلا ليكون شاعراً حسب، ناسياً عمائم المتنبي والمعرّي وابن الرومي وابي نوّاس الذين كانوا يقدرون ان يكونوا كل شيء إلا شيئاً واحداً: هو أن لا يكونوا شعراء.

في تلك اللحظات التي كانت هذه الصبوات الحالمة بالتنافس بين العمامتين الراهنة والغابرة آب الشاعر الحالم من هذه الطموحات ليعود منها إلى اللحظة الراهنة، إلى الواقع الحاكم والطاغي، ففي تلك الليلة التي

اوشكت شمسها على الغروب وقبل ان يحين موعد العشاء المتوقع كان يتقدم اليه اعرابي من الكوفة أو الفرات بما يشبه عملية انقاذ . .

اعراف دينية حملت هذا الاعرابي إلى النجف، ليقيم صلاة الغائب عن روح المتوفى من اهله. وصلاة الغائب، كما هو معروف، تجري بزيارة المرقد العلوي.

وأدت العمامة، التي يجري الحديث عنها، صلاة الغائب هذه وسلمه الاعرابي كيساً صغيراً فيه دريهمات معدودة، وهذه الدراهم منحة، لا صدقة، لأن لكل منهما معنى محدد.

ذهبت العمـامة بالزاد والقوت إلى البيت في اوائل العشاء. انقضت ضرورة الساعة، ومع هذا وبعد كل ما شخص امامه من التاريخ فلم يتعظ الفتى. ولم يتراجع عن طموحاته في ان يكون وزيراً. ودارت سنتان عجيبتان، وتهيأت العمامة تلك للوزارة، وخرج زميل لصاحبها يلتصق كرسيه بكرسيه (عنـد أول رأس متـوج في البلاد) وزيراً فعلاً وهو دون ما كانت عليه تلك العمامة حباً لدى الملك وقرباً اليه ودلالاً عليه، ثم ليتقدم الشخص الثاني بعد الملك والأول بعد كل الحاكمين في العراق (نوري السعيد) يطلب تصحيح (سن) هذه العمامة التي لم تبلغ بعد السن القانوني للنيابة في اقوى مجلس نيابي في العراق، لأن السن المطلوب ثلاثون والعمامة كانت في الثامنة أو التاسعة والعشرين.

لا أقدر وأنا احاول تسلسل الاحداث اعتماداً على الذاكرة الواضحة والصريحة، إلا ان أجيء بجوهر هذه المرحلة.

فهـذا أول ملك عربي بحق، وهـو أكثـر ممـا يستحق ومما يتحمله المجتمع العراقي آنذاك، يريد لهذه العمامة ان تكون لما يريده لها لولا انها خلقت لغير هذا.

وبعده بعشرين عاماً جاء امير ووصي على العرش، والملك أكثر من الملك نفسه واراد لها ما أراده عمه فيصل.

وبين ذلـك الملك وهذا الامير كانت هناك شخصيات هامة، لعبت

ادواراً رئيسية مثل ياسين الهاشمي، ونوري السعيد، ورستم حيدر، واترابهم، تريد لهذه العمامة، ذات العشاء الأخير، كما يقول اتباع المسيح، ان تكون وان تكون. . . ومع هذا فكل ذلك لم يكن ولم يجده نفعاً.

هذا بعض مما كنت أتردد في تسجيله للتعبير الدقيق عن هذه المرحلة الشاقة عليّ والتي انبنى عليها كل ما تلاها.

انني احب الحياة حتى الموت:

حبُّ الحياةِ بحبِّ الموتِ يُغريني وأركبُ الهوْلَ في ريعانِ مامنَةٍ

وإلى جانب ذلك، هنا الغرابة فان أكون للناس ومع الناس، غير ان منطق المجتمع العراقي، بل والعربي كله ومع كل اسف، يتنافى ان تكون مع الناس ومع الحاكمين في آن واحد.

انني بهذا اريد ان اخرج بنتيجة طيبة، حميدة حلوة. وهي انه ما دام هذا الاختيار، قائماً بل وسيظل قائماً حتى قيام الساعة فلم يدر بخلدي ولا بحسابي ولا بتخطيط متعمد من ان يكون ما اخترته من ان اكون للناس ومع الناس بديلاً عن فوات كل الطموحات الأخرى، لقد كان محض طبيعة ومحض مزاج ليس إلا.

في الذكريات التي نشرتها مجلة «المجلة» الصادرة في لندن، عام ١٩٨٢ أو ١٩٨٣، سئلت عن شيء من هذا القبيل، وهو بصدد رفضي وبأسلوب خشن مع الوصي على عرش العراق، ان أكون نائباً من جديد في المجلس النيابي، قيل: أأنت نادم؟ فقلت: بلى، أنا نادم. بل انني نادم حتى هذه الساعة «ففي هذا الظرف بالذات كانت تتجمع من حولي ما يشبه التناقضات، وهو ان المقام الأعلى يريدني نائباً والجماهير الغاضبة عليه والتي تسد عليّ الدروب تريدني هي بحد ذواتها ومواقفها أن أكون نائباً أيضاً، ودم شهداء الوثبة والمطالبة بدم الشهيد الأول (جعفر) يريدني نائباً. وأي نائب؟ . . .

بالـطبـع هو أمـر لطيف ان يكون الانسان واقعياً، ان يصبح وزيراً، حاكماً، نائباً، عيناً، فضلاً عن ان يكون رئيساً لمجلس الوزراء وذلك بشيء من النفاق، وببعض من التحايل، وقليل من الذكاء والفطنة.

ثمة شهود عدول على ما فوته على نفسي ولم يفوته الآخرون من اترابي في مقهى (حسن عجمي) ببغـداد. فعبـد الـوهاب مرجان كان واحداً من عشرات الشباب الصاعدين وكنت صاعداً أكثر منه بكثير، لكنه كان هو من ألف الوزارة لا أنا، فلماذا كان ذلك؟ الأنه من بيوتات الحلة؟ طيب، أنا أيضاً من النجف ومن أشهر البيوتات الدينية فيها. أكانت له حظوة لدى ما يسمى بالمقام الأعلى؟!، أجل، ولكن هل كانت بأن يصب بيده الثلج في كأسه وان يولـع له السيكـارة بقـداحتـه وان يدعوه وفي عيد ميلاد الملك، وفي قصر الرحاب، ليفتتح المائدة فيرفض ذلك لأنه كان «زعلان»؟

ولعلني أود وأنا بصدد هذا «الوجه الآخر» من أمر تلك الوجوه المسؤولة والحاكمة، وبما يشبه الرعاية للمقاييس، والقيم، والاقدار، أود الاشارة إلى واقع الأمر من منطق المجتمع العراقي ومن منطق المجتمعات التي توصف لمجرد التلطيف والتخفيف بأنها «العالم الثالث».

ان تطفر التاريخ والحق والحقيقة، فلا تجيء إلا بما يبدو وكأنه تمويه وخداع لتعمية الحقائق ولمحو الصورة عن الصورة، والمرحلة عن المرحلة، وما تنطوي عليه هذه أو تلك من مفارقات تختلط فيها الحسنات فتمحى كلها والسيئـات فيزداد عليهـا ان تفعـل كل ذلـك هو الشيء الذي انكره والذي يعجبني الخروج عليه في ذكرياتي هذه.

وعلى أي حال فقد كنت من العاجزين عن ان يعوا انفسهم وان يدركوا ما يمكن ان يكون وما لا يمكن، أي ان أكون مع الناس وفي الصميم، وكما أريد ولنفسي، ثم ان أكـون مع الحـاكمين كمـا يريدونه. وفي صيف عام ١٩٢٨، في الفتـرة هذه وما يليها، كان أمر زواجي الأول من احدى بنات عمومتي، والدة فرات، التي شاء القدر ان يزفها اليّ من النجف إلى بغداد، وأنا بعيد عنها، ابن عمتي واخي الثاني في البيت «علي الشرقي» ويشاء القدر

بعد ذلك ان يزفّها إلى القبر وأنا بعيدٌ عنها ايضاً. كانت في الصميم من بنات عمومتي، واقتضى ذلك ما اقتضى من مراسيم، واعراف وتقاليد مألوفة في الخطوبة.

الفصل الرابع

وجوه وشخصيّات في البلاط

لكلمة «البلاط» رنين ووقع، بيد ان الملك فيصل، أكبر ملك في البلاد العربية آنذاك، كان يحيا في بلاط ليس له من ذلك إلا الاسم. فهو كناية عن غرفة بسيطة لا تختلف بشيء عن الف غرفة مثلها، غرفة بطاولة عريضة وطويلة بعض الشيء وسجادة مؤثثة وثلاثة أو أربعة مقاعد، وعارية من كل شيء آخر، فالزوار لا يزيدون عن عدد المقاعد تلك في المرة الواحدة، فلا وفود هناك، ولا اجتماعات، إلا في قاعة مخصصة لذلك.

وفي الحقيقة، فقد تذكرت الآن وأنا أدون هذه الصفحة، انه كان هناك وفي غرفة الملك «فيصل» هذه المبسطة، ما لا أغالي اذا قلت انه يعادل كل بلاطات الملوك وابهاتها، هي صورة زيتية لابد ان يكون أكبر فنان فرنسي قد ابدعها، صورة تجمع بين الملك فيصل والعبقري الخالد والشهير «اناتولي فرانس» وكان ذلك في لقاء بين الامير فيصل حينئذ وهو يمثل والده الشريف حسين في معاهدة «فرساي» وبين المبدع العظيم، ولا أدري أين؟ وكيف؟ وبيد من اصبحت هذه الثروة الضخمة؟ التي هي من أعز ما يحتفظ به من آثار العهود والمراحل والتأريخ؟ بل وكم أنا آسف حتى الآن وبما يشبه التدلل لا التطفل ان أسأل الملك نفسه عن المناسبة التي جمعت بينه وبين «اناتولي فرانس» فأنا واثق انه كان يتلطف على سؤالي، ويكفي القول عن بساطة هذا البلاط انه اصبح، فيما بعد، جزءاً من مديرية الصحة العامة، ومن ثم وزارة الصحة نفسها. فما كان يدعى البلاط، هو غرفة الملك فيصل محاطة بستِ غرف صغيرة، واحدة لرئيس الديوان، ثانية لناظر الخزينة، ثالثة للتشريفات،

ومثلها لشيوخ البدو والاعراب من العراق وما يجاوره، وخامسة للمرافقين، واخيراً فغرفة لمعاون رئيس الديوان الملكي، هذا هو كل البلاط. ولم يكن استثناء في هذا البلاط، ان أشاهد أنا بالذات الملك فيصل ينظف منضدته بنفسه بتواضع جم، مستخدماً مكشة من الريش.

في هذا «البلاط»، حللت ضيفاً على ثلاثة وجوه مائعة لها طعم الماء، هؤلاء هم، جميل الراوي وباقر الحسني والملقب بالبلاطي وناصر الكيلاني، ولكل قصة.

الوجه الأول. . الراوي، امرؤ يكاد يكون واحداً من مئات أشباهه. كل ما يمكن ذكره عنه، وهذه أبرز كفاءاته انه كان من حاشية الملك علي، وعلي نفسه متشرداً، ضيفاً على الملك فيصل.

الوجه الثاني. . . كان يكتفي بانتسابه إلى عائلة الكيلاني أو النقيب، فهو ابن بنت «عبد الرحمن النقيب» مؤلف أول وزارة في عهد الاحتلال البريطاني.

أما الوجه الثالث فهو البلاطي الذي كان كل ما يشفع له بهذه الوظيفة هو ان يكون معادلة لأنتفاء الطائفية، فقد كان واحداً من سدنة مرقد الامام موسى الكاظم في بلدة الكاظمية.

كنت غريباً عن هذا الوسط، وخلافاً لذلك كنت موضع ارتياح ومودة رئيس الديوان السيد رستم، وتحسين قدري الرجل الذي أدين له بالكثير من المواقف وصفوة باشا العوا، الرجل المحترم، النبيل.

تجاهل الاولين لي لم يدم كثيراً. وبدأ الواحد بعد الآخر بالتودد، والتقرب، واظن انهما وجدا نفسيهما مرغمين على ذلك، بعد عجزهما من مواصلة تجاهلهما، زد عليه ما كان مني من تأدب ووداعة ولمعان.

لقد حللت بينهم وأنا انسان يشار اليه بالبنان، يتردد ذكره وقصائده على صفحات الصحف، بين الفترة والفترة وليس بمجهول أو غريب أو جديد.

أخذ السيد الراوي، قبل هؤلاء، يجرني جراً إلى بيته وإلى مجالسه. وهذا الكيلاني، بعده بعام ـ بعد فوات الاوان ـ يحذو حذوه في التقرب،

ويدعـوني ، بمنـاسبـة وبـدون مناسبة ، كي اذهب معه إلى جلسات جامع الكيلاني وآل النقيب .

أما ثالثهم البلاطي ، فقد كان حقده أمكن واعمق فلقد فوجيء بان يأتي إلى التشريفات رجل من النجف ، ومن صميم البيئة والمجتمع الذي يتحدر هو منه أي (الكاظمية) من صميم الجماعة نفسها، وبهذه الصورة التي حظي بها هذا القادم الجديد، بهذا الاسم وبهذا الذكر، وبتلك الشفاعة من السيد الصدر، وبذلك الحب الذي رآه بأم عينيه ، هو ومن معه ، من الملك .



رستم حيدر ـ رئيس الديوان الملكي

ومن باب التشـديد على ما كان للملك فيصـل من اهمـال واغفـال لشريكيّ في دائرة التشريفات وبخاصة فلهذا الرجل (الكاظمي) فهناك لقطة فريدة لابد ان تدهش القارىء هي ما كان من أمر استدعائي من قبل رئيس الديوان الملكي ، رستم حيدر، صبيحة ذات يوم لأجد أمامه عدة صور مبتذلة ليس فيها خيط واحد يشدها بالفن وانما هي من تلك النماذج التي يخططها النقـاشـون لمـا يتخيلونه من صور عابرة وباهتة للنبي الرسول وللامام علي ولنجله (الحسين) ومما يعرضونه للبيع بثمن زهيد على ابواب هذه العتبة أو تلك من العتبات المقدسة في الكاظمية أو في النجف أو في كربلاء أو في سامراء مثلاً، ثم ليسألني بوصفي نجفياً ومن أول عتبة من تلك العتبات بعد المدينة المنورة عن أهمية هذه الصور ومكانتها من الفنون الجميلة . وما هو

بالجاهل عن تلك الأهمية ولا المكانة ولأجيبه بانها معروضة في هذا اليوم بالذات على ابواب الكاظمية ربما لا يزيد الواحد منها على درهم واحد.

واتطفل عليه لأسأله عما استدعاني من أجله فاذا به يقول لي انها الهدية التي قدمت على يد (صديقك!) في دائرتك إلى الملك فيصل من قبل أمير من امراء ايران!.

وللقارىء كما قلت، لا ان تدهشه هذه (الطرفة) بل وان يتخيل ما وراءها من خلفيات تكفي للدلالة على ما كان يحيط بالملك فيصل نفسه من اجواء واهواء.



الملك علي بن الشريف حسين

ثمة واقعة صغيرة لن تخبو من حافظتي. وهي: انه في أول يوم حلولي بين هؤلاء الثلاثة، كنت ضيفاً جديداً. وحقوق الضيف واجبة. انتهى الدوام، فغادروا مقرهم وتركوني لوحدي.

وأنا وفي يومي الأول لا أعرف ما أفعل، كطير غريب بريء بل وغرير حلّ في بقعة ما من طير يألفه فيها، تركوني وبقيت، كمن لا انتماء له في هذا العالم الموحش.

ذهبت اتمشى وراء الملك فيصل ورئيس ديوانه وامينه الأول وبينهما ما يفترض ان يكون من اسرار واسرار اتمشى وراءهم ولكن بمسافة عنهما ولم يكن ثمة من يشفق عليّ ويرشدني لما ينبغي ان افعل. ومنعهما أدبهما أن ينبهاني لكني انتبهت بعد ذلك فعدتُ من تلقاء نفسي.

واعود لاتذكر ما كان لي من موقف وآخر، متناقضين متضاربين، واضحك على نفسي فقد حدث ذات مرة، ايضاً، وعلى صورة أشد وافظع، اذ كان الملك علي، واخوه الملك فيصل، في الخيمة الخاصة بهما، وهو يودع اخاه الملك في سفرة من سفراته، وكنت واغلاً على هذه الخلوة الملكية ولا أدري، لماذا وكيف كان ذلك مني؟ ولماذا وكيف سمح لي الحراس بذلك؟ واقتعدت مجلسي داخل هذا الرواق المضروب لهما وحدهما، وهما يتهامسان مما على مستواهما من شؤون وشؤون، ورحت أعدل اللفات المطوية من عمامتي التفت الملك علي اليّ، بشكل مؤدب، لم يقل شيئاً بلسانه، ولكنني وجدته يوحي إلى اخيه بما معناه، «ما طعم هذا الرجل، وما محله من الاعراب؟» فكان رد الملك كما احسست وبالهمس شفاعة منه كما يبدو، بهذا التطفل مني عليهما، وهذا يتصل بالمقدمة التي سبق ان تحدثت بها عنهما.

ومرة ثالثة وقد دخلت على الملك لأبلغه بطلب اذن لمقابلته من أحد الوزراء، لأجده واقفاً مع رئيس ديوانه «رستم» وهما يتحاوران في حادث جديد ذي شأن وذي أكثر من خلفية واحدة تخصهما، والملك نفسه بخاصة وهو ما كان من أمر أول انقلاب ملكي في افغانستان، كاد يطيح بكل ما سبقه من انظمة عتيقة قاده الملك «امان الله» وللقارىء المثقف ان يحزر مدى ما عسى ان يكون كما هو كائن حتى اليوم، ما يسمى بالاستراتيجية التي تتواصل جذورها من تأثيرات لها حسابها على منطقة الشرق الاوسط كله والعراق والجزيرة العربية وما يسمى اليوم بالخليج كله. فما دخل هذه المحاورة الدقيقة والعميقة وفيما بين الملك وامين سره، وهذا الشاب الجديد والطارىء عليهما.

لقد تطفلت، وقد وصل الحديث بينهما إلى هذا الانقلاب الجديد وأنا

شبه مقاطع لهما بأن ادافع عمّا كان يعتمل في نفسي وأنا المتلهف على كل جديد ومجدد عن «امان الله» هذا والذي كان قد بدأ عهده بفتح النوافذ على عصر جديد في الافغان، ثم ليلتفت اليّ الملك وكأنني اصبحت الشخص الثالث المطلوب ليقول لي بما خلاصته ان لهذا الحدث يا «محمد» ما بعده ثم لأعي على نفسي ولاكتفي بذلك لكي انسحب عنهما.

واذا كان القارىء بحاجة إلى مزيد من ذلك فبحسبي القول انني لم اكتفِ بما كان يجب ان يكون فيه الكفاية، فلقد زدت عليه، بأن انشر بعد مدة غير طويلة وبعد انقلاب جديد اطاح بـ «امان الله»، قصيدة انتصر له فيها وهي في ديواني وتاريخ نشرها يدل بنفسه عليها:

وَداعــاً ما أردتُ لكَ الـوَداعــا ... ولــكــنْ كانَ لي أمــلٌ فضــاعــا
وكـمْ في الـشــرقِ مثـلي من مُرَجٍّ ... أرادَ لكَ النجــاحَ فمــا استـطاعـا



توفيق السويدي

واعيد القول إني انشر هذا كله وأنا عند الملك شبه المعنيّ ضمناً بها.

خلال عملي في البلاط، التقيت الكثير من الشخصيات التي لم يسبق لشاب بمثل سني، ان تعرف عليها، وهي وجوه شغلت العراق وسياسته. فهناك تعرفت على «عبد المحسن السعدون» و«ياسين الهاشمي» و«نوري السعيد» و«ناجي شوكت» و«توفيق السويدي» و«ناجي السويدي» و«رشيد عالي الكيلاني» وما بين هؤلاء كلهم من نماذج عديدة.

للتاريخ اقول: من هنا بدأ مسعى وضع اليد عليّ، من هذا وذلك، وبخاصة من ياسين الهاشمي ونوري السعيد وعبد المحسن السعدون. وكانت الرغبة وراء ذلك، احاطة هذا الشاب الجديد المتحضر بالرعاية. كان نوري السعيد أولهم واسبقهم. لكن ياسين الهاشمي ظل يعطي الشاهد بعد الآخر على ان يكون السباق في ذلك.

تعرفت على عبد المحسن السعدون، واعجبت به، واحترمته لتواضعه الجم. لقد اتهم، زوراً وافتراءً، بما اتهم به من علاقة وثيقة بالانجليز وحوصر من قبل من هم اوثق منه صلة وارتباطاً بذلك حتى اضطر ان ينتحر. كان الرجل زعيم منطقة الفرات الاوسط كلها، ويتبوأ مكانة كبرى بين عشائر الفرات، لا يزاحمه فيها حتى امير (ربيعة)، ولشدة تواضعه فقد كان يطرق برأسه إلى الأرض عندما قلت له ذات مرة «اتحبون ان تقابلوا سيدنا» فأجاب وهو ينظر إلى الأرض «اذا امرت» ولربما «اذا تفضلت».

خلال فترة وجودي في التشريفات، لم يأت، السيد «السعدون» أكثر من مرتين، زيارته الأخيرة سبقت حادثة انتحاره، ولن اتجاوز الامانة اذا قلت انها كانت بيومين، ان لم يكن بيوم واحد وحتى الآن ووجهه المثقل بما يثقل به وجه المقتحم ابواب القبر ماثلاً أمامي.

كان الحصار يضيق عليه من نوري السعيد واتباعه قبل كل أحد، والذين كانوا يعادونه دون حق ويحاصرون ما تفرد به من خصائص.

لقد كان يتمتع بشخصية بارزة، لفّت حولها الجماعات في العراق أكثر من أي شخصية أخرى. كانوا كلهم طارئين.

واخيراً فقد ضيق عليه الخناق بشكل محكم، حتى افرغ الرصاص في رأسه بوعي وتأهب للموت، حين كتب وصيته بنفسه ـ الشعب يريد الاستقلال والانجليز لا يوافقون ـ وصباح يوم انتحاره هذا اتصلت تلفونياً بالبلاط لأتأكد من مداومة الملك، حيث كنا نغيب في حالة غيابه، بينما كان الآخرون، ممن يتصلون برئاسة الديوان واتباعه، يستمرون في الدوام. اجابني عامل البدالة (المقسم)، وبلهجة شبه بدوية وبريئة وغير مألوفة:

«عمي، ما تعرف؟»

قلت: ماذا؟

قال: عبد المحسن السعدون، «اعطاك عمره!!»

قلت: عبد المحسن السعدون؟

قال: نعم عمي، انتحر.

كانت تلك صدمة شديدة عليّ، خاصة وانني كنت قد التقيته قبل أيام معدودات. وفي ديوانه بداره المطلة على دجلة.



عبد المحسن السعدون

وكان يوم انتحاره يوماً مشهوداً لم يسبق لي قبله ولا بعده ان رأيت مثله إلا بما يزيد عليه من يوم الشهيد «جعفر» بعشرين عاماً، فقد هرعت بغداد بكل من يقدر ان يهرع فيها من نساء ورجال وشيوخ واطفال إلى الطرف الأخير من الجانب الشرقي ببغداد وحيث، بيت «السعدون» وليس بوسع أحد ان يختصر هذا الموقف الرهيب وبكل ايجاز بمثل ما اوجزته ببيت واحد من

قصيدتي في رثائه واتذكر انها نشرت بعد يومين أو يوم واحد من انتحاره والتي اقول في جملتها:

نِصفانِ بَغدادُ فنِصفٌ مَحشَرٌ ساحاتُهُ اكتظَّتْ ونصفٌ بَلقع

وهنا وفي هذه القصيدة تلتصق بذكرياتي كلمة تلقاني بها «الملك فيصل» وأمامه كانت القصيدة المنشورة على طاولته الخاصة، ليقول لي كلمة اقول عنها بحق وامانة انني دونتها في دفتر صغير لديّ ـ وبالحرف الواحد ـ (اليوم قال ليّ جلالة الملك انني سأكون وعما قريب «شاعر العراق الأول»). واستمرت الضجة عن انتحار «السعدون» تتصاعد وتتنازل حتى يوم اربعينه ولي أنا بالذات أكثر من قصيدة واحدة فيه.

أما (ياسين الهاشمي)، فلم يضع قدمه على عتبة التشريفات غير مرة واحدة، فذلك وامثاله محلهم عند رئيس الديوان، جاء وجلس بجانبي وكأن ذلك منه لمجرد التمهيد لوضع اليد على هذا الطائر الجديد المنشود.

وكذلك (رستم حيدر) نفسه، إلا مرة واحدة، لم يكتف فيها بأن يقصدني بالذات وانما كان سبباً مباشراً لحراجة جديدة ومثيرة وضعني فيها كما ستأتي الاشارة اليها.

لقد تحمل الملك، من وزر العراق أكثر مما ينبغي فالعراق بلد أتعب الحاكمين والمحكومين جميعاً وعلى مدى التاريخ.

وأظن ان فيصلاً كان يصلح ملكاً لسوريا التي كانت تبكي عليه، وليس للعراق وهناك ومن هذه اللقطات ما كان من أمر توفيق السويدي، لقد استدعاني الملك فيصل وقال:

«محمد اطلب لي توفيق السويدي».

واتصلت به، غير انه اجابني بعجرفة وبالحرف الواحد:

«قل له لن أجيء!»

ترى، كيف ابلغ الملك بالجواب. دخلت وسكت وفهم الرجل معنى السكوت. فقال لي:

«محمد... قال لك انه لن يأتي!!»

ومرة أخرى ومن باب المعاكسة أراد نوري السعيد مقابلة الملك، ويجدر بي هنا ان أشدد على اسم نوري السعيد فهو الرجل الأول لا عند الملك فيصل وحده بل وعند كل من خلفه واعقبه من عائلته. ودخلت وقلت:

«سيدنا» نوري باشا «عند رئيس الديوان».

فأجاب باشارة من يده وبأيماءة رفض. عدت إلى نوري السعيد وجوابي السكوت وفهم «ان السكوت من الغضب!».

مع رستم حيدر، كانت علاقتي ودية إلى آخر الحدود. ما من سفرة إلا وكنت معه وإلى جانبه في سيارته الخاصة. واعيد القول: لم يكن الملك فيصل يأخذ معه من التشريفات أحداً غيري في كل رحلاته إلى الفرات.

مرة كان الملك فيصل يطوف في الحضرة الحسينية بكربلاء، ومعه رستم حيدر، وأنا، والمرافق خالد الزهاوي، وهو من اطيب الاشخاص وانبلهم، وفي تطواف الملك، كان العلماء في كربلاء، يقدمون عرائض وظروفاً يبدو انها تحمل استرحامات ومطاليب، وكان الملك فيصل بدوره يسلمها إلى رستم، فاذا برستم يلتفت إليّ وبلباقة ومراوغة يقول: «هل تحزر ما في هذه الظروف؟»

بكل ارتجالي، وبداهتي المألوفة وبحكم التقاليد التي أنا منها وفيها قلت له: «أجل واني أكاد اعرف منها - ثلاثة مطاليب لا أكثر - لماذا توجد محلات بيع الاسطوانات قرب الحرم الحسيني؟ ثانياً - لماذا توجد محلات، حتى ولو شبه خفية، للخمور؟ ثالثاً - طلبات تعمير لهذا المسجد أو ذاك، لتقبض الاموال عنه، باسم تعميره، كما هو شأن النجف، ليس على يد الائمة الكبار، وليس على يد (ابو الحسن) وامثاله، بل على يد آخرين ممن يترزقون بهذه الوسيلة أو تلك» وفي محل الضيافة المعد للملك فيصل (مقر بلدية كربلاء) فتح السيد رستم الظروف وكم كانت دهشته كبيرة حين لم يقرأ

فيها غير المطاليب الثلاثة، التفت إلى الملك، فرحاً مبتسماً، وقال: «هذا محمد قرأ هذه قبل ان افتحها».

واستفسر الملك مدهوشاً، كيف قرأها وهي مغلقة، فقص عليه ما حصل في الحضرة الحسينية.

ومن امازيح «رستم حيدر» معي في هذه السفرة، ان سألني «يافلان أنا افهم واعرف انك تشرب الكأس لترتاح، لكن هل تأكل لحم الخنزير معه؟». قلت مداعباً وفي سبيل المجاراة «ولماذا لا؟» وأنا في الحقيقة لم أذق لحم الخنزير، فالتفت مباشرة إلى الملك واخبره «يقول فلان، انه يأكل لحم الخنزير».

ويستدير الملك اليّ ويسألني: «هل هذا صحيح؟» فاخبرته: «سيدنا، الشيء الذي اخبرك به (رستم بك) ليس صحيحاً وهذا من امازيحه...».

وعلى ذكر السفرات هذه ايضاً، قام الملك فيصل، ونحن معه، بجولة شملت الحلة والنجف، فالديوانية والناصرية، والشطرة والغراف، وعلى جانبي نهر الغراف الحاسر، كانت تمتد أراض شاسعة، يابسة، جرداء، بعد ان جفّ وتحولت حقوله الخضراء اليانعة، إلى أرض تتنصب فيها عيدان صفراء، وتغطيها الرمال. هرع إلى الملك عدد من شيوخ عشائر الفرات مهدلين عقالاتهم على صدورهم دليلاً على اللجوء والاستنجاد لاحياء النهر. وقد استجاب لهم، وظل يؤكد، بعد عودته إلى بغداد كلمته الشهيرة «لا مشروع قبل الغراف».

وعاد ماء الحياة يتدفق فعلاً إلى تلك الأرض لتصبح جنائن عدن يستغلها الاقطاع ويدفع عنها الكادحون الاثمان الغالية.

ولما كان الحديث يدور حول الذكريات عن الشخصيات الاولى ذات العلاقة بالملك فيصل، وبالسياسة العراقية منها بالذات، فلابد لي من تخصيص السيد جعفر العسكري بشيء من التفصيل فقد كان الشخصية العفيفة، الطيبة وبالاضافة إلى ما سبق لي من أول لقاء معه في يوم زيارتي الأولى للملك فيصل بصحبة السيد (الصدر) فقد زرته بمناسبة احدى الدورات الانتخابية ولا أدري كيف خطر لي ان اشترك فيها. جئت اليه في

وزارة الدفاع، وطلبت منه ان أكون بين المرشحين، فوعدني خيراً، ووعد جعفر العسكري عهد، ولا أدري لماذا لم أعد اليه مرة ثانية، فلربما كنت قد حصلت على ما أريد. ومما يعرف عن جعفر العسكري، كرمه، ونبله الانساني. فقد شيد من ماله الخاص بيتاً للايتام في المحلة التي يسكنها. كان البيت يؤويهم ويوفر لهم فرصة التعليم ويحيطهم بالتكريم تعويضاً عن اليتم. وهذه واحدة من خصال العسكري النبيلة.



جعفر العسكري

وعلى ذكره مرة أخرى وعلى دورات الفلك فيما بعد فقد حدثني وفي اوائل السبعينات أحد معارفي من المحامين المعروفين (مصطفى القلمجي) عما آلت اليه حالة ارملة العسكري، فقال ما نصه «اتصلت بي السيدة أم طارق وقالت لي، يافلان، أنت رجل معروف، ولك مواقف في المحاماة، فهل تتفضل بزيارتي.»، زرتها في الموعد المحدد ورأيت ان خادمة البيت عندي ترتدي بدلة أرقى من لباسها، وهي اخت نوري السعيد، وكان بصرها قد كفّ أو يكاد. وقالت، «يافلان، كل شيء ذهب، وكل ما راح راح، جعفر قتل غدراً وتيتم اولاده، وقتل خالهم، وأنت أعرف بمصيره، هذا كله مفهوم. ولكن التقاعد القانوني لا علاقة له بكل ما جرى - كان راتب جعفر العسكري ضخماً بوصفه وزير دفاع - ومهما اختلف معه هؤلاء الدائبون الحاضرون، الخلف أو السلف، فان التقاعد هو لقمة العيش والحياة، وأنا ارجوك ان تسعى لأجله، وتدافع عنه وعن حقوق العائلة فيه.»

ومن هذا القبيل أيضاً ما كان من أمر ارملة «نوري السعيد» فقد ظل عبد الهادي الجلبي ـ وقد تلقيت نعيه ودفنه في السيدة زينب بدمشق قبل يومين من تدوين هذه الصفحة عام ١٩٨٨ ـ لسنين عديدة يمد ارملة «نوري السعيد» في لندن بمائة وخمسين ديناراً شهرياً، اعترافاً منه بفضل نوري السعيد على عائلة آل الجلبي، اجيء بهـذه الصورة تأكيداً لما احاوله جاهداً من رعاية تدوين التاريخ على وجهه الصحيح ليس إلا . . .

بقي أن أسرد وأنا في هذه الفترة جانباً من علاقتي بياسين الهاشمي. قصـدته في يوم كالح من أيام البطالة، وما يشبه النكبة، بعد حادثة جريدة (الفـرات) وخروجي من البلاط في اوائل الثلاثينات وضياع كل ما عندي، مستقبلي وحاضري. قصدت ان اراه لما عرفت فيه من حب، ولما كنت عليه من حال. لربمـا رأيته شخصياً بمصادفة، أو اتصلت به بالتلفون، لا اذكر بالضبط. سألته ان كان بوسعي ان ازوره فرد عليّ بالايجاب. توجهت إلى بيته الصغير (الذي خرج منه عام **١٩٣٦** عقب انقلاب بكر صدقي إلى الشام ولم يعـد اليه حيث توفي في الغـربـة). كان بيتـه الصغير يقع بالقرب من المجلس النيابي، مقابل ثانوية بغداد والبريد المركزي.

أمضيت قرابـة ساعة ونصف وأنا اتحدث معه، دون ان يتململ مما طولت واضعت ودون ان اطلب منه ما يخصني خجلاً أو تردداً. ولم تكن لي، حينذاك، مطالب عصية، بل لربما ما لا يزيد عن وظيفة كريمة أو شيء مشابه ومع انه كان واسع الصدر، وتحدث معي وتحدثت معه في امور كثيرة، خارج مبتغاي، إلا ان الرجل المسؤول الواقف في بابه، وهو سوري الاصل، ولربما كان مرافقه، أو بعبارة أخرى وكيله، القى عليّ نظرة غضبى، لما اخذته من وقت الرجل. وخرجت منه وأنا متعجب من نفسي من ان أكون عند مثل هذا الرجل الذي تكفي كلمة واحدة منه لتكون مدخلاً لي ولمن معي إلى حياة جديدة ثم ان اضيع معه ذلك الوقت وتلك الفرصة.

هاتان الشخصيتان، جعفر العسكري وياسين الهاشمي، سقتهما مثلاً عن بعض علاقاتي مع سياسيين عراقيين هم الطليعة الأولى من أمثالهم.

أمـا السيد «محمـد الصـدر» فهو شيء آخر كان يجمع في شخصه خبرات حياتية، غنية، متعددة إلى جانب مشاغل الناس والحياة عنده فقد كان ولعاً بهواية الصيد وكان الملك فيصل يلتقي معه في هذا، ولم يكن يخرج للصيد إلا مع السيد (الصـدر). وفي مرة من المرات رجعا معاً إلى البلاط الملكي وهما بزي الصيادين.

الفصل الرابع

معارك شعرية

مسست في موقع سابق، ازدواج الطفولة الأولى والثانية، ولمست، فيما لمست، ايضاً، موضوع التنافر، بين عبث الشاعر ولهوه، وتسجيل ذلك صوراً وسباكة قصائد، في جانب، وبين قيود ما يسمى بالبروتوكول وتقاليدها المرعيه أو قل آثار مثل هذا اللهو والسبك على الرجل الأول في العراق، من جانب آخر، كان شيئاً يشبه، متطلباً في الماء جذوة نار وان صح القول أكثر فمتطلباً في النار جرعة ماء.

أول معركة شعرية، لم تكن نابعة عن لهو، بل عن جدّ: ففي عام **١٩٢٩** كادت ان تفتتح أول مدرسة للبنات في مدينتي النجف. وكان ذلك بمثابة انقلاب اجتماعي. وقف عدد من علماء الدين ضد افتتاحها، وفي الطليعة منهم اتباع السيد كاظم اليزدي ، فوجدت نفسي وكأنني المسؤول الأول في العراق لمهاجمة هذه الطلائع الرهيبة التي لا يجرؤ احد ان يمسها فضلاً عن ان يهاجمها وينال منها بقسوة لا مثيل لها وفوق ذلك كله فان يكون من يقوم بهذا هو من حاشية الملك، فجاءت قصيدتي «الرجعيون»:

سَتَبـقَـى طويلاً هذه الأزمـاتُ   إذا لم تُقَصِّرْ عُمْرَهـا الصَّـدماتُ

وارسلتها إلى جريدة «العـراق» فما كان من صاحبها الذي نشر كل قصائدي الجريئة السابقة دون تحفظ إلا ان يتوقف عند كلمتين قاسيتين شديدتي الوطأة وردتا في احدى قوافي القصيدة. وكان أول مرة يبدي في

نشرها تردداً وتهيباً. فاستدعى صاحب الجريدة مديرها المسؤول، وهو المحامي (سلمان الشيخ داود)، وسأله ان كان في القصيدة، وهي حافلة بمواقف وتعابير شديدة ما يستدعي المحاكمة أو ما يمس الجريدة نفسها فكان ان اعترض على كلمتين في بيت منها وهو:

وخلفَهُمُ الأسباطُ تترى، ومِنهُمُ   لُصوصٌ، ومنهمْ لاطةٌ وزُناة

وأثار ذلك ليس ثائرة النجف وحدها فقط، بل الكاظمية وسامراء والعاصمة نفسها فقد هجوت، فيما هجوت، مجتمعاً قديماً بأسره، وكان لابد من مواجهة، من فعل ورد فعل.

وتوالت الرسائل وبرقيات الاحتجاج عليّ أنا بالذات وأكثر من هذا فما كان موجهاً إلى الملك فيصل من العلماء المجتهدين بخاصة، فاستدعاني ـ وفي هذه المرة ايضاً حدست لماذا هذا الاستدعاء ـ فاذا به غاضب عليّ ولأول مرة طوال ثلاث سنوات عنده وله الحق في ذلك، وقال مشيراً إلى الجريدة التي كانت أمامه: «ما هذا يامحمد؟!» قلت: «والله ياسيدي هذا ما كان مني.» قال: «هل تعلم كم تلقيت من المكالمات والبرقيات، التي يقول اصحابها، هذه هي افعال ابنك محمد، الذي يعمل عندك وفي ظلك، وكل ذلك وأنت تعلم كم يسبب لي هذا من حراجة شديدة».

أهو اذن خيار بين الشعر والبروتوكول؟ قلت، ولم تخني الفكرة، ولا الانتباه أو الفطرة: «آسف ياسيدي، لما سببته لك من حرج واستميحك العذر، ولكن لن اسبب لك بعد اليوم، بعد هذه الساعة، أي حرج».

كان مغزى كلامي مفهوماً، ومضمونه استعدادي لاعفاء الملك من وجودي عنده وهنا التفت الرجل الطيب إليّ مستفسراً: «ماذا تقصد؟» قلت: «اقصد ما قلت، ان لا اكون سبب احراج لكم ياسيدي». فرد عليّ بلغة لها مغزاها «لا، لا، يامحمد، عد إلى مكانك. لقد رغبت ان انبهك، حتى تكون على بصيرة».

عدت فعلاً إلى مكاني، ما انفكت الرسائل الشائتمة تنهال عليّ. وفي ما بين ما اغتفره لي هذا الرجل المهيب من محرجات سببتها له، وفي ما بين «الرجعيون» و«جربيني» كانت قصيدتي «ثورة الوجدان» خاتمة لكل المحرجات، وفي هذه المرة فقد كانت من صميم السياسة شبه الممنوع تعاطيها لمن هم في مثل موقفي هذا، والأهم من هذا كله ففي السنة الأولى من التحاقي به:

سَكَتُّ حتَّى شكتني غُرُّ أشعاري والـيومَ أنْـطِقُ حُرّاً غيرَ مهـذارِ

فمن يصدق ان يقول هذا الطارىء الجديد وهو في مثل هذا الموقف وعند مثل هذا الرجل:

وقَّعْتُ أُنشودتي والحزنُ يملأها مَهَـابَـةً، ونِياطُ القلبِ أوتـاري
في ذِمَّةِ الشعرِ ما ألقى وأعظَمُهُ أنّي أُغنّي لأَصْنـامٍ وأحجـارِ
لَوْ في يدي لَحَبَسْتُ الغيثَ عن وطَنٍ مُسْتَسْلِمٍ وقَطَعْتُ السلسلَ الجاري
العُـذْرُ يا وطنـاً أغليتُ قِيمَتَـهُ عَنْ أنْ يُرى سِلعةً للبائعِ الشَّاري
الكُلُّ لا هونَ عن شكوى وموجدَةٍ بمـا لَهُـمْ مِن لُبـانـاتٍ وأوطـارِ
وكيفَ يُسْمَعُ صوتُ الحقِّ في بلدٍ للإفـكِ والـزُّورِ فيهِ ألفُ مِزمـارِ

إلى ما سيأتي عليه القارىء من شواهد أخرى لا تطاق، ومن يصدق ان يقول هذا الطارىء نفسه وبعد عامين من ذلك وفي قصيدة «ساعة مع البحتري في سامراء. . .»:

زُرْ ساحةَ السجنِ الفظيعِ تجدْ بهِ ما يستثيرُ اللومَ والتقريعا
إنَّ الَّذينَ على حسابِ سواهُمُ حلبوا ملذّاتِ الحياةِ ضروعا
رفعوا القصورَ على كواهلِ شعبِهِمْ وتجاهلوا حقّاً له مشروعا
ساسوا الرعيةَ بالغرورِ سياسةً لا يرتضيها من يسوسُ قطيعا
حتى إذا ما الشعبُ حرَّكَ باعه فإذا همُ أدنى وأقصرُ بوعا

وبعد قصيدة «الرجعيون» وحكايتها جاء دور قصيدة «جربيني» وكنت قد اتممتها في صباح اليوم الذي وكأنه وعد مسبق بزيارة «رستم حيدر» غير المتوقعة، والتي سبقت الاشارة اليها، إلى دائرة التشريفات واليّ بخاصة، وللمرة الأولى، ليسألني لأول وهلة ان كان ثمة جديد. فقلت «لا والله ياسيد رستم بك، إلا شيئاً لا اراه لائقاً بالتسمع اليه اجلالاً لك» فقال: «قله ولنرّ ودع اجلالي أو اجلالك جانباً». فأسمعته شيئاً من «جربيني» فطرب واهتز لها، وهو بالذات من المهتزين لحب الحياة وبدأ يدفعني إلى نشرها دفعاً. وبعد يومين كانت القصيدة تحتل الصفحة الاولى من جريد (العراق).

كنت لا انشر؛كل قصائدي متنكراً إلا قصيدتين واحدة باسم (طرفة) واعني به (طرفة بن العبد) الشاعر الأول المحبب اليّ، والأخرى بأسم (ابن سهل). طرفة، ذلك البدوي العظيم الذي اختزل الحياة كلها «بشربة كميت متى ما تعل، بالماء تزبد» وبـ «كرّ في الحروب» وبـ «بهكنة» حسناء تحت «الطراف المعمد»، وابن سهل هذا الاندلسي المتحضر وكأنه المعاصر بموشحاته والصور المتلاصقة والجميلة فيها، فقد كانا يتصفان كلاهما بحب الحياة. غير ان بغداد كلها كانت تعرف من هو طرفة وابن سهل.

في الصباح استدعاني الملك فيصل، واستفسر ان كنت قد نشرت قصيدة اليوم بعنوان «جربيني» قلت له: «لو سألني غيرك ياسيدي، لكنت قد نفيت ان اكون ابنْ سهل والقصيدة موقعة باسمه ولكني وأنا تجاه مقامك الرفيع فليس بوسعي إلا ان اقول نعم أنا صاحبها». قال: «طيب، اذهب».

ورجعت إلى مكاني، وكما جرت العادة، لم يكن لي من الوذ به غير «رستم حيدر». قصدته، وقلت له ها أنذا أزور من شجعني على نشر القصيدة والتي استدعاني من أجلها سيدنا الملك وسألني عنها وفي هذا ما تعرفه من حراجة لي. فأجابني: «لا يهمك، عد إلى مكانك».

عدت إلى غرفتي التي تطل على غرفة الملك. ورأيت، منها، رستم حيدر يدخل عليه ثم يخرج منه بسرعة، فهمت جلية الأمر وانتظرت قليلاً. استدعاني بعده الملك ثانية فوجدته وقد وضع نظارته، والقصيدة بين يديه متطلعاً اليها بدقة. قال: «محمد، هذه قصيدة حلوة، وشيء جميل» قلت «شكراً سيدي، لقد خفت من غضبك». قال: «لا أبداً، القصة كما يلي: صباح اليوم هتف اليّ أخي، الملك علي ـ وأنا احترمه كما تعلم فهو أكبر مني وهو رجل متدين متعبد ـ وكان غاضباً وقال لي اقرأ الجريدة لتجد ماذا فعل ابنك محمد. لهذا السبب استدعيتك. كل ما اطلبه منك ان تذهب إلى أخي، فتزوره وتعتذر منه». قلت: «امرك مطاع وتشريف لي ان ازوره».

رتبت نفسي، تهيأت، ثم ذهبت اليه. كانت تلك زيارتي الأولى والاخيرة له ووجدت في مجلسه الشخص الوحيد والذي حدست، منه ما كان من أمر حدسي بعبد الله المضايفي، فيما بعد، من انه وهو في هذه المرة، «يوسف العطا» مفتي بغداد والملازم للملك علي، والمحرك له.

سلمت وجلست، فابدى تظاهره بعجبه من زيارتي، فأجبته «ياجلالة الملك، لقد كان ذلك مني توفيراً لاوقاتك الثمينة، والآن فقد جئتكم معتذراً، بعد ان سمعت انكم غاضبون عليّ بسبب خاطرة بريئة. وصادقاً اقول ان صاحب «جربيني» ابن سهل كان بريئاً فعلاً ولم يتعرف اليها ولم يتمثل محاسنها فضلاً عن ان يجربها أو تجربه» قال: «والله يافلان، ان غضبي عليك في محله. فأنت ابن الشيخ صاحب الجواهر، من عائلة الفقهاء والعلماء المتدينين، وقد فوجئت ان تجيء بمثل ما جئت به في القصيدة، قلت متهرباً: «انها ياسيدي زحمة من الخواطر الطارئة عليّ لا ادري على أي واحدة منها تآخذني؟» قال: «صحيح خواطر عديدة، كثيرة المآخذ، ولكن

أشدها انك ـ ضدهم في الدين ـ» ويريد بذلك البيت الصارخ بحق:

أنـــا ضدُّ الـجـمهــور في العيشِ والتفكيرِ طُرّاً. وضـــدُّه في الـدِّين

لقد كنت في الذروة من الخوف والقلق ان يعدد عليّ الملك (علي) ما لا يحصى في القصيدة من أكثر من مأخذ هو أكثر من نشاز على المجتمع العراقي كله وعلى تقاليده واعرافه كلها، وأنا اعري الصنم الذي لم أره، كما قلت، فضلاً عن ان اطلب اليه ـ فيما اطلب ـ ان «يكشف لي عن اللذاذة المسها وان يرني.. براعة التكوين» هذه واحدة على سبيل المثال من تلك المآخذ الفظيعة التي كنت لا أدري كيف اتخلص منها وعلى الاقل فحتى من حروفها وكلماتها تجاه الملك الغاضب. لشد ما كان فرحي والملك المتعبد لا يأخـذ عليّ من تلك القصيدة العارية هي ايضاً قبل ان تجيء قصيدتي «عـريانـة» البيت الذي اراده منها، واستشهد به. وتخلصت بما يسمى في الشعـر، بحسن التخلص، بان قلت له: «ياسيدي أنـا ضد الجمهـور في العيش فهل أنا غير عائش معهم؟ انني منهم واليهم في ذلك ولكن نمط الحياة عندي كما اتصور واتخيل غير ما عندهم من انماط وبنفس المستوى وبصدد التفكير بل وبواو العطف ايضاً فلست أنا ممن لا يملكون فكرة أو تفكراً ولكنني خلافهم في نمط التفكير والتفكـر، و(الـدين) مقرون بواو العطف ايضاً. فحاشاي ان امس جوهر الدين ولكن (الدين) المتلاعب به والمزوّر عليه، والمحرف عنه فما كان منه وقد تهلل وجهه لحسن تملصي هذا إلاّ ان يقول لي: «انـه على كل حال عذر» قلت: «وكـل رجـائي سيدي قبـولـك إياه» فأجابني: «اجل، شريطة ان لا تعود لمثلها».

خرجت من عنـده وأنـا أقسم، بالـطارق والنجم الثاقب، ان اعود، واعود، ثم اعود، وان اضحي بالف الف وظيفة في سبيل ان اعود. وقد عدت بعد ذلك، بقليل وعوداً أحمد، أي بما لا يقل ان لم يزد على «جربيني» أي (النزغة) أو «ليلة من ليالي الشباب». وإليكم نموذجاً من القصيدتين:

- جربيني! . . -

جرّبيني منْ قبلِ أن تزدَريني ... وإذا ما ذممتني فاهجريني

ويَقيناً ستندمينَ على أنَّكِ ... من قبلُ كنتِ لمْ تعرفيني

لا تقيسي على ملامحِ وجهي ... وتقاطيعهِ جميعَ شؤوني

أنا لي في الحياةِ طبعٌ رقيقٌ ... يتنافى ولونَ وجهي الحزين

إنا ضدُّ الجمهورِ في العيشِ ... والتفكيرِ طُرّاً. وضدُّه في الدِّين

كلُّ ما في الحياةِ من مُتَعِ العيشِ ... ومن لذَّةٍ بها يزدهيني

مَتِّعيني قبلَ المماتِ فما يدريـ ... ـكِ ما بعدَه وما يُدريني

وهَبي أنَّ بعدَ يوميَ يوماً ... يقتضيني مُخلَّفاتِ الدُّيون

فمَن الضامنونَ أنَّكِ في الحشـ ... ـرِ إذا ما طَلَبتِني تجديني

فستغُرينَ بالمحاسنِ رُضواناً ... فيُلقيكِ بين حُورٍ وعَين

وأنا في جهنَّم بين أشياخٍ ... غُواةٍ بغيِّهمْ غمروني

عن يساري أعمى المعرَّةِ و «الشيـ ... ـخُ» الزهاويُّ مُقعداً عن يميني

إئْذَني لي أنزلْ خفيفاً على صـ ... ـدركِ عذْباً كقطرةٍ من مَعين

إسمحي لي بقُبلةٍ تملكيني ... ودعي لي الخَيارَ في التعيين

قرِّبيني من اللذاذةِ ألمَسْها ... أريني بداعةَ التكوين

وإذا ما سُئلتِ عني فقولي ... ليسَ بدعاً إغاثةُ المسكين

لستُ أمّاً لكن بأمثالِ «هذا» ... شاءتِ الأمهاتُ أنْ تبتليني

أشتهي أنْ أراكِ يوماً على ما ... ينبغي مِن تكشُّفٍ للمصُون

غيرَ أني أرجو إذا آزدهتِ النفسُ ... وفاضَ الغرامُ أنْ تعذُريني

«إلطميني» إذا مَجُنتُ فعمداً ... أتحرَّى المُجونَ كي تَلْطِميني

ما أشدَّ آحتياجةِ الشاعرِ الحسـ ... ـاسِ يوماً لساعةٍ مِن جنون

أما النموذج الثاني من (النزغة)! . . أو (ليلة من ليالي الشباب) فعدا ما تقدم من أبيات قليلة فيها فهو:

لكِ في هذهِ الحياةِ نصيبٌ إغنميهِ انتهازةً وآفتراسه
فالليالي بلهاءُ فيها لمن يُحسن إبساسة لها، إسلاسه
مُخلَفاتٍ حلبتِها. . وأُناسٌ حلَبوها درّارةً بسّاسه
كلُّ هذا ولستُ أنكرُ أنّي من لذاذاتها اختلستُ اختلاسه
ليلةٌ تُغضبُ التقاليدَ في الناس وتُرضي مشاعراً حسّاسه
من ليالي الشباب بسّامه،، إنَّ ليالي جُلُّها عبّاسه

* * *

كان مقهى «رشيد» موعدنا عصراً وكنّا من سابقٍ أحلاسه
ثم عُجنا لمسرحٍ أسرجته كلُّ رَودٍ وضّاءةٍ كالماسه
ثمَّ جَسّوا أوتارَهم فأثرنَ اللهوَ أيدٍ قديرة جسّاسه
وتنادَوا بالرقصِ فيه فأهوى كلُّ لدنٍ للدنةٍ ميّاسه
خُطةٌ للعواطف الهُوج فاقَتْ خُطّةَ الحربِ جذوةً وحماسه

* * *

وخرَجْنا منه وقد نصلَ الليلُ وهدَّتْ إغفاءةً حُرّاسه
ما لبغدادَ بعدَ هاتيكمُ الضجّةِ تشكو أحياؤها إخراسه
وآقتحمنا بيتاً تعوَّد أنْ نطـرق في الليلِ خلسةً أحلاسه
وأخذنا بكفٍّ كلَّ مَهاةٍ رنقَتْ في الجفونِ منها نُعاسه
ثمَّ كانتْ دعابةٌ فَمُجونٌ فارتخاءٌ. فلذةٌ! فانغماسه!!
وعلى آسمِ الشيطانِ دُستُ عَضوضاً ناتىءَ الجنبَتين! حلوَ المداسه!
لَبِداً. تنهلُّ اللُّبانةُ منه! لا بحزْنٍ ضَرسٍ. . ولا ذي دَهاسه!
وكأنَّ العبيرَ في ضَرَمٍ اللّذةِ يُذكي بنفحةٍ أنفاسه. . !
وكأنَّ «البديعَ» في روعة الأسـلوب! يُملي «طِباقه!» و«جناسه»

الفصل الرابع

مهمة صحفية

ذات يوم ـ استدعاني الملك فيصل وقال لي: «يامحمد، اعرف انك لم تخلق لمثل هذه المهمة ـ يقصد عملي في دائرة التشريفات ـ وكما قلت سابقاً، فهذا هو جسر لك تعبر عليه». وقد اودع اليّ شغلة جديدة هي استطلاع أهم ما في الصحف وتقديمها اليه وكأنه بهذا وهو «سيد العارفين» كان يتنبأ بما سيؤول اليه مصيري بهذا الصدد ـ الصحافة ـ وقال لي وهو يكلفني بهذه المهمة «أنا أعلم انك تضيق ذرعاً أو وقتاً أو مزاجاً بوظيفتك المحددة، لذلك أحب ان اترك اليك الامور الصحفية لتتسلى بها».

وبعد ربع ساعة تقريباً كنت اتقدم اليه بقائمة لأكثر من عشر صحف جديدة عليه. وكان هذا يعني اموال دنانير غير قليلة ومريرة الوقع على السيد «صفوة العوا» ناظر الخزينة الملكية ورئيس التشريفات المعروف بامانته اتجاه الملك وميزانيته المحدودة وبشدة حرصه على الدرهم منها ناهيك عن الدينار.

والحق ان ميزانية الدولة كلها وكما ذكرنا، لم تكن تزيد، آنذاك، عن ثلاثة ملايين ونصف المليون دينار، لتغطية أمورها، بكامل وزاراتها ودوائرها وتوابعها. واظن ان ميزانية البلاط الملكي الزهيدة لم تكن تندرج في ميزانية الحكومة، بل خارجها.

ان حرص السيد (صفوة العوا) الزائد وتقتيره كانا موضوع تندر وتنكيت تتداوله الصحف لأنه لم يكن يقبل إلا القليل منها.

ورغم حب ناظر الخزينة الشديد لي، فان القائمة الرهيبة الجديدة

حركت فيه نوازع التقتير وتمهيداً مني لتخفيف هذه النوازع فقد لطفتها قائلاً ان سيدنا هو الذي طلب، وان هذه الجرائد، بتقديري هي «أحسن ما يوجد في البلاد العربية. .».

طلبت كما أذكر، جريدتين بارزتين، وقد رفض الملك احداهما شاطباً عليها بالحبر الأحمر، واظن ان السيد (النجار) هو الذي كان يصدرها، وكانت تعرّض بهم كثيراً. ثم وقع على الاشتراكات «الغالية». فتقبلها الرجل الطيب (صفوة) صاغراً، وبقيت هذه الصحف تتوارد، وخصصت لها غرفة صغيرة في بيتي، وذلك لمجرد التسلية وتقديم المهم مما فيها اليه.

ورغم ان هذه المهمة كانت تسير سيراً عادياً، لا يتخلله ما يثير، فقد حصل ما يخرج على المألوف، والعادي.

تناهى اليّ من احاديث الناس ان جريدة ما وصلت وهي تحمل قصيدة لعبد المحسن الكاظمي يمدح فيها ابن سعود ويعرّض بالملك فيصل.

في اليوم الثاني استدعاني الملك، ووجدت «عبد الله المضايفي» وهذا اسم على مسمى. فالرجل مسؤول عن ضيافة شيوخ البدو الذاهبين والقادمين من وإلى نجد والحجاز وله يد طولى في استثارة واستغلال القلاقل المتبادلة بين الملك فيصل وابن سعود عبر ما يقوم به من (ضيافة).

وحدست ان الملك قد استدعاني لما كان من أمر القصيدة تلك بأثارة متعمدة من المضايفي وفعلاً فقد سألني « محمد ، عندك جريدة، أم القرى؟» قلت: «نعم سيدنا، انها موجودة عندي». قال: «أفيها قصيدة لعبد المحسن الكاظمي؟». قلت: «لا. هذه في جريدة أخرى، وليس في الجرائد التي تصلنا.» فقال: «اني اسألك عن أم القرى بذاتها، لأنها الجريدة الرسمية لأبن سعود».

عندئذ ايقنت بما كنت قد حدست ان المضايفي يقف وراء هذا السؤال. وفهمت انه هو الذي جاء بالخبر لكي يشتد الخلاف، ويجني منه ما يجني.

قلت «لا، ليس في أم القرى، وأنا مسؤول عن ذلك، لأن كل اعداد الجريدة محفوظة لدي». وذكرت له اسم الجريدة التي نشرت القصيدة. فقال: «لا، هذا لا يهمني».

الفصل الرابع

خلاف في النجف

تناهى إلى الملك فيصل وهو في النجف قادماً من بغداد بعد زيارة كربلاء التي مرت الاشارة اليها، ان الامام السيد ابا الحسن، يشكو وجعاً في عينيه، يمنعه من الخروج. فأستدعاني اليه، طالباً ان اذهب، بصحبة مرافقه العسكري «خالد الزهاوي» إلى بيت الامام وابلغه سلام الملك عليه واستفساره عن صحته.

كنت على بيّنة من مثل هذه الامور، وبخاصة هذا الأمر بالذات. واني لأعلم علم اليقين ان السيد الامام ابا الحسن، في اثناء زيارة الملك الاخيرة هذه للنجف، خرق مألوف العادات.

ففي مثل هذه الزيارات، كانت الطليعة من العلماء، وخصوصاً السيد ابو الحسن، والشيخ النائيني (وهما أعلى مرجعين دينيين في النجف وفي العراق كله عهد ذاك)، لا يزورون الملك فيصل في الاستراحة، ولا هو يزورهم في بيوتهم. (بالمناسبة، لم يزر الملك فيصل احداً في بيته، طيلة فترة عملي معه، باستثناء بيت محسن السعدون، يوم انتحاره).

عوضاً عن الزيارة المباشرة، كان ثمة ترتيب وسط، مادام خير الأمور اوسطها، وهو ان يقوم الملك بزيارة الحرم العلوي في النجف، في الوقت الذي يكون خلاله السيد ابو الحسن أو الشيخ النائيني يصليان أو يتعبدان هناك ويرتب اجتماع في ركن من اركان الحضرة العلوية.

في الزيارة الاخيرة للملك فيصل لم يحضر ابو الحسن وتعلل بالمرض. الواقع انه كان غاضباً من الملك، لأن طلباً له لم يلبّ سريعاً.

وهذا كثير على السيد الامام، نظراً لأنه وبالرغم من مستوى منزلته تلك، لم تكن له مطالب دنيوية البتة، كما نجدها عند الآخرين. لكن مبتغاه كان هو ان يمدّ جسرٌ جديدٌ فيما بين جانبي نهر دجلة بسامراء يعين زوار العتبات المقدسة ويجنبهم مشقة الجسر العتيق غير ان تسويفاً قد حصل، وكان السيد ابو الحسن مغضباً لذلك، فلم يأت إلى الحضرة العلوية. وعليه، كان لابد من صورة مقبولة من صور المجاملة تزيل الجفوة وتسد الفجوة وتصلح ما فسد، أي ان نذهب، باسم الملك، لزيارة السيد ابي الحسن.

توجهت إلى خالد، وقلت له ان «شد حزامك ياابا الوليد». ذهبنا سوية في صيف قائظ. واحب خالد، كما احببت، ان أريه بعض معالم المدينة. ورغم ان النجف صغيرة اجمالاً، إلا ان التطواف في أزقتها وشوارعها يستغرق وقتاً أطول.

زرنا بعض المَواقع، وبعض المعالم، ومنها الابواب الزرق كما يسمونها - مقابر العوائل الثلاث الشهيرة في النجف - السادة آل بحر العلوم وآل الجواهري ومسجدهما، وجامع آل كاشف الغطاء.

ويتميز جامع الجواهري وما يجاوره من مقابر، عن هذين الجامعين وما حولهما بما استشهد به من تواريخ وفيات البارزين من العائلة شعراً والمعروف ان هذه القطع الشعرية كانت لوالدي، وعلى مرقد الشيخ محمد الحسن - صاحب الجواهر - بالذات كان البيت الأخير هو:

أُودى ومُـذ أتـمَ الاسـلامَ أرخـهُ (بين الأنـام يتيمـاتٌ جواهـره)

رأينا، أنا وخالد، كل ذلك، ونحن في طريقنا إلى ما يشبه الزقاق، حيث يوجد بيت قديم لا يتميز بشيء عما حوله، بيت عادي لا يخطر ببال من يراه، انه بيت هذا العلم الشاخص السيد «ابو الحسن». جفل خالد مستغرباً، كما لو كان ينتظر ان يطل على قصر منيف على غرار البيوت الدينية

في بغداد. لعجبه، ولدهشته، وجد دارة صغيرة، لا حارس على بابها ولا خادم فيها يقف على خدمة هذا العالم الجليل.

طرقنا الباب طرقاً خفيفاً، فخرج رجل اشيب كريم الوجه. سلمنا عليه، واخبرناه اننا آتيان من عند جلالة الملك فيصل إلى السيد للاستفسار عن صحته، وعينيه الكريمتين.

دعانا إلى الجلوس، واذا بحصيرة نظيفة فقط في صحن الدار، وعليها وسادة خفيفة من القطن، ومتكأ خفيف. وهناك سلم قصير الدرجات إلى ما يسمى بطابق ثان، حيث مقر السيد الامام، وهو، في الواقع طابق لا يرتفع عن الأرض إلا قليلاً.

بعد لحظات، نزل السيد بتؤدة، وقد وضع ضمادة على احدى عينيه، واظن ان ذلك كان من باب التمويه، المبرر، الذكي. ففي الفقه باب مخصص باسم التقية يجيز للانسان ان يتقي ما يكره بهذه الحجة أو تلك، عند الضرورة. وإلا ما كان السيد بحاجة إلى ضماد، فعيناه كما عهدت عينا نسر.

وكما تقتضي الاعراف، قبلت يدَ السيد، وحذا (خالد) حذوي وجلس الامام المهيب، الوقور، قلت له: «سيدنا، أنا فلان، ابن الشيخ عبد الحسين» ـ وكان ذا علاقة وطيدة بوالدي وأنا نفسي ذو علاقة مثلها بولده الشهيد (حسن) الذي يكنى به من ايام الزمالة وعهد الصبا، وعلاقته تلك استمرت حتى يوم وفاة والدي قبل ان ينفرد السيد بالامامة، وكان ايامها من المرشحين لها «وهذا السيد خالد الزهاوي معي، وهو مثلي من عائلة دينية معروفة»، شيء جميل ان يكون الزهاوي من بغداد والجواهري من النجف. قلتُ «جئنا لخدمتك مبعوثين من جلالة الملك فيصل الذي يسأل عن صحتك، ويستفسر عن سلامة عينيك، ويتمنى لك الشفاء» وبعد ان خصني بالترحيب لمجرد هذا الانتساب. رد الرجل علينا بكلمة أو كلمتين:

«اهلاً وسهلاً بكم... ابلغاه سلامي». قالها باقتضاب بالغ، فهمنا منه بطبيعة الحال وطبيعة الموقف ان قد انتهت الزيارة.

اشرت إلى خالد اشارة خفيفة، وقلت للسيد ابي الحسن، «نستأذنكم سيدنا». اجاب: «مع السلامة». وانتهى كل شيء وخرجنا.

بعد ان صرنا في الزقاق وأخذنا طريقنا عائدين، ابدى خالد بشيء من الحماس اعجابه بالسيد الجليل وبدهشته مما كان، فقد كان يتمنى ان يرى الصورة الصادقة للامامة، الصورة التي كان يتخيلها كما يجب ان يكون عليه الدين والمتدينون، والعبادة والعابد، والزهد، والزاهد الصادق فيه، وببساطته إلى جانب مقامه الرفيع، كان مغتبطاً لهذه الزيارة، فقد اعطته الصورة الجليلة التي ارادها. فحدثني وهو يمثل الشخص ونقيضه، ومن باب المفارقات البعيدة بل والمتناقضة، بحديث عجيب عن هذا النقيض، فقد كان في العاصمة رجل دين ذو منصب لا يقل لو صحت المقارنة عن منصب السيد «ابي الحسن»، لقد كان هذا الفقيه المتدين يوزع علينا الحلوى ـ والحديث لخالد ـ نحن معية الملك فيصل بين الآونة والأخرى في زياراته المتعددة ويرشنا بالعطور، وبكل بداهة كان كل واحد منا يفهم انها تمهيد لمساعدته في مقابلة الملك فيصل.

وذات مرة جاء (الشيخ) على هذا النحو. وكان أحد المرافقين (خير الدين العمري) وهو من ابناء الموصل، من عائلة العمري الشهيرة، ثائراً، معربداً، جريئاً. وكان يمقت هذا الرجل وتصرفاته تلك ويصادف ان يكون يوم زيارة المندوب السامي إلى الملك فيصل كما هي العادة هو اليوم نفسه الذي يكون فيه رجل الدين الأول قد جاء هو بدوره ليوزع الحلوى ويرش العطور، فلم يكن من الشاب العمري إلا ان يرتجل فكرة بعيدة عن الارتجال وان يجري عملية استئصال الزائدة، فقد كان رجل الدين هذا يصطنع التمشي، كما اعتاد، في الردهة المتصلة بباب مقر الملك فيصل متعمداً ان يكون ذلك حين وصول المندوب السامي عسى ان يسأل بعد ذلك عنه وعن مكانته، فأوعز العمري إلى الخدم، ـ وما يزال الحديث لخالد الزهاوي ـ ان يدفعوا بالشيخ، لحظة يدق الطبل ايذاناً بمقدم المندوب السامي إلى حجرة (دورة المياه)!! وفعلاً وباستجابة عاجلة نفذ المأمورون مهمتهم ودفعوا به إلى

حيث أراد العمري ، واغلقوا الباب عليه ، ولم يفرجوا عنه إلا بعد ان كان ما بين المندوب السامي والملك قد انتهى معتذرين منه بلباقة : «العفو مولانا ، اخطأنا» ويقتحم الشيخ باب الملك فيصل ويقص عليه ما كان من امر العمري ، فيتظاهر الملك فيصل بالاستياء من هذا العمل النابي الذي ما كان ينبغي ان يحصل ، ويعده بمعاقبة العمري ، ويبلغه اسفه الشديد .

وبعد خروج الشيخ ، استدعى الملك فيصل العمري وقال له بالحرف الواحد : «جزاك الله خيراً ونعم ما صنعت!» .

كان خالد يقص هذه الواقعة التي لطف كثيراً من حروفها من باب المقارنة بين هذه الصورة من التعلق بالدنيا ، والصورة الثانية من التعلق بالدين ، وقال لي : «لا ورب الكعبة ، لن انسى حتى الممات هذه الصورة» .

الفصل الرابع

أنـــا والزهـــاوي

قبل كل شيء، وأنا في معرض التقائي الزهاوي أولاً والرصافي ثانياً، أود التنـويه بأن هناك فصلاً سيأتي في محله من ذكرياتي هذه عن علاقتي بالشعر وبالقصيدة وانفعالاتي، واحاسيسي، ثم علاقتي بمن عاصرتهم من الشعراء، ومواقفي منهم.

أمـا الـذي يخصني بهـذا الصـدد فهو مجرد استعراض لقائي الأول بالزهاوي والذي طالت صحبتي معه اعواماً طويلة، ثم بالرصافي الذي كنت وما أزال على أشد الانسجام مع شخصه وشخصيته على الرغم من قصر مدة التقـاءاتي به، فبمثل ما تفرد الرصافي بشخصيته، وموقفه وجرأته، تفرد الزهاوي بامكـانـاته في سحر الناس والمجتمع، والمجالس بلطافة احاديثه، وظرفه ونكاته الحلوة، وباشاراته واهتزاز لحيته المتدلية على صدره للتأثير على الجالسين.

التقينا أول مرة، وأنا في العشرينات وهو على ابواب السبعين، عند زيارته الاولى للبلاط واتذكره وأنا في طريقي إلى الاستئذان له بالدخول على الملك وهو يعانقني عناقاً لا يخلو من وثاق آخر يشد فيما بيننا وشجعه في الوقت نفسه أمام الآخرين هو افتخاره بأني القائل فيه وفي هذه الفترة نفسها:

«قُـمْ يا جمـيلُ» فَحـامِـنـي   ياحـامـيَ الأدَبَ الـعـراقـي

وكان الزهاوي لا يفوت حتى في هذه اللحظة فرصة التنويه بنفسه قبل

ان يكون تنويهاً بي أنا القائل عنه ـ انه المحامي عن الأدب العراقي ـ وبعدها توطدت علاقتي به . . .

وبقينا أكثر من سبعة اعوام لا نتفارق ابداً. وكنت حين اتأخر عن موعد لي معه؛ يمد يده مشيراً إلى ساعته، ليقول: شوف، افندم، خمس دقائق متأخر».



جميل صدقي الزهاوي

واذكر مرة ـ وأنا بصدد أماليح الزهاوي ونوادره ـ وربما سأستدرك الكثير منها، فيما بعد، انه دعاني ذات يوم إلى أكلة سمك مشوي على ضفاف دجلة وفي أحد البساتين منها ومعه «خادمهُ المدلل» (عبد) وقد نسي هذا (العبد) ان يجيء بملح لا ذائقة للسمك بدونه فلم يكن من الزهاوي إلا ان نثر عليه من رماد في اعقاب «السجائر» عنده والتي كان لا يحتاج معها إلى اعواد كبريت بما يشعل بها الواحدة بعد الأخرى وعجبت لذلك وقلت له: «ما هذا استاذي الزهاوي!» فقال بلهجته المألوفة بلحيته المهزوزة «افندم هذا ملح صحي»، ويقصد به الرماد. وما كان مني ومنه إلا ان التهمنا السمكة ممزوجة بالرماد .

كان الزهاوي عضواً في مجلس الاعيان، وكان بطبيعة الطبائع منتشياً بهذا المنصب الجميل، الجديد.

وللزهاوي وفي جملة من اشرت اليه بما يشبه ديوان شعر صغير في مدح الملك فيصل الأول، وفي الصميم من ذلك قصيدته في أول ذكرى يرفع بها العلم العراقي ومنها:

عش هكـذا في علوٍّ أيُّهـا العلمُ   فإنـنـا بكَ بعـدَ اللّهِ نعـتـصـمُ

وهي، شأن قصائده الأخرى، مخطط ومدبر لها سلفاً. ولم يكن ثمة مفر من ان يكون في مجلس الاعيان. واذكر وأنا ازوره في بيته يوم كان موعد سحب القرعة فيما يختص بأعفاء نصف المجلس وابقاء نصفه الثاني، كما نص عليه الدستور في أول مجلس للاعيان حين لم يكن اسم الزهاوي بين الاسماء الفائزة انه لم يتمالك نفسه، إلا ان تتساقط من عينيه أكثر من دمعة واحدة، كان فيها النموذج الاصيل للاحساس المرهف والطفولة البريئة وهي كل شيء في حياة الشاعر الفنان.

وقد نظم لهذه الدمعة قصيدة بعنوان (دمعتي) هي في عداد اجمل ما للزهاوي من شعر جميل.

الفصل الرابع

أنا والرصافي والملك فيصل

اني وأنا هنا بصدد التقائي الرصافي، أود ان اجيء على لقطة تكاد بحق وحقيقة فريدة من نوعها، فكم أنا آسف ان لا تكون عندي صورة كاملة لملف سري، يصح القول، انه الملف الأدبي في جملة ملفات البلاط الملكي، الذي لا أدري لماذا وكيف وضع بين يديّ وكيف خصصت به، ويبدو انه كان خاصاً بمراسلات الشخصيات الأدبية والثقافية مع الملك فيصل الأول.

لم تكن مفاجأة عندي ان أعثر في هذا الملف على رسالة للزهاوي بخط يده يطلب فيها من الملك ان يكون شاعره الخاص وانما، كانت المفاجأة ـ وكم أرجو ان يكون هناك من يخطؤني في ذلك ـ هي رسالة بخط يد الرصافي أيضاً، وكأنه يتسابق مع الزهاوي في هذا الصدد، أما السر في هذه المفاجأة فبما سيتعرف عليه القارىء مباشرة.

لأول مرة، وبعد خمس سنين يتعرف «النجفي المعروف» المتنكر لاسمه الصريح وهو يدافع عن الرصافي وقبل ان يرى بغداد وبأم عينيه، يتعرف على الرصافي نفسه وبعده فعلى وجوه عديدة وشخصيات بارزة كبيرة.

يدور الفلك من جديد ليكون لي موقف جديد لا ينسى إلى جانب الرصافي. وهذه المرة ليس في معركة بينه وبين (رزوق غنام) ولكن بينه وبين الملك فيصل الأول. فكيف كان ذلك؟!

كانت محافل بغداد وشبابها وكهولها، بين من يحفظ، وقليل منهم يستنكر، شتم الرصافي، ظالماً الملك فيصل الأول، اذ هو يقول فيه، عام

سبع وعشرين وتسعمائة بعد الالف، ابان طغيان دجلة، وغرق الكثير مما على ضفافها من بيوت وقصور واكواخ وفي الجملة منها البلاط الملكي، فالطبيعة في غضبها لا تعرف من يكون هذا أو ذاك، أو هذه أو تلك، فيقول الرصافي هاجياً:

ليت شعري أبلاطٌ أم مَلاطُ	أم مليكٌ بالمخانيثِ يُحاطُ
غَضِبَ اللّهُ على ساكنهِ	فتداعى ساقطاً ذاكَ البلاطُ



معروف الرصافي

واصدق القول، انني انتقلت إلى جملة حاشية الملك فيصل الأول عام ١٩٢٧، وكانت جدران غرف البلاط، آنئذ، لم تنشف بعد من نداوة ومن بلل. اكاد ابتسم لنفسي، وهذه الجدران تنتصب أمامي في غرفة التشريفات، انني لم أكن آنذاك، عندما قال الرصافي ما قال، أحد المعنيين،

أو (الحائطين) به . . ولربما غدوت الآن، في نظر الرصافي ، طارئاً عليه وعلى البلاط المحاط ولست منه . كنت ابتسم لنفسي ، وأنا اشهد ، في المعايشة ، انه لم يكن بين حاشية الملك قليلة العدد ، إلا واحد من كل خمسة ممن يستحق قول الرصافي ، وممن ينطبق عليه . ولا اظن ، بأي وجه من الوجوه ، ان الملك فيصل لم يسمع بهذين البيتين القاسيين ، وله ما له من عيون خاصة ، فضلاً عن العيون العامة في التحقيقات الجنائية (مديرية الامن العامة ـ حالياً) ، والتي ترفع في جملة التزاماتها ، وفيما عدا الأمور العامة ، تقارير عما يدور من حوله ، في كل ما له وما عليه ، وظني بل واعتقادي ، انه تجاوز هذين البيتين المذكورين ، ماداما لم ينشرا بعد ، ومادام بوسع الرصافي ان يتنصل منهما . غير ان ما كان يحزّ في نفس الملك فيصل أكثر فأكثر وهو الذوّاقة في الشعر والأدب ، العّراف بنفوذهما في المجتمعات العربية والعراقية بخاصة ، ان يقول عنه شاعر مثل الرصافي في جملة قصيدته البائية المشهورة وهو بلبنان عائداً من الاستانة وفي طريقه للعراق :

لنا ملكٌ تأبى عصابةُ رأسهِ ... لها غيرَ سيف «التيمّسيّين» عاصبا
وليسَ لهُ من أمرهِ غيرَ انهُ ... يعدّدُ اياماً ويقبضُ راتبا

وان يقول ذلك في محفلٍ وفي مجتمع ، كالمحافل والمجتمعات اللبنانية وفي صحف رائجة وللامانة في التاريخ فقد كان في ذلك الحفل من قام ليقاطع الرصافي ويرد عليه ، فهل للرصافي عذره في ان يغضب من الملك قدر ما كان الملك ان يغضب من الرصافي .

كنت ، وأنا ما أنا من الرصافي ، من الذين يجهدون ان يجدوا له عذراً في ما قال ، وهنا وأنا بصدد تلمس هذا العذر لا استكثر عليّ ان اطيل بعض الشيء على القارىء ليكون على بينة من ذلك أولاً ثم ليقتطع من هذه الفارزة بين الحديث والحديث ، وصلةً من الاوصال الأدبية السائدة آنذاك في المجتمع العراقي ، التي ربما كانت محببة اليه .

ذلك ان الرصافي كان في هذه الفترة بالذات في الذروة من اصالة الثائر والمتمرد. وكان كما يعرفه كل من ألمّ بهذه الفترة ومضاعفاتها سيء الظن في ما كان وما يزال يطلق عليه اسم (النهضة العربية) أو عيد (التاسع من شعبان) اعني مرحلة الانتفاض على العهد العثماني المحتضر، على الرجل المريض، خلال الحرب العالمية الأولى، بزعامة الشريف حسين، اغتراراً منه بوعود الحلفاء، وفي المقدمة منهم، آنئذ، بريطانيا وفرنسا، اللصان المحترفان في معاهدة (فرساي)، المقتسمان اسلاب الخلافة العثمانية في المشرق العربي، وفي صميم القلب من البلاد العربية: سوريا والعراق. ذلك أن أمر التحالف على سرقة الخليج ،بكل خلاخله من جهة وبكل ذهبه الاسود حينئذ واستراتيجيته، من جهة أخرى، قد انتهى منذ أمد بعيد.



الشريف حسين بن علي - اب القومية العربية

من هنا بداية سوء ظن الرصافي عبر ما تكشفت عنه الحوادث والظروف، مروراً بما كان يراه في حال العراق عهد الاحتلال والانتداب وبما كان يراه ايضاً من موقف منافسه الجديد، الذي لا يصح له بحق تنافسه مع

الشاعر الذي كان يدوّي وهو في الاستانة، ويتردد صدى دوّيه في الاقطار العربية، اعني موقف الزهاوي، وهو يضع اللبنة الأولى في بناء مستقبل له جديد، في عهد جديد. فيحيي «السير برسي كوكس» الرمز الأول للاحتلال البريطاني البغيض، ثم يضع في عهد الانتداب وبكل معنى التناقض، ديواناً جديداً على وجه التقريب، حافلاً بالترحيب بالملك فيصل الأول، أول ملك عربي وأول وجه عربي بعد وجوه اجنبية دخيلة، حاكمة متعاقبة على العراق، طيلة أكثر من خمسة قرون. ومعنى ذلك وفحواه دونما ارتياب أو تأويل، ان يصبح الزهاوي عضواً في مجلس الاعيان، شاخصاً في المحافل والمنتديات والمجالس. بينما يغدو الرصافي، لفترة محدودة، موظفاً من الدرجة الثانية، ليرتد بعدها إلى مستوى متدن من العيش يستمر فترات طويلة، تتكلل بخاتمة مرّة لحياته.

كان الأمر مع ذلك، طبيعياً، شاءته طبيعة الأمور: ان يثور الرصافي على وضع كهذا، وعلى الرموز الأولى لهذا الوضع، ثم ان يثور على نفسه قبل كل شيء.

قبل ان اكون مع الملك فيصل، كنت في جملة من يعرف بائية الرصافي تلك وتشاء الظروف، ان أكون أنا بالذات الوحيد الذي يحفظ بيتيه المذكورين، من جملة ممن هناك، ان أكون من يدخل عبد العزيز الثعالبي والرصافي على الملك فيصل.

ولم أكن بحاجة إلى من يكشف لي سرّ الزيارة المفاجئة، فقد كان مكشوفاً. اذ كنت بحكم تعقبي لكل ما له ادنى مساس بحياة الرصافي، على المام بانه محل عطف والتماس من نوري السعيد. فاذا اضفت إلى ذلك علمي بما بين الملك فيصل وبين الثعالبي من دالة، فقد اصبح الأمر لدي أكثر من واضح، أي انها محاولة اصلاح الحال بين أول ملك للعراق وأول شاعر فيه.

وتسرب الينا نحن حاشية الملك انه قال للرصافي بالحرف الواحد:

«يااستاذ الرصافي، أأنا الذي يعدد أياماً ويقبض راتباً؟ وأنا مثقل بالمشاكل والتحديات، وبهموم أمة بأسرها؟».

وتكللت الوساطة بنجاح، ولكنه ظل مشوباً بما ينغصه من بقايا حقد ملك ذي منحدر بدوي، ظل قائماً تحت الرماد حتى وفاته بعد ست سنوات من هذا اللقاء.

على كل حال، فقد انفرجت، بعيد الوساطة، ابواب حياة كفاف كريمة للرصافي بمرتب سخي اجراه له الملك: خمسمائة روبية (العملة الرسمية قبل الدينار). وكانت بقوتها الشرائية، تضاهي بل تزيد على خمسمائة دينار اليوم. وانفرجت كذلك ابواب حياة سياسية واجتماعية، تليق بالرصافي ويليق بها.

وانحلت أمام نوري السعيد، العاطف كثيراً على الرصافي، عقدة مشوشة كانت تحول بينه وبين ان يأخذ بيد الرصافي فيرفعه وهو من هو من الملك، ضغينة وتعارضاً. ولم يلبث الرصافي ان ترشح إلى المجلس النيابي للمرة الأولى في وزارة نوري السعيد الأولى ثم تلتها مرات.

هذا ما تسرب الينا كما قلت، أما ما تجاوز ذلك فقد كان ما نشرته جريدة الاستقلال في اليوم التالي من نبأ المقابلة، مضيفة اليه بشيء من المبالغة في اعزاز الملك له وتكريمه اياه.

دعاني الملك صباح اليوم نفسه الذي ظهرت فيه الجريدة، وسألني ان كنت قد قرأتها، فأجبت بالايجاب، وسأل ثانية «والخبر عني وعن الرصافي بالذات اقرأته؟» أجبت: «نعم سيدي» فلم يكن منه إلا ان يطلب إليّ ان اكتب كلمة اقول فيها، بأسمه، انه لم يقل شيئاً من هذا القبيل.

صعقت، بحرفية هذه الكلمة وليس من باب المبالغة، فلم يبق لي إلا هذا!!! لم يبق لضميري، لفكرتي، ولمن يحبني وهم كثير (!) ولمن يبغضني ويحسدني ويتربص بي، وهم غير قليل، لم يبق لي إلا ان أعلن على الناس على رؤوس الاشهاد، ما يضارع اهانة الرصافي ومساساً بكرامته، والانكى من ذلك انه على لسان الملك نفسه وعلى يدي وقلمي ومسؤوليتي، أنا الشاعر الجواهري.

صعقت ومع ذلك فلم يكن لي، في ذاك الموقف، غير ان اجيب: «تأمر سيدنا».

ومن باب غرفة الملك، هرعت إلى غرفة رئيس الديوان، رستم، إلى حلال العقد والمشاكل وعقدي ومشاكلي بخاصة. قال لي: «خير؟» قلت: «واي خير ياسيد رستم بك، الأمر كذا وكذا. ادركني.» فما اسرع ان قال «لا تكتب، ولا تهتم بكل هذا» ومضيفاً «وماذا على الملك لو كرم الرصافي، وماذا عليه لو قال بل حتى لو زاد على ذلك! ارجع ارجع إلى محلك وكفى».

بعد برهة وجيزة رأيته يدخل على الملك ويخرج منه بعد دقائق، ليستدعيني الملك ثانية ويقول لي «محمد اصرف النظر عن الموضوع»!!

نطقت الجواب نفسه «تأمر سيدنا»، ولكن صدى ما في نفسي يكاد ان يصل إلى مسامع الملك «لقد صرفت النظر عنه سيدي، قبل ان تأمر!!» حلاوة الذكرى ما تزال عالقة على شفتي وفي نفسي، أي ان اكون أول من يخبر الملك بوجود الرصافي وأول من يدخله، لوحده هذه المرة، على الملك وان أجد الملك في هذه المرة أو في المرة التالية، يقف عند الباب المشرعة، أو شبه المواربة على نصفها تقريباً، ليناول الرصافي قصاصة صغيرة من حجم معين، لورق معين، خط عليها الملك المبلغ المهدى، وتاريخ اليوم وتوقيعه. يناوله اياها دون أية كلمة غير كلمة «اهلاً» حسب، متخطياً بذلك حتى المثل البسيط «اذا كنت مأكول الطعام فرحب».

ومن فخاري ان أكون شريك الرصافي في احاسيس الشاعر بنفسه، وكرامته، وموقفه وموقعه وان اكون بعد ذلك أنا من يناوله مثل تلك القصاصة الصغيرة جداً والدفعة الأولى مما خصص له، كما مرت الاشارة اليه.

وكنت اقرأ على وجه الرصافي، بحروف صارخة: ما اجمل فرصة وجودك هنا ياأخي الجواهري.

ابتدأت من هنا، ولأول مرة، علاقة ود واخلاص وأمانة بيني وبين الرصافي وبعد مدة غير طويلة كنت ازوره في مجلسه الخاص بمقهى (عارف اغا) في شارع الحيدرخانة. ويحدثني باسلوبه الرصين الهادىء، غير المهتز، وبلهجة اقرب إلى الفصحى وبما يشبه طرفة من الطرف الملاح لا غير، كيف ان (صفوة العوا)، ناظر الخزينة الملكية الخاصة المعروف بتقتيره

وشحه، استخدم معه اسلوب المسارقة بين تواريخ المنحة الملكية وتأجيلها، حتى بلغت درجة ابتلاع منحة شهر كامل من كل ثلاثة شهور أو اربعة قالها الرصافي، وهو يبتسم ابتسامة مشفق حزين.

ومع كل هذه الدالات، وكل هذه الخصوصيات، لا اتذكر اني تطفلت على مجلس الرصافي في مقهاه المفضل ولا في داره في (الصابونجية) أكثر من مرة أو مرتين وذلك طيلة عشر سنوات من اللقاء الأول في المقهى وحتى العام الاربعين بعد التسعمائة والالف، اعني حتى تاريخ اهتزاز الرصافي، وهو آنذاك في الفلوجة، بقصيدتي (أجب أيها القلب).

الفصل الرابع

الخروج من البلاط

كلما حاولت ان اجعل من نفسي محامياً قديراً في الدفاع عن نفسي وهي في قفص الاتهام، فيما كان لي من خلل واضطراب وقلق، ومما تحملته مع ذلك من رواسب متراكمة، فلا اجدني إلا وقد خسرت القضية وصدر الحكم عليّ بما استحقه من عقاب، ولئن كنت احاول جاهداً ان أجد في الفترة القصيرة جداً، والتي لا تتجاوز الشهرين تقريباً، عندما قفزت بي من اسوار النجف واجوائها المتضاربة والمتشابكة والهادئة، احياناً حتى درجة الصفر والعاصفة حتى لتكاد تطيح بها وبمن يدرج عليها، لئن كنت أحاول ان اجعل من هذه الفترة مبرراً، لكي يكون غبار المعركة الطائفية المدوية، والأولى من نوعها على الأقل في العشرينات. فلأن هذه الفترة العاجلة والتي احمل معها غبار معركة منتصرة كانت كافية لتنبهني ولتعرفني بمن أنا، وأين أنا، وعند من ومع من.

ان كنت اجد مبرراً لهذه الغفلة خلال ثلاث السنوات التي قضيتها مع الملك فيصل ورستم حيدر ومع شقيقه الملك علي، ومع رئيس مرافقيه، ومرافقيه الكبار، ثم وبما كان لي من أمر تهديم الجسر الذهبي الذي أرادني الرمز الأول للعراق ان اعبر عليه (اذ انتهى بي المطاف لاكون صحفياً) ان كنت اجد مبرراً لذلك كله فأنا غير قادر على الدفاع عن نفسي مرة ثانية ولا أجد مبرراً لها في هذه الموجة الجديدة، والرياح التي حملتني من جديد وبعد كل هذه الغفلات والتجارب إلى ميدان لا يقل اهمية ولا خطورة ولا مصيراً ولا مستقبلاً عن هذه المرحلة، نفسها، مع الملك فيصل أي وأنا مع (نوري

السعيد) (ونوري السعيد فيصل، وفيصل نوري السعيد) أي انني وقد شاءت المصادفات ان تجعل غلطتي في الاستقالة من البلاط الملكي وكأنها طريق ممهد لبديل لا يقل عنها شأناً بل وكأنها محض تصحيح لهذه الغلطة أي ان أكون صحفياً مرموقاً وناطقاً بلسان الملك كما عبر عنه وفي معرض الرد عليَّ (مزاحم الباجه جي):

الا للدهـرِ من عجـبٍ عجـيبِ ولـلغـفـلاتِ تَعـرضُ للأريب

شئت أم أبيت كان يجب عليّ ان أكون من الارباء، بل كان الناس وهم بعيدون عن كل هذا يعدونني ارِيباً، لقد كانت هذه النقلة على الرغم من انها لو جاءت في غير هذه الصدف ولمجرد انها صحيفة لا غير، ان تكون أكبر غلطة مني أو من غيري، فقد شاء القدر ـ لو كنت واعياً على نفسي ـ ان يضعني من جديد وعلى مثل تلك النقلة الهامة الجديدة لو انني احسنت التصرف في تحمل مسؤوليتي بأستثمار ما كتب وما قدر، ومع هذا فلم اعها ولم اع نفسي، وكان ما كان مما لا حاجة إلى التذكير به مما سيأتي بعد اصدار جريدتي (الفرات).

على كل حال، فقد كان من أمر الاستقالة انني دخلت على الملك فيصل وَاذكر انها كانت لآخر مرة وأنا في وظيفتي عنده، وأنا اقول له بالعبارات اللائقة بمكانته ملتمساً منه قبول استقالتي واعفائي من هذا الشرف الذي جعلني من معيته أو حاشيته «لماذا؟» قال لي

قلت: «سيدي، لكي أكون صحفياً، لأنني ذو هواية تمتد جذورها بعيداً في عالم الصحافة» استغرب الرجل ذلك، وقال لي بالحرف الواحد وبالكلمة البدوية الدارجة:

«صْديكك ما يكلك بهذي، اهذه من تدابير نوري؟» (يقصد نوري السعيد).

قلت: «لا والله» ولا أدري اكنت متحايلاً بهذا أو شبه متحايل لأنها في واقع الأمر من صميم رغبتي، ولئن كان هناك شيء من التحايل فلأن نوري السعيد، حببها ورحب بها، ولكي انصف الرجل فقد أراد لي ومن جديد جسراً عابراً.

والتفت إليّ الملك فيصل، وكانت الصحف قد نشرت خبر بعثة، هي أول بعثة من نوعها إلى باريس ليقول لي: «يامحمد، هذه بعثة مهيأة، وأنت محلك في الصميم منها، ولك كل المؤهلات لكي تكون ذلك، خذ مكانك منها، ومن الحضارة تستقيها وجهاً لوجه هناك في باريس ومن لغتها ومن تجاربك فيها، ثم عد لتكون صحفياً أو غير صحفي كما تحب وكما تشاء». وسكت هنيهة صغيرة، ولا أدري من أين علم بزواجي لأنني لم اخبره كما تفرضه الاعراف المألوفة في مثل هذه الوظائف ان تكون مع الملك وان لا تعلمه بزواجك، وبزوجتك ومن أين هي، فلربما كانت اجنبية وهذا ما لا يجوز، وذلك شيء يجب ان يلّم به، وأنت في معيته وفي حاشيته، قال لي:

«أنا أعلم انك متزوج وراتبك يافلان ماشٍ إلى جانب مخصصات البعثة».

واخجلني الرجل الجليل المهيب، فقلت:

«افكر بذلك سيدي»، وكنت في الحقيقة لا أريد ان افكر بأي شيء غير ما صممت عليه ثم اتم ذلك بأن قال:

«أنت كثير السفرات إلى موطنك النجف، وربما كانت لك سفرة قريبة ايضاً، فأريد منك ان تقدم لي قائمة بمن تعرف من شباب الفرات النابهين، من المستحقين لمثل هذه البعثة أو غيرها». ثم صعد رأسه قليلاً، وببسمة حلوة قال:

«بشرط ان لا تكون هناك مجاملات». وطبعاً فقد كان مفهوماً ما أراد، أي ان لا يكون هناك من اتحيز له من عشيرتي، ومن اصدقائي، وبوسع القارىء ان يتلمس حراجتي في الجواب. قلت له ما مضمونه «امرك سيدي».

وخرجت منه وليس لي أي قناعة بهذه النصيحة الثمينة ولا بالباب الجديد الذي أراد الملك أن اقتحمه أي البعثة إلى باريس لأن الأمر كان قد خرج من يديّ تقريباً لأكون كمن قطع يده بنفسه:

يداي أعانت يدَ الحادثات فَرُنِّقَ طوعَ يدي مشربي

وفي اليوم التالي وكما قلت، وأنا خجل من نفسي، قدمت الاستقالة على يد صفوة باشا العوا رئيس دائرتي.

وقد رفضت الاستقالة لفترة طويلة بل وحتى الآن. وبقيت أكثر من ذلك بسنتين وأنا ادخل على الملك فيصل لوحدي، لأن من بقي بعدي في دائرة التشريفات لا يبيحون لانفسهم الاستئذان لي بحجة عدم قبول تلك الاستقالة.

الفصل الرابع

إصدار الفرات واغلاقها

في هذه الفتـرة القصيرة بين خروجي من البـلاط، وبين اصـداري لجريدة (الفرات) كان هناك صالون أدبي لـ (محمود صبحي الدفتري) وكان في الواقع ندوة أدبية وسياسية، في يوم معين من كل اسبوع وفي هذه الندوة كانت تتلاقى نماذج فريدة من نوعها في السياسة، في الأدب، في الشعر، كان هناك «ياسين الهاشمي»، «نوري السعيد» و «رستم حيدر» ونماذج من الشبـاب، كان «محمود الملاح» و «محمود أحمد المدرس» الذي توفي وهو شاب، وأنا، و «أحمد حامد الصراف» و «بهجة الاثري» ومن الشعراء كان الرأسان الشاخصان والمتناطحان، الرصافي والزهاوي واللذان لم يضمهما مجلس واحد إلا هذه المرة التي قصد الدفتري فيها عن عمد وتصميم ان يلتقيا ويتصالحا.

وبينما كان «نوري السعيد» خارجا من هذا المجلس، ذات يوم، وكنت أنا بصدد الدخول اليه فاذا به يجذبني إلى زاوية في الطريق ليتحدث معي حول التمهيدات لأصـدار جريدة (الفرات) فما كان إلا وان يقبل من باب الصدفة «ياسين الهاشمي» وهنا فاصلة تصح ان تكون مثالاً في هذه الحقبة من الزمن، من التنافس فيما بين رجال الدولة على وضع ايديهم على النماذج من الشباب العراقي الصاعد ـ كما أشرت سلفاً ـ وذلك ليتقووا بهم الواحد بعد الآخر في مجالات الاشياع والاتباع. والتفت اليّ «الهاشمي» قائلاً وهو يشير بيده إلى «نوري السعيد» «مهدي لا يخدعك» واردفها بغمزة ذات دلالة، واضطرب «نوري السعيد» ولم تجد هذه النصيحة الثانية من أشد رجال الدولة قوة وشخصية مدخلاً إلى نفسي.

وصدرت جريدة (الفرات) وقبل صدورها بيوم واحد كنت داخلاً، وأنا على موعد مع «نوري السعيد» في مجلس الوزراء، ومن قبيل الدالة عليه، فمن دون استئذان، وظللت على مثل ذلك مدة شهور عديدة ولم يخطر على بالي ابداً انني كنت أغضب المرافق المسؤول لنوري السعيد.

وجدته وإلى جانبه جميل المدفعي وزير الداخلية وسرعان ما فهمت انني أمام المسؤولين عني وعن جريدتي (الفرات) ذاتها، ولأول مرة ايضاً يسمعان مني ما اعتقد انهما لم يسمعاه من قبل ومن بعد من يقول لهما، انني يافلان ويافلان لو كنت املك داراً وان عتيقة لبعتها واستغنيت بذلك عن كل معونة أخرى، وسرعان ما اجابني نوري السعيد «أنا أدري عنك ذلك يامهدي».

ومهما كان الأمر فقد صدر العدد الأول من (الفرات) واستعنت في مجال التحرير بكاتبين معروفين، وان على خطين متفارقين هما (محمد عبد الحسين) صاحب كتاب (سر تأخر المعارف)، في عهد ساطع الحصري وابراهيم حلمي العمر الكاتب المعروف وصاحب جريدة (المفيد) واتذكر انه بهذه الجريدة نفسها أو ببديل عنها كان قبل ذلك شريكاً لشاعر العراق الأول حينئذ الرصافي. وكان اختياري لابراهيم حلمي العمر بالذات موضع استغراب من نوري السعيد وموضع مفاجأة لي بهذا الاستغراب، ذلك انه قال لي بالحرف الواحد: «لا أنا ولا غيري يحب التدخل في كل ما تحب وتكره ولكن لم هذا الرجل بالذات، انه كان آخر من ودعنا بالشتائم في سوريا ونحن نرحل بمعية الامير فيصل إلى العراق، قلت له «سيكون معي بديلاً عما كان منه معكم!!» فابتسم الرجل وقال، «وكما تحب».

عجيب أمر المفارقات في العراق وفي كل بلد عربي، فالسيد العمر موهوب وقدير ومؤنس ومع هذا فكان من السهل عليه ان يتعامل بهذه الموهبة مع الشيء ونقيضه والموقف وخلافه والحرف وبديله، في يوم واحد، فكان من السهولة عليه، وبما لا ينافسه أحد آخر ان يكتب وفي ليلة واحدة مقالاً لجريدة العهد ـ على سبيل المثال ـ وهي جريدة (نوري السعيد) ومن يلتف حوله ومقالاً آخر لجريدة الأخاء التي تعارضها والناطقة بلسان ياسين الهاشمي

والملتفين حولـه أيضاً . ولماذا نستكثر ـ بهذا الصدد ـ على (ابراهيم حلمي) وقبل نصف قرن وعندنا الآن ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين أكثر من واحد ممن يقومون بهذه المهمة من أرباب الصحف أو ممن يتعاملون معها .

وذات يوم، بعـد صدور الجـريدة بقليل جئت لاسلم على الملك فيصل، لاني كنت بحكم موقعي منه، وكما قلت، ازوره بين فترة وأخرى، وأنـا عنـد صديقيّ الحسني والكيلاني، اشـرب فنجـان قهـوة، في دائـرة التشـريفـات وكـان الملك فيصـل خارجاً، وبحكم الواجب والأدب وقفت لتوديعه، وحين هم بركوب السيارة، نادى عليّ وأخذ قلماً من «تحسين قدري» الشخصية البـارزة من العسكـريين ومن الصفـوة السورية التي صحبته إلى العـراق، تناول القلم منه ليكتب لي صكاً بمبلغ (٧٠٠) روبية وكان يعني بذلك رمزاً لبدل الاشتراك بالجريدة والتفت الـيّ تحسين قـدري ليقول «طيب مفهوم انك تسلمت الصك ولكن ما ذنبي أنا وقد أنزل الملك قلمي المذهب في جيبه؟!» .

أما موقف (نوري السعيد) الذي لم يسبقه موقف آخر منه طوال حياته حتى مع أعـز جريدة عنـده ومعه، وهو انه اصدر بتوقيعه وبأسمه إلى كافة «المتصرفين» في الالوية العراقية، امراً بمساعدة جريدة (الفرات)، وانهالت الاشتراكات والتحويلات، وحين أغلقت الجريدة فيما بعد كان عندي من الاشتراكات والتي لم تصلني بعد، ما يعادل ثروة تذكر وتشكر، حتى اننا بقينا مدة طويلة وأنـا والمـلاك الذاهب، كنا نعثر على ما يسمى (مذكرات اذن للدفع)، كانت منسية فاذهب لتسلمها، ونعيش منها .

وصـــدر من (الفـرات) عشـرون عدداً فقط ولكنهـا اصبحت وثـائق للمؤرخين، كان يكتب فيها (جعفر العسكري) ويرد عليه (ياسين الهاشمي) وكتبت مقالاً افتتاحياً عنيفاً، سأتحدث عنه عن (مزاحم الباجه جي) والذي رد عليّ بمقال آخر، هؤلاء كانوا يكتبون بها، واعتبرت الجريدة الناطقة بلسان الملك فيصل .

وصـدرت من جريدة (الفـرات) ـ كما ذكرت ـ اعداد خمسة، ستة، سبعـة، وذات يوم وأنا أقصد (نوري السعيد)، وجدت عنده «رزوق غنام»



ياسين الهاشمي

الصحفي المشهور، وصاحب جريدة (العراق) والذي أحب بفاصلة موجزة ان اتحدث عنه، فهو من العائلات الارمنية البارزة التي طغت عليها ما يسمى بالخلافة العثمانية، حين ذبحت منهم نصف مليون، وحكى لي كيف انه وصل زحفاً هو وعائلته الكريمة إلى العراق وكيف كان منه هذا التمكن بل ومن امثاله الذين لمعوا في العراق من اشباه ونظائر، مثل (عبد المسيح وزير) العلامة والعبقري وصاحب القاموس العسكري، الذي لا يوجد له نظير في كل البلاد العربية. كان يقول لي (رزوق غنام) أنت تعرفني جيداً بما لا يعرفه عني الناس الآخرون، انني مؤمن بخط واتجاه (نوري السعيد) وبصدقه ونزاهته وإلا فانني لا أهتم أبداً بما يرضي (نوري السعيد) ولا بما يغضبه، وهو صادق فيما يقول، وكنت اعطيه القصيدة وفيها ما فيها واتعجب كيف ينشرها بعد هذا، ولأضع القارىء في الصورة على نمط أكمل فقد كان (رزوق غنام) وأنا ممن عاشه وعائلته فترة طويلة، أكثر من ليلة واحدة كان فيها التيار الكهربائي منقطعاً عن بيته وعن مطبعته لضيق ذات يده، وحسبي بهذا تأكيداً لما قاله هو عن نفسه، أعود للقول، وجدته جالساً عنده ليأخذ حديثاً لجريدته، قلت له:

«باشا، هل لرزوق فقط، أنا أيضاً أريد حديثاً لجريدة الفرات» ويالعزة هذا الطلب مني ويالمدى استجابة نوري السعيد له عندما قال لي:

«اكتب ما يلي ـ سيسافر الملك فيصل غداً أو بعد غد للاشراف على المفاوضات» ويا للعجب فلقد احدثت هذه الجملة المختصرة أكبر ضجة

لدى الساسة وصحفهم، ملك غير مسؤول ومفاوضات؟! ، ونشر الخبر وصنع ما صنع وهنا بدأت مقالة (ياسين الهاشمي) ورد (جعفر العسكري) عليه.

أما بصدد ما مرت الاشارة اليه من ذكر (مزاحم الباجه جي) وموقفه من جريدة (الفرات) فانني أحب التنويه بما كانت عليه علاقتي المتوترة معه، وذلك بسبب نشري لخطاب قدمه (نوري السعيد)، سبق ان القاه (الباجه جي) باللغة الانجليزية حيث كان متمكناً جداً منها وذلك أمام المندوب السامي البريطاني حين كان يزور البصرة، يدعو فيه ان يكون العراق جزءاً من «الكومنولث» ويعرض بثورة العشرين فقد استدعاني نوري السعيد إلى مجلس الوزراء، ثم اصطحبني إلى وزارة الدفاع، فسحب الخطاب من (عبد المسيح وزير) الذي كان قد ترجمه إلى اللغة العربية وعاد بي إلى المجلس نفسه ليقول لي «اقرأ الخطاب بكل حرية، ولا تنسّ ان جريدة (العراق) موجودة، وهي مستعدة لنشره، ولكني رغبت ان اخص به جريدتك (الفرات) اقرأه بدقة وقرر بعد ذلك نشره أو لا»!!

قرأت الموضوع على كل ما فيه من شدة وحرج، وسرعان ما اجبته بواحدة من اندفاعاتي المألوفة ومغامراتي غير المحسوب حسابها والمثيرة «أجل انني سأنشره». وفعلاً صدرت الجريدة وكانت مسائية وفيها خطاب للباجه جي وعلى الصفحة الأولى.

وفي الساعة التي كان يلقي (الباجه جي) خطابه في تجمع لاقطاب المعارضة في حزب الأخاء الوطني برئاسة (ياسين الهاشمي) وكان خطابه هذا احتجاجاً على اشتراك الملك «غير المسؤول» في المفاوضات مع بريطانيا، كانت جريدة (الفرات) امامه ويداه ترتجفان وهما تحملان خطابه هذا.

في اليوم التالي علمت ان (مزاحماً) جاء إلى مقر الجريدة في غيابي ومعه رد على ما نشر ولكن (ابراهيم حلمي العمر) ودون علمي تسلم الرد منه مخفياً اياه عني وذاهباً به إلى (نوري السعيد) ليطلعه عليه، فما كان مني إلا ان دخلت على (نوري السعيد) محتجاً على ذلك وقلت له: «هذا رد مزاحم الباجه جي ولابد لي من نشره».

قال: «كيف؟ أهذا شيء ضروري؟».

فأجبته: «أجل سأنشره لأن الرجل له حق الرد، وجريدة الفرات مفتوحة للقائل ومن يريد ان يرد».

وكانت الجريدة وبحق على مثل تلك الحال وبما أشرت اليه.

قال لي: «طيب من باب النصيحة والود، انشره ولكن في صفحة أخرى عدا الأولى».

ونشرته بأمانة، فعلى الصفحة الأخيرة وهي كما يعلم كل قارىء انها تساوي الأولى في الأهمية.

هناك مسألة أخرى ادافع عنها أو تدافع عنها جريدة (الفرات) أو تدافع هي عن نفسها ذلك ما كان فيها لي من منحى يكاد ان لا يلتقي، بل وان يتناقض مع منحى سياستها وهي وعلى سبيل المثال ان تنشر فيها من قصيدة «سلمى على المسرح» المسماة (سليمة مراد) وكنت احبها على بعد في الواقع، ونسهر أنا و (شلة) من الشباب الاصدقاء حتى بعد منتصف الليل وكانت تغني في ملهى (الجواهري) الشهير:

إلعبي فالهوى لَعِبْ وابعثي هِزَّةَ الطَرَبْ

إلى أن أقول فيها:

أنتِ «سلمى» أجَلُّ مِن ألفِ عبدٍ لألف رَبّ
ولَهُمْ باسمِ أمّةٍ سُحِقَتْ غايةُ الأرب
تركوا «الجذعَ» للبلا دِ وللصفوة الرُطَب
أبعديني عن «السياسـ ـة» والغشِّ والنَصَب
ولكي نُحرق الجميـ ـع هَلُمّي إلى الحَطَب

هذه اللقطة الناشزة نشرت في جريدة الفرات وبوسع القارىء ان يتخيل مدى وقعها على من هم الهدف الأول فيها وطبيعي ان يكون في القدوة منهم (جميل المـدفعي) وزير الداخلية والمسؤول الأول عن الصحافة بل وعلى نوري السعيد نفسه. وهنا تحرك (اللحد) لصحفي عن وجه يغيضه ما يغيض المـدفعي ويرضيه ما يرضيه! وكـان هذا (اللحد) مولعاً بالسب والشتم في النواحي السياسية، والأدبية، فأخذت حصتي من ذلك.

وكنت في هذه الفترة التعيسة البائسة من يوم اغلاق جريدة (الفرات) وما بعده أكثر من سنتين أو ثلاث والتي أمر بها في طريقي، على امثال هؤلاء المتربصين، والشامتين والشاتمين أجمع الصحف كلها التي كانت تصل اليّ بحكم المبادلة الصحفية، وأقرأها كلها لأجد في كل يوم اقذاع هؤلاء وذلك بحجـة انني أثـرت وزارة المعـارف وأثرت الطلاب عليها وأثرت المدارس والكليات وكل هذا كان كذباً. لقد اثرت وبحق، لا بسبب مني حسب بل وبمـا كان من أمـر المسؤولين والحـاكمين معهم في ما نظفـوا به، وزارة المعارف، وفيما تخلصوا به من هذا «النفر» الذي عنيته وشخصته، وثبت بعد ذلك بأسبوع صدق ما قلت وشملوا لأول مرة في أول تذييل، أي «تطهير»، للوظائف باسمائهم وبما كان من أمر سلوكهم الخلقي.

ومع هذا فقد كنت امر بهذا كله واقرأ. وانقلب الحال بعد ذلك بثلاثين عاماً وحتى يومي هذا، فأنا لا اقرأ بل ولا أسمع بل ولا يجرؤ أحد ممن معي ان يجيء إليّ بمـا يقتضيه من اسمـاع أو تسمـع لكل الشتائم ولكل اسم يشتمني فيهـا، كنت امر بهذا كله واتساءل مع نفسي لماذا يكون هذا كله معي أنا بالذات. وبأختصار فانني لاتحدى كل من يبغضني ويحقد عليّ ان يجيء بنص واحد لكلمة واحدة وفيما لا يتعدى مجالات السياسة والساسة والحاكمين والمحكومين، غمزت بها أحداً في حياتي كلها من العشرينات حتى يومي هذا.

لـم أكن في كل ما كتبت أو غمزت إلا مدافعاً عن نفسي وغير باديء بشيء من هذا كله. اذن لماذا!؟ اعتقد ان الجواب يجيء سريعاً، وهو انني شوكة في العيون. وحتى هذه الكلمة لا تصح لأنني لست شوكة شائكة ولكن

يبـدو ان هذه العيون النابضة عروقها بالحقد تتصور مجرد اسمي ووجودي ـ تلك الشوكة الواخزة ـ وبسبب من انني فرضت نفسي بنفسي عليهم وعلى التـاريخ ومن جهة واحدة فقط على الأقل، ولا أريد ان اتعداها إلى غيرها فعلى الحـرف العربي وعلى القافية وعلى التفاف الناس حول هذا الحرف وهذه القافية لأنها كانت منهم واليهم.

كان هذا كله، أو هذا وحده كافياً. ولكن كان هناك شيء آخر، هو ان كل المعارك التي اثارها الطائفيون والعنصريون والشوفينيون كانت خاسرة، كنت على براءتي وعلى غفلتي وعلى بساطتي منتصراً فيها، وهذا ما يصح ان يكون إطاراً للصورة الكاملة لما بدأت به الثلاثينات وبالضبط ففي منتصف العام الأول منها. وللقارىء ان يجد هذه الصورة وما بعدها من صور، حتى منتصف الثلاثينات من ذكرياتي، وتحت هذا الاطار واضحة ومبسطة وصادقة وهو في غنى، بكل ذلك، عن ان يجهد نفسه بقراءة ما تحت السطور كما يدأب عليه الكثيرون.



الجواهري مع أخيه الشهيد جعفر (خلفه) وشلة من الاصدقاء
في مصيف دمر (ضواحي الشام) عام ١٩٣٨

الفصل الخامس

ناجيتُ قَبـرَكِ أستوحيْ غياهِبَهُ   عنْ حالِ ضَيفٍ عليه مُعجَلا يفِد

وردَّدَتْ قفرةٌ في القلبِ قاحِلةٌ   صَدَى الـذي يَبتغي وِرْداً فلا يجِد

ولَـفَّني شَبَـحٌ ما كانَ أَشبَهَـهُ   بجَعْدِ شَعركِ حولَ الوجهِ يَنْعقد

ألقيتُ رأسيَ في طيَّاتِـه فَزِعـاً   نظير صُنْـعِـيَ إذ آسى وأُفتـأد

أيّامَ إنْ ضاقَ صَدري أستريحُ إلى   صَدرٍ هو الدهرُ ما وفى وما يَعِد

أحبـابَنـا بين الفُـرات تمتّعـوا   بالـعـيش بين مياهـه ونـخيله

وتـذكَّروا كَلفَ آمرىءٍ مُتشوّقٍ   منـزوفِ صبـرٍ بالفـراق، قتيله

حرّانَ، مدفونِ الميولِ ، وعندَكم   إطـفـاءُ غُلَّتِـهِ وبعثُ ميولـه

مُفتتح : غضبُ البَداوة
نفسٌ أمّارة بالتمرّد
حصَار «القائمة السّوداء»
مزاحِم الباجَه جي ..
ومَصائر الأشخاص..
أيّها الغدّار
في وَجْه الرّهيبُ الأول
تناقضات في وَادي «عَبقر»
تمرّد عَلى الأقفاص الذهبيّة
في مَوئِل بَشار بن بُرد ..
حساب التّمَرّد
النهوة في القرن العشرين
حالنا اليوم
الأبواب المغلقة
إنقلابٌ وَتحدٍ
عاشوراء في القلب

الفصل الخامس

مُفتتح: غضبُ البَداوة

وبعد، فلا احتاج إلى شاهد أكثر مما تحفل به دواويني ذوات المجلدات السبعة، وكل الصحف التي أصدرتها منذ منتصف عام (١٩٣٠) حتى اوائل الستينات فإنني لم اهاجم بها أحداً بحد ذاته. كل ما كان من أمري فيها كلها هو الدفاع عن النفس، ونصرة لقضية ما.

وكان لذلك ثمنه، بل أثمانه، مما لاقيته، اغلاقاً لجريدة (الفرات)، ومنعاً لجرائد أخرى بعدها. وأضرب مثالاً لكل ما تقدمت به، بواحد من الكتاب العراقيين هو، (محمود الملاح) الذي كان يردّ عليّ بما لا يليق، ليس بي وحدي بل حتى بالملك فيصل نفسه، في معرض تأويل بيت من قصيدتي في رثاء «عبد المحسن السعدون»:

وانقضَّ فوقَك كالعُقابِ وأنَّه　　　لسواكَ عن إلمامةٍ يترَفَّعُ

فشبّه من ينقض عليهم العقاب (عبد المحسن السعدون) بالفريسة والمفترس.

ولم أرد عليه وعلى امثاله بكلمة واحدة. أما (الحبزبوز)، الذي عرّض بي بغير حق، وأنا اصدر جريدة (الفرات)، فقد صبرت عليه، حتى نفد صبري، مع هذا فاني كنت غير معرض به ولا شاتم، بل منبّه ومذكّر، وذلك في مقال لي وسمته (اذا كنت كذوباً فكن ذكوراً)، وصدر قبل مقالي الأخير، المنتحر، (اسمعي ياوزارة المعارف ياوزارة الحبابزة والقزامزة) الذي انتهى به

أمر جريدة (الفرات)، حيث صدر الأمر بتعطيلها تعطيلاً هو الأخف من نوعه، أي لأجل غير مسمى. وكنت قد رجوت هذا (الحبزبوز) ان يكفّ، فردّ عليّ بأكثر من ذلك، وفي اليوم التالي كان مني ما كان.

وأعود إلى القول، اني صبرت على من لا يصبر عليهم، من أمثال (امين الريحاني) و (عبد الرزاق محيي الدين)، فضلاً عمن لا يستحق الذكر لا الصبر حسب.

أقام (نوري ثابت) دعوة قضائية عليّ في المقال المذكور «اسمعي ياوزارة المعارف» وربح الدعوة. وكنت قد عنيته بوظيفته وبأيامه في الثانوية المركزية، أيام كان مديراً لها، وبما كان من أمر سلوكه فيها.

حكمت المحكمة عليّ بغرامة (٣٠٠) روبية، ولم أكن املك حتى المائة الأولى منها.

ولمن يعرف بواطن الأمور وظواهرها، فقد كان القضاء برمته (إلا فيما ندر) تحت أمر أولي الأمر. الرجل الذي حاكمني، وانصفني في الواقع، هو (عبد العزيز الخياط)، استأذنت منه ان يمهلني اسبوعاً لكي ادبرّ أمر الغرامة فأمهلني. قصدت النجف ورهنت سجاداً كان في البيت بالمبلغ المطلوب، إلا أني تأخرت عن الموعد، فأبرقت اليه بالسماح لي بضعة أيام أخر، فأذن لي.

وبعد شهور على هذه «المعركة» صادف ان اكون بين اثنين، الأول هو (توفيق مختار)، وهو من عائلة كرخية معروفة، ونائب في أول برلمان أيام وزارة (نوري السعيد) الأولى، والثاني لم يكن غير نوري السعيد نفسه. وكل من يعرف خصائصه، اسلوبه في الكلام، وما يعنيه ويريده، بوسعه ان يقدر مغزى الواقعة التالية:

قلت، تصادف ان أكون بين الاثنين، وقبل ان اتفوه بما كنت أبغي سبقني (توفيق مختار) متدخلاً على أجمل صورة للتدخل: «ياأبا صباح، ايليق ان يبقى الجواهري على هذه الحال؟» استدار نوري السعيد موجهاً الكلام إليّ لا إلى توفيق: «بشرفي، سأرجع من لندن (وكان على وشك الرحيل اليها) واعيد لك جريدة الفرات».

وايقنت بما تأكد فيما بعد من انه سيبذل قصارى الجهد كي يقنع الملك فيصل، ذلك البدوي الغضوب، الحاقد حقد البعير عليّ. وخالجتني نسمة من الطمأنينة. فالوعد وعد (نوري السعيد) وقسمه شرفه، وقلما يجتمعان هذان من نوري السعيد، لكل من يعرفه.

بعد فترة لم تدم طويلاً، عاد من رحلته تلك، وقصدته مطالباً بما وعد. فأجابني جواباً صريحاً دالاً على دهائه: «يامهدي، لست مستعداً ان اخرّب البلد من اجلك، أفهمت».

وكان جوابي وجيزاً بمثل كلمته من الدلالة: «فهمت (ياباشا)، شكراً جزيلاً». حقاً فهمت انه، انقاذاً لوعده وقسمه وشرفه، بذل كل ما يستطيع ليقنع الملك فيصل بالصفح عني، وليخفف من حقده عليّ، ولم يكن في مستطاعه اقتحام غضب البدوي، فكان منه ما يتوقعه كل من يعرف (نوري السعيد) من أمر الحيرة بين كلمة الشرف منه، وبين الاخفاق في ان يبر بها، وهذا ما أراد افهامه اياي من الاشارة إلى تخريب الدولة أي الاستقالة. وعدت مثله خائباً.

وعدا (نوري ثابت) ينبغي ان أذكر (محمد باقر المحامي) في الحلة ولولا بعض ذكرى طيبة لهذا الرجل ايام ثورة العشرين، لما اخترته مديراً مسؤولاً لجريدة (الفرات) خلافاً لقانون المطبوعات الذي لا يجيز لمدير مسؤول، عن أي جريدة، ان يكون خارج المحافظة التي تصدر منها الجريدة، اذ كانت (الفرات) في بغداد وهو في الحلة.

هذا الرجل أراد ان يقتصر في مشاركتي على الافراح لا الاتراح. رجاني ان اتوسط له في الدخول إلى حلبة النيابة، بعد ان شغرت مقاعد في المجلس. وتدخلت بما لا تزال لي من دالة على (نوري السعيد) عسى ان يكون (لمحمد باقر) نصيب فيها. قصدنا بيته، فخرج الرجل وهو بقميصه وسرواله ليقول لي على الباب: «أنا كما ترى على باب الحمام، فهل لديك شيء هام؟»

فقلت: «ان مقصدي ليس لي بل لصديقي، وهو المدير المسؤول

لجريدتي وهو أهل وكفء لأن يحتل مكانه في المجلس النيابي، وليتك تأخذ بيده». فأجاب بكل سماح «سأنظر في ذلك».

وتكون مصادفة غريبة، ونحن نواجه محكمة وغرامة، ان يقصدني «المدير المسؤول» هذا، ومعه عملاق من اصدقائه أو لربما من اتباعه، إلى بيتنا المقابل لمقهى (الزهاوي) فيطلب مني رسالة كان قد كتبها بخط يده، تشير إلى قبوله وترحابه بأن يكون مديراً مسؤولاً لجريدة الفرات، تظاهر انه يريد الرسالة لغرض ان يصورها أو يطلع عليها، على ان يعيدها اليّ. وما كان مني ومن (فطارتي) إلا ان اطلب من والدة فرات ان تأتي بالصنيديق الذي تحتفظ فيه باوراقي الخاصة لأسلمه الرسالة اياها.

وحين زرته في اليوم الثاني في فندق العاصمة بشارع الرشيد، كي استرجع الرسالة، سمعت ضجة مفتعلة خلاصتها: ان (محمد باقر) قد تعرض للسرقة. ووجدت صاحب الفندق، وهو رجل طيب وامين، لي به معرفة، مدهوشاً.

فتساءلت: ماذا؟

ضحك وقال: الأمر مدّبر.

فهمت ان السرقة والمتهم البريء فيها، قصة منسوجة من اولها إلى آخرها الغرض الوحيد منها هو ان تكون الرسالة بل «الوثيقة» من ضمن المسروقات. كان (محمد باقر) يتطلب النيابة كما أشرت، وكان في الوقت ذاته شريكاً معي في المحاكمة والمسؤولية وأراد ان ينجو من عقباها. ويقيناً لو اننا حكمنا معاً بالغرامة، لكنت سادفعها، ولكان أقرب ما يكون إلى النيابة المطلوبة!.

بعد اغلاق جريدة الفرات، بسبب ما كان من احراج لـ (حبزبوز)، تعرضت في جملة ما تعرضت له طيلة حياتي كلها من تحرشات واثارات، فقد استمرت النشرة الاسبوعية (حبزبوز) تصدر مثقلة بكل ما لا يليق بذي شهامة وخلق من شتم مقذع، وأنا ساكت، صابر. كما استمرت الشتائم عليّ من كل انحاء العراق بمدارسها وكلياتها ومعاهدها، في برقيات انهالت تباعاً بتحريك من (طالب مشتاق).

وبحجة ان مقالي (اسمعي ياوزارة المعارف) قد نال من طلاب ثانوية بغداد المركزية بمثل ما نال من مديرها (نوري ثابت). وكان (طالب)، هذا وهو واحد من الهررة الجائعة التي مر ذكرها في الفتنة الطائفية في العشرينات ـ وفي هذه المرة ـ هو الكل في الكل في وزارة معارف يرأسها وزير جيء به ستاراً من الستائر المهلهة التي مر ذكرها في ما يجاء به لهذه الوزارة من امثاله، من الكاظمية أو النجف أو الناصرية أو من بغداد نفسها وكأنهم الحصة الزهيدة من الحكم. وعلى الأرجح، كان كثيراً لوزير مثل هذا حتى ان يكون سكرتير وزارة.

وعلى خلاف عادتي فيما بعد ذلك، بل على نقيضها، كنت اطالع هذه الشتائم وكأنها مصبوبة على غيري.

ومن السهولة ان اجيء بمجلد ضخم منها، تلك التي استمرت لأكثر من سنتين! غير اني لا أحب ان أكون السبب في ان ابعث القارىء على الغثيان.

وكمثال اضيفه إلى ما سبق من امر جماعة (ساطع) ومثاليها طالب مشتاق ونوري ثابت (حبزبوز)، فقد اكمل الثالوث نمط جديد لم يكن يخطر ببال أحد لبعدما بينه وبينهما. انه هذه المرة (امين الريحاني) فمن يصدق؟

اجيء بهذا ليقف القارىء لا على صورة افراد يسفّون في خصوماتهم إلى حد الابتذال، ولكن إلى من يقف خلفهم ويلتف حولهم من جماعات، وأيضاً وهذا هو الافظع، فإلى صورة مجتمع برمته، مجتمع مضيّع، ممزق، وهذا شيء يكاد يختص به، أكثر فأكثر، المجتمع العراقي من دون كل المجتمعات العربية، التي تشارك في ذلك وان بشيء أقل منه.

رغم ذلك كله فقد صبرت، صبرت في بداية العشرينات، وصبرت في الثلاثينات، بل كانت حصتي في ذلك غير قليلة حتى وأنا في ما يشبه الحماية عند الملك فيصل، كما أشرت.

نفسٌ أمّـارة بالتمرّد

بوسـع غيري من القراء، وبخاصة ممن يقدرون ان يتلبسوا لبوسي، واعني بهم اولئك الذين لا يخضعون، لانهم لم يخلقوا لكي يخضعوا، وهم قلة، وبخاصة ممن قد يكونون مروا بمثل هذه المواقف، أو انهم أحرجوا لكي يمـروا بها، بوسعهم ان يحكموا عليّ، بمثل ما يحكمون به على انفسهم عندما يكونون في حال مثل حالي هذه التي أنا عليها وفي مثل هذه الظروف.

ربما حاولت مع نفسي، عبثاً، ان أكون شخصاً آخر أو وجهاً آخر، كي أجـد مبرراً لكل الاخطاء أو الهفوات التي ارتكبتها في حياتي، ومنها هذه الهفوة التي احاول ان أعدّها موقفاً لابد منه، وليست مجرد هفوة، فلم أعثر على تبرير لذلك، وبعبارة اوضح فان أكون مثلاً كمن يحاول تبرير اصراره على نبذ منصب لا يستهان به، أو اغلاق ابواب جديدة للخروج منها إلى ما هو أعلى وانسب وأكثر وفرة وطمأنينة في الحياة له ولمن معه وذلك بأن يكون صحفياً ناطقـاً بلسـان شخصين لا ينـافسهم ثالث في العراق لكل مداخل السياسة بل ولكل معالم القوة والقدرة والكفاءة.

كيف يكون مني ما كان؟ الحقيقة المرة هو ان كل ذلك كان من وجه واحد وعلى وجه واحد، ومن كيان قائم بحد ذاته على رواسب واحدة. وأياً كان فقد هدّمت الجسر الجديد الذي من حق كل من فطن اليه بل ومن حق كل من يريد وهو على صفحات ذكرياتي هذه ان يفطن لما قد كان مهيئاً لهذا الجسر ان يكون مدخلاً هاماً ومنطقياً للعابرين عليه ولحياة جديدة بديلة عن أخرى تهدمت.

لقد كان الحفاظ على كل ما فات ومات هو من خصائص القادرين

على تخطيط مطامحهم ومعرفة مدى خطواتهم، وبالايجاز فعلى تناسب النقلة والأخرى في مراحل حياتهم، وفي الخريطة المرسومة لمستقبلهم، ولم أكن أنا واحداً من هؤلاء.

واقولها عن تفكر ومحاولة تطبيق للواقع على الوقائع، انني بالرغم مما قد يفترض في كل ما مررت به من مفارقات قد تبدو وكأنها متناقضات، بالرغم من كل هذا، وبعد التمحيص للنفس وبعد محاسبتي اياها، وبعد جهد جهيد في ان اكتشف مخلفاتها واسرارها، اسرار كل ما كان منها وبواعثه، فلا اجدني إلا (كما قلت) وجهاً واحداً، إلا شخصاً واحداً، منسجماً مع نفسه، مهيئاً لكل ما كان منه، مخلوقاً من النطفة لكي يكون ما كان. وحتى الآن، وبعد قرابة ستين عاماً من ذلك، أي بعد تمحيص كل ما مرّ عليّ لا أجدني إلا وقد خلقت وهيئت، لكي انسجم مع هذه النفس التي تحملني بمشقة واحملها بمشقتين. ولابد مما ليس منه بدّ، فان لم يكن بمقال (اسمعي ياوزارة المعارف) فبضربة مثلها أو أشد منها، ان كان هناك ما هو أشد، من معاول القدر، والقضاء التي احاول عبثاً، وبدون طائل، ان اتقيها، بل وان ادافع عن نفسي في ان يكون المشارك الأول لما قضي وقدر. وبمثل هذا فما كان مني بعد عشرات من الاعوام، وبما لا علاقة له بكل ذلك، فلا أدري لماذا كنت على هذه الدرجة من الشخوص أمام أعين الحاقدين والحاسدين والمتربصين. وكلما فكرت وحاولت ان اجد مثالاً آخر في كل ما مرّ عليّ من احداث ومن نظائر، واشباه، وهم قلائل، وقد لاقوا ما لاقوا، وتحملوا ما تحملوا.

لم أجد من ينافسني على مثل (هذه النعمة!!) وحتى المتنبي العظيم. لقد كابد ما كابدت، وتحمل ما تحملت، وتهجر ما تهجرت، وشرد بمثل ما شردت، ولكنه مع هذا كله فقد كان يقرب يومه الأخير بنفسه وكأنه يريد ان يختزل كل مرارات الحياة التي ذقتها بعده بأكثر من أيامه بثلاثين عاماً. ومع هذا فلا أدري لماذا يذبح المتنبي رمز القومية العربية، وقبل هذا رمز البلد الأول الذي انجبه وملأ به الدنيا وشغل به الناس؟ لماذا يذبح في وطنه وعلى مبعدة اميال من بيته (من بيتي أيضاً) واهله في العراق؟ ثم لماذا يموت

الرصافي في عاصمة وطنه على سرير حديدي عتيق مما يباع في سوق المزاد بأقل من دينار؟، ولماذا لا تسدل عنده ستارة حتى وان من قماش رخيص على النوافذ الزجاجية التي تضج بما يشبه وهج النار من قيظ العراق؟ ولماذا لا يوجد كرسي في حجرته وان من خشب عتيق ليستقبل عائداً من عواده، لو كان هناك من يعوده؟ ولماذا يرحل الكاظمي بعيداً عن وطنه معدماً ومحتاجاً ليموت في القاهرة معززاً ومكرماً؟.

لقد عاش ومات بدوي الجبل شاعر بلده الأول في وطنه، ولقد مات شوقي في قاهرته، ورحل ابراهيم طوقان من العراق أيضاً ليموت في وطنه.

أنا واحد من هؤلاء. وكلنا في حقيقة الأمر لا نتجزأ لا بقليل ولا بكثير عن ان نكون نموذجاً لما هو اوسع من اسمائنا واشخاصنا أي للبيئة والمجتمع اللذين نعيشهما ويعيشاننا.

أنا واحد من هذه الضحايا النواشز. في وطنهم العراق بالذات، كتب عليّ ان ادفع هذه الاثمان الباهظة التي دفعتها من حياتي على يد من لا يتكافأ معي بشيء من شاتميّ وجاحديّ وحاسديّ انني لأحسد كل المغمورين في عالم الأدب أو الفن أو في أية ناحية من نواحي الحياة!.

وأعود، لأستثني واستدرك، وأقول انني لم أجد بلداً غير العراق في كل ما حييت وعشت واختلطت بالافراد والجماعات في البلاد العربية، وفي كل ما قرأت في التاريخ عنها، في مثل هذا الانجاب وفي مثل هذه المكافآت عنها، حتى المتنبي نفسه لم يعش لحسن حظه في العراق طويلاً، ولا أدري كم سنة أو كم شهراً قضى بين أهل بيته في الكوفة، فالتاريخ لا يذكر ذلك بالضبط.

ان الاحقاد التي اثرتها. في مجتمع يضم وجوهاً وجدت لتكون حاقدة بل ومعبأة بالحقد وبالعنصرية والشوفينية البغيضة وبالنعرات الطائفية المنكرة، احقـاد تغلي ولابـد من ان تظل تغلي وتغلي في الصدور، وانها تنتظر يوم انبعـاثهـا من مكـامنها وتفلتها من عقالاتها. ولئن كنت قد أدركت في هذه الحقبة ما كان لي من حصة فيها فهو لا يتنافى من انني عدت وغفلت بعدها عما كان لي وعليّ ومعي من قبل ذلك.

الفصل الخامس

حصار «القائمة السوداء»

عنّ لي ذات يوم، وأنا اتحدث عن الثلاثينات، ان ازور الرصافي في بيته، وكان يسكن في محلة (الصابونجية)، وهو اسم دال بذاته، مكتف بمعناه للعراقيين، وبأكثر من هذا التحديد وللقارىء العربي في كل مكان فانه حي يشبه أن يكون مجمعاً لبنات الهوى. واظن ان سكنى الرصافي فيه هو في جملة ما كان يتحدى به المجتمع. وأياً كانت البواعث، وأياً كانت طبيعة هذه الحارة، فان الكاتب المصري (أحمد حسن الزيات) كتب عنه وعنها في مجلة «الرسالة» كتابة مسيئة، بدلاً من ان يكبر هذا الرجل، ويعتبرها مفارقة شخصية تحدث للملهمين والافذاذ، من شبيهي الرصافي في عالم الشعر والفن.

زرت الرصافي في هذا الحيّ، ولكن بنظرة مختلفة عن «الزيات». زرته هذه المرة، خلافاً لزياراتي في العشرينات حيث كنت اسلمه هبات الملك فيصل بيدي.

وجدت، لحظة وصولي، الشاتم (نوري ثابت) هناك، وكان كل شيء منتهياً: الثارات، التشفي، الشتائم، القذف. اذكر ان المجلس كان هادئاً، والرصافي مسيطراً، وكأس «العرق» أمامه، وجارته تطهو الطعام، وهي مما يسمى بـ «بنت الناس»، أي ممن قذف بهن المجتمع ظلماً. نادته، وناولته العشاء، فأجابها برقة أخاذة: «شكراً يابنتي» حتى لكأن الرصافي قد تبناها بجملته هذه، وكان محروماً من ولد وبنت وزوجة، قلت «مسيطراً» ونسيت أن أقول، إلى جانب ذلك، فقد بدا عليه لحظة دخولي شيء من التجهم، حزرت الدافع اليه منذ اللحظة الأولى. ذلك ان هذه المصادفة التي شاء

القدر أن يجمعني عنده مع اقذع الشاتمين كانت كافية وحدها أن تثقل على الرصافي ويعز عليه بل وأن يتجهم من أجله . . .

وأعود لأقول أن هذه الصورة المنسجمة بحد ذاتها : الرصافي المتمرد، المحلة التي اختارها، البيت الذي اختصه منها، «بنت الناس» المتعاطفة معه كانت صورة لا أنساها. ولكي افرغها في قالب لا ينساه كل قارىء فبوسعي أن اضعه اتجاه الاطار الواسع المفرغ عليها وهو ما رواه إليّ واحد هو من أشد المحببين إلى الرصافي والمقربين منه ولربما كان السيد «خيري الهنداوي» ان لم تخني الذاكرة، من أن الرصافي في داره هذه، جاءته ذات يوم واحدة من بنات الناس تلكن ـ ولربما كانت ـ هي من تبناها بحد ذاتها كما أشرت اليه، قائلة له وبالحرف الواحد: «ياأستاذ. . الرصافي . . أنا بحاجة ماسة لدفع دين عليّ هو خمسون ديناراً ـ وبالحرف الواحد أيضاً ـ وأنت تعرفني وتعرف أن هذا المبلغ هو يسير عليّ دفعه بحكم مهنتي» فما كان من الرصافي إلّا أن صمت لحظة ثم تحدرت دموعه. . . ودهشت بنت الناس هذه قائلة ولماذا دموعك هذه ياأستاذ. . . الرصافي «انني لا أستحقها وأنا من تعرفني؟!» فقال لها «ياابنتي ليس لأنك أنت بالذات المحببة إليّ والتي تطلبين مثل هذا المبلغ الزهيد ولكن لمجرد أن أنساناً يطلب مني حاجة أنا عاجز عن تلبيتها. . » هذه هي الصورة وإطارها، وهذا هو الرصافي، وهذا هو الشاعر الانسان وكفى. . .

رغم الحرمان والجو الخانق، بوسعي القول ان تلك كانت ابدع فترة في حياتي الأدبية في مرحلة الشباب. كنا نجتمع في مقهى (حسن العجمي) في الحيدرخانة، شلة من الشباب الصاعد، وكنت في الصميم منهم. فما ان أصل حتى يتبدل الجو إلى الطف، والحديث إلى أجمل.

نجتمع، نتلهى، نأنس، ثم نذهب إلى الباب الشرقي، ونرتب امورنا المادية، روبية أو نصف روبية من كل واحد.

في هذا الجو، ووسط هذه الدوامة، كانت الانطلاقة الأدبية والشعرية عندي تتوالى فالجو المتناقض، المتفارق، ينسجم مع هذا الانسان في تناقضاته. وفي التنافض يحصل انسجام.

«ولم أر في الضـــدائـد من نقيض إلــى ضد نقــيض من ضريب»

لربما كنت مديناً لهذا الجو الذي عنه تحدثت ومنه اشتكيت. كانت تلك فتـرة من ابـدع ما في حياتي الأدبية أيام الشبـاب. في هذه المرحلة انطلقت قصيدة:

هُزّي بنـصفِـكِ واتـركي نصفـا لا تحـذَري لقَـوامِـك القصفـا
فبـحَـسْـبِ قدِّكِ أنْ تُسـنِّـدَه هذي القلوبُ، وإنْ شكتْ ضَعفا
عشـرونَ طرفـاً لو نُجـمِّـعـهـا ما قُسِّـمتْ تقسيمَـكِ الـطرفـا
تُرضـينَ مُقـتـربـاً ومُـبـتـعِـداً وتُـخـادِعـينَ الـصفَّ فالـصفّـا

وكـانت لنـا في مقهى عزاوي، مقصورة شبه محجوزة لنا، أنا وعبد الوهاب مرجان، وصادق كمونة، وابن الظاهر، وعبود الشالجي، وكان السيد عزاوي، صاحب المقهى، يتقـرب منا ويعتز بنا، ويفخر بهذه الصفوة من رواده. شأنه في ذلك شأن (حسن العجمي).

في هذه المقهى وفي تلك الفتـرة كانت نجمة لا مغنية حسب بل، وراقصـة تخلب الالبـاب، هي (بديعة أتش). والحقيقة انها لم تفتن رواد المقهى بل فتنت النـاس كلهم في تلك الايام. وقد رحلت عن بغداد إلى حلب ذلك ان فتنتها كانت مدعاة فتنة بين المتنافسين عليها، ممن يمتازون على الناس بالمتع والاهواء في العاصمة، وكذلك لما كان منها قبل هذا وبعد هذا في حلب موطنها حيث دفعت، عن غير ذنب (لو صح ان يكون الجمال ذنباً) ثمناً غالياً هو حياتها.

في الاعوام الثلاثة الأولى من الثلاثينات كتب عليّ ما يشبه الحصار، كتب عليّ، وأنا في صميم هذه البدايات، ان ادخل «القائمة السوداء» وعلى يد الملك فيصـل الأول نفسه، الذي سبق لي (أيام كنت أعمل عنده) ان

اقتحمت الباب عليه لأرى بعينيّ، ومن باب التطفل، هذه القائمة، التي تعد لمن يشاء سوء حظه، بحق أو بباطل، ان تطبق عليه.

كان ذلك بينه وبين نوري السعيد، في الاسابيع الأولى من وزارته، واطبق هذا السواد عليّ فيما بعد.

فهمت انني دخلت تلك المصيدة من على لسان (رستم حيدر) رئيس الديوان الملكي والصادق الامين والمحب لي بخاصة وأنا أزوره وكأن الدنيا تكاد تضيق بي وبمن معي لأقول له وجهاً لوجه: «والآن يارستم، وأنت ترى ما أنا عليه من حال فما هو الحل؟»

عدل من قامته وكأنه يتحداني بها، وفتح من عينيه أكثر فأكثر، ليقول لي وكأنه يردّ عليّ بما عرفت ورأيت:

«اذا قدرت، يافلان، ان تنهض من عثرتك هذه بعد سنوات ثلاث، فأنت الرابح».

لم أكن بحاجة إلى أكثر من هذه الكلمات لأفهم يقيناً انني في تلك القائمة، بلا أي ظل من ظلال الريبة أو الشك.

نقل لي (رستم) ذلك وكأنه ينقل اليّ بألم ما أراده لي الملك فيصل. والعجيب في الأمر هو مصداقيته. ان السنوات الثلاث المطلوبة هذه تعني ملازمتي البيت، أو ان شئت فمقهى (عـزاوي) ومقهى (حسن العجمي) شريطة ان لا يكون لي مكان في الدولة. اقول سنوات ثلاث وأنا اتذكر بدقة انها كان بحاجة وعوز إلى شهور قلائل كي تكمل نفسها. وقد اختزلها ما كان لي من موقف فريد في بابه، غريب حتى بين الغرائب المألوفة، واعني به هذا:

كان يغنيني عن البـرم بحياتي ما خصصـه لي الملك نفسه، أو في الحقيقـة ما خصصه نوري السعيد بوساطته، وأعني بذلك المائة وخمسين روبية التي كنت اتلقاها. فهي تكاد تكون أكثر من كفاف في العيش لامريء من طبقتي المتواضعة في حياتها. ولكن هذا شيء، وان أكون جليس الدار وبرغمي فشيء آخر.

الفصل الخامس

مزاحم الباجه جي ومصائر الأشخاص..

عجيب، أمـر تداخل الحوادث والأشياء، شاء المرء أم أبى، لتكون وكأنـها تتمم نفسها بنفسها، فلقد شاء القدر، ولا أدري كيف ولماذا، ان تندس شخصية بارزة مثل (مزاحم الباجه جي) لتكون وكأنها بداية النهاية، في أمري مع الملك فيصل الأول، بل والنهاية من أمري مع البلاط الملكي نفسه، وان بفارق قليل.

رحم الله مـزاحمـاً، لقـد خلق ليكـون شخصية أدبية، عملاقة قبل أن يكون سياسياً مرموقاً يضرب به المثل في جمعه النقيضين، حتى لكأنه، وعلى هذا الوجه الخاص، (الجواهري نفسه).



مزاحم الباجه جي

لقـد كان مخلصـاً وأميناً، في ان تشتد علاقته بالجماهير، وبخاصة فبالمثقفين وبالطلائع الأولى منهم، وبأخص فمن الأدباء والشعراء، ثم ان يكــون ذا نصيب لائق به في الحكم والسياســة، وفي تولي هذه الـوزارة

والاستقالة منها كل ذلك وهو في أعماق نفسه، خصم لدود للحكام الآخرين معه، بل وللبلاط الملكي نفسه.

على أي حال كان، فقد شاء، كما قلت، ان يدس نفسه في هذه المرة، وفي فترة شاء الحظ ان تكون من فترات خصومتي معه، وخصومته معي، وفيما بين هذا وذاك، (ومن باب تناقض الأشياء سر وجودها) فترات حب متبادل وعميق أيضاً.

لا أدري من كان منا أشد غباء في تلك الحكاية؟ امزاحم نفسه، وهو يرسل إليّ رسولاً لا يفوتني وأنا في نهاية الثمانينات ان اتذكر اسمه وهو (عبد الكريم الشيخ علي) وقد توفي في السبعينات، ليقول لي بالحرف الواحد الرسالة التي حملها إياه (مزاحم).

وهو انه، قد افسد ما بيني وبين الملك فيصل، وهذا الافساد نفسه خصلة في الخصائص الأدبية (لمزاحم) فقد كنت نشرت، قصيدة هي من عيون الشعر عندي، أرحب فيها بقدوم الملك فيصل الأول، من سفرته قبل الأخيرة إلى سويسرا، وفي هذه القصيدة، وفي الحقيقة فمن التفاعل النفسي غير الارادي، وفيما بين ألم مكبوت وبين ترحيب مقصود، كان في القصيدة هذان البيتان، وأنا أريد بهما التعريف بمدى تمرس الملك، بالسياسة، بينما هما في الحقيقة يكادان يكونان، تعبيراً ينطبق عليه المثل المعروف ـ ليت عينيه سواء ـ أي انهما كانا يتمازجان ليكونا مثلاً للمبالغة في التقدير لمن أراد، ومبالغة في القدح لمن شاء:

لبّاسُ أطوار يُرَى لتقلُّبِ الأيـ ـام مُدَّخِراً سِفاطَ ثياب
يبدو بجِلبابٍ فانْ لم تَرضَه يَنْزِعْه مُنسلاً إلى جلباب

قلت، وأعيد العجب (ومزاحم) مضرب مثل في الذكاء، كيف فاته انني سأقابل الملك فيصل، وعندي هذا السر الدفين في مزاحم، أي سر محاولة الايقاع بي، أما شدة الغباء الثاني فقد كان مني وفي اليوم التالي وأنا

كعادتي في الذهاب والاياب إلى مكاني المألوف في البلاط الملكي واذا بي وقد خرجت مع اترابي في التشريفات لتوديع الملك، وقد انتهى دوامه الرسمي، واذا به يعرج عليّ من دون الحاضرين كلهم ليقول لي بالحرف الواحد:

«أنا يا «محمد» لم أطلب منك ان تمدحني!» فما عسى ان يكون الغباء أكثر من ان تفوتني هذه الفرصة التي سبقت بها، لأقول له:

«ياسيدي لقد سبقت بما دسه علي مزاحم عندك».

وللقارىء ان يتصور كم كان الموقف ليتبدل، ومن كان المغضوب عليه أنا أم مزاحم. انني لاقسم وأنا ادونُّ هذه الكلمات اليوم، انَّ ما فاتني من هذه الكلمة وحدها ربما كانت تسبب طلباً ولا أقول التماساً من الملك فيصل، أن اعود اليه.

ويا للعجب فكم من مرة يعيد التاريخ نفسه فلقد مثل المتنبي العظيم، وأنا في موقفي هذا، شاخصاً أمامي وهو في مثل هذه الحال التي أنا عليها بين ألمه المكبوت من ان يكون حبيس الدار عند كافور:

«اني نزلت بكذابين ضيفهُم عن القِرى وعن الترحال محدودُ»

وبين ان يُحجم كافور عن ان يسد فراغاً وان قليلاً من مطامح المتنبي وتطلعاته فلا يجد نفسه وهو أيضاً ففي مثل غياب عن وعي نفسه اذ يقول له في واحدة من أشهر قصائده في مدحه وفي مطلعها:

عدوك مذموم بكل لسانِ ولو كان من اعدائك القمرانِ

ولله «سر» . . . .

وأعيد القول:

ولله «ســـر»!! في علاك وانــمــا كلام العــدى ضرب من الهـذيان

ومفهوم لمن يتعمق في البيت الأول عن كثرة اعداء كافور المذمومين بكل لسان وحصة القمرين نفسيهما من هذا الذم، ومفهوم أيضاً ما تحت كلمة «السر» في علاه، وبعبارة أوضح فالسر الذي لم يكتشف بعد في ان يكون كافور ملكاً!! ولا يكتفي المتنبي وهو في مثل حالي ان يطفح على لسانه ما تحت الضمير فيقـول له بكـل عنف وغضب، وفي معـرض بيت من خيار قصائده أيضاً في مدح كافور:

أبا المسك هل في الكأس فضل اناله فانـي أُغـني منـذ حين وتشـــرب

فهل هناك كناية تغني عن التصريح بقلة ذوق الممدوح وإلاّ كيف يتقبل من يُتغنى له بان يظل كارعاً للشراب حسب!!.

هنا يتلاقى التاريخ وجهاً لوجه وان بأكثر من ثلاثة عشر قرناً. . . . وبعد فقد كانت هذه الوقفة الأخيرة لي - ووجهاً لوجه أيضاً - مع الملك فيصل حتى يوم وفاته. . . .

وبعد فهذا ما كان من أمر مصيري بما تدخل فيه وعجل منه مزاحم أما ما تقلبت به الـدنيا والمجتمع من حياة مزاحم ومفارقاتها ومصائر أمثاله من أشخاص وأشخاص فذلك ما دوّنه التاريخ.

قصدت البلاط الملكي وأنا مثقل بقصة مزاحم هذه، لأزور اترابي في دائرة التشريفات، وكنت صاعداً الدرج وكان (نوري) نازلاً منه. وشاء سوء حظه، قبل ان يكون من سوء حظي، ان يبادرني في ساعة غضبي وحراجة موقفي، ليقول لي باللغة الدارجة ما معناه بالفصحى:

مرحباً يافلان كيف الحال.

فلم يكن الجواب إلا «. . . ويسألني الغدار عن الحال!»

لو كان للخشبة ان تنطق لنطق (نوري السعيد) مثلها، وعوّضت عن ذلك نظرة مدهوشة وفم فاغر، اعقبته قفزة إلى سيارته الخاصة!.

وكان هذا آخر عهد وآخر ساعة لي، اذ لم أعد بعدها لأتسلم الراتب المخصص لي، وهو كما يعرف الملمون بتقاليد الملوك ما لا ينبغي ان ينقطع مادام صاحبه يريده، مهما طال الأجل.



نوري السعيد

بهذه الواقعة اختزلت شهوراً قليلة من عمر «القائمة السوداء» لأعود إلى وظيفة شبه متعبة، وبمرتب لا يزيد إلا بدريهمات معدودات على مرتب كنت اتسلمه بدون تعب، ولكن أي تعب أشد من تعب الكرامة؟.

تناقضات في وادي «عبقر»

في هذه الفترة نفسها، ذات المفارقات، كانت قصيدتي (المحرقة) والتي هي مستهل هذا الفصل من هذه الذكريات. . . والغريب انها جاءت بعد (هزي بنصفك) بفترة وجيزة. لكأن هذي (المحرقة) من وحي تلك الهزة العنيفة (البديعة):

أُحـاولُ خرقـاً في الحياةِ فمـا أجرا ... وآسَفُ أن أمضي ولم أُبقِ لي ذكرا
مضتْ حِججٌ عَشْـرٌ ونفسي كأنها ... من الغيظ سيلٌ سُدَّ في وجهـه المجرى.
خبَـرْتُ بهـا ما لو تخِلَّدتُ بعـدَه ... لمَـا آزدَدْتُ عِلماً بالحياةِ ولا خُبرا
وأبصرتُ ما أهوى على مثلِهِ العمى ... وأُسمعتُ ما أهوى على مثلهِ الوَقْرا
وقد أبقتِ البلوى على الوجهِ طابَعاً ... وخلَّفَت الشحنـاءُ في كبِـدي نَغـرا

وكانت هذه ايحاء بقصيدة لا تقل عنها دلالة ولا مرارة ولا تمرداً، أعني بها قصيدتي (عتاب مع النفس):

عَتَـبْـتُ ومـا ليَ مِن مَعـتـب ... على زَمَـنٍ حوَّلٍ قُلَّبِ
أُنـلصِقُ بالـدهـر ما نجتـوي ... ونـختـصُّ نحـن بمـا نجتـبي؟!
فمـا للزمـانِ وكـفّـي إذا ... قَبضتُ على حُمَـة العقـرب؟!

وما للَّيالي ومغرورةٍ تُجَشِّمُني خَطرَ المركب؟

وتجر المحرقة العتاب مع النفس ويجر هذا العتاب مع النفس (عبادة الشر):

دع النُبلَ للعاجز القُعْدَدِ وما اسطعتَ من مَغنمٍ فازْدَدِ
وصَلِّ على سائرِ المُوبِقاتِ صلاةَ المُحالِفِ للمسجدِ
وما اسطعت فاقطع يد المُعْتَدَى عليه، وقبِّلْ يدَ المُعتَدي

وقفزاً من هذا كله كانت (عريانة) وكأنها الاستجمام الذي يفرض نفسه بنفسه بعد هذه الانفاس الحارقة:

أنتِ تدرين أنني ذو لُبانَهْ الهوى يستثيرُ فيَّ المَجانَهْ
وقوافيَّ مثلَ حُسنك لما تَتَعَرَّينَ حرَّةٌ عُريانه

ومن لطائف الاشياء بل لربما من فظائعها ان تستدعي هذه (العريانة) لتؤنسني أنا صاحبها، ولتؤنس كل من هناك بأختها (افروديت):

وهُنا.. كَفَّتِ الوصيفةُ لا تستطيعُ قولاً
عَما يلي الرَّفْغَ منها
وآنبرَتْ «أفروديتُ» تُوحي إلى «جالا»
بحُسْنِ الذي تخبَّأ عنها!

واعيد القارىء إلى الصورة من جديد، لاذكر بأن هذه القوافي الحالمة جاءت وكأنها متشابكة، متلازمة منسجمة، مع منطق الحياة، وتناقضاتها. وهذا وحده أجمل ما فيها، بل ما يعبر عنها.

لقد كان شيئاً طبيعياً ومنطقياً ومنسجماً مع أجواء العشرينات ان تولد (جـربيني) و(النـزغة) و(ليلة من ليالي الشباب). ولكن الغريب ان تكون (بديعة) و(عريانة) و(افروديت) وكأنها تريد ان تخفف من كوارث الثلاثينات وعما أبصرت:

وأبصرتُ ما أهوى على مثلِهِ العمى   وأُسمعتُ ما أهوى على مثلهِ الوَقْرا

ويجد من يقرأ هذه السطور بعد الآن ما تعني كوارث الثلاثينات. ولكن على غير ما قد يبدو للقارىء، فان من الطبيعي أيضاً ان تكون الكوارث كلها وفي الوقت نفسه منسجمة كل الانسجام مع جهاد النفس، وان تتصارع معها بما يخفف من ثقلها، وان يتلهى المسحوق باثقالها، ما شاء وما استطاع عنها.

لقد كان هذا كله منطلقاً حقاً لتصوير الحياة نفسها ومفارقاتها.

الفصل الخامس

تمرّد على الأقفاص الذهبيّة

لا أدري كيف ينسجم تكيفي مع الأمر الواقع وتقبلي وإن بما يشبه التفجر في الداخل، ولكن بما لا يشوه بسمة على الشفاه، وانبساطاً على الوجه، بل وبما يتمازج بمحض الطبيعة مع المرح والسمر والانطلاقة. فلربما كان ذلك سهلاً على من وجدوا بحكم طبائعهم ليتلاءموا مع الحياة، ولكن ان يكون ذلك ممن هم من امثالي، ومن طبقتي، وبأحاسيسهم المرهفة، وبانتفاضتهم على يومهم، وبتجاهلهم غدهم، وبنكران مستقبلهم، فهذا ليس بالأمر اليسير، ومع هذا كله فقد كنت ذلك الرجل.

ففي ذات يوم وأنا اتمشى في شارع الحيدرخانة، واذا بي أرى سيارة تقف وبها «جعفر العسكري»، وكان حينئذ وزيراً للمعارف بالوكالة، اضافة إلى وزارة الدفاع، يقف ليقول:

«مرحباً فلان، أحب رؤيتك».

وذهبت اليه، ولم يجد لي سوى وظيفة معلم ابتدائية، وهذا أشرف من شبه التسكع. وقبلتها، وأنا عارف بنفسي، وبهذا العمل الجديد الذي لم يخلق لمثلي، في مثل هذا المستوى من المراحل التي قطعتها.

كانت هذه الشغلة الجديدة لهذا الرجل الذي تحمل الصحف والمجلات له بين يوم ويوم، واسبوع واسبوع، ما يهزّ الناس. حينذاك كان الدكتور (فاضل الجمالي) يشغل مركز المرشد العام في الوزارة، بمعنى المستشار الأول، وكان بالاضافة اليه وفي ما يماثل منصبه، أي سكرتيراً للوزارة، السيد (عبد الكريم الازري)، ولي علاقة بسيطة معه في حينها، ثم

اشتدت بعد فترة. وكان تقدمياً ومن الطلائع الأولى من الشباب في العراق، وممن شارك معي بأكثر من مقالة في جريدتي (الرأي العام).

وكان (الجمالي) نفسه مقرباً وأكثر من مقرب لدى رجل التربية الأول في امريكا والعالم كله «جون ديوي»، الذي استقدم خصيصاً لتنظيم امور المعارف المضطربة في العراق، وللتخلص من مخلفاتها البغيضة، ونجد في الطليعة من تقاريره كلمته «اوصيكم بالجمالي فقد كان يتميز حتى على الطلاب الامريكيين عندي» وفعلاً فقد أودع اليه منصب المرشد العام.

واكتشفت فيما بعد ان للجمالي والازري والدكتور سامي شوكت، الذي كان مديراً عاماً للمعارف، يداً قوية في ان يتنادوا ما بينهم لتكون النقلة الجديدة مني إلى ديوان وزارة المعارف، احساساً منهم بالغبن المخطط والمدبر لي منذ عهد القائمة السوداء. وهنا لا أريد ان أظلم التعليم، ابتدائياً كان أو غير ابتدائي.

ان مدرسة المأمونية التي داومت فيها كانت النموذج الأول لكل المدارس الابتدائية في العراق، وقد انشأت لتكون شبه خاصة بالطلبة النابهين، وبالاخص فلأبناء الذوات من الطبقة العليا، والتي خصّها الملك فيصل الأول من دون كل المدارس بافتتاحها دليلاً على أهميتها أيضاً، ومن مصادفات الأمور ان الدكتور مصطفى جواد كان زميلاً لي فيها. وتعنّ لي واقعة في هذه المدرسة ـ النموذج، وربما كانت من الاسباب أيضاً في انتقالي منها إلى ديوان الوزارة. وهنا لا أريد ان أظلم (طارق جعفر العسكري)، فقد كان أحد تلاميذي فيها، وكان مني في احدى ساعات الدرس، وخلال شغب تعود أكثر من واحد من ابناء هؤلاء الذوات ان يثبتوا به انفسهم، ان زعقت به وقلت له بالحرف الواحد «ياطارق هنا مدرسة ومدرس لا يعرفان ولا يعترفان بأي كان من أب أو أم، تسكت أو سأطردك» وسكت الفتى، واحترمته لأدبه منذ ذلك اليوم. ربما كان هذا شيئاً جديداً لأول مرة تراه (المأمونية) ومن فيها.

وباشرت مهمتي برئاسة قلم التحرير وكان (سامي شوكت) وبحكم علاقته برزوق غنام ولقائي أكثر من مرة معهما، يهتم بي كثيراً ويبعث برسائله الخاصة لأراجعها له.

ومع هذا فقد عشت برماً في هذا الجو الجديد وأنا المدلل والمحبب لدى هذه الوجوه الثلاثة، التي هي قطب الاقطاب لكل ما يشتد بوزارة المعارف من مؤسسات ودوائر ومعاهد. كنت اضيق، كعادتي، بكل الاقفاص الذهبية فكيف بقفص من صفيح، وكان تصرفي فيها بما يشبه محاولة التمرد عليها، ان لم يكن التمرد بحد ذاته. وخلال هذه الفترة القصيرة كانت محاولة أكثر من كافية لواحد غيري لكي تعود به إلى لا الفراغ حسب بل وإلى قعر السجون من جديد. ومع هذا، فقد رماني بدلاً عن ذلك إلى ما هو افضل وأحب اليّ في وظيفتي الجديدة بعد ديوان وزارة المعارف.

لقد قرأت في صباح يوم من ايام عام «١٩٣٢» في الصحف العراقية، خبراً يفيد بقدوم الامير (فيصل ابن سعود) إلى بغداد بدعوة من الحكومة العراقية، فياللمسافة البعيدة بين هذا الخبر البسيط والذي لا علاقة لي به ولا بصاحبه وبين ما كان بعده من أمر عجيب غريب وبحق. لقد كان بمثابة الهام لقصيدة حلوةٍ بكل حروفها، مرّةٍ بكل مطاويها، وهي ان استغل هذه الزيارة من هذا الرجل لاتشفى، وان عزّ عليّ بذلك فيما بعد، من الملك فيصل نفسه هذه المرة. بعد ان تشفى بي ما شاء. فوجدتني، وهنا منطلق الغرابة، أدمدم لنفسي وفي مقري الرسمي بوزارة المعارف بقصيدة، المدخل فيها الترحيب بهذا الزائر، أما المخرج فبالتعريض بما لا يشبه تعريض بالرمز الأول لكل الدولة العراقية.

واتذكر، وأنا الموثق الامين في ما أكتب وادّون، انني أتممتها كلها أو أكثرها وأنا في ساعات الدوام الرسمي لأقول في أولها:

على سَعــةٍ وفــي طُنـفِ الأمــان　　　وفــي حَبّــات أفئـدةٍ حوانــي

ثم اخرج من هذا لأقول ما اشاء.

أما القصة عن اختياري لجريدة «أم القرى» ذاتها فقد مر بها القارىء في نهاية العشرينات من هذا الجزء من ذكرياتي.

قلت وأعيد القول مرة ثالثة. لم أعرف هذا الرجل من قبل ولم اتعرف عليه وهو إلى جانبي في العاصمة العراقية، ولم أزره ولا السفارة السعودية. وكل ما كان انني ارسلتها، بالبريد العاجل والمسجل، إلى ابيه الملك ابن سعود مرفقة بكلمات موجزة أقول له فيها، انني أبعثها اليك تحية لأبنك الأعز غير راغب بأي ثواب عليها، إلا ثواباً واحداً، هو ان تنشر في جريدتك الرسمية «أم القرى» وعلى الصفحة الأولى منها. فعلت ذلك وكأنني ألاعب عصفوراً بيدي، أو اني «اطبش» في ماء بارد استجم به من قيظ الصيف ببغداد. وزدت على هذا وذاك وبألعوبة فريدة من نوعها، هو انني اضفت إلى اسمي فيها عنوان وظيفتي في وزارة المعارف، أي انني اشتم الرأس الأول في الدولة وأنا في الصميم منها، وكان بعدها ما كان مما سيأتي.

أما المحاولة الثالثة فلم تكن تمرداً ولكنها كانت من الشواهد الكثيرة على ضيق نفسي بأن أظل مدة أطول مما أريد في هذه الوظيفة أو تلك. فبينما كنت في عملي هذا قرأت ذات يوم لمما امامي في الصحف، أنّ شاغراً قد طرأ في ثانوية البصرة، فذهبت إلى السيد عبد الكريم والدكتور الجمالي ثم إلى سامي شوكت ابلغهم رغبتي في ان املأ هذا الشاغر فيكون الجواب منطقياً ومن سامي شوكت نفسه وبصورة خاصة، فقد قال لي:

«يافلان أنت تعرف كم أنت عزيز علينا هنا، وأنا اعرف كم تحب الحياة والسهرات، لا أحد منا في عملك هذا يتدخل بشؤونك، بالليل تذهب إذا شئت إلى هذا الملهى أو ذاك أو المشرب أو غيره أو إلى بيتك، ولا أحد يسألك عن الساعة التي يبدأ بها الدوام أو الساعة التي ينتهي بها، فماذا تريد من هذه الانتقالة، تذهب إلى البصرة، وإلى التدريس».

قلت له:

«والله هذا لطف وحب صميم منك اعهده فيك كما تعلم، ولكنني ومع هذا سأقول لك الصحيح، ان ثانوية البصرة شيء لطيف، وهي الثانوية الثانية بعد ثانوية بغداد في العراق كله، والاهم من هذا بصراحة انني كنت وما أزال ادفع وأنا مثقل بالديون ثمناً غالياً من هذه اللقطات في حياتي وهناك في

البصرة ما يغنيني عن ذلك في تصرفي وتدبيري لأموري على حد سواء». ولم يرغب الرجل وأنا بهذا المنطق ان يصرفني عن رغبتي هذه واصراري عليها، وصدر الأمر بنقلي إلى ثانوية البصرة.

انتقلت إلى البصرة وباشرت مهمتي في المدرسة الثانوية. وهناك، جاءني، ذات يوم، (عبد الرضا الجبيلي) مراسل الصحف العراقية، الذي يعمل في جريدة التايمس البصرية (مثلها في العاصمة التايمس البغدادية) وكان من المحبين لي كثيراً، وممن ظل فيما بعد هذا بأعوام غير قصيرة، مراسلاً لكل الصحف التي اصدرتها ببغداد، جاءني عصر ذات يوم ليقول لي: «هل تعلم ان جريدة (ام القرى) قد وصلت ؟» فلا ابالغ اذا قلت انني قفزت من محلي فرحاً بهذا النبأ.

اذن وصلت (ام القرى)، الجريدة الرسمية لأبن سعود والعدوة للملك فيصل الأول. وبعد هنيهة أتى بها اليّ، واذا بقصيدتي (كما طلبت) منشورة في الصفحة الأولى. ونمت ليلة سعيدة. وفي اليوم الثاني بالضبط جاءني الرجل نفسه (الجبيلي) ليبلغني خبراً ثانياً هاماً أيضاً وهو يعمل في ادارة بريطانية يكاد ينطبق عليها المثل «وعند جهينة الخبر اليقين»، وهو: ان تبليغاً عاماً قد صدر إلى كل نقاط الحدود ما بين البصرة والزبير واطرافها المؤدية إلى ابن سعود لمنع الجواهري من اجتيازها في هذه الفترة بالذات.

وبعد أربعة أيام أو خمسة على الأكثر، واذا بـ (خالد الهاشمي)، مدير ثانوية البصرة، يبلغني ان (عاصم جلبي)، وصاحب القضية الأولى قبل اعوام، قضية الجمرة الطائفية التي سعرها «ساطع» معي، يحب مواجهتي، قلت: «حاضر» وسرعان ما كنت عنده وتلقاني بكل ترحاب ولطف. ومع فنجان القهوة، فتح ملفاً مرسلاً اليه من بغداد، وتحدث وكأنه يمهد بمقدمة لكتاب، هي في جملتها اعتذار عن ان يقابلني وكأنني متهم أو مطلوب

للمحاكمة، وانه موظف مسؤول ليس إلا، وبين يديه هذا الملف وخلاصته هي، ما يسأل به حاكم التحقيق قبل المحاكمة.

«أأنت صاحب هذه القصيدة؟»

«نعم استاذ أنا»

«وأنت ارسلتها إلى ام القرى؟»

«نعم أنا»

«وماذا تقصد بهذه الابيات؟»

وقـى الـلَّهُ الـحِـجـازَ ومـا يليهِ   بفضـل أبيك من غُصَص الهـوان
على حينَ آصـطلى جيرانُ نجـد   بجـمـر لظىً وسـمّ الأفـعـوان

قصيدة فظيعة، وأنا آسف ان أقول هذا، في ما قلته عن الملك فيصل المهيب، ولكن القارىء المتتبع لكل ما كان من غضب انقلب حقداً مهيناً وغير مشرف معي، كان هذا الحقد الذي تجاوز حدوده مبعثاً لتفجري بهذا الحقد أيضاً، فالتعصب الاعمى يجرّ تعصباً، والحقد الاعمى يورث حقداً، والحب الاعمى يولد حباً مثله. قال:

«ماذا تقصد بها؟»

«لا اقصد أحداً»

«واضح انك تقصد المقام الأعلى» كما يقال، أي الملك.

« لا اقصد هذا»

«اذن من تقصد؟»

وكان العذر ليس أمرّ من الفعل ولكنه لا يختلف عنه، قلت وأنا أظلم الرجل، «انه اخوه»، الامير عبد الله، وفي الحقيقة فقد كان كبش الفداء.

وكان لابد لي من هذا لأنني كنت محرجاً. ومع هذا فقد كان الاعتذار متهافتاً بحد ذاته، فالاردن وبلاد الشام هما حدود الحجاز، والحد الوحيد لنجد هو النجف والطفوف في كربلاء وامثالها، أي للعراق كله.

على كل حال كان هذا يسجل كلمة، كلمة . . . . سؤالاً وجواباً .

«طيب، هل لك قبل هذه القصيدة اتصال بالملك ابن سعود؟» ولم يكن لي اتصال في الحقيقة، ولكنني كنت احب المغامرة لا البطولة ولا الشجاعة، قلت :

«أجل لي اتصال»

«كيف؟»

«بالمراسلة»

واكرر وأنا في غنى عن هذا كله وكأنني أريد الزيادة في التحدي أو المزايدة عليه، قلت :

«نعم هناك رسالة من الملك ابن سعود، يجيبني فيها بأنه يرحب بقدومي إلى الحجاز واليه بالذات . » قال :

«وكيف؟»

«لقد كتبت اليه»

وبفاصلة شبه متصلة، انني كنت بعد ارسالي القصيدة، كما هي عادتي كل سنة أو بين سنة وأخرى على الأكثر اصطاف شهراً أو شهرين في سوريا ولبنان، ارسلت خلالهما، بخاطرة عنت لي، رسالة مختصرة إلى الملك ابن سعود أبنت فيها رغبتي في زيارة المملكة السعودية واعطيت عنواني، رقم صندوق بريد في دمشق، واذا بي بعد فترة قليلة أجد جواباً من رئيس الديوان يقول لي :

«ان الملك ابن سعود يرحب بك كل الترحاب وبقدومك»

وأعاد عاصم السؤال :

«اعندك الرسالة؟»

وبسرعة وفرح اجبت :

«أجل ياأستاذ عاصم، عندي»

«أهي معك؟»

«اجل انها معي في البيت»

«ايمكن الاطلاع عليها؟»

كل هذا والدهشة تنتشر وتلف أسارير هذا الرجل، عن هذا الموظف عنده الذي يقابله بمثل هذه الاسئلة ويجيب عنها بمثل ذلك بمزايدة عليها، وبالتحدي لها. وسرعان ما فارقته من العشار إلى مركز البصرة حيث كان بيتنا هناك، وبعجلة مدهشة بعثرت الاوراق لأجد بينها الرسالة المطلوبة وعدت بها اليه وكأنها وثيقة للدفاع عن نفسي فأدرجها بنصها في الملف وهي موجودة الآن، كما يفترض، في اضابير وزارة المعارف. وقلت له وأنا فرح مرح:

«ولماذا تتعب نفسك يااستاذ عاصم بهذا كله، هناك في بغداد، من هو أولى منك، وأكثر اراحة لك من هذا التعب».

فأجابني بنكتة مرحة أيضاً وكانت ام كلثوم قد وصلت لأول مرة إلى بغداد، فقال:

«طبيعي انك تواق لحضور حفلات ام كلثوم، وليس الأمر بيدي».

واغلق الملف. وانتظرت العقوبة التي ينتظرها القارىء معي لمثل هذا الموقف. وهنا اعيد ما يستوجب الاعادة مرة ومرات، اعني ضياع المقاييس، بعد هذا العهد الملكي. فبدلاً من ان تتصاعد فقد تنازلت كثيراً ولولا خوف المبالغة، لقلت إلى درجة الصفر. واذا بالعقوبة المنتظرة، هدية، هي ان انقل إلى الحلة، والحلة هي النجف، حيث أكون إلى جانب والدتي واخوتي وأترابي، ثم ان استفيد مما احتاج اليه، ومما كنا نتعارف عليه نحن المدرسين عندما تضيق بنا الحال من فرحة الانتقال.

في هذه الفترة وفي غيرها، كنت انتقل من بغداد التي يتقاتل الناس عليها إلى الناصرية مثلاً أو إلى ابعد منها وأقل شأناً. وبعد شهور قليلة، التقيت الصديق ذاته (سامي شوكت) المدير العام السابق لوزارة المعارف، وفي زيارة لصديقه وصديقي (رزوق غنام) صاحب جريدة (العراق). طلب إليّ ان ندهب سوية إلى البلاط الملكي لمقابلةٍ تهيأ لنا بوساطة من رستم حيدر، وكان ما يزال رئيساً للديوان الملكي، لكي اعتذر، ويقبل اعتذاري ويصفح الملك عني، قلت له:

ـ «لا والله ياابا غسان لن اذهب»

ـ «لماذا؟»

- «بأي وجه اقابل الرجل، وبأي وجه يقابلني؟ وكيف الاعتذار منه؟ وكيف الافتعال؟ أنا لا احسن ذلك ولو تصنعته لأفسد عليّ الأمر بأكثر مما يصلحه».

وقبـل ذلك، ومنذ الساعة المشهودة فيما كان لي، من أمر المواجهة الشديدة الـوطء على نوري السعيد، لا اتذكر انني وضعت قدمي في البلاط الملكي، إلا فترات خاطفة، أشرت اليها في ذكرياتي هذه، أي إلى عهد تنصيب الأمير (عبد الاله)، كانت واحدة منها ما سيأتي ذكره من مراجعتي لـ (رستم حيدر) بصدد ما كان من موقفه هو بالذات، من أمر النيابة في المجلس النيابي على يد[illegible] [illegible]ين الهـاشمي، وان بعد (خرا[illegible] البصرة)، أي بعد يوم انقـلاب بكر صدقي، وحتى بعد تنصيب عبد الاله، أي بعد سبع سنوات تقريباً، فاني لم التق به إلا في عام ١٩٤٦، وبصدد احتجاجي على غلق جريدتي (الرأي العام).

وبعيداً عن العواطف والانفعالات، وتجاوزاً لما كان لي من موقف يوم تلقيت نبأ وفاة الملك فيصل، وأنا في مقهى شهير بالنجف، وتجاوزاً لما كان من رفضي المشاركة في حفل تأبينه، وأنا في البصرة، وتمزيق الدعوة أمام قرابة ثلاثين مدرساً (في ثانوية البصرة)، بل وتجاوزاً لما كان من أمر ترحيبي وأنا عنده، بقدوم ولده غازي، بل حتى في بيتين في رثائه، تجاوزاً لكل هذا وبعيداً عن كل هذا، فقد كان الملك فيصل الأول، عظيماً ومهيباً، وأعيد القول، انه كان مخلوقاً ليكون ملكاً على غير العراق، وعلى سبيل المثال، فان يعود سيداً وأميراً كما كان على سوريا، أو ملكاً عليها.

هناك، لقطة، لابد ان أصحح بها ما حرفه الكثيرون في أمر وفاته حتى لكـادوا ان يجعلوه مقتلاً، فلقد كنت في القلة ممن يعرفون انه كان يحمل معه، وهو في عز شبابه (مرض القلب)، لقد كنت واحداً من حاشيته المقربة اليه، وأنا أعوده في بيته الخاص، وهو ما أصبح بعد ذلك، مقراً للمجلس النيابي المطل على دجلة، وكان ممدداً على سريره ومتعباً، وكانت واحدة من نوبـات القلب، أمـا التـاريخ الصحيح والـطبيعي، فهو ما ورد في التاريخ الحـديث من أمـر النـوبـة الأخيرة والمميتة، وهو في (سويسرا) مستشفياً،

وخلاصة هذا المورد انه كان قد صعد كثيراً في جبال سويسرا سواء كان بقصد منه للتنزه أو بخطأ من سائق سيارته فيما ابعد بذلك، وانه عاد من هذه الصعدة لينام نومته الأخيرة، بحضور طبيبه الخاص، وبما أوعز به إلى ممرضته الخاصة به أيضاً مما هو مألوف لدى مرضى القلب، من حقنة مألوفة تحت الجلد، وهنا أورد حكاية كنت اعتبرها ما يشبه الاساطير بالرغم من ان كل شيء يدل على الصدق والامانة والتشخيص، قبل ان أعثر على النص المذكور للساعة الأخيرة من حياة الملك فيصل الأول، فلقد كنت في اواسط السبعينات مستجماً على البحر في (اثينا) وفي مقهى قريب من شقة كنت احتجزها طيلة العام باكمله، التقيت رجلاً يونانياً يتحدث بالعربية بطلاقة، الرجل اليوناني الذي يبدو وانه مارس اللغة العربية كثيراً بحكم مهنته التجارية. لا أدري كيف حزر هذا الرجل انني عراقي، وعلى طاولة صغيرة وجدته يتقرب مني ليبادلني الحديث، واذا بي التقط منه، لقطة ما كان أشد حاجتي اليها، فلقد قص عليّ بما يشبه الحرف الواحد، من انه رجل أعمال متخصص بتجارة المجوهرات ومعرفة الأصيل والمزيف منها، وكان له مقر في سويسرا يستدعى منه لدى انتجاع هذا الملك العربي وغيره أو الأمير وسواه، أو غيرهم من طبقة المترفين والمتبطرين، لما يكون منهم في مثل هذه المشتريات، وانه استدعي هذه المرة لكي يرافق الملك فيصل، قبل يوم من وفاته، لاختيار قطعة (الماس) اصيلة، وفعلاً فقد اختارها له، وفي اليوم التالي كان في الجملة من مرافقيه عندما وجد فتاة شقراء جميلة تصعد اليه، ثم تنزل منه ليجده طبيبه الخاص ومرافقوه وهم بذواتهم، نوري السعيد، ورستم حيدر، وتحسين قدري وطبيبه الخاص، ليجدوه وقد لفظ انفاسه الأخيرة.

لقد قلت ان دهشتي لهذه القصة كانت برغم امانتها وصدقها كبيرة، ولم تكن هذه الدهشة لمجرد طبيعته، فالملك فيصل مثله، مثل كل الملوك، بل هو في الحقيقة ارفعهم شأناً وقدراً، مثقف وشبه أديب ومحب للحياة، فما الضير في ان تكون هناك فتاة جميلة يحبها أو تحبه، وانما كانت دهشتي لأنها تكاد تلتقي في ان موت الملك فيصل كان غير طبيعي، وسرعان، وكما قلت، فقد انقلبت هذه الدهشة إلى ارتباط منطقي لا يتجزأ بأي شيء عن طبيعة هذا

الموت، فالتاريخ الصحيح كما ذكرت، يقول ان طبيبه الخاص قد أمر الممرضة، ولابد انها هي الفتاة الشقراء بالحقنة الأخيرة له، ولابد ان يكون الملك فيصل قد اشترى هذه (الماسة) هدية لائقة بها وبخدماتها، وحتى لو ان الأمر كان ذا علاقة فيما بينه وبينها، فشيء طبيعي ومنطقي ومألوف. وبعد هذا كله وربطاً للتاريخ ومن جديد أيضاً فقد كانت اليد الطولى في التعجيل بمصيره الأخير لولي عهده حينئذ، أي الأمير (غازي) فخلال سفرته إلى سويسرا، كانت حركة (التياريين)، وهي حركة اثورية لها أسبابها ومقدماتها كما لكل الاقليات الأخرى في العراق، من أسباب ومقدمات، وبطبيعة الحال فنتائج، ولكن وبصورة اخص، فقد كان لهذه الحركة صداها العالمي الذي اضر بسمعة العراق وذلك بما كان من شدة بطش القائد العسكري (بكر صدقي) شبه السفاح والذي استغوى ولي العهد الغر، بمعونة المغامر الآخر، حكمت سليمان، واللذين ظلا طيلة أربع أو خمس سنوات يستغويانه حتى يوم انقلاب بكر صدقي هذا، وشريكه ذاك، وما جرره من ذيول لسنوات عدة، لقد أراد بكر صدقي وتحت ستار الوطنية المتطرفة والتي كان ولي العهد الجديد، غوياً كل الغواية بها، حتى وان كانت على حساب ابناء وطنه، ان يبرهن له على مدى كفاءته وقدرته لاداء مثل هذه المهمة الدموية، فلقد تجاوز كل الحدود بل حتى على مصير ابيه، في حملته على الثائرين، وان شئت فالمتمردين، حتى بلغت حد الاغتصاب للنساء فيها، ان يضطر هذا الابن الوحيد وولي العهد الجديد اباه المريض إلى قطع المسافات البعيدة بين سويسرا وبغداد محاولاً ان يخفف ما استطاع وان بعد فوات الاوان، من وطأة هذه المغامرة الجديدة أولاً، وللتخفيف من الضغط العالمي ولاسيما ضغط بريطانيا وسفارتها، التي كان لها في هؤلاء (التياريين) مما يسمى بـ (الليفي) خيرة الجنود والضباط الاقوياء، بكل معنى القوة.

وعلى أية حال كانت، ففي البيان الرسمي الذي اذاعه الملك فيصل في عودته الشاقة هذه والذي يقول فيه لأول مرة، انه ذاهب للاستشفاء، ما يشبه الكفاية من انه كان كمن يقرأ الفاتحة على روحه، هذا أول عهد لغازي في تجربته الأولى قبل ان يتسلط على العرش وعلى مصائر العراق كلها. فلئن

كان قد شارك بصورة غير مباشرة في مقتل والده فلقد شارك من جديد، للمرة الثانية وهو الملك، وقبل ان يقتل نفسه بنفسه، في مقتل شخصين يجوز ان يقتل كل الحاكمين في العراق بل وكل الطبقة الحاكمة، وعلى الأقل فأكثرهم، إلا هما، أي إلا (جعفر العسكري) الذي حمله الرسالة إلى بكر صدقي، وكأنه يحمله حتفه بيده، وهذا ما كان، وإلا (رستم حيدر)، فان لم يكن مقتله بما يشبه المباشرة كمقتل جعفر العسكري فقد كان من ذيول فترته السوداء هذه.



الملك غازي

لقد كان جعفر العسكري في الصميم من الثلاثة الذين احتضنوا الملك فيصل الأول، واحتضنهم بل وشدوا من أزره وثبتوا من اقدامه وهو يواجه، في العراق، الحاكمين والسياسيين والمتصارعين معه من جهة، وفيما بينهم من جهة أخرى وذلك بالاضافة إلى ثالثهم، وهو نوري السعيد، وكما قلت، فقد تخلص منهم ثلاثتهم، بمقتل هذين وبأبعاد الثالث، وبقي مجرد العوبة بيد حكمت سليمان وبكر صدقي وانطلاقاً منهما فمع الضباط

المتمردين بل ومع اضعاف الجيش العراقي كله، واقحامه في السياسة وفي حب التغطرس والتآمر وعن طريق المؤامرات والانقلابات طبعاً.

أما حصته من التدهور في الجانب السياسي فحسب القارىء شاهداً على ذلك، ان عدد الوزارات، خلال حكمه الذي استمر لمدة خمس سنوات على وجه التقريب، قد بلغ تسع وزارات واحدة منها كانت ذات ثلاثة عشر يوماً، وكل هذه الوزارات كانت مبعثاً للفتن والقلاقل واراقة الدماء. والاغرب من هذا كله، فان لا يكون لنوري السعيد العضد الايمن بل وسريرة نفس الملك فيصل الأول، وزارة فيها إلا التي قتل فيها.

لقد كان الملك غازي، لسوء حظه، محاطاً بمجموعة متحكمة به ومتسلطة عليه، كما كان تحت سيطرة السفارة الالمانية برئاسة سفيرها النازي الدكتور (غروب)، طيلة فترة حكمه، حيث وصل التنافس بينها وبين بريطانيا إلى حد تعطيل النفوذ البريطاني نفسه. وليس بالأمر الغريب من هذا النفوذ النازي ان يشجع الملك الصبي ان ينصب في مقره اذاعة خاصة يهاجم فيها بريطانيا بحجة محاولته استعادة الكويت، والكويت حينئذ شبه محمية بريطانية.

لقد استمرت ذيول تدهور الوضع السياسي ومجمل الاوضاع في العراق، حتى بعد موته بسنتين أو أكثر، أي حتى حركة رشيد عالي الكيلاني، ونهايتها كانت نهاية تلك الفترات السود من عهد غازي، بل انها، هي بنفسها، كانت جزءاً لا يتجزأ من ذلك التدهور، ولاسيما ان الأمير عبد الاله الوصي الجديد على ابنه فيصل الثاني، لم يكن قد بدأ تجربته الأولى إلا بمدة قليلة غير كافية لتدبير الأمور والسيطرة عليها، فلم يكن بين موت غازي وتنصيب عبد الاله، والتمهيد لحركة رشيد عالي سوى عامين على وجه التقريب.

وقد كان عهد الملك غازي عهداً للحزازات والاحقاد واستغلال نقاط الضعف لهذا المسؤول الأول عن مصائر الشعب العراقي كما قلنا، حيث تفجرت كل احقاد الساسة وكوامنهم، وكل اطماعهم واطماحهم في الاستيلاء على هذه الوزارة أو رئاستها، ثم التشفي ممن ينافسهم على ذلك، ثم الفتن

المصبوغة بدماء الجماهير، وبخاصة من ابناء الفراتين وعلى سبيل المثال، «فالرميثة» و «الديوانية» و «السماوة» و «الناصرية» و «سوق الشيوخ». ثم ان يستغل جميل المدفعي وعلي جودت خصومتهم ضد ما يسمى «بالاتحاديين» (الكيلاني والهاشمي) ومن معهم لقلب وزارة هذا أو ذاك.

لقد عشت أنا بالذات، هذه الفترة، بل ودفعت الثمن الغالي بل أغلى ثمن في حياتي كلها، مما سيجيء ذكره في عاشوراء الثلاثينات، فلم يكن هناك في كل حياتي، وأنا في توالي الثمانينات، من مد يده عليّ ليسجنني، بالرغم من الف كلمة وكلمة، وقافية وقافية تستوجب السجن إلا يد حكمت سليمان وصالح جبر وبكر صدقي، بل حتى مجرد التوقيف والتوقيف المهين أيضاً، ولا يمس حديثي هذا بشيء ما كان من أمر توقيفي بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً.

ومن جهة ثانية، فقد كنت عائشاً، بكل معنى كلمة المعايشة، هذه الفترة البغيضة وشاهد عدل عليها. ففي خلال كل تلك الفترة المثيرة، وقبل ان أعيشها بالكلمة، والموقف والقصيدة (حالنا اليوم أو في سبيل الحكم)، فقد كان ما يسمى بـ (ديوانية آل الجواهري) في النجف مقراً لالتقاء شيوخ هذه القبائل (المثورة) من قبل المتسابقين على السلطة وعلى كراسي الوزارات، وكنت شاهد عيان عليها وعليهم وهم يحتكمون إلى رئيس الأسرة (الشيخ جواد) بل وهم يقسمون الايمان المغلظة وعلى القرآن الكريم ان يتصالحوا فيما بينهم وان يدركوا ما يراد بهم ويدوّر عليهم من قبل الساسة ببغداد ثم ان يمد (الشيخ جواد) يده إلى القرآن نفسه ليقسم هو - وكأن ذلك ماثل أمامي اليوم - انهم كاذبون فيما يقسمون، وانهم سيعودون منه وهم في طريقهم إلى سيرتهم الأولى وهذا ما حدث فعلاً وبعد اسبوع واحد تقريباً كانت هذه (الديوانية) هي المقر الأول أو الثاني لمقرين بعدها هما ديوانية (آل كاشف الغطاء) برئاسة الشيخ محمد حسين، وديوانية (آل الجزائري) برئاسة الشيخ عبد الكريم.

واختتم هذا الفصل من هذه الفترة العصيبة بمقتل المسؤول عنها نفسه، وهنا فأنا أعني هذه الكلمة، مقتله، الذي تضاربت فيه الاهواء

والأقوال، والقاسم المشترك فيما بينها، هو ما كان من أمر احكام هذا المقتل احكاماً قوياً، فمن حق القتلة وبكل معنى الحق، ان يتنصلوا من ذلك لأن القتيل نفسه كان كما يعرف الكثيرون ـ وأنا واحد منهم ـ كمن يهدد لقتل نفسه، وذلك بما عرف عنه من تهور طائش في السياقة، ومعنى ذلك بداهة ان يصطدم في طيشه هذا بعمود كهربائي لينقلب على رأسه ليقتله. وان يبقى العجب العجاب، وهو سلامة خادمه ومرافقه الذي كان يجلس وراءه، ولكن الحقيقة هي غير ذلك، لقد كان المتعاونون على قتله حلفاء ـ بمعنى الكلمة ـ نوري السعيد المبعد شبه المطرود، وهو ببغداد، والمبعد خارج العراق وطلاب الثأر بمقتل (جعفر العسكري) الذي يستعد نوري السعيد ان يضحي بنفسه من أجله، ورشيد عالي الكيلاني، المهان هو أيضاً، والمطرود من العراق في انقلاب بكر صدقي، وفوق هؤلاء كلهم وقبلهم، فالسفارة البريطانية التي ضاقت ذرعاً لا باذاعته المنصوبة في قصره ضدها، بل ولأنه المدخل الأول والوحيد لسيطرة النازيين والفاشيين، تتقدمهم في ذلك السفارة الالمانية وسفيرها الرهيب ومعها السفارة الايطالية و (بنك دي روما)، أعيد القول ولا بأس بذلك، انني كنت شاهد عيان على الشعر المنفوش لنوري السعيد، وهو يتصل برشيد عالي الكيلاني بمحضر مني وفي ساعة كان قد استدعاني فيها ظهيرة يوم مقتل غازي، إلى مجلس الوزراء، ليقول له هاتفياً بالحرف الدارج:

«رشيد احنا عليها» فكان الرد، كما هو المفترض بالاستجابة وبغلق الهاتف.

أما مقتل (رستم حيدر) فلا حاجة إلى الاسهاب فيه، لقد كان كل شيء ساطعاً تحت الشمس وكان القتلة معروفين بأسمائهم وسماتهم ومشخصين بذواتهم، عارف قفطان، صبيح نجيب، ابراهيم كمال ومن معهم، وكلهم كانوا رموزاً للطائفية البغيضة، وكنت أنا بالذات ممن تعرف بهم وبأكثر من لقاء واحد في مجالسهم وقبل مقتل (رستم) بأكثر من سنة واحدة، وطبيعي وبما يشبه الفطرة، ان تكون السفارة النازية في الطليعة ممن يطلب رأس

(رستم حيدر) لأنه كان الرمز الأول حتى قبل نوري السعيد ممن لا تطالهم شائبة أو مطعن أو مغمز في قوة شخصيته وفي مدى بعده عن أهواء كل الساسة العراقيين واطماعهم وتهافتهم على المناصب، وابعدهم عن المراوغة، ومن هذا المنطلق وباستقامته في موالاته للغرب وكرهه للمحور، كان أحق من تريد السفارة النازية والنازيون الفاشيون المتعصبون تصفيته.

أما القاتل وكما أشرت ـ الذي خصني قبيل ساعة من قتله لرستم بصحن شهي من الموزوأنا في ديوانوزارة العدلية،حيث كان يتربص الدرج المقابل لها، أي مدرج وزارة المالية فقد كان هناك، وكما يؤكده كل المؤرخين لهذه الفترة، خيط أسود يشده إلى القتلة، هو بالاضافة إلى فساد سلوكه، ما هو أقرب إلى العمالة للنازية بحكم زيارته المانيا النازية وعودته منها ليكون شبه وسيط بين التجار ببغداد، وهم بذواتهم كانوا آلة أخرى بيد النازية، أما ما يحاول المتعثرون ان يدخلوا نوري السعيد في هذا المقتل فشيء كالهراء، فلو لم يبق في العراق كله إلا واحد يريد قتل رستم حيدر، لكان شخص آخر غير نوري السعيد، لقد عاشا وافترقا وهما مضرب المثل للصفوة الباقية من عهد الملك فيصل الأول وهو أمير على سوريا وبعده، فملك على العراق، وهما في طليعة الموكب القادم معه من هناك وكانت حصة رستم حيدر من دون هذه الصفوة حصة الاسد على يد قتلته وذلك لمجرد انه سوري، وبعبارة تنطبق عليها كل القوانين والدساتير في كل الانظمة العربية القائمة حتى اليوم فأجنبي، وكم تشق عليّ وعلى أمثالي هذه الكلمة، وكم هي ممضة وكم هي اسيفة وكم هي عجيبة. وبعبارة أشد وضوحاً، فكلمة الاجنبي في قوانين ودساتير الامة الواحدة، تشمل من لم يولد فيها حتى وان كانت دماؤه العربية مقطرة تقطيراً، هذه لقطة عابرة أشدد عليها، لكي يتفهمها آخرون لا من هذا الجيل وحده بل ومن الأجيال القادمة. لقد كان وزر رستم حيدر، الأول وقبل كل شيء، انه سوري. حتى لقد كنت شاهد مجالس ومواقف لكثير من بيوتات العراق، ببغداد خاصة، وكثير من مجالسهم ودواوينهم وهم يسمون رستم حيدر بـ (ابن العلقمي) أي (بمجد ابن أحمد) وزير المستعصم الذي سلم مفاتيح بغداد إلى الغازي التتري، والذي أصبح وزيراً له طوال سنين عديدة. أي ان

رستم حيدر هو الذي سلم مفاتيح بغداد للملك فيصل (الاجنبي هو بذاته) لولا انتخابه ملكاً، أي لأنه حجازي غير عراقي الولادة.

حتى لكأن بغداد، وفي عهد (ابن العلقمي) ذلك العهد المشين المهين من التخلف ومن سيطرة المماليك كان يجب ان يقف وحده بوجه الغزوة التترية المرعبة هذه التي سحقت كل العالم في طريقها إلى الشرق الأوسط، وحتى لكأن (ابن العلقمي) هو الخائن بدلاً من ان يكون حاقناً للدماء مثلاً. وعودة إلى القول فهؤلاء كلهم قتلة رستم حيدر إلا نوري السعيد.

لقد كان رستم حيدر وبأمانة وبألم شهيداً بكل معنى الكلمة ودمه ذاهباً هدراً، فحتى تاريخ العهد الوطني في هذه الفترة يتحدث كثيراً وكثيراً عن ارادة نوري السعيد، عن محاكمة القتلة سواء في وزارته نفسها التي قتل فيها رستم وفيما بعدها، وعمن وقف بوجهه دون تحقيق ذلك، وشيء شبه مزور - وأقولها على ذمتي - الرسالة المزعومة من القاتل إلى نوري السعيد، وحتى لو صحت هذه الرواية فليس فيها أية جملة يستدل فيها على القتلة انفسهم فكلها تبصبص وتملق إلى نوري السعيد في خدمات مزعومة قدمها اليه، أما الشيء الآخر، والمضحك المبكي - كما يقولون - فموقف المتزعمين بأسم الطائفية من مقتل رستم حيدر والذي يصح القول انه موقف مخز وجبان، فليس معناه ان يكون انتصارهم لرستم حيدر من منطلق طائفي بل لمجرد انه رستم حيدر نفسه، الشخصية العملاقة والعف النزيه، ومع هذا كله ومن جانب آخر مهلهل، فبالنسبة إلى موقف القتلة القوي والمكشوف فقد كان كل انتصارهم ان يبرق (عبد المهدي المنتفكي) برقية يحتج فيها على مقتل رستم ثم ليعود صباحاً إلى جلسة مجلس الاعيان، أما صالح جبر زعيم المتزعمين، فقد تصنّع الاستقالة من وزارة نوري السعيد لأنها لم تنفذ ما تعهدت به، من محاكمة للقتلة، أي ان يستقيل استقالة رخيصة ومكشوفة، فقبل كل شيء كان وزيراً لوزارة رخيصة هي بحد ذاتها أيضاً، أي وزارة الشؤون الاجتماعية، بدلاً من الوزارات التي كان يفرض نفسه عليها، الداخلية، العدلية مثلاً، وامر من هذا كله ان يستبدلها بما هو أحب اليه، أي متصرفاً على لواء البصرة.

هذه هي حقيقة مقتل رستم ومقدماته ونتائجه لو صح ان تكون هناك

نتيجة، لقد قتل رستم حيدر وهو يسكن بيتاً متواضعاً صغيراً تابعاً لمديرية الاوقاف، ثم ان لا يقدر حتى قتلته ان يقولوا انه كان يملك من حطام الدنيا إلا ما قد يكون تبقى من مرتبه، كل هذا وهو كما قلت، الرجل الأول بثقافته وشخصيته ومناصبه العليا.

شيء جدير، ان انتقل، من جديد، إلى صورة شاخصة من التقاليد والاعراف في ما كان يسود المجتمع العراقي بأغلبيته الساحقة من ذيول القبليات الجاهلية، ولاسيما في الخط الطويل العريض الممتد على مجاري الفرات، فضلاً عما يمتد على طول مجاري دجلة، وبكل القبائل والعشائر العربية، الحريصة على الاحتفاظ بكل تلك الاعراف والتقاليد. ولم تسلم من ذلك حتى المدن المأهولة، والتي تحاول جاهدة ان تتخلص من هذا التراث فلا تقدر، وفي الصميم منها حاضرة الفرات، (النجف)، و (النهوة)، كما تسمى، واحدة من هذه الاعراف، أي ان (ينهي) الرجل من هذه القبيلة أو تلك، وهذه العشيرة أو غيرها، أيّ واغل آخر على اسرته، من التطفل على هذه الفتاة أو تلك من بنات عمومته أو خؤولته. ومع انني البعيد بالفطرة عن كل هذه التقاليد والاعراف، ومع انني جابهت بجرأة وقوة وفي عهد الفتوة مني، أي قبل أكثر من عشر سنوات من عودتي هذه إلى النجف، كل ما كان قد تبقى فيها من شعائر وتقاليد غير مقبولة، ان لم تكن مرفوضة «انزعي يابلدتي ـ مارث من هذه الثياب»، ومع انني اردت منها في أكثر من قصيدة حينئذ ـ ان تنزع تلك الثياب ـ فقد عدت هذه المرة اليها لأجد في بيتي واحداً منها، بفارق آخر هو انه لم يكن بالياً وانما كان ثوب عرس جميل ومطرز. وهو إلى جانب ذلك فعرضة لخطر يكاد يندسّ في كل خيط من خيوطه، ثم يصبغها بالدم.

جئت بهذه المقدمة لأضع القارىء في الصورة، كما يقال، والعودة به إلى ما كان عليه العراق قبل أكثر من نصف قرن من ذكرياتي هذه وللقاريء ان

يرجعه بما يمتد به إلى أكثر من قرن، أي القرن التاسع عشر، ليرتبط ذلك بما يجرر به عراق اليوم من ذيول هاتيك الاعراف الجاهلية، ومما استجد منها، وهو الأفظع، والاخطر، من بذور الشقاق والتعصب والنعرات التي صبغت هذه المرة بصيغ مضللة، والتي تحاول عبثاً ان تقلل من خطورتها بمجرد كونها تجيء بأسلوب يختلف، وتصب في قوالب جديدة، وتنشر وتطبع بحروف عربية فصيحة، أو شبه فصيحة، ومغلفة بأغلفة خداعة.

بل انني لأجرؤ على القول ان كل تلك الاعراف البدوية والقبلية التي كانت في العراق، وما تبقى منها حتى اليوم، وببراءتها وعفويتها وانسجامها مع كل ما حولها ومن حولها، اخفّ وقعاً وأثراً وخطورة من هذه القوالب الجديدة بكل ما فيها من تحايل وخداع وتضليل لكي يسبغ عليها الثوب الجديد والاسلوب الجديد.

والآن فقد كانت هذه (النهوة) المتبقية من تلك الاعراف قد كتب أن أجدها من جديد، كما قلت، تقتحم بيتنا جاهدة ان تصبغه بالدم، بعد ان اقتحمت أكثر من بيت من بيوتات النجف وامثالها. ذلك ان الفقيدة شقيقتي (نبيهة) والتي ما يزال قبرها طرياً في دمشق وأنا أكتب هذه الذكريات، كانت وفي هذه المرة أيضاً وبنموذج آخر من تلك البقايا، مسماة بأسم ابن خالها، أي كغيرها من فتيات البيوتات النجفية، ومن باب تعامل هذه الأسرة أو تلك فيما بينها بما يكاد يكون مجرد كلمة عابرة من هؤلاء الاقارب، أن تسمى هذه الطفلة الصغيرة مخطوبة فيما بعد لذلك الطفل الصغير عندهم، أو ما شابه من هذه المفارقات. وطبيعي ان لا تكون لهذه الطفلة، وقد شبت وترعرت وتألقت، يد أو إرادة في ما يخطط لها من مصير غير ما خطط وهي غير واعية بعد على أبسط صور الحياة. ولكي تكون الحقيقة هذه المرة غير مرّة كعادتها، فقد كان المسمى لها، بدوره، وهو ابن خالها، وهي ابنة عمته، لائقاً كل اللياقة لها وبها. ويكفي ان يكون لقبه المشهور في النجف وهو «جواد الزلم» دارجاً وفصيحاً ويعني ـ الشجاعة ـ بل والشدة فيها زائداً الوسامة والصباحة وعنفوان الشباب. وكان في هذه الفترة، لسوء حظه، بعيداً عنها وعنا نحن أهل البيت، أي في البصرة، وان يضاف إلى ذلك كونه حيياً.

فلأكثر من مرة كان يقدم بها إلى بيتنا، سواء في النجف نفسها أم قصداً إلى بغداد، حيث كنت فيها، وهو لا يجرؤ ان يتقدم بالخطوبة. ولم يكن من باب اللياقة ان تذكره عمته بل وحتى أنا بذلك، وقد طال العهد بأنتظاره وتوسطت الفتاة شبابها، واشتدت روعة جمالها، وكادت تكون من أشهر ما في بيوت النجف والجمالات العديدة التي فيها.

شاءت الصدف المريرة ان يكون أحد المتزاحمين على خطوبتها أيضاً ابن خالتها (محمد رضا)، وهو بدوره من شباب اسرتنا حينئذ، المعدودين واللطيفين وما كان منه، وقد حرم منها، وقبل ان يتم عقد قرانها بيوم واحد، إلا ان يرسل برقية إلى «جواد» ليخبره بأمر خطوبتها إلى صديق عزيز عليّ، وزميلي في ثانوية النجف ومن اسرة عريقة أيضاً، هو (جواد الجصاني). فما كان من الجواد الأول هذا إلا ان يصل النجف على جناح برق خاطف، وبعد ساعة واحدة على وجه الحصر لا المقاربة، ليجد الأمر وقد انتهى بعقد قرانها على (الجواد) الثاني، وعلى يد العاقد عليهما، الشيخ وذي المنزلة الرفيعة، والمكانة المرموقة في عالم الفقه والأدب والتأليف، «محمد حسين آل كاشف الغطاء».

لقد كان الدم الذي كاد يسيل يحمله معه «جواد الزلم» بمسدسين محشوين بالرصاص ابتاعهما وهو في طريقه إلى النجف. واستقبلت النجف معه وقبل ان استقبله أنا الخطر الداهم، وهو ان يكون القتيل الجواد الثاني، وان تكون القتيلة نبيهة نفسها. وللمرء ان يتصور خطورة موقفي أنا بالذات وعلى مثل هذه الحال، وتشيعت بل وتعصبت النجف بكل ما فيها من قبلية وبدوية للجواد الأول، زائداً على هذا كله ان اباه (أي خالي) العلامة الشيخ (محسن)، قد غادر مقره في البصرة حيث كان في ما يشبه أحد الائمة الفقهاء فيها لينجد ولده. ومهما كان الأمر فقد استقبلت (جواد) الحبيب اليّ والعزيز عليّ، بكل أسى وألم لما حصل له وللصدمة الاليمة، العجيبة، أي صدمة القدر الذي يحدد المصائر بدقائق وساعات، وقلت له ماذا اصنع ياحبيب وأنت ترى ما ترى فهل لما اعهده فيك من صميم الحب والمعزة وما بيننا ان يكون شفيعاً لي واستسلاماً منك للأمر الواقع، فقال لي وبالحرف الواحد:

«لا والله يامهدي أما أنا أو الجصاني».

وتجاوز الأمر هذا الحد ليكون حديث أكثر من صحيفة واحدة في بغداد، أعني حديث الدماء. وبلغت الوساطة لثني جواد الزلم عما صمم وعزم، أعلى مراتبها، وفي مقدمة المتشفعين بهذا الصدد من كان يسمى، لا في النجف وحدها بل في منطقة الفرات كلها، (حلال المشاكل)، وهو الجواد الثالث، أي الشيخ (جواد الجواهري). فيقصد، بشيبته وعصاه التي يتوكأ عليها وأنا معه ولأول مرة منه، من هذا القبيل، جواد الزلم إلى بيته، أي إلى بيت خالي، وهذا في اعراف النجف، فضلاً عن اعراف بيوتنا، أمر خطير. ومع هذا كله فلم تُجدِ هذه الشفاعة المهيبة شيئاً ولم تثن جواداً قيد أنملة عما بيّتَ. ويكون بعد ذلك ما ظل حديث النجف ومجالسها من أمر الشاب ابن الثلاثين من عمره في ان يكون هو بالذات حلال المشاكل، أي صاحب هذه الذكريات نفسه.

لقد بت ليلة باكملها من بعد غروب الشمس عنها حتى الصباح المسفر فيها، وأنا أفرغ «نفاضة السجائر» الواحدة بعد الأخرى. وكان مني، ولأقل من وحي هذه الليلة، ان انتهى كل شيء، وان حلّت المشكلة المعرضة للدم بذات النهار نفسه. ولشد ما تغنيت في هذه الليلة بأرجوزة الشاعر:

هذا اوان الشدّ فأشْتدي زيم قد لفها الليل بسوّاق حُطم

لم أقل لأهل بيتي أكثر من كلمة سر فيما بيننا هي انني غائب عنكم النهار لأعود اليكم عصراً ويكون جوابكم لكل من يسأل عني انني خارج من البيت وعائد اليه قريباً. واستقللت سيارة خاصة طلبت من سائقها العجلة بكل ما يمكن متوجهاً إلى بغداد. وفي ساعة وصولي، وبدون تفويت دقيقة واحدة، كنت عند الدكتور (فاضل الجمالي)، وقلت له بالحرف الواحد «ياأبا ليث أعتقد انك اطلعت على ما في النجف من ضجة جاهزة لتكون دامية» فقال لي: «أجل قرأتها فماذا تطلب مني؟» قلت: «التماسين، ان ننقل أنا والسيد

جواد الجصاني من ثانوية النجف إلى أي مكان آخر بعيد عن الخطر» . وقبل ان اشخص اليه المكان المرجو كان الجواب الشافي منه وعلى أبعد مدى مما كنت أريده وهـو دار المعلمين في الـرستمية البعيدة عن بغداد، والمسورة بأبواب محصنة، ومحروسة، حيث يصعب ـ ان لم أقل يستحيل ـ ان يصل اليها أحد .

وصدر الأمران وأنا عنده وحملتهما معي عائداً إلى النجف عصراً لأغلق الباب، ان صح هذا التعبير، فقد كان هذا الباب مغلقاً قرابة شهر بوجه من قد يتطفل علينا، ونحن في هذه المحنة من الواغلين، ثم لاخبرهم ان يلموا حقيبتي . واحضرت السيد الجصاني لاخبره بما كان، وليشدّ حقيبته هو أيضاً وفي هذه الليلة بالذات ولنسافر معاً قبل ان يبزغ الفجر فيها. وكان ما دبرت وحللت وانهيت من هذه المشكلة. أما ابن خالي ، وأعيد القول، الشجاع والحبيب اليّ ، فقد اراد ان يتم حياته بنفسه وعلى اسلوب يختاره هو بل وان تكون النهاية المحتومة لهذه الرواية . لقد عرف بأمر المؤامرة عليه صباح ذلك اليوم وقـال بالحـرف الواحد، أفعلها مهدي؟ وغادر النجف ولم يعد بعدها وبمدة غير قصيرة إلا بنعش يحمله .

الفصل الخامس

حالنا اليوم

في هذه الفترة من اواسط عام ١٩٣٦ انتقلت من «ثانوية النجف» إلى «دار المعلمين» في الرستمية للمرة الثانية، وكنت أبحث عن سانحة فسنحت. كانت الدماء تسيل في الفرات مما كان يدبّر من امرها ساسة بغداد، وفي المقدمة منهم (جميل المدفعي) و (علي جودة) و (ياسين الهاشمي) و (رشيد عالي الكيلاني)، وكل واحد يريد ان يقلب الآخر، فيحرك هذه القبيلة أو تلك من قبائل الفرات، فتذهب الضحايا الباردة من ابنائها ممن يقتلون في الفتن ما بينها، وممّن يشنق بعد ذلك منهم بهذه الحجة أو تلك. ويكفي ان يستلم رئيس العشيرة أو القبيلة مبلغاً من المال أو وعداً بنيابة في المجلس النيابي ليحرّك عشيرته كلها، وكان هذا حديث الناس في كل انحاء العراق، وقتها تشكلت مجالس عرفية في الفرات وشنقت فيها جماعة وأحرقت أكثر من مدينة أو قرية...

لقد كانت هذه الحال بمثابة الاشارة المنطلقة والشرارة التي تنبعث منها وأنا اتفرج عليها، ولحد هذا اليوم الذي أنا فيه، من دماء الجماهير وكرامتها ومصائرها مما أبيح لنفسي ان اقول انها من اختصاصي. فأنا لم أخلق لاكون مدرساً أو معية، أو موظفاً، بأي مستوى كان، وانما ان أحمل تلك الهموم وهذه المشاركة، شئت أم ابيت. لقد دخلت السياسة (ان صحّت هذه التسمية) من ابواب اخرى، من باب حب المشاركة للناس، ولو كنت مخلوقاً لغير هذا المفهوم من السياسة أي أن أكون لبنة في عمارة الحاكمين لعرفت طريقي اليها، بيد أني مخلوق لأكون هذا الذي أنا عليه الآن.

في هذه الظروف جاءت قصيدتي الموسومة: (حالنا اليوم أو في سبيل

الحكم) لتعري التلاعب بمصائر الناس لحساب مناصب ووزارات لآخرين.
لقد كانت، فيما اثارته، صورة صادقة لانطباق احاسيس الشاعر المنسجم مع نفسه على مشاعر الآخرين واحاسيسهم، والتي اقول فيها:

لقد ساءَني علمي بخُبثِ السرائرِ وأنِّي على تطهيرِها غيرُ قادِرِ
وآلمني أني أخيذُ تفكُّرٍ بكلِّ رخيصِ النفسِ خبٍّ مُماكِرِ

إلى آخر ما كان في هذه القصيدة مما لا يحتمله أي حاكم من حكام المنطقة العربية كلها. وكانت حينئذ في عنفوان وزارة (ياسين الهاشمي)، وكان البيت المثير له، بل ولكل ما يسمى حكمه، وما يسمى كل الحاكمين معه، هو البيت الذي يعرض بتقريب الحاكمين وتدليلهم: اقاربهم واصهارهم وذويهم قبل كل واحد من الموهوبين.

ولم يبقَ معنىً للمناصب عندَنا سوى أنَّها ملكُ القريب المصاهِرِ

أما حصة شيوخ وعشائر الفرات المستأجرين لذبح الكثير من ابنائهم ارضاء للحاكمين واشباعاً لشهواتهم فهي:

وكانت طباعٌ للعشائر تُرتجى فقد لُوِّثَت حتّى طباعُ العشائر

واقصد المذابح التي يذبحون فيها كالاغنام. أما كيف سنحت الفرصة وفي مثل هذا الجو العكر والدموي ان تنشر مثل هذه القصيدة بالذات فهو الآتي: لقد كان المحامي «عبد الرحمن خضير» المدير المسؤول لجريدة (الاصلاح) صديقاً محبباً إليّ، وفي يوم اتمام القصيدة التقيته، ووجدتها

فرصة سانحة لأتلوها برمتها عليه. فكان منه أن يفاجئني باستعداده لنشرها، وهذا ما لم يكن يخطر لي ببال ابداً. فقلت له: «أتتحمل كل مسؤولياتها، وفي الصميم منها ان تغلق الجريدة ونعتقل أنا وأنت و(مظفر فهمي) صاحبها؟».

فأجابني: «لا عليك، اعطني اياها».

فسلمتها له. ولو كنت وزيراً لفكرت ان تذهب مني الوزارة، ولا تذهب فرصة نشر القصيدة. واتذكر اني لم أنم ليلتها لأني لم اصدق انها سوف تنشر.

خرجت فجراً وكل من معي، من شريكةِ حياتي «والدة فرات» واطفالها نيام، واذا بي أجد العدد والقصيدة في الصفحة الأولى منه وبعنوان كبير «حالنا اليوم أو في سبيل الحكم».

اذن فقد اصبح امري منتهياً مع وزارة المعارف. وبقيت بانتظار النتيجة المحتومة. وفعلاً، قبيل ظهر اليوم نفسه، كان مجلس الوزراء قد انعقد واتخذ قراراً بتعطيل الجريدة لمدة سنة كاملة. وفي اليوم الثاني صباحاً تقرر احالتي إلى لجنة الانضباط في وزارة المعارف، أما في اليوم الثالث فقد اقيمت الدعوى علينا أنا وصاحب الجريدة (مظفر فهمي).

لقد تلقيت صباح يوم القصيدة نفسها نداء من صديقي (رشيد السلبي) مدير دار المعلمين في الرستمية يقول لي:

«لماذا لم تداوم اليوم» قلت له «لماذا اداوم! المسألة معروفة والجريدة لابد ان تكون بين يديك، وداعاً! وأنا انتظر المصير الجديد الآن».

وفيما بين اغلاق الجريدة والأحالة إلى مجلس الانضباط، كان يوم المحاكمة التي أقيمت علينا الدعوة فيها، ويشاء حسن الحظ، بسبب من مفارقات العهد الملكي هذا، وتبعيد هذا وتقريب ذلك، على حساب المباغضة والمحابية، ان يوعز الى (مظفر فهمي) صاحب جريدة (الاصلاح) ان لا يحضر، وان يقتصر الحضور لدى المحكمة والحاكم عليّ وحدي، وطبيعي ان يلتفت الحاكم ليسأل عن (الناشر)، المطلوب قبل كل احد، فلا يجده، ثم ليلتفت اليّ ليقول:

«أنت وحدك؟»

«أجل سيدي»

ثم ليتم ذلك بأن تؤجل المحكمة إلى موعد آخر يكون مظفر فهمي خلاله قد عيّن مديراً لـ (ناحية) ما في العراق، تعويضاً له عن اغلاق الجريدة، ولأنطلق أنا سالماً غانماً أيضاً، كما لو انني قد مدحت الحاكمين على صورة أقوى شخصية منهم ولست القائل عنهم ما قلت. أما في لجنة الانضباط، فكان عبد الجبار الجلبي (الذي اقترحته، وزيراً وعين وزيراً في وزارة السويدي وستجيء الاشارة إلى ذلك في الاربعينات) مديراً للمعارف حينئذ كما اتذكر، و«عاصم جلبي» (صديقنا أيام ساطع ومن أيام البصرة، صاحب قضية قصيدة ابن سعود الذي تحدثت عنه). وطبيعي اني كنت متفهماً لما سيكون فأنا معرض للفصل بل العزل وكنت قد اعددت رسالة تخيلتها دفاعاً عن نفسي بينما هي لا تختلف إلا بقليل عن اعادة لمقالي «اسمعي ياوزارة المعارف». وقلت في جملة ما قلت فيها، أجل أنا اتعاطى السياسة، ولا تهمني وزارة المعارف ذات الأشياء والأشياء والاشخاص والاشخاص. أنا واحد من المغلوبين والمحجوزي الحرية فيها، والوظيفة التي أنا بها دون ما استحق وما أريد، وهذه وزارة المعارف (واحاشيكم) فيها ما فيها ومن فيها، وابتدأ السؤال المدهوش:

«فلان ماذا يعني هذا؟»

«معناه واضح، فهل ستعفونني؟ هذا غير ممكن، أما بالنسبة لعقوبة مثل قطع راتب شهر أو غير ذلك فهي تساوي عندي الفصل، المهم انني سأتلقى عقوبة ما، وهذا ما أرفضه» وقال عبد الجبار الجلبي:

«اننا لا نحب لأجل سواد عينيك ان يسجل كل هذا» فقلت لهما: «سُجلت أم لم تُسجّل ها هي بين يديكما».

فقرروا عقوبة لم يجدوا بداً منها، بعد هذا الهجوم الذي سميته دفاعاً، كانت عقوبة مهذبة، أي فصلاً وليس طرداً، وكان ذلك مفروغاً منه، فقد كنت أريد الخروج من كل وظيفة مهما كانت.

وكان لديّ مجال للاعتراض على عقوبة لجنة الانضباط في وزارة المعارف، وحتى حق التمييز لدى مجلس الانضباط العام ومقره في

وزارة العدل (وهو يتكون من حكام عديدين)، ومع هذا كله فقد تعمدت ان لا أعترض أو أميّز القرار، وفترة الاعتراض محددة بأربعين يوماً وبعدها يسقط الحق في التمييز. وحتى بعد ثمانية وثلاثين يوماً، أي قبل يومين من فقدان حق الاعتراض، قامت قيامة بعض اصدقائي ومحبيّ وبخاصة فمن (صادق البصام) وزير المعارف حينئذ، وهو الذي حرك الآخرين بأن يتصلوا بيّ ويقولوا لي:

«يافلان لا تظهر حماسات زائدة واصراراً وتهوراً فان التمييز حق من حقوقك، قدم ابسط حقوقك» فلم أجد بداً من الاستجابة، وقدمت قبل يوم واحد من انتهاء مدة الاعتراض. وفي جلسة التمييز كان محاميّ معي وكان الجميع إلى جانبي، وهذا شيء لطيف، فقد دخلت عليهم والجريدة ماثلة أمامهم وهم يبتسمون على ما فيها، بمعنى انها تعجبهم كثيراً، فقالوا «يافلان ان مجلس الانضباط العام يقدرك ويعزك ولهذا فانه يكتفي بتوجيه توبيخ شفهي اليك، أي لن يدوّن بورقة».



صادق البصام

فقلت: «شكراً وأنا استحق أكثر من هذا، وهذا من لطفكم» وخرجت.

تضمن القرار اعادة رواتبي المجمدة خلال خمسة أشهر أو أربعة، فاستلمت الرواتب، ورغم كل ذلك قدمت استقالتي. واذا بصادق البصام يستدعيني ليقول لي:

«أرجو ان لا تستمر في الحاحاتك المعهودة وأنت على ابواب العطلة، ولم يبق غير شهر واحد منها لتستلم كل رواتبك كاملة ثم تنصرف ان شئت».

قلت: «شكراً، هذا شيء لا يُردّ ياابا جعفر، ولكن لا أريد ان ابقى في بغداد لأنني جزعت منها» فقال:

«عندنا شاغر في الناصرية»

«عظيم»

اذن سنرحل أنا والعائلة ذات الشمل الجميل، الذي تفرّق وتمزق وتمزقتُ معه. ذهبنا إلى هناك، حيث غنمت صديقاً لن انساه ما عشت، بل احتفظ بذكراه حتى وان خسرته هو (محمد دويك) من فلسطين ومن نابلس بالذات، ومن المنتدبين لتدريس اللغة الانجليزية في العراق. وقريباً وفي هذه الفترة سيأتي الحديث عنه وعن موهبته المتعددة الجوانب، بل وعن نبوغه وحسبي من ذلك كله وبالاضافة اليه انه كان يتقن ثلاث لغات أجنبية.

وقضيت هذه الفترة في الناصرية وكانت من الفترات الحلوة لديّ ولدى كل من يتذكرني هناك، وعند انتهاء العطلة الصيفية عدت واستقلت وتخلصت نهائياً من وزارة المعارف واثقالها.



الفصل الخامس

الأبـواب المغـلقـة

وبعد أيام من عودتي من الناصرية ومما كان من أمر قصيدة (حالنا اليوم أو في سبيل الحكم) كانت هناك مفارقة غريبة إلى جانب مفارقات كثيرة مثلها في عهـد الحكم الـوطني في العراق. ذلك انني كنت اتردد على (محمد حسين الشبيبي) وهو موظف في وزارة المالية، وعلى الاختصاصي المالي (دراز عمـر خان) وهـو رجل من الهند ضليع باختصاصه وبالأدب الشرقي أيضاً، وكان من المتعاقدين مع وزارة المالية، وهو الذي اراني قصيدة اقبال الغـاضبـة والتي تُرجمت لي فنـظمتهـا شعراً، وطبعت بكراسة بمقدمة من الدكتور عبد الوهاب عزام وكان استاذاً في جامعة بغداد، وهي من المفقودات عندي بما نفد من نسخها.

ذات يوم وأنـا في طريقي اليهمـا، واذا بي التقي بياسين الهـاشمي بقامته المنتصبة وملامح وجهه المعبر بقوة تكاد تتحدى الشيخوخة التي بدأت تدب اليه. سلمت عليه سلاماً حاراً حرارة يدي المرفوعة اليه بالسلام. فقد كنت احترمه شخصياً بالرغم مما كان من أمر القصيدة.

وكانت اللفتة المفاجئة وغير المتوقعة وهي انني وقد أخذت طريقي إلى الدائرة الرسمية، رأيته يعود إلى مدخل الباب ليناديني بأسمي المألوف لديه «مهدي؟» قلت: «نعم» قال: «هلم اليّ». وتقدمت خطوات معدودات منه لاسمعه يقول: «أين أنت» قلت: «والله باشا في هذه الدنيا».

قال: «أريد ان أراك»

وفكـرت: «ياسين الهـاشمي؟» يراني؟ وأنـا صاحب قصيدة «حـالنا اليوم؟» والقريب المصاهر! وبعد يومين أو ثلاثة، ولم يكن عندي هاتف في

البيت، ذهبت إلى صديقي «عبد الرزاق الناصري» وكان يصدر صحيفة يومية في وقتها وأنا مشارك له حتى مادياً فيها، فقال لي:

«أين أنت لقد هتفوا لك من مجلس الوزراء ثلاث مرات، يسألون عنك»

ولم اضع الوقت. وللتو قصدت سكرتير مجلس الوزراء «نوري القاضي»، وهو جار لي قبل هذا في الكرخ، عندما انتقلنا اليها بعد الرستمية فقال لي «ان (الباشا) قد طلبك مرتين»، وبعد برهة كنت عنده وابتدأ الحديث:

«كيف الحال؟»

«بخير مادمت غير غاضب عليّ»

«يامهدي لو تعلم ماذا اقترح عليّ هنا في هذا المكتب أحدهم من عقوبة لك؟»

«لقد جاء على بالي الكثير من هذا».

وعرفت من هو هذا الواحد، فقد كان ـ وهذه واحدة من المفارقات ـ أحد الذين يتظاهر بصداقته لي ولا أحب ان اسميه فقد قضى نحبه، قلت:

«اتعلم ماذا قلت له؟»

«لا اعلم ياباشا».

«لقد اجبته، والله العظيم ان ما جاء به الجواهري في قصيدته لم يبلغ العشر من الواقع والحقيقة، وله كل الحق في ما قال، والآن... ما الذي استطيع ان اقدمه لك؟»

«باشا أولاً ألف شكر على هذا اللطف والكرم وثانياً اشكرك على انك ترضى ان تراني وجهاً لوجه، والثالث على انك تطلب مني ان تصنع لي شيئاً، ماذا تصنع لي ياأبا مديحة (وهذا اسم ابنته الوحيدة المدللة)، أنا مدرس بـ ١٨٠ روبية، هل ترفع مرتبي درجة، درجتين، ثلاثاً، ليصبح راتبي ٢٥٠ أو ٢٦٠ روبية، واظل مدرساً أو معلماً، هذا شيء لا يسد ذرة من الفراغ الذي عندي ولا شيئاً من مطامحي، انني التمس منك عطفاً واحداً فقط، ذلك اذا

كان بوسعك ان تصنع لي شيئاً، هو ان تجد لي متنفساً مما أنا فيه عن طريق بعثة إلى الخارج».

وما كان اسرع ما فاجأني بجواب، لم أكن أنا ولا من هو في موقفي يتوقع ان يسمعه حين قال لي بالحرف الواحد:

«لا يامهدي! . . أريدك للمجلس النيابي» قلت له وأنا مندهش:

«ياباشا، أنا صاحب ـ حالنا اليوم ـ وقد خلصت نفسي بصعوبة من عواقبها ومرارة ما ينتظرني بصددها، وبعد هذا كله وبقفزة واحدة فإلى المجلس النيابي؟! هذا شيء لم يخطر لي ببال، ان كرمك وشهامتك لا يفي بهما شكري وامتناني». فقال لي وباللهجة الدارجة، وكان شبح «حالنا اليوم» شاخصاً أمامي:

«شيء واحد اريده منك وفي هذا المجلس النيابي نفسه (ان لا تكسر لي بوط)».

والبوط كما اعرف كلمة تركية دارجة في العراق تعني المشكلة أو المشاكل أو الورطة، وبعبارة أكثر توضيحاً فان لا تحرجني بقوة معارضتك. اعجبتني وهزتني كلمته فقلت له ـ وأنا اعني بحق وحقيقة ما أقول ـ:

«والله لا أعرف ان اجيبك إلا بكلمة واحدة هي من صميم دمي، انني انسان وفيّ يجازي بالجميل جميلاً» فقال:

«يكفي. مع السلامة».

انتهى اللقاء، وخرجت مفكراً أين اودع هذا السر الرهيب، وسرعان ما أدركت ان ليس هناك عندي من هو أجدر وأحق بمثل هذه الاسرار من (رستم حيدر، الشخص المقارن والمقارع بكل معنى الكلمة لياسين الهاشمي). فأسرعت بالذهاب اليه في ديوانه بالبلاط الملكي، وسلمت عليه وحييته وحياني وتساءل عن غيبتي الطويلة وعما جاء بي اليه فقلت له:

«الغيبة توفير لاوقاتك الثمينة والجيئة فلأمر يستحق ان اغتصب به بعضاً من اوقاتك هذه، ان المسألة كيت وكيت» فقال لي: «لنتمش قليلاً».

وتمشينا وفي الساحة نفسها التي كانت خاصة بمكتب الملك فيصل والتي خلت فيما بعد ذلك. فقال:

«اسمع لو كان غير «ياسين» هو الذي وعدك. حتى لو كان رشيد عالي الكيلاني مثلاً لقلت لك انه يكذب عليك، ولكن ياسين شيء آخر، سأقصده بعد ساعة لأفهم حقيقة الأمر، وموعدنا غداً في مثل هذا الوقت».

وعدت في اليوم الثاني، وفي الموعد نفسه، فقال لي ونحن نتمشى أيضاً:

«لقد قابلت الرجل، وأنت صادق في كل ما قلت، ولا أخفي عليك وبأمانة، بل على خلاف ما تتوقع مني، فقد اقترحت عليه ما طلبته أنت منه بادىء الأمر - أي البعثة - فأجابني بنفس ما اجابك به أنت، أريده للمجلس النيابي. والآن فمع السلامة، كن هادئاً وفارغ البال ومستريحاً».

وكانت هناك سبعة شواغر نيابية في المجلس، واحدة منها وهو ما أرادني اليها (ياسين الهاشمي): النيابة عن لواء النجف وكربلاء.

كان في تموز من عام ١٩٣٥، وكانت الفترة ما بين هذا الموعد الأول وبين يوم الانتخاب - أو ما يسمى مجازاً بالانتخاب - لملء هذه الشواغر، قرابة شهور أربعة، كان لكل يوم من ايامها وليلة من لياليها حساب محسوب عندي. ومع الاسف فلم يكن هذا الحساب خالياً من الشوائب. ذلك ان متصرف (محافظ) لواء النجف وكربلاء كان (صالح جبر) لا غيره، ولم يكن ذلك لمصلحتي. فقد كنت في هذه الفترة بالذات غير مرغوب عنده، وبحكم «المعادلة» كما يقولون، فقد كان يكفي لترجيح «احدى كفتي الميزان» ان اكون مرغوباً ومحبوباً لمن يرأس صالح جبر، وان يكون (ياسين الهاشمي) لا غيره. ومع ذلك ومن باب محاولتي اقتلاع هذه الشوكة من جذورها، فقد قصدت (رستم) مرة أخرى لهذا الغرض نفسه، فقال لي:

«عندي سفرة مع الملك غازي إلى كربلاء وسأرى المتصرف، (صالح جبر)، وسأحاول جاهداً ان اثبت قدميك في المكان الذي وُعدت به، وبعد يومين أو ثلاثة أريد ان أراك».

والتقيت به في الموعد الذي وعد به فقال:

«لقد فتحت الموضوع هناك مع صالح جبر وكان عنده شيء ما بصددك، وسُوّيَ كل شيء، أنت لكربلاء».

وتقاربت الايام الواحد بعد الآخر، وأنا وكأنني أريد محوها من حسابي بل ومن حساب مصيري لأحولها إلى حساب نموذج ما أكثرَ نماذجَه في العراق من منافقين وغادرين.

كانت حديقة بيت (الظاهر) الذي يقع في الكرخ لصق مقر السفارة البريطانية (حتى، لهذا الالتصاق خلفية أخرى) هي مرتادي المألوف شبه المداوم، وما كنت أدري، ولا المنجم يدري، ان شيخ هذا البيت والذي كان ممن يرتبط معي تظاهراً وكذباً بالتودد والتحبب، بل يحفظ الكثير من اشعاري، هو الآن وفي هذه الفترة بالذات، المتآمر الوحيد عليّ بالاتفاق مع صالح جبر في أمر هذه النيابة.

وبمحاولة للايجاز فقد حلّ اليوم الأخير لموعد ملء الشواغر المذكورة. وفي الظهيرة منه كنت عند (رستم حيدر) لأتعرف، للمرة الأخيرة، على مكاني الموعود عن لواء كربلاء غداً. وما ازال اتذكر بمرارة، كلمته الأخيرة، وكأنه يستخف قلقي على هذا الموعد: «اتريد مني صكاً، أنت غداً نائب في المجلس النيابي». وبعد ساعات معدودات، وبالتحديد ففي عصر اليوم نفسه وكعادتي المألوفة كما قلت بل وبفطارتي المعروفة، كنت في هذه الحديقة (التي خربها القدر المحتوم بكل ما فيها) وبكل براءة وبساطة «المغفلين» كنت انقل سري ومصيري إلى هذا المتآمر بمثل ما ينقل الحبيب إلى الحبيب سره وضميره. واذا به، (بعدئذ فهمت لماذا) يقفز وبعد الحرف الأخير من هذه الجملة إلى هاتف مخبىءٍ في زاوية من زوايا البيت ليتصل بصالح جبر، ولأجدني بعد ذلك بدقائق معدودات وجهاً لوجه مع ابن عمتي (علي الشرقي)، وهو يقتحم المجلس على حين غرة وبما يشبه المفاجأة، ليقول لي وهو ينبؤني بالمصير المقلوب، لما قاله لي قبل ذلك وعلى الوجه النقيض، (رستم حيدر) ليقول لي:

«لنتمشَ قليلاً ياابن خالي» وبعد الخطوة الأولى من هذا التمشي قال:

«لماذا أنت جالس هنا وصالح جبر قد ترك مقره في كربلاء ليصل الآن إلى بغداد وعلى جثتك» قلت:

«ماذا تقول؟»

«هو ما قلته لك ـ انه الآن عند ياسين الهاشمي»

وفي هذه المرة، فلم أكن بليداً لأجهل ان خصمي المتآمر، وقد دخل ابواب ساعة خطيرة من ساعاته، قد اتصل هاتفياً بالشيخ الشرقي لا ليبلغني فحسب بل وليخرجني من عنده. وخرجت وعلى خطوات مني وفي شارع (الصالحية) المعروف ببغداد، كانت غرفة (رستم حيدر) مضاءة، وعندي علم اليقين ان ابواب بيته مفتوحة أمامي، ومع هذا فقد أبيت لنفسي ان ابلغه بما حدث.

وبدلاً من عودتي إلى بيتي في الاعظمية فقد عرجت، وفي عيني غشاوة مما سمعت، على بيت صديقي الأديب وراوية الرصافي الوحيد (مصطفى علي)، وكنا سوية دائماً وفي كل ليلة أما في البيت عنده وأما في مقهى، جميل، حلو، لطيف لنا ركن معين فيه، وأنا وهو على اتصال بتفاصيل الموضوع. وكان من الغاضبين على (ياسين) بل كان معارضاً له جهاراً وعلانية، برغم اهمية وظيفته المسؤولة في وزارة العدلية، ومع هذا فقد كان بما جبل عليه من صراحة في الحب ـ كما هو في الكراهية ـ من أشد ما يكون غبطة بأن يفي الرجل (ياسين) بوعده، وان اكون في المكان الموعود، فكان منه ان يبادرني وباختصار شديد متسائلاً عما جدّ من جديد؟ قلت له:

«ان هذا الجديد لا يسرك».

وقصصت عليه ما كان...

فأجابني «لقد ارحتني من قلق يساورني، لأن ما يخصك يخصني».

قلت: «ياحبيبي مصطفى كأنك تتحدث الليلة بالالغاز».

قال: «أجل وهو كذلك».

قلت: «لقد زدتني غموضاً» فألتفت إليّ وهو يسرني وكأنه حريص كل الحرص ان لا تصل همسة من حديثه إلى أحد قد يستمع اليه، قال «الآن وفي هذه الليلة لا احب ان ازيدك علماً بأكثر من جملة واحدة. لقد قال حكمت سليمان لن اشترك في الحكم حتى أقعد ياسين في بيته».

قلت: «وبعد».

قال: «غداً».

وخرجت منه وأنا أريد حل هذا اللغز، ولم أقدر عليه إلا صباح اليوم التالي (كما قال).

صباح يوم سد الشواغر، كان لحسن حظي وسوء حظ (ياسين الهاشمي) ان يكون هو نفسه، أي اليوم بل وفي ساعة اعلان اسماء المرشحين، ان يكون هو الموعد الاخير، حتى يوم الحساب، لياسين الهاشمي مع العراق، اذ كان قد أعد نفسه، ساعة سقوط القنبلة الاولى على بغداد، للهرب إلى دمشق ليتوفى فيها بعد شهور قلائل.

وأحب ان لا يفوتني شيء. لقد حاولت جاهداً ان أجد عذراً للرجل الذي كان وما يزال له عندي مكانة بين الشخصيات المسؤولة كلها. فـ (نوري السعيد) و(ياسين الهاشمي) من ارباب الوزن الثقيل المتمكن، المقتدر على ادارة دفة الحكم بغض النظر عما كان منهما وعما بيني وبين هذين، أو غيرهما، من المسؤولين. فهذا شيء آخر من المفارقات البعيدة كل البعد.

حاولت جهدي ان اكون محامياً بل أكثر من عاذر للهاشمي، فلم اقدر على ذلك. لقد أرادني وبالحاح منه وبأكثر مما أطمح اليه ان اكون نائباً. كيف يصح لرجل بهذه المكانة ان يغدر بي! حاولت ان ادافع فلم أجد ان يكون عذره هو مجرد وصول (صالح جبر) من كربلاء ليحذف اسمي. ومن الواضح لكل من يعرف ياسين الهاشمي ومنزلته باستطاعة الرجل ان يقول لـ (صالح جبر) وبالحرف الواحد، لا أنت ولا رئيسك وزير الداخلية بقادرين على ان احذف كلمة الشرف مني تجاه الجواهري حتى لو عزلتكما معاً. فأي عذر له بعد هذا كله؟.

ومرة أخرى، فقد كان صباح يوم بكر صدقي سواد ليل ياسين الهاشمي.

والآن وعلى هذه الصفحة نفسها، ومن أمليها عليه شاهد عدل على ما أقول، تشاء الصدف العجيبة ان أطلع على ما لم اطلع عليه قبل ذلك من جملة أوردها (الحسني) في كتابه «تاريخ الوزارات العراقية» الجزء الثالث الصفحة (٢٤٠)، وهو يؤرخ وفاة (الهاشمي) ببرقية وصلت إلى بغداد من بيروت صباح الخميس الموافق ٢١ كانون الثاني ١٩٣٧، ويستعرض بعدها

مواقف الصحف العراقية، وخاصة أشهرها، حيث يقول «الحسني» (أما صحف بغداد فقد اكتفت بنشر خبر الوفاة، كما تكتبه عن اصغر رجل، متناسية مقام الفقيد في السياسة والخدمات التي اسداها للعراق، وإلى هذا تشير جريدة (الانقلاب) للاستاذ محمد مهدي الجواهري، بالكلمة التالية الصادرة في عدد ٢١ كانون الثاني ١٩٣٧ «واذا كانت هناك عبرة تفوق عبرة نهاية الهاشمي باشا المحزنة، فهي موقف زميلة من الزميلات - يريد جريدة البلاد - التي لم يجف بعد حبر كتاباتها ولم يضمحل صدى تقديسها وعبادتها للهاشمي، موقفاً لم يكن بالمتوقع منها، بصورة خاصة، في تأبينها المقتضب للرجل، فليس معنى موت الرجل أو تدهوره ان يذهب الوفاء، وينضب معين الانصاف») فيا للعجب مما يفرض به التاريخ نفسه بل ويعيده على غير توقع وكأنه يريد بقدرة قادر خلاق ان يلصق صفحة منسية منه بما قبلها وبعدها. وزدت على ذلك وفاء بأكثر مما قال الحسني، وبعد برهة غير طويلة، فقد رثيت الهاشمي في حفل ذكراه بقصيدة حسبي منها بيت واحد:

ناصبت حكمك غاضبا فوجدتُني   بأزاء شهم في الخصام كريم

أما خصمي أنا بالذات غير الكريم بل وغير الواعي على انه يناقض نفسه بنفسه فهو (طالب مشتاق) فمن يصدق ان في الجملة مما حاول ان يمسني به في كتاب له بعد هذا الوفاء كله للرجل بأن يعدني واحداً ممن تشفوا بالهاشمي بعد وفاته، أي كان وكأنه يمتدح من تناسوه و «يهجو من رثاه وكرمه» بمشهد من الدّ خصومه من الحاكمين وفي عهد (بكر صدقي) وحكمت سليمان، تفارقت مع مصطفى علي، على أمل اللقاء في اليوم التالي، كما اتفقنا، كنت بانتظاره في مقهى البلدية الشهير، والجميل، في ساحة الميدان بوسط العاصمة فاذا به يجيء ليأخذني إلى أكلة شعبية يسمونها «التشريبة» وكان من المختصين باعدادها في بيته، وليقول لي، بالنص الصريح، عما كان في الليلة الماضية لغزاً مبهماً:

«ماذا كنت أقدر ان أقول لك البارحة وعندي السر الدفين، لقد تحدثت معك قبل عن ان (محمد علي جواد) ـ قائد القوة الجوية، وهو من أقربائه ـ قد اخبرني بضرورة عدم خروج ابنتنا (ولم تكن له بنت فقد تبنى طفلة عزيزة عليه) وبعدم ذهابها إلى المدرسة». . . قلت له أجل، قال: «ولم أقل لك ماذا كان بعدها، فقد اتصل بي مرة ثانية ليقول يامصطفى، لتذهب فلانة هذا الاسبوع كله إلى مدرستها، ثم كان مني ان ذهبت إلى جواد نفسه». . . فقلت له «ماذا كنت تقصد بهذا المنع والغائه؟» قال «لا أقصد شيئاً سوى ان لا تذهب في اليوم الفلاني. . . على كل حال فهمت الموضوع جملة بادىء ذي بدء وتفصيلاً بعد ذلك، ولم يكن بوسعي ان اقول لك انه بعد ساعات من ليلتنا تلك ماذا سيكون في صباحها».

هذه واحدة، وواحدة أخرى وأنا في المقهى وقبل ان يصل (مصطفى علي) كانت المناشير التي تؤذن بالانقلاب قد تناثرت على العاصمة من الطائرات المحومة عليها. . وكنت كما قلت على علم مسبق بما سيحدث فوجدتها ـ وان بعد خراب البصرة ـ فرصة سانحة لمجرد تذكير (رستم حيدر) صاحبي امس ومعه صك النيابة، بما كان من غدر الرجل الذي استثناه من كل القادرين من رجال الدولة. فقصدت البلاط الملكي والمسافة غير بعيدة عني، مشياً على الاقدام، وتشاء الصدف ان تلقى القنبلة الأولى وأنا في وسط الساحة منه ـ أي البلاط ـ وان تختلط صيحتي المدوية بالترحيب بها مع صدى القنبلة نفسها. ولم أرد ان احرج رستم بالمواجهة، وكانت بابه مفتوحة أمامي، لكني قصدت معاونه (عبد الكريم الازري) وأنا في هذه الساعة الحرجة، فقلت له «ارجوك، اذهب إلى رستم وقل له ان صكك غير مقبول وان (ياسين الهاشمي) نكث بوعده وعهده وقد تلقى مصيره» ورجع إليّ (الازري) ليبلغني ألم رستم بل وغضبه من ان تسف الاخلاق إلى هذا الحد.

وعدت (والحديث ما يزال بعد عن الانقلاب ثم عن موقفي منه وعن كل ما في العراق من «انقلاب» و«ثورة» و«انتفاضة» و«وثبة» وبكل مرادفاتهن) بسبب من مدى انسجام كل ذلك مع ما في نفسي ودمي وحياتي من حب التمرد والعصيان، وبخاصة فمن حب المغامرات والمغامرين، وأصدرت

جريدتي الثانية مستعيرة اسم ـ الانقلاب ـ نفسه، متطوعاً غير ذي انتماء لاحد، ولا ذي علاقة بأحد، إلا بخيط متين مما بيني وبين الناس بعامة، وبمصطفى علي، من علاقة ود صميم بخاصة.

في هذا التمرد وفي هذا الاستعداد للاستنفار في مثل هذه المواقف صدرت الجريدة التي كانت بأعدادها الأولى متجهة كل الاتجاه وناطقة بلسان صاحب الانقلاب الحقيقي بكر صدقي، أي الجيش. فكنا، أنا ومصطفى، شبه شريكين بادىء الأمر، وكانت افتتاحيات أكثر من عدد واحد بقلمه، وأبلغنا رسمياً على وجه التحديد اننا ومعنا حكمت مكي الجميل (وكان هو الآخر قد أصدر جريدة ـ الحارس ـ مؤيدة للانقلاب أيضاً) في الطليعة من القائمة الأولى للمجلس النيابي الجديد. وكنا بادىء الأمر نتساءل أنا و «مصطفى علي» هل سيتحملنا المجلس هذا أم لا؟



بكر صدقي

ولابد لي من ان اقول انني اسفت، ولي بعض الحق في ذلك، على فقداني النيابة. ولكن كان هناك ما يعوض عنها خير العوض، هو ان الجريدة انقلبت على ـ الانقلاب ـ لتكون إلى جانب الجماهير، فالانقلاب لم يطل كثيراً ريثما اعلن عن فشله اولاً، ولفظ أنفاسه الاخيرة ثانياً.

أما أنا فبقيت بمثل ما ظللت عليه حتى يومي هذا نائباً عن الناس، وامتحنت وما ازال أيضاً بما امتحن به الناس طوال مائة مرة ومرة، من امثال هذه الفترة البائسة، وبخاصة بعد مقالي (ماذا بعد ستة شهور؟)، ثم اختلقت

لتوقيفي وسجني مبررات على يد (صالح جبر) بل لربما على يدي أنا بالذات وبقصيدتي المتشائمة:

إنَّ السمـاءَ التي ابـديتَ رَونَقَهـا ... يومَ الخميس بدا في وجَهِهـا كَدَر
تَهـامَسَ النفَرُ البـاكـون عَهـدَهُم ... أن سوفَ يرجـعُ ماضيهم فيَزدهِـر
تَجـري الأحـاديثُ نكـراءً كعادِتها ... ولـم يُرَعْ سامـرٌ مِنـهُمُ ولا سَمـر
فحـاسبِ القومَ عن كلِّ الذي اجترحوا ... عمـا أراقـوا وما اغتلوا وما احْتَكروا
للآن لمْ يُلغَ شبـرٌ من مَزارِعـهـم ... ولا تَزحـزح مِمّـا شيَّدوا حَجـر
ولـم يزل لهـمُ في كلِّ زاويةٍ ... مُنـوِّهٌ بمـخـازيهـم ومُفـتَخِـر
وتـلكَ لِلحـرِّ مأسـاةٌ مُهـيِّجـةٌ ... يَدمي ويدمـعُ منهـا القلبُ والبصَر
فضيِّق «الحبلَ» واشدُدْ مِن خناقِهُمُ ... فَربَّـمـا كانَ في إرخـائِـه ضَرر
ولا تَقُـلْ تِرَةٌ تبـقـى حَزازتُـهـا ... فَهُمْ على أيِّ حالٍ كُنتَ قد وُتِروا
تَصـوَّرِ الأمـرَ معكـوسـاً وخُـذْ مَثلاً ... ممـا يَجـرُّونـه لو أنهم نُصِـروا
واللّهِ لاقتِيدَ «زيدٌ» باسم «زائـدةٍ» ... ولأصطلى «عامرٌ» والمبتغى «عُمَر»
ولانـمحى كلُّ رَسمٍ من معالمكمٌ ... ولاشـتَـفَـتْ بِكُـم الأمثـالُ والسِيَر
ولا تزالُ لهـم في ذاكَ مأرُبَـةٌ ... ولا يزالُ لهـم في أخـذِكُمْ وَطـر
أصبحتُ أحذرُ قولَ الناسِ عن أسفٍ ... من أن يروا تِلكمُ الآمـالَ تَنـدَثِـر
تَحـرَّكَ اللَّحـدُ وانشقَّت مُجـدَّدةً ... أكـفـانُ قَومٍ ظننَّـا أنَّهم قُبِـروا

الفصل الخامس

إنقلاب وتحدٍ

استمـرت ـ حتى وأنا رهن التوقيف ثم وأنا محكوم بالسجن ـ جريدة الانقـلاب في الانقـلاب على الفاشية الحاكمة، المتصافحة مع الفاشيين العريقين، حكمت سليمان وبكر صدقي وجماعتهما بعد افتضاح امرهم.

وزاد الـطين بلة، ان يقـدم امين الريحاني ليغطي اخبار الاوضاع الجديدة الناشئة بعد انقلاب بكر صدقي، وكان هذا الرجل قد شوه بكتابه الموسوم (قلب العراق) على اقبح صورة من التشويه واشدها كذباً وافتراءاً، صورة خلاف ساطـع معي، منتصراً للفتنة الطائفية بحق انسان صار أحب شاعـر إلى العـراقيين بعـد شاعـرهم الأول الرصافي. فما عسى ان يكون موقفي، بل وموقف كل واحد آخر مثلي، سوى ان أرد عليه وعلى كذبه وافترائه بمـا استـطيع وهـذا ما كان مني معـه في مقالي (جاسوس خطير في اوتيل تايكــرس بالاس)، وكــان القلم في يدي في الليلة التي حل فيهــا أمين الريحاني بهذا الفندق، عندما اتصلت به هاتفياً ليلاً لأقول له بالحرف الواحد:

«مرحباً استاذ امين الريحاني، هل تعرف من الذي يكلمك؟ انه الرجل الذي ولد في ايران، فارسياً ينظم الشعر، وطبعاً فبالفارسية، انه محمد مهدي الجواهري!».

وجـاء صديقي المحبب إليّ (حسين جميل)، وهـو مدير الـدعاية، ليقتحم عليّ المجلس بعد برهة وجيزة ـ فهمت منها ان الريحاني قد استنجد بـه ليلتمس مني ان لا اتعرض لهذا الضيف المطلوب، فقلت له:

ـ «لا، سوى انه جاسوس مخيف في اوتيل تايكرس بالاس».

وكان المقال ما يزال ماثلاً أمامي . وعبثاً ذهبت كل محاولاته لثنيي عنه . وصدر المقال، صباح اليوم التالي ، وفي الظهيرة منه كان امين الريحاني قد حزم حقائبه وغادر العراق على وجه السرعة . واضيفت هذه الوثيقة الجديدة عليّ إلى تلكما الوثيقتين .



امين الريحاني

(جاسوس مخيف في اوتيل تايكرس بالاس)

وللحقيقة، اقول انني كتبت عن «امين الريحاني»، انه «جاسوس مخيف» لمجرد هاجس من الريبة في أمر هذا الرجل «العربي الاصل، والامريكي الجنسية»، فيما يتنقل به بحجة الكتابة عن (ملوك العرب)، اذ هو يندس في هذا البلد العربي أو ذاك، ويلتقي بهذه الحجة بكل ما فيها من محافل ومجالس حافلة، شاءت أم أبت وبما يصل حد التخمة من اسرار ودفائن وكوامن .

ولكنني لم أكن اعرف انني «قارىء فنجان» (!) لأبعد من ذلك، إلا قبل ما لا يزيد عن سنتين أو ثلاث، وأنا بصدد اعداد هذه الذكريات، عندما سمعت ما نشر واذيع بصورة مكشوفة من اذاعة الكويت الرسمية، وبطبيعة الحال من وزارة الاعلام فيها، وهي تقدم مسلسلات عن اسرار التزاحم البريطاني الامريكي على ما تحت رمال الجزيرة من بحر يتلاطم بالذهب .

واذا بـ (امين الريحاني) وهو في الصميم من الصلات والمداخلات في هذا الصراع الاستعماري . هذا بالاضافة إلى ما نشر في الصحف

الكويتية عن اسرار ارتباطات هذا الرجل، فضلاً عن الوثائق السعودية الرسمية.

وقد ظهر مؤخراً عدد من النصوص والشواهد في الكتب العربية وكلها لغير صالح هذا الرجل ولكن هناك واحد منها بخاصة هو كتاب (صقر الجزيرة) لرغيب الطباع الذي يوالي من والى العائلة السعودية ويعادي من عاداها ـ وهنا بيت القصيد ـ فهذا الكتاب يجيء وهو بصدد من اعانوا الملك عبد العزيز ابن سعود على الاطاحة بالعرش الهاشمي وعلى وجه التعيين فعرش الملك علي ابن الحسين. وفي نهاية هذا الفصل ما سيجده القاريء من وثيقة بقلم (امين الريحاني) هذا، يقول فيها وبالتفصيل انه جاسوس مخيف وشهير وخطير أيضاً لا في (اوتيل تايكرس بالاس) في العراق ولكن في كل ما تمتد اليه ا يدي الاستعمار البريطاني والامريكي في بلاد العرب كلها.

على اني فوجئت وأنـا ادون هذا الجـزء الأول من ذكـرياتي، وفي دمشق، بطبعـة جديدة لكتـاب (قلب العـراق) وقد صدرت بمقدمة للشيخ (محمد رضا الشبيبي) وفيها يمتدح هذا الكتاب بأنه «من امتع ما طلع به علينه الريحاني من كتبه».

لقد راجعت بأمعان تاريخ هذه المقدمة الاسيفة وعبثاً حاولت أن أجد عذراً للشبيبي، وهو يمتدح بل ويتملق كتاباً يشتمني به اولاً ويمتدح ويتملق أيضاً خصمي المعتدي عليّ والذي كان رضا الشبيبي نفسه من الموقعين بقلمه على سحب جنسيته وطرده من العراق عام ١٩٤١ أي بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني وانتهائها.

قلت عبثاً ولكن بوسعي ان استدرك وقد رجعت إلى تاريخ كتابة «الشيخ» لهذه المقدمة البائسة فاذا بي اجدها في اوائل عام ١٩٥٧ وهو العام الذي كنت فيه شبه منفي عن العراق. هذا ما أردت به اضافة وجه آخر من وجوه الأشخاص ومواقفهم.

وأعود لأيام الانقلاب: فقد أضيف مقالي (جاسوس خطير) إلى وثائق صالح جبر، واقول إلى وثائق صالح جبر، لأن هذا الرجل، وكان في حينه وزيراً فعالاً وقوياً ما ينفك يتعرض، في جريدتي، إلى رسائل صحفية تمسه

شخصياً، وكان كاتب هذه الرسائل هو (محمد علي البلاغي) الذي اصطنع من نفسه مراسلاً لـ (الانقلاب) وكانت بغية هذا (البلاغي) التشفي من الوزير، بسبب حرمانه من وظيفة لا يستحقها اصلاً. وكانت رسائله المتتالية تدخل من مدخل كاذب، مدعية ان صالح جبر، حينما كان متصرفاً لكربلاء، خرب اللواء ودمره، والحقيقة التي ادين بها حتى في معرض الخصومة ان (جبر) قد هدمها لأعادة تعميرها. ومن غفلتي انني لم أكن فاطناً، بما يفترض ان يفطن عليه أي صحفي مبتدىء ان ماكان يرسله هذا (البلاغي) كان خلواً من أي اسم أو توقيع كما يقتضي العرف الصحفي.



صالح جبر

ثم جاءت ـ وللحديث شجون ـ وثيقة أخرى هي ما كان من أمر صديق مزامل لي في النجف، أعني به (صالح شمسة)، الذي كتب اليّ مايصح ان يكون خبراً خطيراً، اذ افادني انه رأى بأم عينيه، في بلدة الشامية، وهي بلدة على ضفاف الفرات، وقريبة من النجف، بعض المندسين من رجال المخابرات البريطانية بين عشائر الفرات وشيوخها.

ونشرت الخبر بعنوان بارز وفي صباح اليوم التالي، وبعد ذلك الصباح الذي اطار بـ (امين الريحاني) بأيام قلائل، كان حكمت سليمان رئيس الوزراء يستدعيني ليتظاهر اولاً وهو يصفق بيديه ـ وبالحرف الواحد ـ «انني ياجواهري، كنت أراك قبل اليوم وأقول لنفسي ماذا عساني اقدر ان اتقدم لك بما يجب عليّ»، ثم ليستدرجني بعد هذه المقدمة الخداعة إلى السؤال عن

مدى صحة هذا الخبر المنشور، فأجبته انه صحيح وموثق إلى أبعد مدى.

قال لي: «وكيف؟»

فرددت عليه «انه برسالة مؤتمنة من صديق امين موثق»

قال: «أهي عندك؟ واستميحك العذر عن هذا الطلب لأن السفارة البريطانية قد احتجت على ذلك».

قلت له: «أجل هي عندي ـ وكنت بمجرد معرفتي بهذا اللقاء معه قد حملت الرسالة معي ـ سأطلعك عليها بشرط واحد هو من واجبات كل صحفي يحترم نفسه، ان لا يشي بأسم مراسل له من هذا القبيل» واخرجت الرسالة طاوياً اسم مرسلها واريته إياها وأنا ممسك بها بيدي. ويشاء القدر ـ كما سيجيء الحديث ـ ان أكتب مقالاً كانت الكلمة المؤثرة فيه لدى كل القراء هي «لقد عرفت بعد لماذا صفق حكمت بيديه لكي يقوم بواجبه تجاهي» كان ذلك كله أكثر من كاف ليزج بي في غياهب سجن أمض وأشد من سجن (يوسف). ولكن نفسي الامّارة راحت تمعن في تحدي الحاكمين، مرجعة صدى آلام الناس وجراحهم المنكوئة وكان اخر المطاف في ذلك مقال افتتاحي دوّى هو بحد ذاته دوي القصيدة بعنوان (ماذا بعد ستة شهور؟!) ودخلت السجن بعده ولأول مرة في حياتي وآخرها واليكم القصة:



حكمت سليمان

كنت ازور صديقي «حسين جميل» في مقر وظيفته «مديرية الدعاية العامة» وكان فنجان القهوة أمامي عندما دخل شاب بلباسه المدني ليطلب

مني الذهاب معه، وكانت التفاتة «قانونية»، ان صح التعبير من جميل (وهو جدير بها لانه من رجال القانون المعروفين) وذلك عندما سأله «هل عندك أمر»، فأبرز الرجل هويته وكانت جواباً كافياً. فذهب معه ليتسلم أمر التوقيف، ودخلت ساحة الموقف وبالرغم من كل الاجواء التي اشرت اليها، والتي تصح ان تكون كل واحدة منها سبباً للتوقيف، فقد كنت حائراً في تشخيص أية واحدة منها.



الجواهري في المعتقل

صاحب الانقلاب.. في سجن الانقلاب

والغريب انني كنت على حق في حيرتي هذه، فلربما يُدهش القارىء ان يكون السبب أكثر من واحد من كل تلك المواقف، ويرجع ذلك إلى كون المسؤولين عن هذا «الانقلاب» لم يريدوا وأنا صاحب الجريدة المسماة باسمه، ان يواجهوا الناس بأية واحدة من تلك المسببات. فلا (صالح جبر) يحب لنفسه، وهو وزير العدل حينئذ، ان يكشف عن نفسه، ولا (حكمت سليمان) بالذات يريد ان يبدو وكأنه المنتقم مني أيضاً بسبب ما كان من مقال «جاسوس مخيف»، والذي اطار بالكاتب المأجور من قبله لتغطية «انقلابه»،

ولا بما كان من احتجاج السفارة البريطانية على الخبر المنشور، الذي اشرت اليه، ولا بقصيدتي المدوية «تحرك اللحد» التي كانت، إلى جانب حسن مطلعها في توقع الخير من هذا الانقلاب، تتوقع مصيره، وتسخر من رموزه.

لقد كانت كل هذه غير واردة عندي في اتهامي إلاّ عندما طفح السر الخفي والمصطنع للتغطية على كل تلك الاسباب المحيرة فاذا به مجرد تهمة هي أقرب إلى السخرية منها إلى الواقع بل وإلى التخيل أي انها كانت مجرد ان باعة عدد ما من جريدتي كانوا ينادون باهم عناوينها المثيرة وذلك ما لا يجيزه قانون الصحافة المشرع من عهد الاحتلال.

وعلى أية حال كنت وكانت التهمة وكان القانون، فلقد/تلقيت أول ضربة من ضربات القدر الساحقة والمتلاحقة وكانها كلها متحالفة ان لا تنفك الحبة منها عن الأخرى.

ففي ساحة التوقيف، وفي ساعة لا انساها ما عشت وأنا اتصفح جريدة (الزمان) اراني وجهاً لوجه أمام قطعة صغيرة مجللة بالسواد تقول، ان حبيبتي المدللة، الجميلة لحد الروعة، رامونة، بنت التاسعة من عمرها قد ماتت.

ولم تبيض عيناي من الحزن كما فعل النبي يعقوب، وانما اختلط بياضهما بالسواد لما احتقنا به من دم، وبمثل ذلك ما كان من امري وامر عينيّ بعد سنتين وأنا تجاه مثل هذه القطعة الصغيرة وبما أطرت به من سواد.

وجاء الموقوفون يعزونني، وصمتُ صابراً وشبح (رامونة) أمامي. لقد كان آخر لقائي بها قبل اسبوع، أو أقل، وهي تشخص أمامي بقامتها المديدة لتستدعيني وكأنها الشفيعة الوحيدة (لزعلة كانت مني)، إلى الغداء، متى مرضت؟ ماذا كان المرض؟ كيف ان العصفورة التي اصبحت وهي ترقص، وأضحت وهي في غرغرة الموت كيف ماتت بهذه السرعة؟ اسئلة يجيب عليها لا القدر وحده بل والسفارة الالمانية النازية وسفيرها الرهيب «غروب». وما هذا الذي اقوله إلا سراً من الاسرار اكتشفته بعد فوات الاوان. مما يحز في دمي ونفسي بل وفي القارىء نفسه ودمه ان أسرد ـ قصة السر ـ وعلى أية حال فقد اخذت النازية ثأرها مني ومن جريدة (الانقلاب) برامونة الساحرة وبلطيفة اختها بعد ذلك بشهرين أو ثلاثة، لطيفة الراقصة بنت العام الأول، وللقدر

نفسه وهو سر من الاسرار ان يقول كلمة الفصل فيما كان من فجيعة الملاك الذاهب بعدهما وأنا غائب عنها أيضاً . .

كل ما ادريه ـ يارامونة ـ انك كنت لآخر نفس من انفاسك ، تستدعينني ـ بابا ـ و ـ بابا ـ بعيد عنك ، وانك لحظة كفّ فيك القلب عن الوجيب ، راحت امك ، هلعة ، مذهولة ، إلى الشارع ، وقد شقت جيوبها ، لتسمع كل من حولها : ماذا سأقول لابيك يارامونة؟ ! .

وفي ساحة هذا التوقيف ، شاءت المصادفات ان التقي بالشيخ المتعبد ، المترهب ، المؤمن ـ والقاتل أيضاً ـ (محمد تقي) ، هذا الشيخ المتصوف ، الزاهد ، المهيب ، ارتكب جريمة قتل ، ذبح فتى من الفتيان يضرب به المثل في جماله وعزة مكانته ذبحه من الوريد إلى الوريد بسكين ، ويقال بساطور.

ولم تكن الضحية الكريمة هذه غير (السيد حسن) المكنى به الامام (ابو الحسن) .

كان هذا المتعبد ، القاتل ، أول المصلين خلف السيد (ابي الحسن) بل في الصف الأول من المؤتمنين ، وإلى جانبه (حسن) أعز من عند الامام ، ليصلي معه . واذا بالشيخ الراهب ، يستل السكين فيذبحه . وقامت قيامة النجف وما يمتد بها من انحاء الفرات ، لهذا الحدث الجلل ، لينتظر الجميع ساعة اعدامه وساحته.

فما كان من أمر السيد العظيم أبي الحسن إلا ان يطلب العفو عن القاتل ، بل ان الجاني لم يكمل سنوات السجن المؤقتة وذلك بأمر المفجوع بولده نفسه ، والغريب ، ان الامام ابا الحسن القى بنفسه عليه وما يزال الساطور بيديه ، ليقيه من محاولة المصلين قتله ، قبل ان تقدم الشرطة لتقبض عليه .

قلت ، ومن يصدق هذا ، ولكنه كان أكثر من مصدق ومبرر ، اذ يجمع المجمعون .

وقد كان هذا القاتل المتعبد في الصميم من شهر رمضان من عام ١٩٣٦ ، يعوزه الفطور وهو في صميم القيظ ، وهنا في الحقيقة يكون

الشيء الذي لا يصدق، أي أن يكون هذا الشيخ في الصميم من المقربين إلى الامـام نفسـه، غير قادر على ذلك وان بشيء من (الرقي) الرخيص أو لقمة من الخبز وسمعت هاتين الكلمتين من فم الشيخ المتعبد وفي الموقف الذي ضمني واياه، ومع هذا فان الحل لهذه العقدة كامن فيما جئت عليه قبل كل احد وقبل ما يقارب العشر سنوات في قصيدتي (الرجعيون) عندما قلت وأنا بصدد المنافقين والمرتزقين باسم الدين والذين يحجبون ما بين من يتفردون بالامامة والمؤتمين، وبين الواقع المر الذي يحيط بأمثال هذا الشيخ الجليل والقاتل أيضاً، لقد قلت في هذه القصيدة ما فيه الكفاية والغنى عن اعادتها.

وانتهى حديث القـاتل المتعبد والقتيل الشهيد لأعود إلى محنتي أنا بالذات، فقد استدعيت إلى ما يسمى بالتحقيق أمام ضابط الشرطة الشهير بقسوته لكل الشباب المطاردين في بغداد والملقب بـ (محي الاعـور). وهنا اجدني تجاه مفارقة من بين كل المفارقات التي يضج لا العراق وحده بها، بل وكل المنطقة العربية.

ذلك ان محيي الاعور هذا، كان مثالاً للطف والتسامح والدماثة في تعـامله معي، فعلى كوب من الشـاي وعلى منفضـة للسجائر أراد ان يبدأ التحقيق وأنا في مثل ذلك الجو الحزين الغضوب الذي تحدثت عنه فقلت له: «ياسيد محيي، لا تتعب نفسك، فلن اجيبك على كلمة واحدة» وعبثاً حاول الرجل اقناعي بأن هذا شيء منطقي ومألوف، قلت له: «اعرف ذلك كله ولن اجيبك» لقد كانت لقطة مفاجئة لم اتوقعها، بل وانني لم أكن شاكاً ابداً في ان لضابط الشرطة هذا يداً فيما كان من أمر توقيفي، ومع ذلك فقد قال لي وبالحرف الواحد: «آراني وكأنك شاك في أمري، أنا بالذات، سأجيء اليك بكل الملف الذي يتعلق بك وأنا المؤتمن القدير على حفظه وعدم الكشف عن امره لكي ترى ما ترى فيه من كل مقدمات قضيتك وكل خلفياتها» وهنا، وربما كنت نادماً على ذلك، شخصت أمامي صورة من صور الترفع ومقابلة التلطف بمثله، قلت له:

«اصـدقـك يافلان، وأنا بدوري لا أريد ولا احب ان تتجاوز حدود وظيفتك، ولن احملك هذه التبعة، ولكنني ومع هذا كله فلن اجيبك»

ووجدته يتناهب السلم الصاعد بسرعة ليجيء برجل بريطاني طويل القامة وبيده سماعة تدل أو يستدل بها على كونه طبيباً، وطبيب لمن؟ ولماذا؟ هذا ما اجهله، وما قد لا يجهله الآخرون وتظاهر هذا بأنه يفحصني، ثم ليصطنع عذراً بأن هناك في حالتي النفسية ما يمنع من اجراء التحقيق.

وعدت إلى ساحة التوقيف حيث اتممت في الموقف شهراً كاملاً وخلاله كانت هناك ضجة، طلعت بها الصحف، في احدى جلسات «المجلس النيابي» تراشق فيها، ثلة من الديمقراطيين الذين تقدموا إلى المجلس باحتجاج وتساؤل عن السبب في توقيفي، تراشقوا، الشتائم والسباب مع الأكثرية من اتباع حكمت سليمان وبكر صدقي. واختتم حكمت سليمان هذه الجلسة بكلمة (حكيمة!) عني مفادها: انني كنت مشاغباً لا أكثر ولا أقل.

هذه صورة مفارقة من صور ضياع المقاييس لدى «حكمت» ومن على شاكلته من الحاكمين قبل المحكومين، ثم استدعيت في اليوم الأخير من ذلك الشهر إلى المحاكمة، وكان يوماً مشهوداً - وعلى الأقل فلي ولمن معي - كانت المحكمة غاصة بالناس وكان المتطوعون للدفاع والمحاماة عني - كما اتذكر أكثر من ثلاثين محامياً - وهذه عادة كريمة مألوفة، وفي مثل هذه المواقف، اذ كانت تعد لمثل هذه المحاكمات السياسية المشرفة قائمة، يكتفي فيها هذا المحامي أو ذاك بمجرد ان يرد اسمه بين الاسماء الأخرى ثم ان ينفرد عنهم من ينتخبونه ثلاثة أو أربعة على سبيل المثال من اقدر من فيهم وأكثرهم شهرة، وكان المحاميان الشهيران حسين جميل وقاسم العلوي في جملة الثلاثة أو الأربعة من المحامين عني، وكان الحاكم عبد العزيز الخياط الملقب بالاعرج «هذه المرة» - وأنا أكره حتى لخصومي التلقيب بالعاهات - وما أشبه الليلة بالبارحة! فقد كان (الخياط) نفسه في القسوة والشدة وفي اتهامه بحق أو بباطل بتلقي الأوامر، نموذجاً ثانياً لضابط الشرطة (محي) وكان معي بنفس المفارقة التي كانت من قبل مع (محي) فقد أراد كما يبدو، نزولاً على رغبة المتدخلين في أمري، بل وفي أمر الجو الذي احاط بقضية توقيفي، وربما للفاجعة الاليمة التي فجعت بها، وأنا في

التوقيف، لقد أراد كما قلت ان يجعل الحكم عليّ بشهر واحد مبرراً لخروجي من التوقيف إلى البيت كما يقضي العرف القانوني، في ان تحسب مدة التوقيف لصالح المتهم، وكان هذا بحد ذاته كافياً لأن يتقبله شاكراً ممتناً رجل آخر في غير موقفي هذا وفي غير الحالة التي كنت عليها، ولكن الأمر مني كان على عكس ذلك. فقبل كل شيء وعلى الرغم من انني كنت وما أزال احمل نفسي واعصابي والفطرة التي فطرت عليها، تبعة ان اسجن نفسي بنفسي، ففي الحقيقة كان هناك من الملمين بحقائق الامور وممن يقدرون الفروق بين هذا الموقف أو ذاك، من يدافع عني وعما اتيت، وربما كان لصديقي المحامي عني «قاسم العلوي»، وعن طريق التحبب يد في اثارتي وهياجي اذ قال وهو إلى جانبي وقبيل صدور الحكم بدقائق، من اننا سنذهب سوية إلى المشرب الفلاني - وربما كانت هذه هفوة منه - فقد فهمت من هذه الاشارة انني سأخرج بريئاً.

ولكنني فوجئت بالحكم عليّ، وبسبب كان بحد ذاته كافياً، بل ومفاجئاً لي ولمن معي، هو ان جريمتي هي ما اشرت اليه من هتاف باعة الجرائد لا غيرها، فلم اجدني وقد نطق «الخياط» بالحكم، إلا ان سخرت منه ومن الحكم ومن المحكمة، واعيد القول، كيف كان ذلك. وأرد على السؤال: بما مررت عليه من حال. وذهل الناس وذهل المحامون عني، قبل ان يذهل الحاكم نفسه وان يشهد عليّ الشهود، وعدت إلى الموقف من جديد في اليوم الذي كان يعد من بقي مني ومعي في البيت، وليمة فرح بخروجي.

وظللت اياماً عديدة ريثما استدعيت إلى المحكمة من جديد، وإلى حاكم جديد، وإلى تهمة جديدة، هذه المرة أمام الحاكم، «علاء النائب» أي من عائلة النائب المعروفة في منطقة ديالى ومن هذه العائلة كان العورة عليها توفيق النائب وزير الداخلية أيام الوثبة وقاتل الشهيد جعفر. وان على يد من رماه بأمره، وفي الهنيهة الأولى من وقفتي هذه وجدتني اتفجر لأول مرة في حياتي، وفي هذه المرحلة منها بالدموع الغزيرة التي يبدو انها كانت تدخر نفسها لمثل هذا الموقف الجديد، لهذه البدلة، بدلة السجين

العادي . ولا اطيل عن هذه الوقفة بأكثر مما كان عن سؤال موجز، من جواب عليه أقل ايجازاً:

ـ «أأنت شتمت الحاكم والمحكمة؟»

ـ «أجل وأنا آسف»، واعيد القول فبدموع، ثم الكلمة الحاسمة بالحكم لمدة شهرين جديدين، عدت بعدهما ومن جديد أيضاً إلى السجن هذه المرة، وكان بسبب من تدخل المتعاطفين معي من شخصيات لها كلمتها، أن يبدلوا المكان لا الزمان، أي ان انتقل من السجن إلى المستشفى الملكي (المستشفى الحكومي الكبير) لاقضي ما تبقى اليّ من مدة الحكم بحجة عدم وجود طبيب مختص بما اصطنع لي اصطناعاً من مرض الاسنان.

وإلى هنا وأنا انهي هذه المرحلة لا يفوتني ان افاجيء القاريء بما فاجأته به من قبل هذا من امر المؤتمنين على اسرار خطيرة تقرر المصائر الحاسمة، فقد بات مصطفى علي ليلة انقلاب بكر صدقي وعنده سر هذا الانقلاب، صبيحة اليوم الثاني، ولو شاء «وحاشاه» ان يودعه لياسين الهاشمي، في الليلة نفسها، لكان ما يتوقعه القراء من مصير لبكر صدقي وحكمت سليمان وعلى الجانب المعاكس فلمصير مصطفى علي نفسه في كل ما يفترض لمن ينقذ الهاشمي ولمن يطيح بخصومه.

أما في صبيحة اليوم التالي لانتقالي إلى المستشفى فكان الرجل الذي يمتلك في صميم قرارة نفسه المصير الاخير لبكر صدقي، وعلي جواد قائد القوة الجوية، من مقتل ومصرع ولحكمت سليمان من مهانة، فقد كان هو «رزوق غنام» صاحب جريدة (العراق) وصديقي القديم، وقد جاء لزيارتي ليقول لي «لن يطول عليك الوقت يا «جواهري» حتى ترى مصرع من أراد لك هذا الموقف».

قلت له: «كيف ياابا صبيح؟»

قال: «اجل هذا ما أودعه اليك أنت وحدك المؤتمن، سيقتل بكر صدقي وبتدبير من نوري السعيد ـ وقد اشرت إلى ما بين نوري السعيد ورزوق غنام من علاقة وطيدة ـ بينما أنت ما تزال هنا أو بعد عودتك إلى البيت بقليل.

قلت له: كيف يا ابا صبيح؟

قال: «اجـل، سيقتـل بكـر صدقي، وهـو في طريقه إلى تركيا عما قريب، ان لم يكن في الموصل ففي مكان آخر، سماه ونسيته» وكان الأمر كما قال، وكما اسر به إليّ.

ففي ظهيرة اليوم الثاني من رجوعي إلى البيت، وقد اطلق سراحي بعد انتهاء مدة الحكم، سمعت المذياع يعلن مقتل بكر صدقي وقائد القوة الجوية معه، في الموصل وهما في طريقهما إلى تركيا، كما قال رزوق غنام.

يقول الريحاني في تقريره لعبد العزيز آل سعود[1] بهدف تزكية حسين العويني :

«ان للصديق حسين العويني التاجر السوري علاقات تجارية في مكة وجدة وهو يحمل لكم **بعض خبرتي ومعلوماتي** وانني أثق بحسين أفندي كل الثقة **وفي المعلومات اليسيرة التي سينوب عني بها ما يغني عن البيان** فابعثوا بمن يلاقيه دائماً في منتصف الطريق ـ بين مكة وجدة ـ محافظة عليه» ! ! . .

وعن دوره الرئيسي في تثبيط عزم الملك علي عن مقاومة ابن سعود وبذر الشكوك لديه، أي لدى الملك علي، في أقرب المخلصين اليه، يقول الريحاني في تقريره المرسل إلى عبد العزيز مع حسين العويني، عن الطائرة الهاشمية التي ضربت القوات السعودية في ضواحي مكة[2] :

(الطيارة الهاشمية : التي اشرفت على مكة للاستكشاف يوم السبت الماضي تجاوزت الاوامر وعوقب طيارها بالحبس. . . **وكنا السبب في حبسه**. الحكومة والجند اصبحا في قلق وارتياب مما شاع هذا المساء بخصوص تقدمكم إلى جدة **ولقد جعلتهم يأبون التربص، والامتناع عن الحركات العسكرية الحربية وتمكنت من توقيفهم يومين آخرين** إلى مساء الاحد، فأرجوكم أن تخابروني حالما يصل كتابي هذا ليصلني جوابكم مساء الأحد. . . **لكسب ثقتهم لصالحكم**! واذا كان النّجاب لا يرجع في اليوم الثاني أرسلوا الجواب مع نجاب آخر من عندكم في كل حال انتظر جوابكم مساء الأحد في **٩** الجاري **فلا تخيبوا أملي**). . . . .

---

(١) راجع «صقر الجزيرة» ـ رغيب العطار، ص (٤٨٤).

(٢) نفس المصدر السابق، ص (٥٨٧، ٥٨٨).

الفصل الخامس

عاشوراء في القلب

«كفي يديك يامناهل»! قلتها في حالة هي ما بين ثورة الغضب وسعير الفجيعة، وبطبيعة المفجوع وهواجسه.

وكفت يداها عن العبث ببدلات رامونة الجميلة التي رحلت، وأنا مغيّب وراء القضبان، ومع انها كفت فقد انزلت حذاءها الصغير، مما يوشك ان يختلط بحذاء امها نفسها، الصغير والجميل مثله.

كفّ الملاك يديه، واخذت برأسه، واخذ الملاك برأسي، وغدا الصمت المطبق وسيطاً، أكثر بلاغة من الكلام.

كانت قد افرغت كل ما في عينيها من دموع، أيام كانت تودع رامونة، محمولة على ايدي الجيران وايدي من كان، إلى جانب هذا البيت ـ المقبرة، من العاملين في مطبعة وجريدة (الرأي العام) الملاصقة له. وكنت أنا بدوري قبل هذا اللقاء، بأشياء رامونة، قد تفجرت عيناي بدموعٍ كانت وكأنها «سيلٌ سد في وجه مجرى».

أكان قصداً ما قلت؟ أكان توجساً بما سيأتي؟ أكان رهافة تبلغ حد الاساطير في ان لا امسّ بعد اليوم مخلفات أي عزيز عليّ، وان لا أرى بعيني اسلابه؟.

لم امدد يدي ولم اسّرح عينيّ اتجاه البدلات الصغيرة الملونة للعصفورة المغردة لطيفة . . ولا إلى بدلة الشهيد جعفر المخضبة بالدماء.

لقد حجبت عيني بيدي عن ان اراها، أما مناهل فقد فتحت عينيها على طيف (ميدوزا).

لا أؤمن بالخـرافات، ولكن أؤمن بمغيبات، اتلمسها بما يشبه الحدس أو مثيله. . للموت فسحات، يطيلها أو يقصرها بين الذاهب اليه واللاحق به. .

وكـان حدسي بذلـك رهيفـاً، كنت قد اودعت كل شغفي وهيامي (برامونة)، عند ابنتي الأخرى (لطيفة)، عند العصفور الغريد المهلك، في عامه الأول، ساحراً، راقصاً، ضاحكاً، زغيباً، يريد ان يطير قبل اوانه.

بعد شهرين، أو أكثر من عودتي من السجن إلى البيت (المقبْرة)، بت ليلتي، واصبحت صباحها، على زقزقة هذا العصفور، ولم اسمع ان شيئاً قد عراها وهي في ثوبها الوردي.

واذا بي، وفيما بعد ظهيرة اليوم نفسه، اراها على سطيحة الدار، وقد استحال التغريد إلى غرغرة! لماذا؟ بعد ذلك ادركت ان امها قد اصعدتها إلى السـطح لتلتقط انفـاسـاً اخيرة في الهواء الطلق. وصعدت، وبرغم صدى الغرغرة، غرغرة الموت، التي كانت وكانها تعني حشرجة العصفور الجميل، فلم اصدق صداه، لانها هي نفسها، بوجهها المتورد، براحة انفاسها، ولكن هذه المرة فيما يشبه ثوب العرس الجديد الذي حاكته لها امها.

اثوب عرس، أم كفن؟

صحت على من معي، وهو شاب مسيحي كان محاسباً في الجريدة، واميناً لها، «اهناك ما يبشر؟، اهناك أمل!؟ لماذا هذه الغرغرة، أهي غرغرة موت؟!» وشاهد الرجل شكوكي الهلعة، فتسمّع انفاسها، والقى بكل سمعه إلى حيث يجب القلب. . وقال:

«لا. . . انها ذاهبة»

وأقسم بكل ما في قواميس اللغة من ايمان مغلظة انني دهشت لوجودها على سطح الدار بثوبها الوردي الذي يتمازج مع خدها الوردي أيضاً حتى ليصح القول انني تخيلته لمجرد الترويح عنها في الهواء الطلق. ومع هذا فقد كان ما لم أصدق.

وخرج النعش الثاني إلى القبر الثاني، ولم ادر على وجه اليقين، إلا بعـد ذلك بشهرين، ان هذه المقبرة قد زرعت الموت في عزيزين ليكملا الاربعة من سبعة، زرعت الموت في جسد الملاك ومن سيحمله معه إلى

القبـــر من جديد. . اردت بيتـــاً بديلاً عن تلك المقبـــرة، مسلياً للمـلاك المفجوع، مناهل، منتقلاً بها من بيت الاموات هذا إلى بيت جميل بحق، بريء بحق، لا يمت إلى القبر بشيء من قسماته وفسحاته.

ولكن على المنعطف كان هو ينتظر نعشاً، يحمل هذه المرة حبيبين في شخص واحد، تتذكرين، انني حاولت وفيما بين البيت والبيت ان اخفف من احـزانـك وعذاباتك بآخر ما أستطيع، وهو ان نتسلى معاً بأصطياف جديد عليك، وغير جديد عليّ، فيما بين ربوع سوريا ولبنان، والذي شئت أنت والقـدر ألا يدور عليه العـام الـواحـد. وتجولنا وتسلينا وصعدنا الجبل بعد الجبل، والسهل بعد السهل، والمصيف بعد المصيف، وشاغور حمانا وأنت والثلاثة الباقون معنا ـ من الخمسة ـ وقصيدتي في هذا (الشاغور) وأنا ادمدم بها وأنت إلى جانبي، صفحة لا تمحى من سجل ذكرياتنا الاخيرة.

ايه يامنـاهـل. . مازلت عنـد قسمي وعهدي. . يوم قلت لك «كفي يديك». أوتذكرين، في ساعة رامونة، بقينا رهيني صمت ابلغ وافجع من كل آهة أو دمعة أو نحيب أو بكاء.

اجل انني مازلت عند قسمي، فلم المس أثراً مما خلف الآخرون وهم كثيرون، أما أنت ياحبيبتي، فلم تبرّي فيما بعد، فيما تعاهدنا عليه (اقول ذلك وأنا راج عفوك) من انك ستكونين معفوة، بعد عمر مديد من ان تلمسي أو تبعثري اسلابي. اقول لك ـ ايها الملاك ويا أيتها الروح التي اعيشها ـ وقد تجاوزت بك الحياة ومداراتها العمر، والزمن، حتى لكأنك تبدين لفرط ما عانيت، أكبر مني سناً، أكثر مني تعباً، وأشد نسياناً.

ها أنت ذي معي شاخصـة، ماثلة، عائشـة وقد بلغت ما بلغت من العمر، وبفارق عشر سنين كان وما يزال بيننا.

أرى وجهك كما كان في عز فتوته، وأرى بسمتك لحظة تشرق، وأنت معي كل يوم وليلة، ففي كل بيت وبلد، في كل غرفة، في مدارج حياتي، في يقظتي، في منامي، في اطيافي في احلامي.

يامنـاهـل، الروح تهزأ بأنياب الدهر، بمخالبه، بأشداقه. . . وأنت تهزئين بها، تشقين الصمت، تمسكين بروحي التائهة، الشرود، فأعود معك

إلى ثلاث سنوات من العشرينات، ونؤوب معاً إلى ثمانٍ من الثلاثينات، نسترجع ما كان وما يبقى. انك معي الآن، وأنا اسجل ما اسجل، طائفة حولي، تسمعين ما تهمس به خواطر القلب.

انك ما تزالين تدقين وتدقين عليّ النافذة وأنا في غمرة ليلتي هذه في الواحدة من صباحها، الواحد والعشرين والشهر الثاني من عام ١٩٨٨.

وها أنت الآن تدقين النافذة، تدخلين، تتوقفين، تتأملين ما سيكون مني وأنا اكتب، بمثل ما سبق لك ان قمت بذلك وفي ليلة لا يصل فيها إلى السمع حتى همس نسيم ولا رفيف شجر عندما كنت وأنا على وشك ان انقل إلى المستشفى لعارض مفاجيء أصاب قدميّ ببغداد وفي غرفة نومي من دارنا بمحلة - القادسية - وبمثل ما سبق لك من ذلك وقبل اعوام قليلة وأنا في دمشق وفي ليلة ليلاء عشت صباحها وقد اوشك بصري ان يذهب، وليلة أخرى يامناهل وأنا في براغ وعلى حال مفزع من الألم والقلق تدخلين، تتأملين ما اكتب اليك وعنْك، وتعلمين علم يقين راسخ، ان قلمي سيمضي في وصف خصالك وفضائلك، ومكارمك ولطفك وصبرك وان هذا الوجيب الذي يملأ ملكوت الروح سيتوج ذكرياتي، لاقول بعض ما لا استطيع الفكاك عنه ولا يستطيع الفكاك عني.

ونعود معاً، ياحبيبتي، إلى يوم العرس، أتذكرين.. يوم خرقتِ كل تقاليد الاعراس المألوفة، كيف قمت عصر اليوم الأول من عرسك، مخضبة بالهناءة والحناء، لتعدي الشاي والقهوة لي ولمن معي.

صاحت بك عمتي (سعودة) في احتجاج حريص:

«أفي ثياب العرس يامناهل؟»

لم تجيبيها بكلمة، فصدى الصحون كان يغطي على هتافها. واختلطت حناؤك بالقهوة، وأنت جذلى.

وليلة ثانية من تاريخك، وأنا إلى جانبك، كيف احسستِ بما كان يدور فيّ من قلق، في تلك النومة التي تصارع السهاد، قلت لي، كعارف خبر البواطن «انفض عنك القلق في مثل هذه الساعة من منتصف الليل من لياليك التي تعودت ان تسهرها حتى الصباح».

والتمستني ان انتظرك دقيقة، قمت من فراشك، وجئتني بما تعودت ان تدخريه لوقت الحاجة من مال، جئتني بليرة عثمانية، جبلت مثلك، من ذهب خالص، قبلتك وأنا أقول لك سأعود بأسرع ما استطيع، واجبتني: وماذا عليّ ياحبيبي، اذهب وارجع متى شئت، حتى الصباح.

وعدت قبل الصباح، فوجدتك نائمة نوم الحمائم، تحت ظلال الشجر، كنت هانئة لانك اتحت لي ليلة هانئة.

واذكر - قبل هذا كله - خصومة صغيرة - لم تعودي لمثلها - حتى خصوماتك تشي بالرقة، ألا ما اعذبه من خصام، أو تذكرين، ليلة ان اقتحمت عليّ الباب وقد مرّت على زواجنا سنتان أو ثلاث، وكنت في ما يشبه السهرة مع اترابي في القسم الاعلى من بيتنا في النجف.

لقد ازعجك ما كان من غناء أو شبه ضجة، ولأقل ولا اتحاشى ما كان من رنين الكؤوس، وصدحت ولا اقول صحت، بكلمات كانت شبه تدخل في امري. ورددت عليك بصيحة غاضبة.

وانسللت، لتجيئي اليّ في الصباح الباكر، وفي يدك القرآن الكريم ليكون شفيعاً لك. مع هذا، واسفي على هذا، وبأعتراف مني، لا بغلطتي حسب بل بغلظتي، اذ لم تجدي مني ما يوحي بقبول شفاعتك هذه.

انسللت عاجلة، مسرعة، خارج البيت، وظنت والدتي، وهي تفتش عنك، انك لابد من ان تكوني قد عدت إلى دار اهلك، الذي لا يفصلنا عنه غير حائط واحد.

لله درك، لم تذهبي اليه، ابيت ان تعرف حتى امك، أو اقرب المقربين اليك، ان هناك منك أو مني أو من هذا البيت كله، ما يستوجب الشكوى. وانصرفت والدتي إلى حيث قادها التخمين، فوجدتك داخل الحرم العلوي ورجعت بك.

اعود بك من جديد إلى بغداد، وقد طوفنا ببيوت كثيرة، إلى بيت لم يلبث طويلاً حتى بدأ يتهدم . . .

انا أسجن، ورامونة تموت، تهدم البيت قطعة، قطعة، راحت رامونة، وبعد شهرين لحقت بها البديل عنها، لطيفة.

جاء معزوك من عشيرتك ليسلوك عن رامونة، وعن البديل عنها . .

ان يدي الآن، تمتد، كما كانت في لحظتها، لتمسح على رأسك، لتخفف عنك وأنت تقولين لهم، بحشرجة من صوتك الجميل:

«دخلت بخمسة والآن وأنا بثلاثة».

في تلك الرقعة الصغيرة من مجلسك قلت لك، هوّني عليك ياحبيبتي، سننتقل من هذه المقبرة، سأعد لك بيتاً جديداً، وجئتك بعد يومين ببيت جديد عسى ان يقوم على انقاض السعادة التي ابتدأت تتهدم، كان بيتاً جميلاً، فسيحاً في مواجهة الباب الخلفية المغلقة لوزارة الدفاع، ولصق جريدة (الزمان).

وما كنت ادري بعد، ولا (المنجم يدري) ان هذا سيكون العش الاخير، وان الموت كان قد زرع بذوره خلسة، في داري، وان بداية الاسطورة قد اصبحت نهايتها.

تسمعين الآن وأنا اعيد ما قلته، بادئاً الحديث من نقطة في الدائرة، لأدور وادور واعود اليها. فالبداية هي نقطة المنتهى، والمنتهى يلتقي بما بدأ. انها دورات الحياة عليك وعليّ، منذ فراقنا حتى الآن.

تأذنين لي ان ا ذكرّك بنهاية الاسطورة وبدايتها، بنقطة البدء والمنتهى. كان ينبغي لي ان أرى ما وراء الستار المسدل. كانت البداية تشي بالنهاية، لكني كنت أرى بك وببسمتك وبأصباحك وامسائك وبمن بقي لك، من ثلاثة بعد الخمسة ما يشبه الستار المسدل على ما يحجب الشيء عن الشيء والرؤيا عن الرؤيا.

أردت بداية جديدة، وأراد القدر نهاية جديدة.

لقد كنت الشاهد الأول والأمين. وكما توحي اليّ به نفسي وهي في انظف ساعات الايمان منها ـ بل وأنت روح طاهرة تلوح حولي ـ انك حتى الآن شاهدة عدل على ما بعدها، حتى يومي هذا.

اخبرتني، بما يمتزج به الفرح والقلق من ان هناك ما يكون من أمر كثير وكثير من النساء الحوامل. وتشهدين كيف اسرعت إلى اشهر طبيبة بمثل

هذه الأمور، جاءت اليك في اليوم نفسه، تلمستك تفقدتك بعناية دقيقة، وقالت بكل ثقة واطمئنان ان لا شيء يستوجب القلق . .

وتشاء اقدار غامضة ان استدعى على عجل. اقول اقدار غامضة وأنا واع لرنين هاتين المفردتين، مدرك ان هناك مغيبات، مصادفات، حظوظاً واقداراً، شاء من لا يؤمن بها أو أبى . . .

لماذا استدعاني نوري السعيد؟ ولشيء جديد لم يمر على بالي قط. لقد استدعيت مراراً لهذا الأمر من الجريدة أو بتلك المقالة، أو بهذا الاحتجاج. ولكن لماذا يستدعيني هذه المرّة لأن أكون ضمن وفد مهيأ للسفر إلى القاهرة، رداً على زيارة سابقة لوفد مصري معه شاعر مصري هو (علي الجارم).

لا أروي ذلك اعادة لما غاب عنك من أمر سفرتي، لانني عالم انك مازلت شريكة حتى في ما غاب عنك منها. .

لا كان ذلك اليوم، يامناهل، ولا كان نوري السعيد، بل وعساني لم أكن أنا بالذات، وسواء أكان ما أردت ان لا يكون أم لم يكن منذ فوجئت بنبأ هذه السفرة، التي كنت خالي الذهن عنها وزاهداً فيها.

وكأنني اقرأ بعض الغيب، ان لا افارقك ونحن بعد لم نمض فترة مبتغاة في تلك الدار الجديدة الفسيحة التي ظننا اننا لجأنا اليها من مقبرة، دون ان نعرف انها ستكون جزءاً منها.

حسبتني عبقرياً وأنا ابتكر باتفاق معك، بما لم احسب له حساباً في انه سيكون امر نصيب أو أمر أسطورة.

اتفقنا على الحيلة المبتكرة للتملص من ذلك التكليف المنغص، بعد ان قطعت عهداً لنوري السعيد، وان كان لا يصح ان يكون، ما اتفقنا عليه، مكراً عابراً، على مثل نوري السعيد ومكره . .

كان في الاقل نصف تبرير لهذا التملص ان افارقك، لاكون بلبنان وفي بيروت بالذات وكأنني في طريقي إلى القاهرة للالتحاق بالوفد، وريثما اصلها، وبعدها بأيام، ترسل اليّ منكم برقية لاسترجاعي إلى بغداد وبحادث مفاجيء خطير، هو فحوى الحيلة المبتكرة، وبذا أعفى من المهمة الثقيلة،

وقلت لك ابرقي لي يامناهل ولنتفق على الحرف الواحد:
إنَّ (وقد بدأ عليّ التشديد في إنّ) والدتي في خطر.
لقد اسرعت بما فيك من نبل وشهامة، في تدارك هذا الاسم بالذات، لشدة ما ادركت من أمر حبي العنيف لوالدتي، فقلت لي:
«لماذا والدتك؟ ابعث لك برقية عني»
تتذكرين ما اتفقنا عليه من الحروف «بيروت - عمر الطيبي، نقيب الصحفيين، فمحمد مهدي الجواهري - ان والدتي في خطر - فرات»
وتعرفين، كل المعرفة ما اخبرتك به من مراجعتي صديقي الدكتور (محمد حسن) رئيس صحة وزارة المعارف آنذاك، ورجائي منه ان يكون البديل عني فترة غيابي هذه، في تفقد ما عسى ان تتمخضي به أو ان تشتكي منه.
وصلت بيروت وودعتك مشيعاً بقبلاتك وقبلات الاطفال، وكان (الطيبي) كأسمه، مترعاً بالطيبة، وكنا نلتقي بين يوم وآخر.
في اليوم الخامس سلمني البرقية، بحروفها وكلماتها، بما لا يختلف حرفاً واحداً:
«ان والدتي في خطر - فرات».
دسستها في جيبي، وبفرح عارم من اتمام الحجة ومن قرب العودة، شيء مألوف اتفقنا عليه، بنصه، ولثلاثة أيام والبرقية في جيبي. والسيد الطيبي، يقيم لي مأدبة غداء في فندق شهير ومعي وجوه بارزة من شخصيات بيروت.
لقد سبق لي قبل ان يحين موعد الغداء ان أكون عنده، وان يقول لي هذه صحيفة أو صحيفتان من بغداد، وصلتا اليوم، ولأقول له:
«طيب، سنطالعها على البحر» حيث كان الفندق والمأدبة.
مناهل! فتحت جريدة (الزمان) قبل أية جريدة ثانية، واذا بعيني في غشاوة مما أرى.
ما هذا الاطار الأسود؟ ما هذا الاسم الذي يحمله معي واحمله مع الجريدة. كانت الصحاف ممدودة، والملاعق بأيدي المدعوين وهم

ينتظرون ان أمد يدي، واذا بهم يرون الجريدة قد سقطت من يدي، شحب وجهي ورأوا عيني، ويديّ المرتجفتين، ففزعوا لفزعي، مددت بالجريدة لهم ولا أدري لم فعلت ذلك. عهدتني جلداً صبوراً، اتماسك في هذا الموقف أو ذاك الذي لا يصلح معه التماسك لا ادري لماذا؟ لم احس بما يجب من اللياقة والصبر والجلادة، ريثما تنتهي اللقمة المقصورة الأجل وان بشكل ما.

ولكني تجاوزت كل ذلك، لأمد اليهم الجريدة وليطرقوا برؤوسهم كما اطرقت. وتصابرت ريثما انتهت الاكلة المختزلة، لأعفي الحاضرين الحزينين من مرارتي وجزعي، ولاودعهم بسرعة لاعود إلى الفندق ولابقى لوحدي، لأول مرة مع الدموع، بعد دموعي في المحكمة، لا في البيت، ولا في المقبرة، ولا يوم الاطار الاسود عن رامونة، وفي العصفورة الغريدة، ولا بعدها بيوم الشهيد جعفر، ولا بيوم والدتي، ولكن ليومك، كانت الدموع تتحدر برفق وتارة بعنف على قدح «الجعة» الجاهز امامي.

ياحبيبتي مناهل، كان هناك شريك لي عجيب، رجل من افريقيا، كما تدل عليه ملامحه، كان غريباً عن وطنه، وربما مفجوعاً مثلي، بأحبته، يقف في زاوية يكاد لا يبين منها، لولا انني حدقت به ورأيته ودموعه تنسكب برفق على خديه تجاوباً مع دموعي.

وانتهى الأمر، والبرقية صادقة، البرقية المنقولة بحروفها والمترجمة إلى الأمر الواقع معي وفي جيبي، وهي الآن امانة منك وعلى يديك الحلوتين، لدى العزيزة عليك وعلى من معي بعدك (اميرة).

لم تكن المقبرة لتطيل أمد ما بين النازل إلى حفرتها وبأربعة لا بواحد أو اثنين أنت وبما تحملينه، وبما اردته ان يكون بديلاً واحداً عن اثنين، طرت اليك بسرعة الطائر الجريح إلى مسقطه، وقلت لك: «في ذمة الله ما القى وما أجد» بعدك، وقلت لك ياحبيبتي مناهل:

في ذِمَّـةِ اللَّهِ ما ألقَى ومـا أجِـدُ ... أهــذِهِ صَخْـرةٌ أمْ هذِهِ كبِـدُ
قدْ يقتُـلُ الحُـزنُ مَنْ أحبابهُ بَعُدوا ... عنــه فكيفَ بمنْ أحبـابُـهُ فُقِـدوا

ناجيتُ قَبـرَكِ أستـوحيّ غياهِبَـهُ   عنْ حالِ ضَيفٍ عليه مُعجَلا يفِد
ايّامَ إنْ ضاقَ صَدري أستريحُ إلى   صَدرٍ هو الـدهـرُ ما وفى ومـا يَعِد

اتصدقين، انني مررت بالحور والافراح تملؤه من ذكرى ما كان منا، ونحن تحت ظلاله في لبنان قبل عدة شهور:

مررت بالحـور والأعـراس تملؤه   وعـدت وهـو كمثوى الجان يرتعد

وأنا فرح بالموعد القصير ما بين فراقنا وعودتنا والتقاءنا.

ان رسـالتي اليك من دمشق وبعـد يومين من وداعك وأنا على ذلك الموعد القريب، وكأنني ابعث بها إلى حبيب فارقته قبل سنة أو سنتين.

اذكره بربيع دمشق ولبنان وبخلو مكانه عندي في هذه الرحلة وفي مثل هذا الجو.

أنا عاتب على (اميرة) التي يسمونها بنت امها، لانها ابطأت عليّ وأنا بعيد عنهـا كمـا تعلمين، وفي ان تعيد اليّ هذه الـوريقات بنصها ولوعتها وتشوقي وتشوقك، وبحبي وبحبك فلعلها واردة واصلة إليّ قبيل ان يكون هذا الكتاب بين يدي القارىء.

وا أسفاه عليك ياأم البنين، يامناهل.

من شبح في الطليعة ممن يطوف حولي ويلتصق بي ومن كل الاشباح الأخرى غيرهم وما اقلها ومن كل الارواح الطاهرة وما أكثرها.



الجواهري وعائلته في مصيف بكفيا في لبنان مع صديقه محمد حسين الشبيبي وزوجته

الفصل السّادس

بَرِمْتُ بلوم اللائمين، وقولِهمْ:
أأنتَ إلى تغريدةٍ غيرُ راجعِ
أأنتَ تركتَ الشعر غيرَ مُحاولٍ
أم الشعرُ إذ حاولتَ غيرُ مطاوعِ
أجبْ أيّها القلبُ الذي لستُ ناطقاً
إذا لم أُشاورْهُ، ولستُ بسامعِ
وَحَدِّثْ فانَّ القومَ يَدْرُونَ ظَاهراً
وتخفى عليهمْ خافياتِ الدوافِعِ
يظُنّونَ أنّ الشِّعْرَ قبسةُ قابسٍ
متى ما أرادُوه وسِلعةُ بائعِ
قُساةٌ مُحبّوك الكثيرونَ إنَّهمْ
يرونكَ - إنْ لم تَلْتَهِبْ - غيرَ نافعِ
وما فارَقَتْني المُلْهِباتُ وإنَّما
تطامَنْتُ حتّى جمرُها غيرُ لاذعِ

بحثاً عن دار
القصيدة والمكان
حركة رشيد عالي الكيلاني
التشرّد من جديد..
من حال إلى حال
في القائمة السّوداء ومن جديد

الفصل السادس

بحثاً عن دار

في المبتدى من اربعينات هذا القرن، خطر لي، أول مرة في حياتي، ان أكون صاحب دار، ان يكون لي سقف يظللني واسرتي، من التشرد والضياع، بعدما صحبناهما حيناً من الدهر، عارفين ومتعرفين على العراق وانحائه، وعلى بغداد واحيائها، متنقلين كالطير، من شرق دجلة إلى غربها، ومن كاظمية إلى اعظمية، وما بينهما وفيهما من ازقة ومداخل.

وهي فرصة لي، ولزوجتي (أم نجاح) وعليّ ان امسك بها، لا ان أضيعها، كما حصل في العشرينات، حين واتتني الفرصة، وأنا ما أنا عليه من اثير مكانة عند الملك (فيصل) ومن بارز موقع في حاشيته، فلقد وزعت أرض الوزيرية، وهي أرض لاصقة بالعاصمة بغداد، افاد منها الكثيرون.

أما أنا، فقد جعلت الأرض تتسرب من بين اصابعي، وضاعت تلك الفرصة في عام ١٩٢٨ وأنا ما ازال في حاشية الملك فيصل.

جاءت الفرصة الثانية في الثلاثينات، دفعت عربوناً لاستملاك بيت في أرض المنصور، أغلى مناطق بغداد كلها. كان مبلغاً زهيداً لا يزيد على السبعين ديناراً، لكن الفرصة لم تكتمل فأسترجعت نقودي، مع انها كانت قطعة ممتازة توزعها جمعية يقف وراءها الامير عبد الاله..

دارت أيام، فخطر لي هاجس ابتياع دار، بعد عناء التشرد. ولجأت إلى (ناظم الزهاوي) صديقي المقرب، كنت واياه، وآخرون، نؤلف ما يمكن ان نطلق عليه اسم (الشلة) وكان في (شلتنا) عبد الفتاح ابراهيم، ومحمود احمد المدرس، وزكي خيري، وعاصم فليح وحسين الرحال، وغيرهم. كنا

ندعى حينئذ، بطليعة الشباب العراقي التقدمي. ولحسن حظي اصبح ناظم الزهاوي نفسه مديراً لمؤسسة اموال القاصرين، التي تشرف على استثمار اموال القاصرين ريثما يبلغون سن الرشد، فتؤجر دورهم وتوظف اموالهم وتتحرك في البيع والشراء.

قصدته لائذاً من جور التنقل والانتقال، قلت له:

«ياابا الحارث، اني آت اليك بغرض قد يثير استغرابك»، وعددت على رؤوس اصابعي الدور التي نزلنا فيها أنا واسرتي خلال ما لا يزيد على خمسة عشر عاماً، فمررت على اصابع يدي مرتين وقسماً من الثالثة، أكثر من عشرين داراً، كان نصيب بغداد منها سبعة عشر داراً، عدا ما تنقلنا به بين الكاظمية والاعظمية وفيما عدا ما كان من أمر تنقلي وأنا مدرس بين الحلة والناصرية والبصرة من بيت إلى آخر.

قال الزهاوي ضاحكاً: «ما بين ٢٠ و٢٥ بيتاً؟»! قلت:

«أي والله، اتصدق هذا؟ وها أنا اقصدك لتساعدني في ايجاد دار، واعرف انك خبير بهذا».

ولم يكن من الرجل إلا ان استجاب مبدياً التفهم كله.

انطلقنا، أنا وناظم، إلى «دلّال» خبير مثله. درنا على أكثر من دار ودار، ومضينا نفحص ونعاين، حتى وقع اختيارنا على دار بالقرب من منطقة المسبح، جميلة، متينة، وقدر الضليعان ان ثمنها (٧٠٠ دينار)، ولم يكن معي أكثر من (٧٠)!.

ولم يكن ثمة بد من الاقتراض. ومن الاحتراز لتأمين ما يسدّ القرض، فقد كانت جريدتي (الرأي العام) على شيء من الرفاه والرواج.

وفيما بعد استطعت ان اسدد ثمن الدار في فترة وجيزة نسبياً، وبهذا، فهذه المرة الأولى التي ننتقل فيها وأنا في الاربعين من عمري إلى دار جديدة نمتلكها، نقلنا «الاثاث» وأضع الكلمة بين قوسات، فما كان هذا ليزيد على خشبات وصناديق معدودات.

ليس شعور المالك هو ما انتابني، بل الاحساس بمستقر امين. ولكن كان الحزن ينتظرني على منعطف عام قادم.

كنت قد سجلت الدار بأسم زوجتي (أم نجاح)، غير اني ضغطت عليها بضرورة بيع الدار وبثمن بخس أيضا حتى انها اجهشت بالبكاء ولم تشفع لي بالعدول عن ذلك دموعها الغزيرة وأذعنت آخر المطاف فتركنا الدار بعد ان عمقت ذكراها وعزتها في نفوسنا بان شهدت ولادة ولدي نجاح ومن بعده كفاح. ان حزناً ثقيلاً خيم عليّ فبقيت، حتى يومي هذا، لا أمر بالقرب منها، واتحاشى الاقتراب من موضعها حتى بما يقتضي ذلك مني في مناسبة وأخرى.

الفصل السادس

القصيدة والمكان

قلت ان شعوري في تلك الدار بعد اقتنائها، لم يكن افتخاراً بملك، بل غبطة بمستقر. مع ذلك ثمة ما لا ادركه من تضاد، لعل هناك تعليلاً قد يقدمه علماء النفس لحال كهذه: لماذا تفجرت في هذا الموضع الأمن المرفه على هذه البقعة الصغيرة من الدنيا التي حملتني دونما عناء تنقل أو خشية تشرد، لماذا تفجرت أوجع قصائدي، اقصد بها قصيدة: (اجب أيها القلب).

ما علاقة القصيدة بالمكان وبما تحيط به من صبوات ظاهرة وباطنة؟

أي تضاد هذا الذي يجعل الوجع يتفجر ويتدفق في موضع هناءة، وان كان عابراً؟ فلانظر إلى غيرها من القصائد، لماذا تتفجر قصيدة (ام عوف) في الخمسينات؟ هذه القصيدة الصارخة، وأنا متجه إلى أرض جديدة واعدة بالخصب والخير، أرض تطل على (دجلة) بل في اجمل جانب منها، هو الجانب الغربي.

ولماذا تتفجر (هاشم الوتري) وأنا عائد من باريس وصبواتها؟ ولماذا تدوّي قصيدة: حييت سفحك عن بعد فحييني..... في اوائل الستينات، وأنا في براغ الأسرة، الساهرة، وأنا الناجي من جحيم (عبد الكريم قاسم)، بل ومن القبر الذي كان يستعد لحفره لي وأنا بعد في توالي الخمسينات من عمري وبما لا يزيد إلا بقليل عن عمر (المتنبي) عند تصفيته على يد (فاتك) وبفارق واحد هو ان (المتنبي) قد ابلغ بمصرعه واصر عليه وأما أنا فابلغت به ونجوت منه، وسيأتي الحديث العجيب عن ذلك فيما بعد.

وعلى كل حال، فلا ادري، كيف لي ان امسك هذا التضاد، اتمثله،

اشخصه، اسبر كنهه. ولكن بمدى علمي بنفسي، وبظروفي، وتجاربي، يجوز لي القول وأنا اتخذ من ذاتي موضوعاً للمعاينة: ان أقوى البواعث، في مثل هذا الموقف، ينبجس من النفس، في تناقضها مع الأشياء، لابساً لبوس المفارقات. فالنفس الانسانية تسمو عن متطلبات الحياة، وتندرج في مدارج التصوف، متأملة جروحها، وما عملت بها يد الزمن. واذ هي تغور في استبطان ما نفذ في اللباب، واذ تنقب وتنقب، حتى يتفجر منها كل ما مرّ عليها، فواجع، حرمان وكبت واخيراً فكوابيس صوارخ عن ذلك كله، تتجاوز حدود البيت، لتفزز من يغط بنومه من الجيران، ليدق علينا الجدار المجاور، كل ذلك وهي في اجمل بقعة كانت تحلم بها، وكأن الوجع لا يطفو إلا في لحظة سعادة، أو كأن السعادة شرط لتفجر الوجع الكامن.

هذا ما اعطتني اياه الدار وكأنها بذلك تزيد تعويضي عن خسران وفراق ألمَّ بنا كلينا على حد سواء!.. هذه الدار التي وُلدتْ فيها ـ إلى جانب من ولد فيها من اعزائي ـ قصيدة (اجب أيها القلب). لقد اعطتني هذه القصيدة لحظة التنقيب في الاغوار اذا جاز لي ان اقف موقف الناقد منها، فهي قد صنعت ما لم تستطع ان تصنعه قصائدي كلها إلا نادراً.

اثارت هذه القصيدة مشاعر الكثير وفي الطليعة منهم الرصافي، الذي كان في منفاه، أو ما يشبه الاقامة الجبرية في (الفلوجة).

ففي ذات يوم، وأنا في مقر الجريدة، وصلتني رسالة عجلى، فتحتها، ومما جاء فيها:

«قصيدتك، احزنتني وابكتني بل لقد انطقتني بهذه القطعة التي ارفعها اليك، ولك، اذا سمحت ان تنشرها» وجاء في مطلع قصيدته:

أقول لرب الشعر مهدي الجواهري إلى كم تناغي بالقوافي السواحر

وأوجع ما في هذه القطعة الابيات التي يقول فيها وهو يسليني ثم يعزي نفسه:

ركبتُ بحورَ الشعرِ قبلك خائضاً	لعمرك منها كل طامٍ وزاخرِ
ونحت بها العهدَ الذي كان زاهراً	مناحةَ رباتِ الحجولِ الحرائرِ
بكيت بها المجدَ المضاعَ بادمعٍ	من الشعرِ شروى اللؤلؤ المتناثرِ
فلم ألفِ إلّا منكرين مكانتي	يحيدون عني بالوجوهِ النوافرِ
انا اليومَ من هذي الحياةِ على شفا	أشاهدُ منها مرقدي في المقابرِ
سارحلُ عنها عائداً من شرورهم	برب كريمٍ قابلِ التوب غافرِ

وتوالت القصائد المعجبة، المتأثرة بهذه القصيدة، وكلها يشارك (الرصافي) تأثره البليغ. وقبل ذلك، فقد مرَّ عليّ عام بأكمله وأنا رهين الصمت الذي لم أجد له مثيلاً في حياتي كلها حتى السبعينات من عمري.

الفصل السادس

حركة رشيد عالي الكيلاني

لم تكف النقائض عن الاجتماع. فما ان حظيت بـ «اجب ايها القلب» حتى فقدت السقف. فزت بقصيدة وخسرت مأوى.

كان ذلك في فترة ما يدعى بـ «ثورة» (رشيد عالي الكيلاني)، واضع تعبير «الثورة» بين قوسين، كناية عن التحفظ، معبراً عن اسفي لما اقرؤه حتى اليوم، في هذا الكتاب أو ذاك، عن تلك الحركة التي يلبسونها عنوة رداء ثورة. فاضحك في سري، من هذه التسمية، هزءاً من مجانية الالقاب. وفي ظني - وقد وضعت محلها اسم (الحركة) - ان التاريخ النظيف سيخلع عليها ما تستحق من لقب ان لم يكن اليوم فغداً



رشيد عالي الكيلاني

ليس لي مع الكيلاني أية ضغينة، أو أي ظل مما يوجب العداء فرشيد عالي أحد الرجال الذين شاركوا في الحكم الوطني بكل حسناته وسيئاته وعلى مختلف المراحل والعهود، ولا أحد ينكر عليه قوة شخصيته وقدرته على المداورة والمناورة بين الحين والآخر وهذه الوزارة أو تلك التي

يتولاها، وتلك الرئاسة والأخرى طيلة عشرين عاماً، ومن قبيل آخر أيضاً فلا أحد ينكر عليه المشاركة مع ياسين الهاشمي و جميل المدفعي في اثارة الفتن بين قبائل الفرات وعشائره، لسد الفراغ بين وزارة وأخرى ورئاسة وثانية من جهة، ومن جهة أخرى فلأحراج الآخرين ممن يتنافسون معهم في مجالات ما يسمى بالسياسة وفي تلبسهم لبوس المعارضة اليوم بحجة تصديق المعاهدة بل المعاهدات البريطانية ثم التوقيع عليها عندما يعودون إلى الحكم، وبعبارة موجزة فـ (الكيلاني) يتحمل ما يتحمله الآخرون من نظائره من اقطاب الحكم بكل ما لهم وكل ما عليهم، ولا مجال للطعن به في ذلك سواء ما يتزايد معهم أو يتناقص عنهم.

ان هذا كله شيء، وكتابة التاريخ شيء آخر. ان رشيد عالي كان قبل فترة وجيزة من الزمن رئيساً للديوان الملكي للامير عبد الاله الوصي على عرش العراق والذي انقلب عليه ـ وعلى العائلة الهاشمية كلها ـ بسرعة ليصبح من ألد اعدائه. و(الكيلاني) في أكثر تأليفات الوزارة أو استقالاتها كان يوقع على تواقيع الولاء والخضوع شأنه شأن الآخرين*.

ان الشيء الذي اقصده من هذا كله، هو انني أرى ان منطق الأشياء فيه وفي (ثورته!!) مقلوب. ولاوضح ذلك:

لقد تساءلت، وما زلت اتساءل، لماذا ينقلب رشيد عالي الكيلاني بقدرة قادر، أم سحر ساحر في ظروف غامضة، مريبة، ينقلب على بريطانيا ويحاربها دون ان يكون له في خصومتها ماضٍ ينبيء بذلك؟.

وغير خاف على أحد من متتبعي تاريخ ذاك العهد، ان رشيداً استغل ما استغل لنفسه من مزارع القطن الشهيرة في مدينة الصويرة في (الكوت)، التي تقاسمها بعد ذلك مع اقاربه.

كيف انقلب (الكيلاني) على بريطانيا بين ليلة وضحاها؟ وكيف انقلب على العائلة المالكة التي لم يكف عن الانحناء لها.

---

* راجع كتاب تأريخ الوزارات لعبد الرزاق الحسيني.

لقد حاول (الكيلاني) باساليبه تلك، ان يغير ماضيه، وان ينقلب وان يستغل طيبة بعض الضباط والجنود ليقول لهم انه سيحارب بريطانيا.

اقول ذلك، ليقيني ان هذه وغيرها من الحقائق مدفونة في طي الصمت والنسيان المتعمدين، قدر ما هي محرفة بقصد التضليل وقلب المقاييس والشغف بحظوة التقرب والزلفى أيضاً، على ايدي من هم اكفاء لذلك. وواجبي كانسان عاشها، عارفاً بصحيحها ومغلوطها، ان يزيل عنها بعضاً من غبار التمويه والتزوير وواجبي يتضاعف بوصفي صاحب جريدة (الرأي العام) التي كانت الشوكة الواخزة بوجه النازية، الحاقدة على ابناء الجنس البشري كله.

لقد كان (الكيلاني)، في ظروف ذاك الزمان وخصوصياته، يتجاوب ـ من حيث اراد أو لم يُرد ـ مع نوايا سفاح البشر: هتلر.

بعد الحركة بقليل، اتصل بي هاتفياً بمقري في ادارة جريدة (الرأي العام)، طالباً حضوري عنده. وحزرت، بوحي من العفوية والفطرة ما يبتغي من استدعائي.

قابلته كما أراد، واستقبلني بما عرف عنه من دهاء وتحايل طفق يحدثني عن اعجابه بـ (الرأي العام) وموقفي الوطني فيها وبخاصة فموقفي من بريطانيا، وسرعان ما التقطت (بيت القصيد) مما اعده هو بالذات، ومما حزرته من قبل، ليقول لي «ولكنك (ياجواهري) تعرف قبل كل أحد ان الناس يتطلبون منك ما الفوه في مثل هذه المواقف من شعرك الجميل!!»

وإلى هنا فقد كان الشطر الأول من (بيت القصيد) هذا، وانتظرت وكأنني على وشك ان اتم له الشطر الثاني ليقول بما يشبه التصريح وليس بما تغني عنه الكناية من طلبه ان أعرّض، ان لم أقل ان (اشتم) العائلة الملكية. فأجبته بسرعة خاطفة:

«أنت تعرف ان لكل شاعر مزاجه الخاص وانفعالاته الوجدانية، مما لا يسهل معهما الارتجال» ردّ عليّ ليقطع طريق الرفض: «أليس بوسعك ان تقول وان أبياتاً قليلة؟» قلت له: «طيب، احاول». عدت فوراً إلى البيت، ونظمت بدل الابيات، «امتعة السفر»!! فهذا الرجل لن يتركني بسلام،

والوضع بعمومه يكاد يعلن عما سينتهي اليه من مصير، سافرنا في التو إلى النجف ضيوفاً على أحد الاقرباء وذلك ان دارنا القديمة كانت مستأجرة لسد الحاجة. وبعد أيام قلائل من ذلك، كان قد انتهى أمر (الجعجعة) ومصيرها ومصير رشيد عالي نفسه ومصائر من معه من ماشين على خطه أو مخدوعين به أو مغلوبين على امرهم، بل ومصير العاصمة العراقية كلها، وقد فرغت هي والعراق كله من حكومة تحكمها أو من خزينة تمولها ثم ليسد ذلك الفراغ الموحش بعد يوم أو يومين عودة الامير عبد الاله ومن معه من اتباعه، ومن القوات الاردنية وطبعاً فبقيادة آمرة من الجيش البريطاني وفي هذا اليوم نفسه، وقد تألفت وبسرعة وزارة جديدة برئاسة جميل المدفعي وقد كنت في (قيلولتي) المعتادة وفي أحد الدهاليز الباردة، فاذا بشرطي، واكرر القول: شرطي، يداهمني، وبوسع القارىء ان يتصور لنفسه ما يشاء وهو في مثل موقفي، أنا الهارب من بغداد، اللائذ بالنجف، في ذلك الجو الرهيب، وانحسرت عني غيمة الحيرة، عندما علمت ان بغداد تطلبني بواسطة (قائمقام) النجف، ولم يكن أمام (القائمقام) إلا الرضوخ لطلب بغداد العاجل، دخلت عليه وهو ممسك بسماعة التلفون، فالخط ما يزال مفتوحاً مع بغداد، ووجدت على الطرف الآخر نوري الدين داود مدير الدعاية العام وهو من اقارب رئيس الوزراء الجديد، والذي ساجيء على ذكره في الاربعينات.

كانت الاحداث رهيبة، والدماء تسيل. قال لي: «هذه فرصتك، لاننا نود من الصميم ان تعود (الرأي العام) إلى الصدور».

كان جوابي قاطعاً: «لست مستعداً للعودة إلى جريدتي وفي كل بيت مناحة!»

واقترح عليّ ان نلتقي في بغداد، فوافقته الرأي على ان من الافضل بحث الامور وجاها لا بالتلفون، وان نلتقي غداً.

عند الغروب، وقبل ليلة من توجهي إلى بغداد، عرجت على نادي الموظفين في النجف وجلست استمع إلى المذياع، الذي كان يلتقط القسم العربي من محطة «برلين» وكان صوت المذيع يهدر، ولم يكن ذاك سوى

المذيع الرهيب (يونس بحري) الذي استطاع ان يبسط سلطانه على القسم العربي في الاذاعة الالمانية.

الواقع، اني التقيت يونس بحري في مقري بالجريدة قبل ذلك بأمد بعيد، وفاجأني بجرأة نادرة حين استل من جيبه جواز سفر إلى المانيا النازية، كان قد هيأه له انسباؤه في جانب الكرخ. واذاع كل اسرار استحصال هذا الجواز، وهي اسرار خطيرة اودعني اياها هذا الرجل العجيب.

واستمتعت، في نادي الموظفين، وأنا بين صفوة من اترابي وزملائي، إلى صوته يخترق اسماعنا:

«ياأهـل العراق، ياجيش العراق، لا تستسلموا ولا تهنوا، تذكروا ما خاطبكم به شاعركم الجواهري في ثورة العشرين». وراح ينشد:

لعـلَّ الـذي ولّى من الـدَّهرِ راجعُ فلا عَيشَ إنْ لم تَبقَ إلَّا المـطامعُ

جرى ثائـراً ماءُ الفـراتِ فمـا ونى عن العـزم يومـاً مَوْجُـهُ المتـدافـعُ

حرامٌ عليكـمْ وِرْدُهُ ما تزاحـمـتْ على سفحِهِ تلك الوحوشُ الكوارعُ

كنت موزعـاً بين اعجابي بأن تدويّ كلماتي في تلك الساعة، وبين مستسلم لواقـع الأمر غير مكترث بعواقبه، واعني ان أكون في ذاك الظرف العصيب الجـديد، وانتصار القوات البريطانية، مثيراً للجماهير ولكن على لسان مذياعٍ نازي.

وفي بغـداد، علمت من نوري الّدين داود كل التفاصيل المكلف بابلاغي اياها من قبل (المدفعي) عن ضرورة اعادة جريدتي (الرأي العام) إلى الصدور. ولم يفوت عليّ التلويح بما قد يعوزني بهذا الصدد من (امور مادية). قلت فيما قلت، انه لو فرش الطريق إلى الجريدة ذهباً لما اصدرتها. واعدت عليه ـ وبما يستحق التفصيل ـ ما اختصرته وأنا على الهاتف معه في النجف، واضفت «انني طويت الجريدة في أيام ذاك الرجل وما تزال مطوية حتى الآن».

وابلغني انَّ وزير المعارف ـ وكان في هذه الفترة بالذات (محمد رضا الشبيبي) ـ يود مقابلتي، وحاول الوزير ما حاوله (نوري الدين)، وابلغني أيضاً ان (المدفعي) يحب مقابلتي لهذا الغرض نفسه، فأعتذرت عن ذلك أيضاً.

القادمون على انقاض (الكيلاني) كانوا يسعون ورائي ويضايقونني بمثل ما ضايقني به، ولم يكن ثمة بد من الافلات. (الكيلاني) أراد مني قريضاً، وغرماؤه يريدون جريدة، ذاك أرادني ان ابارك، على نحو غير مباشر، النازية مستغلاً غضبي على الانجليز، وهذا يريدني مادحاً له وفي ظل الحراب البريطانية مستغلاً كرهي للنازية.

لقد كانت بريطانيا خصماً مباشراً لوطني، ومنذ ثورة العشرين وأنا محرض عليها، أما المانيا النازية، فقد كانت خصماً للبشرية كلها، وليس لبلادي فحسب، رغم ان هذه الحقيقة الاخيرة لم تكن جلية للعيان وبخاصة فلدى الجماهير العريضة المضللة.

وفي الثلاثينات من ذكرياتي هذه ما يغني عن العودة اليه مما كان من أمر جريدة (الانقلاب) وبعدها بقليل فجريدة (الرأي العام) ومن امر السفارة الالمانية معي وفي امري معها وبما كان من اخذ ثأرها مني بالدماء العزيزة من أهل بيتي.

الفصل السادس

التشـــرد من جـــديد..

طلبت من زوجتي ان تستعد، مجدداً للرحيل، بل التشرد والتشريد.
كيف السبيل إلى الخروج من العراق وابوابه موصدة أمام كل راغب في الهرب؟
قصـدت (خضـر الجميل) معاون مدير شرطة بغداد، وهو من عائلة كريمـــة ومحب لي من الصميم، وشـــرحت له القضية ومـا فيهـا من لبس وتـداخل، واعربت عن رغبتي في الخروج، لا هرباً من ذنب جنيته، لكن طمعاً في الراحة من تلك الظروف العصيبة. وقلت للرجل، انه يعلم ببواطن الأمور ويعرف كل مواقفي السابقة، قال لي: «انني بانطلاقة من حبي لك لا أخفي عليك ان هناك قائمة سوداء للممنوعين من السفر، وهي طويلة، آمل ان لا يكون اسمك فيها. فان كان، فهناك من هو أعلى مني منصباً وبوسعه وحده ان يسهّل عليّ وعليك هذه المهمة، امهلني إلى الغد».
انتظار آخر، انتظار الغد، ثم انتظار ما سيسفر عنه بعد غد، وكل غد آت من بعده، في اليوم التالي كان الجواب سريعاً ومفرحاً: «لست في القائمة السوداء». هرعت إلى البيت ازف البشـارة، واستعـد الكل للسفر، جمعنا المتـاع، مما يخف حمله وتثقل الحاجة اليه، واستودعنا البيت بما فيه من حطام الدنيا إلى صديق من الاعزاء هو (محمد دويك) وكان هذا آخر لقاء لنا بسقوفه الرصينة، وجدرانه الحصينة وحديقته الصغيرة الملونة، ودفعنا الثمن الغالي، وتوجهنا إلى ايران.
دخلنا ايران عن طريق جلولاء فالى كرمنشاه حيث كان مقر اخي الأكبر المتغرب (عبد العزيز)، يوم وصولنا، كان اليوم الذي غدرت فيه المانيا

النـازية بالاتحـاد السـوفييتي بعـد ان مزقت الاتفـاق على الهـدنة بينهما، وكان من اخي وهو فزع، مرعوب، وبصوت متهدج والالم يلفه ان يواجهني بسؤالـه «أسمعت الخبر؟» قلت «لا والله لم اسمع شيئاً» قال «اليوم دخلت القوات النازية اراضي الاتحاد السوفييتي!» واخي هذا ولا أريد ان اعيد القول هو الأعز لديّ، متوقد الذهن، تقدمي الموقف، عفيف النفس، عالي الهمة إلى جانب زيه الـديني المألوف. ونزلنا ضيوفاً عليه عدة ايام، لنفترق عنه ونحن في طريقنـا إلى طهران، إلى فندق صغير متواضع، ولسوء الطالع فبـالقـرب من وزارة الـدفـاع، المهـددة بين ساعـة واخـرى بتلقي القنابل والصواريخ من الزاحفين على ايران وعلى طهران بخاصة.

كانت الجيوش السوفياتية تتحدر من الشمال، والبريطانية تتصعد من الجنوب (من العراق) زاحفتين معاً وإلى العاصمة الايرانية حيث أقيل (الشاه) واعتقل منفياً إلى مثواه الاخير، وجرى باتفاق الزاحفين تنصيب ولده الأكبر (محمد رضا) ملكاً بديلاً عنه. وكانت ايران في تلك الفترة مستسلمة للنفوذ النازي، وكل ما فيها منهار وضعيف، أما ثرواتها ورجال الدولة فيها وصحفها فقد اصبحت نهباً للنازية. وفي مثل هذا الجو المرعب وجدنا انفسنا في بلد متأزم وظروف متأزمة كانت وكأنها على موعد معنا، وهي أشد ايلاماً لنا من الجو الذي هربنا منه.

ورغم توتر الموقف، فان جمال مدينة طهران شدني إلى التجوال في شوارعهـا المكللة من الجـانبين بالمـاء والخضراء والوجه الحسن، وطفت بالعديد منها، وخلال تجوالي وجدت نفسي أمام بناية واسعة هي بين المقهى والمغنى وتحمل اسم (كافيه استانبول) وعرفت وأنا اقتحمها متطفلاً عليها، انها لابد ان تكون من أشهر مرتادات طهران ومغانيها، لقد كانت بساطاً اخضر مطرزاً من كل جوانبه بالاشجار الفارعة والازهار التي بدت وكأنها (قوس قزح) فيما يختلط من الوانها، ليتوسطها بما كادت تضيق به من حشد متميز باسارير النعمة وفخفخات (البرجوازية)، وهم يتهامسون بخفة ورشاقة لا يحس بهما، وبمثل ما تتهامس به النملة إلى النملة لولا ما كانت تدغدغ به هذا الهمس اصداء الموسيقى الهادئة، الشجية المنسابة إلى النفس، مصحوبة بشلال من

الاضواء الخافتة تتمازج تمازجاً فريداً من نوعه مع كل تلك الاجواء ولحسن حظي فقد أخذت مجلسي على كرسي وثير فارغ فيها، واذا بي أرى اشباحاً تخيلت انها مألوفة لديّ، ولم تطل الرؤيا، تقدم أحد الاشباح رويداً رويداً، وكانت المفاجأة ان يكون ـ ان لم تخني الذاكرة ـ هو حكمت سليمان وإلا وبالضبط فناجي السويدي واحتضنني وعانقني واقتادني معه إلى (الشلة) من اترابه هناك واذا هم: يونس السبعاوي، وعلي محمود الشيخ علي وربما صديق شنشل، فانهالوا عليّ ترحاباً وتقبيلاً، وكانت فرحتهم عظيمة، وكأنني طائر هبط عليهم من السماء. وتفرست فيهم وجهاً بعد وجه، وقرأت على كل واحد منها وبكل وضوح ما يتناهبه من قلق وفزع على المصائر التي تنتظرهم، ذلك انهم وقبل كل احد في العراق من المطلوبين بجلودهم ان لم يكونوا برؤوسهم أيضاً بعد ان فرّ الكيلاني هارباً وسالماً بجلده ورأسه.

فكانوا الثمرة الفجة البائسة المتبقية من تلك الاوراق اليابسة والصيد الجاهز لمن كان يحاربهم ويحاربونه، ووجدتهم يسّلون انفسهم ويعزونها بأنهم كانوا قبل ان يغدر (هتلر) بالاتحاد السوفياتي من المتصالحين معه أيضاً.

هذه العلاقة التي يتسلون بها هي مجرد غطاء من حرير يمدونه على ما تتفاعل به نفوسهم من اوهام ووساوس، وفي الوقت نفسه، كانت المفارقة الاليمة في ان يجيء يونس السبعاوي وزوجته المسكينة المشردة مثله على متن شاحنة تحمل الخشب، من مأمنه في شمال ايران ـ وفي اذربيجان نفسها ـ إلى مكمن الخطر المنتظر في العاصمة طهران، حيث كانت القوات السوفياتية والبريطانية معاً قد سبقته ومن معه اليها.

وكان من البداهة ان يكونوا مطلوبين سواء بوصفهم اتباعاً للكيلاني المتحالف مع المانيا، أو بوصفهم اعداء سلاح لبريطانيا، فأية تسلية مطمئنة كانت تلك؟ ومهما يكن الحال فلا بأس عليّ، بل ولابد لي من ان اشاركهم وضعهم هذا تسلية وتصبيراً، بل وان ازيد عليه، وبعد احاديث عابرة وجديدة بالنسبة اليهم عما كان في الايام الماضية القليلة من احداث في العراق، وبعد ما يقارب الساعتين معهم، غادرت المكان مودعاً وبينما أنا في طريقي

بين هذا المغنى الجميل والشارع المتصل به، لاحظت بانتباهة شبه متوقعة، ثلة من رجال بملابس مدنية، ومن السهولة لمن عايش أوضاع العراق الاستثنائية ان يحدس ويحرز مثل هذه الوجوه، لاحظتهم متحفزين على كلا جانبي الطريق لصيد متوقع!.

جئت المكان في اليوم الثاني، ورأيت وأنا ادخل الطريق نفسه الوجوه نفسها وقد ازدادت تحفزاً وعدداً وفي هذه المرة فيما لا يحتاج إلى تأويل. ووجدت (الشلة) العراقية وقد بدا على ملامحهم ووجوههم أيضاً ما ينم على انهم وبكل وضوح، قد أدركوا مصائرهم وانهم، هم الصيد المنتظر، وجرت احاديث تنسجم مع هذا الجو المريب وكانت تنقطع سلسلتها بسبب من لفتات وتوقفات وودعتهم، اكان وداعاً اخيراً؟.

بعد وصولي إلى الفندق بساعة جاءني هادي هاشم وكان الرجل يرافقني في ذهابي وايابي وكأنه مكلف بذلك، فقال لي ما لم اكن بحاجة إلى مزيد منه: «لقد قبض عليهم» وجرى بعد ذلك ان نفي من نفي وشنق من شنق وسجن من سجن ومات من مات منهم مثل ناجي السويدي ثم ان يسلم بنفسه وبرأسه المطلوب والمسؤول عما كان السبب في ذلك كله.

الفصل السادس

من حال إلى حال

وبدأ الوضع العام في العراق يأخذ مجراه من جديد حيث شهد رجوع (عبد الاله) ومن معه من ساسة بغداد، كما تبدل الوضع العسكري، وميزان القوى السياسية في العالم، بتكون الجبهة القوية الجديدة المؤلفة من (الاتحاد السوفياتي، الولايات المتحدة الامريكية، بريطانيا، وفرنسا)، واخذت الجبهة التقدمية في العراق هي بدورها تنشط وتنمو.

يمكن القول ان العراق شهد افضل واحسن الفترات في هذه المرحلة ومن باب المفارقات في التاريخ، فيما عدا الضائقة الاقتصادية التي لفت العالم كله وليس العراق وحده، فقد كانت فترة هذه السنوات الاربع من الحرب العالمية الطاحنة، هي نفسها الفترة الاولى من نوعها والتي تتجمع كما اشرت، فيها قوى وطنية لم تتجمع قبل اليوم بمثل ما كان لها من قوة ووعي ونشاط، ومثل هذا بل وفي المقدمة من كل ذلك، فقد شهد العراق ما لم يعرفه منذ قرابة ربع قرن من الحكم الوطني، من انطلاق الكلمة الحرة والمعارضة ومن الطبيعي ان يفهم القاريء المراد في ذلك كله، فقد كان بمثابة فتح جديد للصحافة الوطنية بما كان لها من ضمانة في تلاقي الحلفاء وفي المقدمة منهم ان يتلاقوا مع الاتحاد السوفياتي وفي هذا ما يكفي لردع الحاكمين عما كانوا عليه من غطرسة وتحكم في الكلمة الحرة في هذا الموقف أو ذاك مما لا يحبون ولا يتقبلون.

ففي هذه الفترة نفسها، سمح للحزب الوطني الديمقراطي بأن يعمل بكل نشاط وان يتقوى بكل مقوماته، وللصحف الوطنية، وفي الطليعة منها

(الاهالي) الناطقة بلسانه، و(الرأي العام) المستقلة، بل ان صحيفة الحزب الشيوعي ونشراته وجدت منافذ للرواج والانتشار رغم ان ما يشبه الحصار ظل ملتفاً عليها.

كان لابـد لي من العودة في هذا المناخ الجديد، الذي فرضه واقع الأمر، ومما شجعني على العودة، انني تلقيت على يد هادي هاشم رسالة مشتركة من عبد الفتاح ابراهيم وناظم الزهاوي وهما يؤكدان عليّ العودة ويقولان: هذا هو الوقت المناسب والفرصة التي لا تعوض لاصدار جريدة (الرأي العام) من جديد. بيد ان ظروف السفر وسبله كانت شبه عصية، فالحكومة الايرانية تعلن للمسافرين ان الحفاظ على ارواحهم أمر متعذر، ومن يريد ان يغادر ايران فهو المسؤول عن نفسه، ويعود ذلك إلى ان فلول الجيش الايراني المهزوم قد تحولت إلى عصابات قطاع طرق. ولم تبق لنا من وسيلة للسفر سوى القطار عن طريق الاهواز فالبصرة ولكن كان شيئاً صعباً للغاية ان يحصل المرء على بطاقة سفر في القطار.

وكانت مبادرة ذكية من هادي هاشم حين قال لي «يابابا فرات.. أنت معروف هنا وصاحب جريدة (الرأي العام) التي تتمتع بسمعة طيبة فما رأيك ان نزور أكبر شخصية صحفية وأدبية وسياسية أيضاً، هو رئيس تحرير جريدة ايران الرسمية وكانت حينئذ اقوى مركزاً وأشد تأثيراً في وجدان المواطنين من جريدة (كيهان) شبه الرسمية، وصاحبها بحكم منصبه هذا، عضو في مجلس الاعيان في ايران وأنا على ثقة بأن هذا الشخص يعرفك ويتابع اخبارك واعتقد انه سيرحب بك» وقلت له: «اشكرك على فكرتك الصائبة وأنا مستعد لذلك».

وزرناه في اليوم التالي، وبالفعل فقد رحب بنا الرجل، وما أرقه، ترحيباً شديداً، واعطانا رسالة إلى مدير السكك العام الذي لبى طلبنا بمنتهى التهذيب والاعزاز، واتخذنا موقعاً جميلاً كان موضع حسد المتزاحمين على القطار من الجموع الغفيرة المتدافعة والتي كانت تتناهب سطوحه أيضاً...

وصلنا إلى الاهواز ومنها بسهولة فإلى البصرة ونزلنا بضيافة الصحفي الأديب الشاعر الصديق عبد الرزاق الناصري، وبتنا ليلة اخذنا فيها نصيبنا

من الراحة بعد عناء الطريق ومشاقه واستمتعنا عنده بالجوّ العائلي المريح، ثم وصلنـا إلى بغـداد، واستأجرنا داراً جديدة في (الحيدرخانة) في محلة (الخشالات) بجوار دار الصديق عطا الخشالي وكنا عائلة واحدة هو وزوجته وبناته.

الفصل السادس

في القائمة السّوداء ومن جَديد

عاودت جريدة (الرأي العام) الصدور، واخذت مكانها المنشود والمفترض، وكان السيد الخشالي ولحسن حظي، المسؤول عن القلم السري في (متصرفية بغداد)، وفي أكثر من مرة كنت الوحيد الذي بوسعه ان يزوره، وهو المؤتمن على مثل تلك الوظيفة الحساسة، وتجدر الاشارة إلى ما كانت تقوم به عائلته خلال مدة غياب من معي من أهل بيتي في النجف، من ضيافة كريمة سخية ودائبة لي وللعاملين معي في الجريدة.

وذات يوم، قصدني الخشالي ليقول لي: «احب ان اختلي بك لبضع دقائق» فقلت: «بكل سرور» قال: «اليوم سجلت اسمك بيدي على القائمة السوداء وسيلقى القبض عليك وترسل إلى المعتقل بتهمة التعاون مع رشيد عالي الكيلاني». وفي اثناء ذلك كانت المعتقلات قد فتحت على مصاريعها لدعاة النازية وانصارها، واتباع الكيلاني (وضحايا حركته)، وعلاوة على ذلك وفيما بين هذا الاسم أو ذاك، كانت اهواء الحاكمين تغتنم الفرصة السانحة لتدس بها من تبغض، ومن تتربص به، بهدف الانتقام الشخصي أو السياسي، والبطش بهم وبلغ الحد في ذلك ان لا يفرج عن أكثر من واحد من المعتقلين لمجرد الاشتباه باسمه تحوطاً من ان يفتح باب المعتقل لغيره من المزجوج بهم.

لقد فوجئت مفاجأة لم تخطر لي على بال بهذا النبأ الذي يتجاوز به صديقي الشهم وربما لأول مرة وفي مصداقية حبه، حدود السرية المؤتمن عليها، لقد كنت، كما ذكرت بالتفصيل، من أشد خصوم حركة الكيلاني

والنازية. وقلت في نفسي، اذن، فقد احسنت الانتقام مني العجوز الشمطاء (بريطانيا) الشاخصة قبل ما لا يزيد عن شهور على الصفحة الاولى من جريدتي (الرأي العام) وفي الصميم من تلك (الحركة)، بل ولقد احسَنَتْ التوقيت فصالح جبر لا غيره، هو وزير الداخلية.

شكرت الخشالي على مدى حبه لي بهذا الخبر الهام، فقال لي: «دبر امرك الليلة قبل نهار الغد». ولكن كيف ادبر امري؟ وفجأة قفزت إلى ذهني فكرة لا بديل لي عنها، وهي اللجوء إلى السيد محمد الصدر ـ والذي سبق لي ان اشرت في العشرينات من هذه الذكريات إلى مكانته وإلى مدى حبه لي ، اذكر ان دموعاً تحدرت على خدي ـ ام نجاح ـ، عندما اخبرتها بالنبأ الجديد عليها «انني سأغيب عنها تلك الليلة» وودعتها وانصرفت بسرعة إلى السيد الصدر في بيته في (الجعيفر)، وقد شاءت الصدف بعد ذلك بقليل ان يكون بيتنا بجوار بيته، فوصلتُ اليه عند غروب الشمس، ومجلس الصدر كما هي عادته، مفتوح الباب لكل الوافدين، وتلقاني بلطفه وكرمه المعهودين، وابلغته وبما يشبه الهمس بما اسرني به الخشالي فقال: عجيب!، قلت «والمبلغ هو امين على تلك القوائم السوداء وبيده كتب اسمي» ورد عليّ: «ان الشيء الأول المطلوب منك ألا تكون الليلة في البيت»، وبالمناسبة، كان في المجلس جماعة من اقاربه، السيد صدر الدين شرف الدين وشقيقه محمد رضا شرف الدين، وثالث من اصدقائهما، لهم باع طويل في تذوق الشعر والأدب بل وفي الشؤون الصحفية أيضاً، قال لي الصدر: «هذا بيتك عندي هنا، وبيتك الثاني عند الجماعة اذا شئت وسأذهب صباحاً بنفسي إلى صالح جبر، وقبيل الظهر تكون عندي لاعلمك النتيجة» فقلت: «جزاك الله خيراً ياسيدي، شكراً سأكون مع الجماعة».

وللتوّ ذهبت معهم، ومن جميل المصادفات ان يكون بيتهم الصغير على الجانب الغربي من بغداد هو نفسه الذي كنت قد استأجرته قبل ذلك. وهناك نصب (سماور) الشاي وانفتح حديث الشعر ودواوينه، وكان من المتوقع ان يستمر هذا السمر الجميل حتى موعد النوم، ولكني فاجأتهم ـ وبمزيد من الدهشة عليهم ـ برغبتي في الانصراف، منكراً على نفسي

الخوف والتخفي، وتذكرت من معي في البيت وهم في مثل هذه الليلة وعلى مثـل هذا الموقف الرهيب وكيف سينامون ليلتهم هذه. عبثاً حاولوا اقناعي بالبقاء فأعتذرت وقلت: «شكراً جزيلاً على هذه السهرة الجميلة، لقد اخذت حصتي منكم ومنها وكفى»، ورجعت إلى البيت وظللت ساهراً حتى الفجر، وأنا اسمع ما لم اسمعه من قبل من وقع خطى حارس ليلي ذاهب وآيب حتى الصباح وكأنها اصداء النبأ المزعج. ومرت الليلة بسلام، وتركت الدار لأسد فراغ الـوقت ريثمـا يحين موعد لقائي مع السيد الصدر، وحان الموعد، وقصدته من جديد، فأبلغني «ان النبأ صحيح، صحة حب جارك لك، لقد قابلت صالـح جبر وقال لي، نعم، انك في الصميم من القائمة وادعى ما ادعى من تبريرات لذلك، وعلى كل حال فقد سوّي الأمر. . ، ومطلوب منك ان تراجعـه»، شكرت السيد (الصدر) كل الشكر. وفي اليوم نفسه، وبعد الظهر بقليل كنت عند صالح جبر وتلقاني بوجهه المرائي، بتصنعه المشهور، وبعجرفته المتميزة، وبحركاته المسرحية التي كانت حديث كل من يعرفه، وربما كانت قامته القصيرة وبسماته المتكلفة تشجع المتندرين عليه، قلت له: «السيد الصدر ابلغني بما كان من مقابلته واياك، ولم يشرح لي شيئاً وأنا لا اعلم السبب في كل هذا، فلربما كان ذلك موقفي في جريدتي (الرأي العام) وموقفها من الانجليز؟» لكنه ردّ عليّ بأن حديث الصحف وما فيها قد طوي، لان الـظروف التي كانت سائـدة لم تتح لاصحابها التحكم فيها، واضاف: «يبدو انك تريد ان توهمني بما أنت اعرف به مني؟» قلت: «انني كما تعهد فيّ لست من هذا القبيل من الناس، ولست ممن يوهمون انفسهم، فضلاً عن الآخرين، وليس عندي إلا ما قد نوهتُ به اليك» وهنا استثار فيّ صالح جبر ما كان كامناً في نفسي مما حسبت ان قد عفّى عليه الزمن، وذلك عندما فاجأني بانني مطلوب لاكون فيمن يلتف عليهم إطار القائمة السوداء بسبب ما سمـاه (بقصيدتي) التي اذيعت من اذاعـة برلين وبصـوت يونس بحري، عجيب! اذن هي قصيدتي في ثورة العشرين، التي يراد لها ان تكون أداة «تجـريم» لي في الاربعين؟ قلتهـا بلهجـة ومنطق المنتصر: «ان هذه القصيدة كانت لي قبـل عشـرين عامـاً وفي اعـز موقف افتخر به هو (ثورة

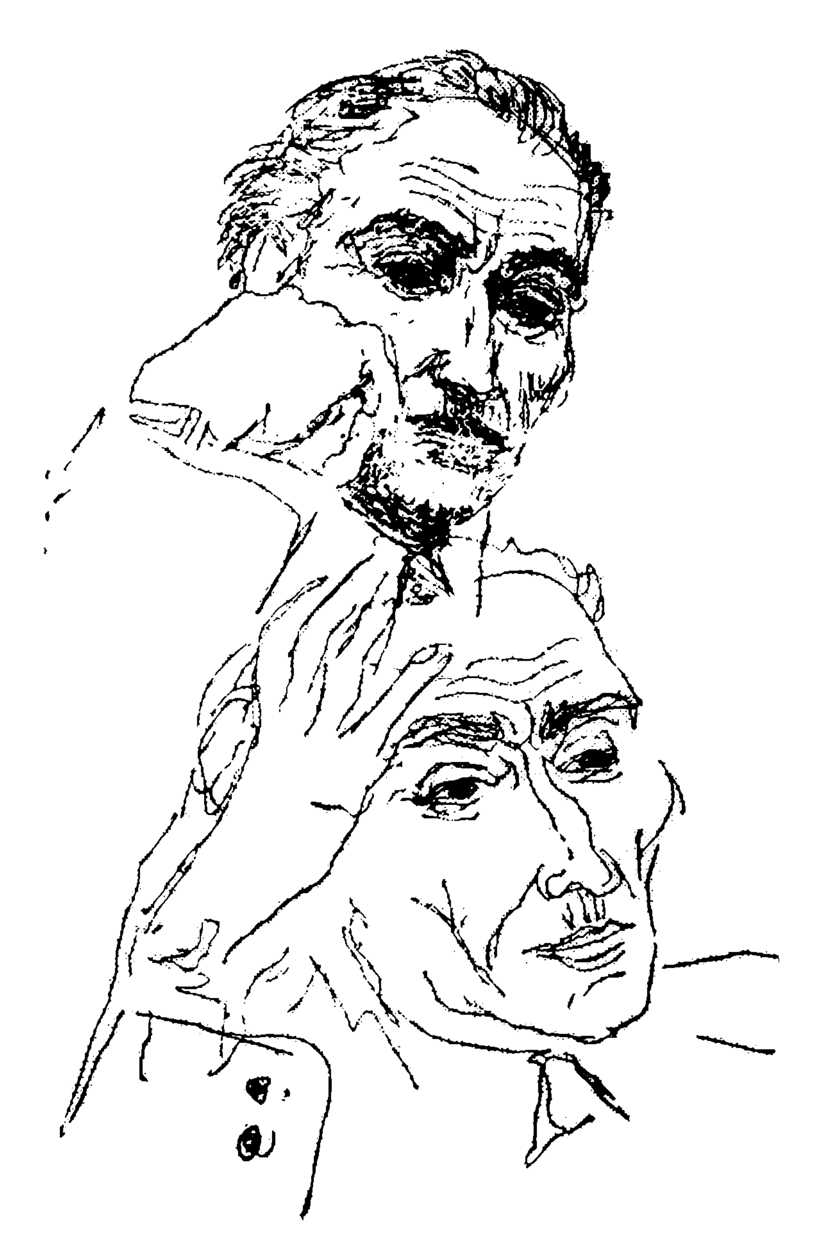
العشرين) وهي موجودة في ديواني، ما ذنبي اذا كان يونس بحري يريد ان يذيع ديواني كله؟ انها قصيدة مشرفة استحق عليها الثواب لا العقاب» وارتد صالح جبر مهزوماً ومخذولاً.. وقال مبرراً ومدافعاً: «ان ديوانك عندي وسأتأكد منها وهذا كل شيء، - وزاد على ذلك وكأنه يريد به التخفيف من انهزامه -. أنت ممن نعتز بهم، وشفع ذلك بما يخالج نفسه المعقدة وكأنه يريد ان يوحي لي بقوله انني بديل عن الرصافي ويقصد بذلك الرصافي في محنته الطارئة عليه وعلى العهد الجديد للحاكمين، فقد كان وهو الشامخ الفريد مغضوباً عليه ومن جملة ضحايا «حركة» الكيلاني، الذي ارادني، وهو يستدعيني اليه، كما اشرت، ان يورطني بما ورّط به الرصافي في قصيدته التي يقول فيها، لينال من العائلة المالكة:

«طاروا بأجنحة الاجانب واغتدوا يتحينون بك الحتوفَ تَحيّنا»

ولم يقدر الكيلاني نفسه ولا حكمت سليمان بعده ولا كل ذي مروءة من الحاكمين ومن طبقتهم ان ينقذ الرصافي لثلاث سنوات كاملة مما لحق به وهو يعيشها فاقةً، وحرماناً، ومرضاً، بل حتى ان يتعطف واحد منهم وان بشيء زهيد من التفقد بأن يسدل ستاراً وان من قماش رخيص على غرفته ساعة احتضاره فيها وفي الصميم من الصيف القائظ.

وقلت لصالح جبر: «اشكرك على كل حال» فقال: «غداً نلتقي» وفي اليوم الثاني عدت اليه فقال: «وجدت القصيدة كما تقول ولكن فيها بعض التغييرات!» فقلت: «ما شأني اذا كان يونس بحري قد فعل ذلك؟»

وانتهى الأمر عند هذا الحد.



الجواهري بريشة الفنان العراقي المبدع جواد سليم

الفصل السّابع

حشَــدوا عليَّ الــمُـغــرياتِ مُسيلةً
صغــراً لُعــابُ الأرذلــينَ رغــائبــا
بالــكــأسِ يَقْــرَعُــهــا نديمٌ مائلــاً
بالــوعــدِ منهــا آلحــافَتَيْن وقــاطبا
وبــأنْ أروحَ ضُحــىً «وزيراً» مثــلَمــا
أصبــحتُ عن أمْــرٍ بليلٍ «نــائبــا»
ظنّــاً بأنَّ يدي تُمَــدُّ لتــشــتــري
سقطَ آلــمتّــاع، وأنْ ابيعَ مواهبــا
وبــأنْ يروحَ وراءَ ظهــريَ موطــنٌ
أســمنــتُ نحــراً عنــدَه وتــرائبــا

عَلاقتي بالأحزاب الوَطنيّة
الرّجُل الدّيمقراطي
الرّجُل الطيّب
الرّجُل الصّلب
دَار القصائد
ليلة على الحُدود
الوقوف بالمعرّة
الأفغاني، أبو التمّن..
تأمل في القصائد ومناسبَاتها
الفردوس المفقود، فلسطين..
طَرطَرا
بنت رسطاليس
منادَمة ومنافرة مَع مَلك
العِراق غير المتوّج.
قصّة النيابة
أيّام في لندن
مَا يُحَاك
الضّابط الشّاب
من المجلس إلى الوثبَة

الفصل السابع

علاقتي بالأحزاب الوطنية   الرجل الديمقراطي

لقد سبقت الاشارة وأنا في اوائل الثلاثينات إلى ما كان بيني وبين كامل الجادرجي من لقاء وتعرف، وبخاصة فيما يشبه الطرافة من تمثله، وعلى سبيل المزحة بالبيت الشهير من قصيدتي «الدم يتكلم» والذي تمنى من اسالوا دماءهم في ثورة العشرين ان يكون لهم مما يقيتهم ما يساوي (الحذاء اللماع) للمستغلين ذلك الدم، من الحاكمين. وكانت المزحة هذا التساؤل: هل ان حذائي أكثر لمعاناً أم حذاؤك؟!!.

وفي الحقيقة فقد استمرت تلك العلاقة بيني وبين الرجل زمناً طويلاً كنت ازوره خلالها أكثر من مرة في اليوم المخصص للزوار من كل اسبوع. وفي يوم من هذه الأيام نفسها كانت هناك لقطة جميلة لا تنسى، في احدى



كامل الجادرجي

هذه الزيارات، هي الصورة الفريدة التي اعتز فيها على كل ما لي من صور. تلك التي خططها لي، وعلى غفلة مني العبقري الخالد «جواد سليم».

أما في اواسط الاربعينات وقد اجيز الحزب الوطني الديمقراطي برئاسته وصدرت جريدة الحزب (الاهالي)، فقد اشتدت اواصر الصداقة فيما بيننا، ولم يخل بهذه الاواصر بعض الخلافات في وجهات النظر فيما بين جريدتي (الرأي العام) وجريدة (الاهالي) في هذا الموقف أو ذاك من المواقف السياسية.

ان الحزب الوطني الديمقراطي يمثل بحق الطبقة البرجوازية الوسطى بكل مواصفاتها وبكل ما لها وعليها، وبكل ما فيه من وجوه بارزة تمثل في أكثرها بحق وحقيقة تلك الطبقة. وكانت الجريدتان (الاهالي) و(الرأي العام)، في هذه الفترات بالذات، في الذروة من كل الصحف الوطنية الأخرى ولربما كنت على شيء من المباهاة اذا قلت ان جريدتي (الرأي العام) كانت تلمّ كل الجماهير المتمثلة في الاحزاب الوطنية والتقدمية. كانت القاسم المشترك بينهم كلهم وبما كانت تشدني أنا أيضاً من اواصر المودة والتحبب وان بشيء غير قليل من الاختلاف في وجهات النظر، حتى ليصح القول انني كنت أنا بالذات أيضاً القاسم المشترك بين كل الشخصيات الشاخصة من تلك الاحزاب، الوطني الديمقراطي، الحزب الشيوعي، حزب الاستقلال والحزب الديمقراطي الكردي برئاسة زعيمه الفارس الرهيب مصطفى البارزاني، وسيأتي في معرض الستينات وما بعدها من هذه الذكريات، الحديث عن علاقتي به وبالصفوة المتميزة من أقطابه وبخاصة فبولديه ووريثي زعامته ادريس ومسعود، وعضده الأيمن لفترة طويلة جلال الطالباني.

أما بصدد الحزب الوطني الديمقراطي نفسه ـ وشأني في ذلك شأني مع الشخصيات الأخرى ـ، فما ازال حتى الآن احتفظ بالذكريات الطيبات مع الجادرجي وحسين جميل والدكتور فيصل السامر وعبد الله عباس وفاضل مهدي عدا ما قد تخونني الذاكرة من الشباب الطيب العاملين بنزاهة وامانة في هذا الحزب أو ذاك.

وبمثل ما كان مني مع السيد الجادرجي في اللقاء الأول من لقاءات عديدة متميزة بما تخللها من أكثر من لقطة واحدة من الذكريات التي تكاد تكون شاخصة أمامي وأنا في الثمانينات . . . احب ان اوجزها . .

فالأولى منها، هو ما يشبه التلازم على طول الخط وعلى امتداد أكثر من شهر ونحن في معتقل (ابو غريب) في اوائل الخمسينات وإلى جانب الطلائع من كل الاحزاب والشخصيات الوطنية المعدودة ومما تخلل ذلك من امازيح واحاديث بل حتى من التسابق في رمي (السهام) على الهدف المنصوب لنا في ساحة المعتقل للترويح عن النفس.

وكنت والجادرجي من دون كل الآخرين من المشاركين في هذه المبارات نتميز بالتنافس فيما بيننا على من هو أحسن رمياً وأحكم اصابةً للهدف . . . وأذكر بدقة ان كلا منا احتفظ بأكثر من سهم واحد من هذه السهام بعد ان اطلق سراحه لمجرد الذكرى.

والثانية، ما كان من امر زيارته لي وأنا موقوف في مديرية التحقيقات الجنائية مما سيأتي ذكره.

والثالثة، هو ما كان من اقامته لي حفلة عشاء صغيرة بعد خروجي من التوقيف بسبب قصديتي في «هاشم الوتري» اوائل عام **١٩٤٩** حيث هرع، إلى مكتبته ليجيء لي بكتاب جميل الغلاف، واجمل منه، ان لم أقل من كل ما في الكتاب، فالصورة الساحرة بجمال مؤلفته وفتنتها، ولا احب ان اجيء بأسمها تحاشياً من اطالة الحديث، عما كان بعد ذلك. ليقول لي :

ـ «أتعرف صاحبة هذه الصورة؟»

ـ «المحظوظ هو، يا ابا رفعت، الذي يعرفها أو يتعرف عليها».

ثم ليبادرني بتقليب أكثر من صفحة واحدة من هذا الكتاب وفي كل واحدة منها ما يشبه التعبد للجواهري ، وصفحة منها ما تزال أمامي الآن تقول فيه بالحرف الواحد:

ـ «انه إلهي» .

إلى غير هذا وذاك من مواقف طيبات لابد للقدر ان يختتمها هي وغيرها ومع كل الوجوه التي احببتها واحبتني بالوداع الاخير.

الفصل التاسع

علاقتي بالأحزاب الوطنية   الرجل الطيب

كان لي في اوائل الاربعينات ان لم تخني الذاكرة، أول لقاء، بالشيخ مهدي كبة، بصدد ما كان من شاعر «استقلالي» لربما كان شفيق الكمالي والذي سبق له ان نشر قطعة صغيرة بعنوان «لمن التمثال؟» كانت القطعة تدل، في ظاهرها، على انها تقصد ظلماً وعدواناً التمثال الجميل الذي اقيم للملك فيصل الأول. على مدخل الصالحية من جانب الكرخ.

والناحية الجمالية في هذا التمثال، ان الملك فيصل يتجه بوجهه، وبكل اساريره إلى البوابة الغربية، إلى سوريا، وكأنه يريد لهذه الصورة الجميلة أن تحقق ما لم يقدر كل من تعاقب على الحكم في البلدان العربية حتى الآن، ان يحققه من الاتحاد المنشود والمزعوم!!



محمد مهدي كبه

وكانت الدعوى قد أقيمت على الشاعر، وكنت أحد المحَكَميّن من قبل المحكمة، فيما تهدف اليه القطعة وصاحبها.

وقصدني «مهدي كبة» ليتوثق من موقفي في الدفاع عن الشاعر، وكان

ذلك امراً مفروغاً منه لديّ، بحكم التقاليد المألوفة، في ان ينتصف الشاعر للشاعر.

واتفقت مع المحَكّمين الآخرين، الطف اتفاق وأحسنه، واطيبه تخلصاً، وهو ان الشاعر يريد تمثال الفاتح المحتل، الجنرال (مود) والذي كان على مقربة من الصالحية وعلى بوابة السفارة البريطانية.

أما بصدد حزب الاستقلال نفسه، فقد كانت لي صداقة ومودة والتقاء مع ثلة من رجاله، وفي المقدمة منهم، فائق السامرائي واسماعيل غانم، وصديق شنشل.

مع هذا، وانصافاً للتاريخ، مقروناً بالأسف، فقد كان حزب الاستقلال ستاراً كثيفاً على من اندس فيه بأسم القومية، والقوميين، من المشبوهين ومن اجهزة «الامن» ومن المرتزقة، ممن جعلوا منه طرفاً في انتكاسة «وثبة كانون» ضد معاهدة بورت سموث البغيضة، وهي، أي الوثبة، في اسبوعها الثاني.

وعلى الجانب الآخر، وبمشاركة اسيفة من قبل الاحزاب الوطنية كلها وفي الجملة منها حزب الاستقلال نفسه وفي انتكاسة الوثبة، وهذا ما سآتي على ذكره لاحقاً.

وكان حسين تيمور ممثل السفارة البريطانية بلباسه الرسمي في الطليعة من هؤلاء الذين اضروا بسمعة حزب الاستقلال، بمثل ما أضروا بأمر علاقتي أنا، برئيسه الطيب.

ان قلة اتصالي بالسيد مهدي كبة، لا تنقص من تقديري له، بالرغم مما اضطرني «ضابط العلاقات» في السفارة البريطانية، حسين تيمور هذا وفي معرض الدفاع عن النفس، إلى اخلال بهذا التقدير.

فهو بحد ذاته، اعني (كبة)، من قلة من رجال السياسة في العراق، تُستل في امانتها ونزاهتها، من كثرة هي عبء ثقيل على التاريخ وعلى المجتمع.

وهو إلى جانب ذلك من عائلة (آل كبة) العريقة، وعميدها الحاج مصطفى، سمير السيد (الحبوبي الشهير)، وصفيه الوفي، وللحبوبي فيه أكثر من موشحة، واشهرها:

هزت الـــزوراء اعـــطاف الـــصـــبـــا
وصـــفـــت لي رغـــدةُ الـــعـــيشِ الـــهـــنـــي
فارعَ من عهـــدك ما قد سلفـــا
وأعـــد يافـــتـــنـــةَ الـــمـــفـــتـــتـــنِ

وقد جرت الاشارة إلى أروع ما فيها عن (غزال الكرخ) أما ما يخص عائلة الجواهري بالذات، فنحن اصهار، فأبن خالتي، محمد الرضا، متزوج من احدى كريمات بيوتهم.

وقد احسن حزب الاستقلال في اختيار مهدي كبة رئيساً له.

الفصل السابع

علاقتي بالأحزاب الوطنية   الرجل الصلب

بعد عناء العمل في الجريدة، كنت اقضي اوقاتي مع عائلتي. كان ذلك في دار ذات طابقين، الثاني لادارة تحرير الجريدة، والأول للعائلة.

ذات يوم من العام ١٩٤٢، كنت احتسي الشاي عصراً مع العائلة، جاءني أحد عمال المطبعة، منبئاً بمقدم ضيفين.

وجدت في الطابق الثاني «ذو النون ايوب» وقد تقدم في المجلس، وفي الزاوية المقابلة رجل مجهول، اقرب إلى القِصَر، وفي عينيه ما يشبه العمش، لربما بسبب عمله وراء «الماكنة» تلقيت «ذو النون ايوب» بالمألوف من التحايا، وكان حينئذ زميل مهنة، اذ كان يصدر مجلة هي واجهة من واجهات الحزب الشيوعي العراقي آنذاك.

وقدم لي «ذو النون ايوب» الرجل المجهول لديّ، والشخصية المدوّية في العراق.

وقربته إلى جانب وبعد تجاذب اطراف من الحديث، على فنجان قهوة، استل الرجل من جيبه حزمة اوراق قائلاً: «هذه مقالة، ان رضيت عنها، فبوسعك نشرها.. ولك الفضل»، ناديت على أحد العاملين في الجريدة، وطلبت منه ان يعتني بها وان تكون افتتاحية لعدد الغد.

حدّق الرجل في وجهي بذهول وتعجب، قائلاً: «ياأستاذ، ألا تريد ان تقرأ ما فيها أولاً؟» قلت: «لا، لن اقرأ ما تكتبه أنت!» وفعلاً، لم أعرف ما ورد في المقالة إلا بعد ان قمت بنفسي بتصحيح مسودة الطباعة، قبل ان يصدر العدد وتصبح بين ايدي الناس، لتثير صدى مدوّياً.

كان الرجل: فهد! «سكرتير الحزب الشيوعي العراقي».

الواقع ان العارفين من الطبقة المثقفة اعلنوا بصوت واحد ان المقال له لأنه كان مقالاً في صميم الاقتصاد، والاقتصاد كما هو معروف، أساس السياسة والمجتمع وأساس المرحلة، فكيف والعراق في ضائقته الاقتصادية آنذاك؟.



فهد ـ يوسف سلمان يوسف

كان ذلك، أول لقاء لي بـ (فهد). أما لقائي الثاني به والاخير فاظن انه جرى بعد عدة شهور، في زقاق جديد حسن باشا، اذ مرّ بي شبح خاطف، في لحظة خاطفة لم التقط فيها غير لمحة من وجهه، واشارة عابرة لايماءة تحية باليد.

وبمثل ما أتيت به وأنا بصدد التعرف على الوجوه البارزة من شخصيات الحزبين، الوطني والاستقلال، فجدير بي ان اجيء على ذكر نماذج منها في الحزب الشيوعي أيضاً، وفي هذه الفترة بالذات وفي الطليعة منها، (زكي خيري) الذي تعرفت اليه أول مرة وهو عند ناظم الزهاوي وحسين الرحال وعاصم فليح والدكتورة نزيهة وعبد القادر اسماعيل وعزيز الحاج الذي كانت تشدني بوالده (الطيب) الحاج علي، علاقة وطيدة امتدت إلى أكثر من خمسة عشر عاماً.

الفصل السابع

دار القصائد[٧]

في مقطع وجيز وسمته بـ «بحثاً عن دار» وآخر بعنوان «القصيدة والمكان» اشرت إلى وشيجة خفية تجمع بين النفس والمكان، بين القصيدة وموضع ولادتها، وقلت ما قلت عن عدد رحلات التنقل من دار لدار، ومن محلة لمحلة، ان هذه الدور عندي تشبه حاويات أو حافظات لما جرى من احداث واحوال، أو حافزات لما تختزن به الذاكرة في لحظات التنائي والافتراق.

قضيت عاماً واحداً أو يزيد في الدار ـ الجريدة، ذات الطابقين، وعلى حلو ايامها، وعلى كثرة الارقام، فان داراً جديدة أخرى ـ وربما كانت الثلاثين ـ كانت بانتظاري، وتميزت بطول العهد فيها، أي بما يتراوح بين ٦ ـ ٧ سنوات: بيت مكشوف على دجلة وعلى أوسع الاضلاع من صدرها وفي الصميم من بطنها الجميل. ليست هذه الدار محض شيء، فان نظر المرء اليها على هذا النحو، لما وجد فيها أكثر مما في غيرها: جدران، وسقوف، وابواب ونوافذ.

غير ان ثمة فارقاً بين باب وباب، باب موصدة على النفس وباب تنفذ اليها. نافذة تحجب مسارب النور، وأخرى تطل عليها.

وانني اذ اعرب عن الاعتزاز بمكانتها والتأثر بفضلها عليّ، فان كلمة موجزة من الشكر والامتنان لازمة لهذه الرقعة ولمن دلني عليها خلال تجوالي وبحثي واقصد به عادل عوني صاحب جريدة (الحوادث).

في هذه الدار، تفجرت قصائد من اعز القطع، وحسبي ما قلت عن

واحدة منها، انها ستبقى ولو فنيت جميع اشعاري، اعني (المقصورة):

سلامٌ على هَضَباتِ العراقِ ... وشطّيهِ والجُرْفِ والمُنحنى
على النَّخْلِ ذي السَّعَفاتِ الطوالِ ... على سيّدِ الشَّجرِ المُقتنى
ودجلةَ إذْ فارَ آذيُّها ... كما حُمَّ ذُو حَرَدٍ فاغتلى
ودجلةَ تمشي على هَوْنِها ... ويمشي رُخاءً عليها الصَّبا
ودجلةَ زهوِ الصَّبايا المِلاحِ ... تُخَوِّضُ منها بماءٍ صرى
تُريكَ العراقيَّ في الحالتيـ ... ـنِ يُسرِفُ في شُحّه والنَّدى!

* * *

سلامٌ على قَمَرٍ فوقَها ... عليها هَفا وإليها رَنا
تلوذ النجوم بأذياله ... هفت إذ هفا. ودنت إذ دنا
كأنَّ يداً طرزت فوقَها ... من الحُسن مَوشيةً تُجتلى
رواءُ النميرِ لها لحمةٌ ... وذَوبُ الشعاعِ عليها سدى

* * *

على الجسرِ ما انفكَّ من جانبيهِ ... يُتيحُ الهَوى مِن عيون المها
فيا لَيتَهُنَّ الذي يعتدي ... ويا ليتَكَ الرّجلُ المُعتدى

وفيها ولدت، ـ وما اصعب المخاض ـ قصائد أخرى (ولى شباب فهل يعود) و (دجلة في الخريف) و (ستالينغراد) و (سواستيبول) و (تونس) و (ذكرى ابو التمن) و (جمال الدين الافغاني) والقصيدة الساخرة (طرطرا) بل ان انفاس قصيدة «المعري» تحمل شذى الدار نفسها. ولعل ايحاءاتها وصلت إلى قصيدتي (يافا) اثناء سفرتي إلى فلسطين، بل ان ذكرى هذه الدار انبجست في العام الواحد بعد الستين وأنا بمنفاي في براغ، فعدت اليها اناغيها، واناغي دجلة الخير، أم البساتين، بكل ما في الحنين اليها من سرّ

دفين، محاولاً عبثاً وعلى مثل هذه المسافات، ان تستجيب لي فتحييني. بل وان يستجيب لي عشي الجميل، عليها وأنا أناديه:

ويا مَقِيلاً على غربيِّها أبداً ... ذكراهُ تَعطِفُ من عودي وتَلويني
عُشُّ الأهازيجِ من سَجعي يُردِّدها ... سجعُ الحَمامِ وترجيعُ الطواحينِ
وسِدْرةً نبعُها خضْدٌ، وساقيةً ... وباسقُ النخلِ معقوفُ العراجين
يامجمعَ الشملِ من صحبٍ فُجعتُ به ... وآخرٍ رُحْتُ أبلوه ويبلوني
ويا نسائمَ إصباحٍ تصفِّقُ لي ... ندى الغصون بليلاتٍ وتَسقيني
ويا رؤى أُصُلٍ نَشوى تراوحني ... ويا سنا شفقٍ حلوٍ يُغاديني
ويا مَداحةَ رملٍ في مَخاضتها ... راحت أُصيبيةً تلهو فتُلهيني
وضجَّةٌ من عصافيرٍ بها فَزَعٌ ... على أكِنَّتِها بين الأفانين
ومنطقٌ ليس بالفصحى فتفهمُه ... يوماً وما هو من حسٍّ بملحون
وأنت يادجلة الخيرات سِعْليةٌ ... فرعاء نافجةُ الحصنين تعلوني
لا ضيرَ كلُّ أخي عُشٍّ مفارقُه ... وأيُّ عُشٍّ من البازي بمأمون!

* * *

ويا ضجيعيَ كرىً أعمى يلفُّهما ... لفَّ الحبيبين في مطمورةٍ دُون
حسبي وحسبُكما من فرقةٍ وجوىً ... بلاعجٍ ضَرِمٍ كالجمْرِ يَكويني
يا صاحبيَّ إذا أبصرت طيفَكما ... يمشي إليَّ على مَهلٍ يحييني
أطبقتُ جَفناً على جَفَنٍ لأبصرَه ... حتى كأنَّ بريقَ الموتِ يُعشيني

اية دار هي؟ ولا اقول كانت، فكأنها ماثلة في روحي حتى الساعة، بل هي قطعة من الروح.

من هذه الدار نفسها كانت لي سفرتان، إلى سوريا ولبنان، واليهما انتقل الآن.

ليـلة عـلى الحـدود

في أول سفـرة لي إلى الشـام، في هذا العقـد، وصلت إلى (ابي الشامات) المدخل إلى دمشق، والتي كنت وما ازال اقول عنها:

«ان وزني يزداد فيها وأنا اشم عطر بساتين دمشق (كيلوين اثنين)».

وهي محطة الجمارك الاخيرة وسط البادية الرحبة التي تمتد من العراق إلى سوريا. سيارة اجرة فارهة، استأجرت المقدمة منها إلى جانب السائق، هي التي اقلتني إلى هذه البلدة ـ المحطة، الفاصل بين انتداب وانتداب.

نزل النـاس لفحص الامتعـة، وأنا بينهم، وانتهت المهمة بأقل من ساعة، وابتدأ المسافرون يرحلون إلا أنا. علام الاستثناء؟.

دخلت مكتب المسؤول عن مركز الحدود، في هذه الاثناء انطلقت سيارة الأجرة، تاركة حقيبتي الصغيرة. بقيت (رهين الدهشتين): المفاجأة والتهيب من التطفل في التساؤل عنها.

وتطفلت، فأوجزت: «ما الأمر أيها السيد؟» قال لي، بعصبية ـ فهمت بعدها انها مفتعلة ـ «انك ممنوع من دخول سوريا ولبنان».

والكلمة العليا، في سوريا كما هي في لبنان آنذاك لسلطات الانتداب الفرنسي . استسلمت لواقع الأمر، وصمت، بعد نصف ساعة، تبدل حال الشاب المسؤول من النقيض إلى ضده، فاذا به، بعد صمت مطبق، يحدثني والابتسامة تنتشر على اساريره «يااستاذ الجواهري، بوسعك ان تعذرني أو لا تعذرني، تعمدت ان اثيرك، لو صح ان يكون الحب اثارة، اسمي زهير، وأنا من الجزائر، في الجملة من الشباب الذين حفظوا شعرك واحبوك. ان كل ما

اردته وقد فوجئت بقدومك ان آتي بشيء جديد معك هو التصنع والتجاهل. أنت في هذه الليلة ضيف عزيز عليّ وعند الصباح سأرى ان كان بوسعي ان اتقدم اليك بما يسرك. انني ياحبيبي كما ترى، مجبر على تنفيذ اوامرهم ورغباتهم» ثم مدّ يده إلى درج من ادراج مكتبه فأخرج بطاقة حمراء مشيراً اليها انها بطاقة المنع، قلت: لماذا؟ قال «لا ادري!».

ورحت افتش عن السبب في أول ساعات الليل، بعد بحث وتنقيب، شخص أمامي ما كان غائباً عن ذهني:

تذكرت انـي وقبل ثلاث سنوات تقريباً، شتمت الانتداب الفرنسي والمنتدبين عليه في لبنان، في قصيدة لي انكرت فيها ان اجد في جنة الخلد غريباً عليها موّكلاً بعذاب من فيها، اعني قصيدتي في (عيد الزهور) وبالحفل الحاشد المهيب الذي اقيم في (بكفيا) المصيف الشهير الذي كنت فيه والعائلة كلها ضيوفاً على بيت من بيوتها ذوات القباب الحمر، وقد نشرتها مجلة (العرائس) اللبنانية ومطلعها:

أرجِعِي ما آستطعتِ لي من شَبابي ... ياسُهولاً تَدَثَّرَتْ بالهِضابِ
غَسَلَ البحرُ أخْمَصَيْها، ورشَّتْ ... عبِقاتُ النَّدى جباهَ الرَّوابي

وفي آخرها جاءت الابيات حاملة معها النفي والمنفي:

أُدْخُلوا «جَنَّةَ» النَّعيم تُلاقوا ... ألفَ «رُضوانَ» فاتحاً ألفَ باب
غيرَ أنّي أنكرتُ في جَنَّةِ الفِر ... دوس «ربّاً» مُوَكَّلاً بعذاب!
إيهِ «لُبنانُ»، والحديثُ شجونٌ ... هلْ يُطيقُ آلبيانُ دَفْعاً لما بي؟
خلتُ أني فررْتُ مِن «جور بغدادَ» ... وطُغيانِ «جَوِّها» اللهَّاب
غانماً «سَفرتي» وها أنا في حا ... لٍ أراها غنيمةً في الإياب
أفَيَبْقَى «آلأحرارُ» مِنّا ومِنكُم ... بينَ سَوْطِ «آلغريبِ» والإرهاب؟

وكان لها، ما يتوقع ان يكون من اثارة للشباب والشيوخ والمكبوتين على حد سواء، وكان (الشيخ يوسف سويدة) وهو أشهر محام في لبنان ومرشح لرئاسة الجمهورية اللبنانية آنذاك بين الحاضرين، فالقى كلمة جميلة ومؤثرة أيضاً، ختمها وهو يسليني عن غضبي وألمي ببيت (لاحمد شوقي) قائلاً: ايها السيد الجواهري:

وعـلينـا كمـا عليكـم حديدٌ   تتـلوى الاسـود في قضـبـانـهْ

وكنت اعتبـر ما ذكـرتـه في القصيدة مجرد هزة بسيطة قياساً على ما تعودت ان اواجه به الحاكمين في بغداد بين الآونة والأخرى، فكانت هذه شبه مماحكة لا أكثر للانتداب الفرنسي. ولم أكن اتوقع ان هؤلاء (الفرنجة) سوف توجعهم القصيدة ليصل بهم الأمر إلى حد المنع من الدخول، فهذا الأمر لم يخطر ببالي قط.

وقال لي (زهير): «أنت ضيفي.. وهذا سريري الخاص لك» ونام هو على اريكة وكان قد طبخ الاكلة الشهية بيديه، وفي الصباح، قال لي: «هناك الهاتف، ان كنت تعرف أحداً في دمشق وتريد ان تتصل به ليساعدك» وجاء ببـالي عبـد المـطلب الامين وهو من اعز اصدقائي، هذا الشاعر والأديب اللطيف الذي كان حديث المجالس الأدبية في دمشق، وكان حينئذ ذا مكانة في وزارة الخارجية السورية مقرباً من رئيس الوزراء جميل مردم وقد اختطفته المنية بعد ذلك وهو في ريعان شبابه، تحدثت معه، وطلبت منه التدخل بقدر استطاعته، فوعدني خيراً.

لقـد وجـدت نفسي وأنا في هذه البادية الجميلة، اشم نسيم دمشق وعلى ابوابها أمنع، مجبراً على الرجوع منها ومتاعي في العودة الحسرة والألم هذه المرة.

وكـان من (زهير) ان طلب اليّ ان نتمشى، فتمشينـا معاً إلى منطقة البادية من حوله، وإلى خيام البدو وشيوخهم، فكانوا يتلقونه كرئيس وحاكم، وتدور علينا القهوة المرة والمعطرة التي تختص بها القبائل العربية، وفي هذه

الاثناء وقبيل خروجنا وبُعيده، كانت يداه لا تفارقان جهاز (اللاسلكي) الصغير أمامه. ويتلقى دقات الجواب عليها وتدق معها نبضات قلبي واذا به يطلب وكأنه يحاول ان يتفرج عليّ للمرة الثانية ان نتمشى معاً من جديد، ومسك يدي وقال: «مع الاسف، ان الدقات الاخيرة التي كنت تستمع اليها كانت اصراراً على المنع، لقد حاولت عبثاً ان الوي من عنان رئيسي الفرنسي الجامح والغاضب عليك»، وتصنعت ببسمة كاذبة، الصبر والتجلد وقلت له، «لا عليك ياحبيبي، لقد كنت شهماً كريماً معي وأنا سأودعك في عودتي إلى بغداد، ذاكراً لك وشاكراً ممتناً».

ورد عليّ بغتة بشيء من الاستفزاز المتعمد: «ولكنني اجد يدك وقد مشت البرودة فيها» وبما يشبه الاستسلام قلت: «لا انها على حالها» فقال: «افلا تحب ان ازف لك بشارة جديدة؟ لقد تلقيت الآن الجواب بالسماح لك بدخول الشام» فودعته بقبلات حارة، واجتزت الخط الفرنسي الاحمر إلى دمشق.

سبق لي القول. انني ومنذ اواخر العشرينات أو على أقل تقدير بدءاً من الثلاثينات كنت، اغتنم أكثر من فرصة واحدة للذهاب إلى دمشق



عمر الفاخوري

وبيروت، حيث لي فيهما أكثر من شلة واحدة من الطلائع الصاعدة فيهما من أدباء وشعراء وصحفيين، في هذه السفرة وفي لبنان بالذات، تعرفت على ما يحق لي ان اسميه بشيخ الطالعين والصاعدين، واعني به عمر فاخوري الذي شاء القدر بعد هذه السفرة بعام أو عامين وفي تلك الدار في (الجعيفر) نفسها ان اتلقى نبأ وفاته ونعيه اليّ وان يضيف هذا النعي، قصيدة جديدة إلى ما يشبه ديواناً من الشعر بمفرده في رثاء من احب من الاعزة عليّ وما ابدع ما سبقني اليه بهذا الصدد شاعر الشعب المصري الأول (حافظ ابراهيم) بقوله:

اذا تصفحت ديواني لتقرأه   وجدت ان «المراثي» نصفُ ديواني

وكانت قصيدتي وكأنها تكمل نصف ديواني:

رِثاؤُكَ ما أشَقَّ على لساني   ورُزْؤك ما أشدَّ على جَناني

وكيفَ يُطيقُ عن ألمٍ بياناً   ثكولٌ شَلَّ منهُ الأصغرانِ

فيا «عُمَرَ» النضالِ إذا تشكَّى   شُجاعُ القَلْبِ من خَوَرِ الجبانِ

ويا «عُمَرَ» البيانِ إذا تغذَّى   عِجافُ النَشءِ بالفِكَرِ السِمانِ

ويا «عُمَرَ» الوفاءِ إذا تَخَلَّى   فُلانٌ في الشدائِد عنْ فُلانِ

ويا «عُمَرَ» الخلودِ إذا تغنَّى   بمجدِ الخالِيدنَ فمُ الزَمانِ

ضُمِنتَ مِن الردى لو كانَ طَولٌ   وأينَ القادِرونَ على الضَّمانِ

وبمثل ذلك، كان اللقاء بالشاعر العبقري (الياس ابو شبكة) الذي لم يشأ السمر والسهر، واحياناً حتى الصباح معه، ومع اللقطات الفريدة من شعره ان تدوم طويلاً ريثما إختطفته في الذروة من فتوته يد المنون ودخل (ديوان المراثي) عندي، ومن جديد وفي هذه الدار نفسها:

أخـي إلـياسُ: ما أقسـى اللّيالي تُنيخُ بكَـلْكَـلٍ وتقـولُ: ما لي
أخـي إلـياسُ: لا وصـريحِ وُدٍّ وعـاطـفـةٍ أرقَّ من الـزُّلال
ومـا شدَّ الـتَّصـافي من عُرانـا وحـلاَّهـا من الـفِكَـرِ الغـوالي
يَمـينـاً لسـتُ للدُّنـيا بقـالـي وإنْ كدُرتْ، ولا عنهـا بسـالـي
لأنَّـكَ كنـتَ تُوصـيـنـي بهـذا وتُـوصـيـنـي به سِيَرُ الـرِّجـال



الياس ابو شبكه

وبين هذين العلمين (الفاخوري وابو شبكة) كان الصحافي الأول من نوعه في كل العالم العربي وليس في لبنان وحده اسكندر الرياشي صاحب (الصحفي التائـه) وكفى بأسمه وجريدته كناية عن منزلتهما، لقد كان في الطليعة ممن نشروا قصيدة (افروديت) وقد بدأ بترجمتها ـ ومن جديد ـ فعلى لساني وليس على لسان صاحبها «بييرلويس».

لقد اقسم لي بأن القطع التي نشرت منها كانت اشد حرارة وتشخيصاً واثـارة ممـا جاءت بنصها الفرنسي، واخيراً وفي هذا اليوم الذي اكتب فيه ذكرياتي هذه وأنا على ابواب شهر آذار عام ١٩٨٨، اتلقى نبأ وفاة صديقي (ميخائيل نعيمة) الغني عن التعريف وهو يدخل في سجل الخالدين.

فإلى الله احتسبهم. . .

الفصل السابع

الوقـــوف بالمعـــــزة

ريح الاصطياف حملتني إلى الشام من جديد في صيف عام ١٩٤٤، وكان ما يشبه المصادفة، أو في الصميم منها، ان يعتزم ناظم الزهاوي وحسن الطالباني ـ وهما آنذاك موظفان بارزان في الدولة ـ، السفر بالقطار اقتصاداً وتدبيراً للامور، وترويحاً عن النفس، عن طريق (تل كوجك) ـ حلب، عبر الحدود السورية ـ العراقية ـ التركية.

ووجدت في اقتراحهما بالسفر معاً تسلية تشغلني عن متاعب الطريق. عند وصول القطار من الموصل إلى تل كوجك، نودي على اسمي من بين سائر الركاب وبلحظة خاطفة، حدست القضية، وهي عطف على القضية الأولى في ابي الشامات قبيل عام واحد.

وعلى قدر هذا النداء المفاجىء كان استغرابي المفاجيء أيضاً من ان يسمح لي بالدخول إلى سورية من ثغر (أبي الشامات) ويمنع دخولي اليها من (تل كوجك).

رضخت للأمر وحملت حقيبتي، وتابع القطار سيره. قضيت ليلة في ما يشبه العراء، في ساحة كبيرة ما أشبهها بساحة مسجد (الكوفة) أيام كنا، في عنفوان الصبا، نفترش فيها ما تهيأ لنا من بساط أو حصيرة مع حشد من الناس.

ومن العراء، نقلت في اليوم الثاني إلى فندق صغير، نظيف، كأن ترقية قد جاءت، أو درجة أعلى قد دفعت اليها، ثم نادى احدهم بأسمي، وطلب مني التوجه إلى مركز المحطة، حيث يوجد ما يشبه الحاكمين بأمرهما،

المتنافسين معاً، احدهما فرنسي والثاني بريطاني، الأول يخص سورية وتركية والثاني يخص العراق.

حين شاهدني الأخير في مكتبه، ابتدرني قائلاً: «نحن آسفون لما ارتكب المسؤول الفرنسي بحقك، نحن نعتذر، أنت مطلق السراح، وسيأتي القطار، بعد ساعة أو نصف ساعة.. مع السلامة، وأكرر اعتذاري مرة ثانية» وفهمت بعدئذ الواقعة بمحض الصدفة حيث بدا لي ان (ناظم) وزميله في السفر قد وصلا إلى دمشق، والتقيا بجماعة من بينهم جميل المدفعي فأبلغاه بالموضوع، واسرع (جميل) إلى التدخل، والحق انني عندما وصلت إلى دمشق بادرني بالسؤال.. وقال: «نحن آسفون لهذه الحادثة» وكانت تلك اشارة واضحة وكافية بتدخله في الأمر.

وقضيت قرابة شهرين متنقلاً بين سوريا ولبنان، وأوشكت على العودة إلى بغداد. انجزت فعلاً أوراق السفر عند شركة سيارات للنقل البري، وتسلمت تذكرة السفر.

مررت بمقهى (العربي)، الذي كنت اتردد عليه كلما زرت دمشق، لالتقي بصحبي واترابي من طلائع الشباب في سوريا، وحين دخلت المقهى، وجدتني وجهاً لوجه مع سعيد الجزائري الأديب المعروف، وكان يعمل في جريدة (القبس) المسائية حينئذ وكان صديقاً لي منذ سنوات، شأنه شأن نجيب الريس صاحب الجريدة نفسها.

طرداً للضجر، قلت له بعد قليل: «اتلعب النرد»؟ واذا به يقول ضاحكاً: «كم أنت بطران؟»

قلت «لماذا؟» قال: «تجلس في المقاهي وتطلب اللعب واللهو، وأنت ممثل العراق الرسمي في مهرجان المعري؟».

قبل ان اخرج من بغداد كانت تتوالى أنباء مهرجان الاحتفال بالذكرى الالفية لوفاة ابي العلاء المعري والتمهيدات لعقد المهرجان في سوريا، وكنت شخصياً أوالي نشر اخبار هذا المهرجان يوماً بيوم من خلال جريدتي (الرأي العام).

كذلك كانت الصحف والمجلات العراقية تنشر اخباره واسماء المشاركين فيه، ولم أكن من بينهم.

وكانت جريدة (القبس) بين ايدي الباعة، فنادى (الجزائري) على احدهم ليأتي بها، ووجدت في محل بارز فيها خبراً عن انتدابي لأكون ممثلاً للعراق في مهرجان ابي العلاء المعري.

في هذه الاثناء كان السيد طه الراوي والدكتور مهدي البصير قد وصلا قبلي، ممثلَين عن العراق أيضاً. وبعد ان تيقنت من صحة الخبر قلت: «ياسعيد، لقد فاجأتني بالأمر المدهش الغريب، فكيف سأكون جاهزاً للمشاركة بهذا المؤتمر الفريد من نوعه، والقريب من موعد انعقاده، وهو كما تعلم سيكون ملتقى الصفوة الباقية من التراث العربي في الأدب والشعر والتاريخ، وبكل الوجوه والشخصيات من الافذاذ في كل هذه المجالات. ومن كل انحاء العالم فضلاً عن البلاد العربية. كيف سأكون واحداً منهم، وفيما بينه وبيني اسبوع واحد؟».

ونحن في هذا الحديث، دخل صاحب شركة النقل، واعلمني ان السفارة العراقية بدمشق تطلبني على الهاتف، فذهبت معه واذا بالسفير العراقي بدمشق ـ وكان من معارفي ـ يقول لي ان لديه برقية مستعجلة ويتلوها عليّ بنصها المنشور في الصحف السورية، ويعلمني أيضاً ان المسؤولين في بغداد طلبوا منه بالحاح شديد ان يحملني على المشاركة في المهرجان فقلت له ما قلت (للجزائري) مضيفاً إلى ذلك «ألم يكن بوسع من ابلغوك ان يبلغوني قبل هذا وأنا بينهم ببغداد وعلى أقرب مسافة منهم؟» أجاب الرجل وبالحرف الواحد:

«اقبل يدك! هذا الفخر يعود إليّ في موافقتك، لأنني المكلف ليس فقط بابلاغك وانما بأقناعك» وقد اخجلني الرجل في الواقع، فقلت له:

«اكراماً لعينيك، سأحاول، ومبدئياً سأقبل التكليف» وانتهت المسألة.

والواقع انها، ابتدأت. فأنا بمزاجي الخاص وعلى مدى الحياة، لا تنفع معي كل الشفاعات والمحاولات بما لا ينسجم مع هذا المزاج، ومع ما تفرضه عليّ قناعتي الذاتية به، وفي هذه الساعة التي فرضت نفسها بنفسها

عليّ، كنت وكأني في حيرة بين الشيء والوجه الآخر، وبهذا الصدد منه، فقد كان ـ المعري المعجزة ـ الشيء نفسه ماثلاً أمامي، وكان الوجه الآخر من هذا الشيء وبسبب منه أيضاً، هو تهيبي وخشيتي من ان لا أكون كفواً لايفاء ـ المعجزة ـ وإن بعض الشيء من حقها، وكان من هذا وذاك ما يسر عليّ هذه المهمة الشاقة من جهة، وفي الوقت نفسه ما سيكون لي من موقف تجاهها ومن خوف وقلق وحرص عليها من جهة أخرى.

ومع هذا كله فقد كان عبثاً ان تنجح محاولاتي في الساعة نفسها واليوم نفسه الذي تلقيت فيه هذا النبأ المفاجيء. فسهرت ليلتي الأولى حتى الصباح والحقتها بأخرى وفي الليلة الثالثة، كانت حصيلتي من هذه النهارات والليالي الثلاث، قصيدة (داليّة) لا تقل عن السبعين بيتاً.

كنت أراجعها وافحصها واتمعن بها، فلا أجد (المعري) فيها ولا ما يجب ان يكون فيها عنه، وكانت نفسي في ذروة التوتر والهياج، فغضبت عليها ومزقتها قطعاً متناثرة، وفي اليوم التالي وقد نشر الخبر في أكثر من جريدة، صادفت صديقي الشاعر الأصيل (عمر أبو ريشة)، لا أدري كيف التقينا، ربما كان في المقهى نفسه أو في غيرها، واذا به يتلقفني بكل سرور وترحاب، ونذهب سوية إلى مغنى (الطاحونة الحمراء) ـ وكان آنذاك على ضفة بردى ـ مكان جميل جداً، هادىء وناعم وشاعري، فنتسامر هناك، ونأخذ بأطراف الحديث على رشفات من كأس وأخرى، وفي واحدة منها وجدته ينطلق ليقول:

«اقتربت الأيام. . . ماذا عندك؟» ضحكت وقلت: «يا (ابا الخطاب) ربما لن تصدق ان القضية بهذا الشكل الذي ستصغي اليه، الليلة قبل البارحة تلقيت النبأ وأنا هنا، وبطاقة العودة إلى بغداد معي، وحاولت ليلتين ساهرتين فلم استطع شيئاً مما أريد» فقال وهو لا يكاد يصدق «قل غيرها!» قلت: «هذه هي الحقيقة وليس غيرها».

وانتهت الجلسة الأولى، بعد الليلة الثالثة، وربما لا يتصور القارىء وأنا على مثل هذه الحالة، ومثل هذا القلق، وهذا الوضع من التمزق والأرق، ان أجد مدخلاً أو كما قال الحكيم الاغريقي (وجدتها!) بيتاً واحداً فقط:

قِفْ بالمَعـرَّةِ وآمسَـحْ خدَّها التَّرِبا وآستَـوحِ مَنْ طَوَّقَ الـدُّنيا بمَا وَهَبا

كدت ان اوقظ النيام وأنا اعيده بما يشبه الصراخ، هذا هو (ابو العلاء) وجدته!! وعلى العادة فقد التقاني (عمر) صباح هذه الليلة الساهرة، وعلى الطاولة نفسها وفي المشرب الجميل نفسه، اعاد عليّ السؤال، فقلت له: وجدتها يا (ابا الخطاب) فتساءل كيف؟ فقلت، قف بالمعرة، وعندها اهتز فرحاً واعتزازاً ليقول: «ياجواهري، هذا بيت وذلك بيت؟ وأي بيت؟ فأنشدني:

نفـيت عنـكَ الـعـلى والـظرف والأدبـا
وان خُلقـتَ لهـا، ان لم تزر حلبـا

فقلت وكـأني لم انشـر هذه القصيدة في جريدتي (الرأي العـام) بكاملها! «لمن هذا البيت المتهاوي يا (ابا الخطاب)، والذي ينفي الظرف والعلى والأدب عن كل من لم يزر (حلبا)؟».

قال: انه لبشارة الخوري «الاخطل الصغير».

قلت: «افهذا العقاب كله على هذه الجريمة؟! فيكون سيّئاً في حظه، وفي تاريخه، منفياً، عن «العلى» وعن «الظرف» وعن «الأدب» حتى وان كان «مخلوقـاً لهـا» لمجرد انه لم يزر «حلبا» أما أنت يا (ابا الخطاب) فلحسن حظك (حلبي) حسباً ونسباً ولا أقلُّ عنك في ذلك لأنني زرتها.

كان هذا البيت في ذكرى تشبه هذه الذكرى في عظمة من يتمثل فيها، وهـو «المتنبي» المعجـزة الأولى قبـل المعـري ـ وحسبه فخراً ان تتمثل به وتتعصب له المعجزة الثانية ـ ولكن بفارق واحد، هو ان مهرجان (المعري) لا يشابهه أي مهرجان آخر.

واستمر الحديث فيما بيننا بهذا الصدد، وختمته بما ضربت له من مثل مشـابـه: «يا (ابا الخطاب) ما أشبه الليلة بالبارحة؟» عندما كنا صبياناً في

النجف، كنا نلعب في ما يسمى بـ «حصن» أو قلعة («شيلان)، والحقيقة انه كان مجرد حجارة مصفوفة، لا تستحق بقليل أو كثير هذه التسمية أو تلك. كانت هذه لعبتنا المفضلة، ونغني لها «المايزور الشيلان عمره خسارة»، بل ان خسارة العمر كلها لمن يموت اهون من ان تنفى عنه كل تلك الامجاد.

في اليوم التالي، سألني: ماذا بعد؟ قلت: ولا بيت! قال:

«عصر اليوم سيكون موعدنا معاً في وادي العرائش بمناسبة الذكرى السنوية لوفاة صهري، فعسى ان تأتي السماء، أو يأتي الإله، أو شيطانك أنت بالذات، ليوحي لك بشيء!».

ذهبنا سوية إلى لبنان، إلى بيته في زحلة، وهو ما يشبه القصر الفخم، ثم توجهنا إلى (وادي العرائش) الساحر، الذي كنت قبل ذلك بعشر سنوات تقريباً قد غنيته بواحدة من أجمل قصائدي:

يومٌ من العُمْـرِ في واديكِ مَعدودُ   مُسـتـوحِشـاتٌ به أيَّاميَ السُـودُ

وهناك اقيم الحفل، واقول «حفل» لأنه لم يكن عزاء اذ جرت العادة عندهم حين يفقدون عزيزاً، ألا يزيدوا الجو الحزين نحيباً ولطماً للخدود وشقاً للجيوب وانما يعقدون جلسة مسلية معزية في آن واحد، ومعها كؤوس عرق على موائد كريمة. وكان هذا من التقاليد الحضارية الجميلة، التي تعجبني، بغض النظر عن انها قد لا تعجب الآخرين، أو انني اتجاوزها، أنا بالذات، تقليداً لا اجتهاداً. وكان الصديق (عمر) طائفاً عليّ، يتفقدني في الرواح والمجيء، وانتهت الحفلة الجميلة، فتساءل: «أكلُّ هذا لم يجدك نفعاً؟!»

قلت: «لا والله».

قال: «تعال وجرب شيئاً جديداً، سأنتقل بك إلى عش آخر. . . عش جميل، وطائر جميل. . جرب نصيبك واستوح منه ومنها.»

فتقبلت ذلك ممتناً، وصحبني إلى ذلك العش، على ربوة خضراء في زحلة وكان أصحابه من صغار المزارعين.

واستقبلتنـــا بالبـاب، تلك الصـورة المـاثلة أمـام عيني حتى الآن: الفـارعـة، البديعة، الفاتنة. لم يُطِل (عمر) الحديث معها بأكثر من جملة واحدة: «انني اضع بين يديك أعز من عندي.. وأريد ان يستوحي عندكم ومنكم وحياً والهاماً».

جلست، وجـاءت الفـاتنـة، الساقية، وكنت أنا في مثل هذا الحلم الجميل، تائهـاً، شارداً، لقد كان مزاجي وما يزال عجيباً، فالكائنات ومَنْ فيهـا، وما فيها لا تهمني بقدر ما يهمني ان التقط بيتاً ثانياً أو ثالثاً. والفتاة تتفرس، بهذا الطائر الجديد، الغريب، العجيب.

ولم ألمس، بطرف من اناملي تلك السيدة الجميلة، ولم الثم الوجه الساحر الذي كان يقتحم عيني، ونفسي، وضميري، واكتفيت من الجلسة الملهمة بأحتسـاء كأس من الشـراب، وتمـددت على الفرشة المهيأة لي، وتظاهرت بالنوم، بينما كل حواسي واحاسيسي يقظانة، حالمة بشيء عسى ان يكون وهو يتأبى ويستعصي.

في الغَبش، ارتـديت ملابسي، وخـرجت خروج السارق، انسللت وأصحاب المنزل في سبات، واظن ان احاديثهم في الصباح دارت عن هذا المتطفل الطارىء، الفريد من نوعه.

خرجت، على نية الاتجاه إلى دمشق، كان ذلك يوم سبت، ولم يبق على موعد افتتاح المهرجان إلا ما يزيد عن يومين أو ثلاثة بقليل، فوجدت الناس قادمة على العكس، من دمشق إلى زحلة، قلت لنفسي: «لماذا أنا ذاهب إليهـا ومن وادي العـرائش نفسـه؟ وفي هذا اليوم الموعود بخاصة؟» ففضلت البقاء في زحلة نفسها وفي أكبر مقاهيها وأجملها، متصارعاً مع نفسي علّها توحي إليّ بشيء. وأنا في صميم العسر من المخاض.

حان وقت الغداء فتناولته على عجل. وهجرت القيلولة كما هو دأبي، وتصرّمت الظهيرة الطويلة في صيف زحلة ووادي العرائش، الذي يجتذب، شأن لبنان كله، الجمع الغفير من العراقيين والعرب المصطافين، وأنا معروف عند الكثير منهم. انتبذتُ زاوية وعلى صورة اسطورية، وجهي إلى الجبل، وظهـري إلى النـاس. عسى أن يكـون ذلك أكثر من إشارة إلى من يراني

بالتعطف عليّ وتركي وشأني. وانتصب ـامي كأس عرق، ولفائف تبغ و«نارجيلة» معاً، ولم يبق لي مع ذلك إلا ما سبق لصديقي المحامي (قاسم العلوي)، وقد رآني في مناسبة أخرى وأنا ببغداد، وعلى مثل هذه الحالة عندما قال «ان الشيء الوحيد الذي يعوزني السويكة» وهي نوع خاص من الحشيش يتعلل به وكأنه بديل عن (الكحول). ولأول مرة في حياتي، آمنت بشيطان الشعر، أما بعد هذا باربع سنوات وفي «قارعة الطريق» فقد آمنت بالوحي والموحي، وما أزال مؤمناً وموقناً ان الانسان كائن طبيعي، مخلوق من هذا العالم، غير ان، قضية الفن والفنان وامتزاج المرء بعوالم أخرى عن هذا الطريق فشيء آخر، فالخلق نفسه هبة وموهبة ولكن في هذه المرة وأنا على مثل هذه الحال من الضياع، كنت اسمع همساً آخر خارجاً عن نفسي، فأسرعت بأمساك القلم لضبط الحروف والكلمات لكي لا يفوتني شيء منه، واذا بهذا الهمس يتحول إلى أبيات ثلاثة:

سل المقاديرَ، هل لازلتِ سادرةً ... أمْ أنتِ خجلى لما أرهقتهِ نصبا؟

وهل تعمَّدتِ أنْ أعطيتِ سائبةً ... هذا الـذي من عظيمٍ مثْله سُلبا

هذا الضياعَ الـذي يَهدي لِمكْمَنِه ... لصّـاً ويُرشدُ أفعى تَنفُثُ العطبا

وأعدت النظر وأنا أكاد لا أصدق هذا الهمس في الحروف التي أمامي، ودفعت الشك باليقين، فضربت الطاولة بجمع يدي، وبصورة استرعت انتباه من حولي، حتى البعيدين عني، نهضت ودفعت الحساب.

وبدون توقف لحظة واحدة، ركبت أول سيارة عائدة إلى دمشق ليلاً، اذ انتهت القضية، وتوقف الهمس، وصمتت النفس عن حديثها، واصبحت القصيدة كلها في جيبي.

فور وصولي إلى دمشق قصدت مقهاي المفضل (المقهى العربي) وترافق وصولي قبيل موعد اغلاق ابوابه بقليل. وكانت المفاجأة ان أجد لأول مرة بعد أكثر من شهرين، (بدوي الجبل) يقتحم عليّ جلستي في ما يسميه

ابناء الذوات «مقهى الصعاليك»، وكان صاحبي القديم هذا من عهد التدريس في الرستمية قد غدا صديقاً وزميلاً، أما الآن فهو شيء آخر، فهو نائب في المجلس النيابي مرشح للوزارة. اقتحم جلستي متظاهراً انه يبحث عن شخص ما، وافتعل موقفاً مثيراً، اذ اقترب مني وكأنه فوجيء بوجودي واذ به يقول: فلان؟

قلت: نعم، وفهمت من هذا كله ما كنت اتوقعه فعلاً وجلس ليبدأ الحديث وكأنه يعتذر عن ان تكون هذه الجلسة اللقطة الأولى فيما بيننا.

فقلت له: «ياصاحبي (الملك!!) انني هنا، في ما بين سورية ولبنان منذ شهرين وأنت لم تهتدِ حتى الآن، وقد نشر خبر قدومي في كل الصحف».

فكان لبدوي الجبل ما يفترض ان يكون لكل من هو في موقفه من تلفيق هذا الاعتذار أو ذاك. ثم اردف ذلك بما جاء من اجله وبما كنت اتوقعه منه، هيا يا أبا فرات.

قلت: ماذا.. وإلى أين؟

ردّ قائلاً: المهرجان.

قلت له: «قبل كل شيء أنتَ القادم، فهات ما عندك» ومد يده، وكأنها مُعَدَّة ان تمتد هي بنفسها إلى جيبه، وأخرج أوراقاً براقة، جميلة، منقحة، وهي قصيدته (الحائية). كانت القصيدة وكأنها تتحدث عن (موسوليني) والقوى الباطشة والسلاح - (وعلى الصفّاح) لا يبدل من ذلك شيئاً - عطر التفاح، لكأني بشخصية المعري، وحياته المنسوجة من تواضع، وبساطة، وتحريمه أكل الحيوان وما تدر من البانها، وبالطبع تحريمه ان يذبح أمامه، قد شبهت ببديل مناقض آخر بطاش ومتجبر، وسألني وقد أتمها:

والآن، فماذا لديك يا أبا فرات؟

قلت: لقد وصلت لتوي من زحلة، وآثار التعب شاهدة فهل تصدق ان كل ما عندي أربعة أبيات ليس إلا، حتى هذه الساعة.

قال، وهو يكاد ان لا يصدق، : هاتها!

فأنشدت: قف بالمعرّة... وما تلاها من أبيات.

وبمزاج الشاعر الأصيل، فقد صنع، تلقائياً، الحركة نفسها التي صنعتها:

دق بيديه، بكل قوة، على الطاولة، صائحاً: «ينعل....» اعدها.

واعدتها، والوقت منتصف الليل والمقهى يغلق ابوابه، وأخيراً ونحن نودع بعضنا البعض، فقد استوقفني ليقول لي للمرة الثالثة: اعدها...

واعدتها... هز رأسه قائلاً: «اذهب لوحدك».

في صباح اليوم التالي، الأحد، كانت القصيدة قد تبوأت تاج قصائدي، وملكت شغاف قلبي، وضفاف مشاعري، واصبحت المولود الذي انتظرته بفارغ الشوق والصبر واللهفة. ومن حسن حظي أن استطعت ان انهي القصيدة قبل الافتتاح بيوم واحد، ولم يكن لدي متسع لكي اغامر بما يزيد عليها أو ينقص منها، كما هو شأني في كثير من قصائد غيرها.

وكان دوري يأتي في جلسة الافتتاح، فالسيد (خليل مردم) رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، والمسؤول الأول عن المهرجان هو من افتتح الجلسة، ملقياً بالنيابة، كلمة رئيس الجمهورية السيد (شكري القوتلي) فالدكتور (طه حسين)، وأنا من بعده.

وبينما كنت القي القصيدة كانت يدي اليمنى تمتد، عفو الخاطر، إلى الكتف اليسرى للدكتور طه حسين الذي كان بجانبي وهذا الرجل ليس (ابا العلاء)، لكنه كان الوحيد ممن يجمع ما بين فكره وملامحه شيئاً غير قليل من خصائصه وبما يتلائم مع المرحلة التي نعيشها فضلاً عن انه كان في الطليعة من المعنيين به تناولاً وجمعاً واطروحةً. بعدي، جاءت الكلمة الغالية والثمينة للاستاذ (أحمد أمين)، وفيما بين هذا وذاك وجدت (بدوي الجبل) ينهض من مكانه ليطلب من السيد (مردم) ان يسمح له بالقاء قصيدته التي لم تكن مدرجة في منهج جلسة الافتتاح وكان رد (خليل مردم):

«انك من اللاذقية، وقصيدتك ستكون فيها وليس هنا».

وازاء اصراره على الالقاء اجابه (خليل مردم): «تفضل الق، شرط ان تأتينا بجديد في الجلسة القادمة وفي مدينتك اللاذقية». والقى بدوي الجبل قصيدته الحائية.

استمر المهرجان اسبوعاً كاملاً بما في ذلك من الرحلات. وبعد انتهائه أقام الدكتور (طه حسين) حفلاً فخماً على حساب الوفد المصري معه، وحين كنا، نحن الوفد العراقي، حتى بدون مصروف جيب، كان الدكتور (طه) يقدم صكاً بخمسة آلاف جنيه ـ وللجنيه الواحد حينئذ مكانته ـ تبرعاً باسم الحكومة المصرية، لتعمير قبر (ابي العلاء) وبأكثر من ذلك بكثير، فلطباعة آثاره ما نشر منها وما لم ينشر، وهي كثيرة، وقد اهداني بعد فترة من الزمن نسخة من كل واحدة منها، وبالاضافة إلى ذلك فقد أقام مأدبة عشاء لا افخم منها ولا أجمل، وأخذت قبيلها اترنم بقطعة شعرية مهداة اليه (إلى مضيفنا)، ولقد تأخرت عن العشاء، وحين نزلت كانت المائدة على آخرها. فقال له الدكتور عبد الوهاب عزام وأنا بجانبه هو وأحمد أمين:

«يادكتور! الجواهري سيلقي قطعة شعرية، فهل تتحدث أنت المضيف ويثنّي هو؟ أو يتحدث ويثني أنت؟ فقال: «لا والله أنا أثني، الكلمة الأولى له وهو المضيّف الأول».

فكان مني ان القيت قصيدتي (احييك طه) ومطلعها:

أُحَيّيكَ «طه» لا أُطيلُ بكَ السَّجْعا كفَى السَّجعَ محضُ إسمك إذ تُدعى



طه حسين

وتضمنت القصيدة دعوة لزيارة العراق، وبعد انتهاء القصيدة قام، وتحدث ما شاء عني وعن القصيدة وكان أجمل ما فيها ما افتتح به كلمته «ان من البيان لسحراً» صدق الله العظيم... ومن ثم اعرب عن افتخاره بقبول هذه الدعوة، ونشر الخبر في جرائد العراق، وكانت الحكومة مستعدة لاستقباله، ولكني لا اعرف كيف صارت الظروف فيما بعد.

بقيت في سورية ولبنان أياماً قليلة بعد ان ختمت ذروتها بقصيدة (المعري) العظيم، التي كلفتني الاقصى من التعب والاضنى من الأرق والسهر، ولكنها تستحق كل ذلك.

وعلى خلاف ما درجتُ عليه من الاثبات ببعض الابيات الشعرية في كل مورد يختص بهذه المناسبة أو تلك فاني لأستثني قصيدة «قف في المعرة» وذلك بسبب من صعوبة تجزئة البيت والآخر منها، وللقارىء ان يراجعها باكملها في المستدرك من هذه الذكريات.

الأفغاني، أبو التمن..
تأمل في القصائد ومناسباتها

بعد الوقوف المضني والزاهي في (المعرة)، عدت إلى العراق، إلى عشي الصغير في (الجعيفر)، وإلى جريدتي (الرأي العام)، حيث كانت تنتظرني دعوة رسمية من مديرية الاعلام للمشاركة في استقبال جثمان الزعيم الخالد: (جمال الدين الافغاني)، أحد مشاعل التنوير الفكري في هذا العصر. فكانت قصيدتي:

هَويتَ لِنُصرةِ الحقّ السُهادا ... فلولا الموتُ لم تُطِقِ الرُّقادا

وكانت شديدة الوقع على رؤوس الحاكمين واتباعهم. واذا كانت هناك قصيدة ثانية وعلى شاكلة «قف في المعرة» فهي هذه القصيدة التي تلتها، لفرط تلاحمها وتداخل نسيجها مما يستوجب الاطالة على القارىء، فله أن يرجع اليها فيما يستدرك من القصائد أيضاً.

بعد انتهاء القصيدة، تقدم السفراء العرب، مهنئين بما اعتبروه صرخة مدوّية، تتالت بعدها صرخات وصرخات فبعد ـ هويت لنصرة الحق ـ جاءت قصيدة (جعفر ابو التمن).

لقد كان (ابو التمن) رجلاً من بغداد، ومن عائلة تجارية مشهورة، ـ وقد مارس التجارة بنفسه ـ وتقلب بين امواج السياسة واجواء الزعامات الوطنية المألوفة. ومما جاء في قصيدتي عنه:

قَسَماً بيومِكَ والفُراتِ الجاري ... والثورةِ الحمراء والثُّوّار

واذا كانت قصيدتي في جمال الدين الافغاني، اكراماً لعقل منوّر كبير ولثائر شجاع، فان قصيدتي في ذكرى (ابو التمن) تستثير تساؤلات.

ان القارىء الآن، أو بعد الآن، قد يستغرب، عندما يكشف التاريخ أوراقه كلها، عن الأشخاص والاحداث والمواقف، قائلاً: ما علاقة الجواهري بفلان أو فلان بحيث يستوجب ان يقول فيه ما لا يجب ان يقال من المغالاة في التكريم؟.

ولا ينطبق هذا على قصيدتي في (ابو التمن) لوحدها، بل على أكثر من قصيدة كقصيدتي في (الوتري) وفي (كرامي) وغيرهما. ولربما كان ابو التمن في أكثر من موقف من مواقفه، مستحقاً لشيء من ذلك التكريم طبعاً، غير ان تكريمي يأتي قبل كل شيء، وفي مثل هذه المناسبات ليكون مدخلاً لاثارة الناس ولمجرد مشاركتهم آلامهم وعذاباتهم ولمجرد بغيتي في ان ينتفض المحكومون على الحاكمين، أي اني لا يخطر على بالي سوى ان تكون القصيدة سبيلاً ومدخلاً إلى الجماهير لا أكثر لأقول الكلمة الجريئة، الحق، ولأعبر عن نفسي وعن خوالجها.

وفي كثير من هذه المواقف، التي تبدو وكأنها شخصية، في سبيل رثاء فلان أو تكريم فلان أو ذكرى فلان، كنت ادفع احياناً اثماناً بين الغالية والمتوسطة، وأقل ما في هذه الاثمان ما كان يتبعها من تربص الحاكمين، ودوائر الأمن، ومن مضايقة الدار، أو توقيف أو سجن.

أما أكثرها وأشدها، فهو الصبر على المعاناة والحرمان بل على حقد الحاقدين وتشفي الشامتين وابتذال المشبوهين على حد سواء، من المحكومين المستأجرين لمثل هذه المواقف أو من الحاكمين انفسهم.

لقد كنت في الجملة من طلائع الشباب أو الكهلة الذين نتفيأ ظل هذا الزعيم (المتزعم) أو ذاك فنلتف حوله وكأننا نسينا الذي كان قبله، ولربما كانت الصورة التي اخلعها على هذه الفترة هي في الصميم من حقيقة وواقع المجتمع العراقي وعلى الجانب الآخر فلربما تصح ان تكون عذراً لي ولمن هم من طبقتي كما اشرت، لما كنا نتخبط به في عالم لم نخلق له ومما يصطلح عليه - في المجتمعات العربية كلها وليس في العراق وحده -

بالسياسة والساسة وحيث لا يلتقي هذان المفهومان بشيء من مفاهيم العالم الحضاري المتقدم.

لقد كان ذلك كله منا، كنا آنذاك في مثل هذه الحيرة وان شئت فالتخبط. أما الآن فإن الأمر صعب حيث أصبحت مقاييس الجيل الواعي الصاعد عالية يصعب اختراقها، إذ لم تصبح الزعامة أمراً يسيراً كما كانت عليه. وعلى كل حال، وعلى سبيل المثال، فسيتعرف القارىء عما قريب وبهذا الصدد على ما دفعته ثمناً غير زهيد في سبيل (هاشم الوتري) وبعد ذلك في الخمسينات مما دفعته ثمناً لـ (عبد الحميد كرامي) وها أنا اليوم وعلى ابواب التسعين ممنوع مما لم امنع عنه في عهد الانتداب الفرنسي ألا وهو دخولي لبنان!.

على أي حال، جئت إلى الحفل الرهيب في ذكرى (ابو التمن) وفي الجملة من هذا الحفل، وجوه عديدة شاخصة من الساسة الحاكمين يتقدمها وجه نوري السعيد.

جئته، وكنت مشحوناً بقصيدة فرّجت بها عن نفسي وفجرتها بوجوه المعنيين بها في وقت واحد، ومع ذلك فقد كنت احسب الحساب العسير لعواقبها.

وكانت القصيدة غضباً جامحاً وتحدياً عنيفاً. ترى كيف تحملوا هذا الانفجار؟ كيف تحملوا صحفاً وطنية ثلاثة أو أربعة تسابقت على نشرها وقد قلت فيها ما لم يقله موسى في فرعون.

خمسٌ وعشـرونَ انقضَتْ وكـأنَّهـا ... بشخُـوصِهـا خَبَـرٌ منَ الأخبـارِ

ضِقـنـا بهـا ضِيقَ السجين بقيدهِ ... من فَرْطِ ما حمَـلَتْ من الأوزارِ

من كان يحسَبُ أنْ يُمَـدَّ بعُمـره ... حُكْمٌ أقيمَ على أسـاسٍ هاري؟!

ومِـن الـفَـظاعـةِ أنْ تُريدَ رَعيَّةٌ ... في ظِلِّ دُسـتـورٍ لهـا وشِعـارِ

منـا يَطلُبُ المـأسـورُ من يدِ آسرٍ: ... إسـداءَ عارفـةٍ وفَـكَّ إسـارِ

وهـذه بواقـع الحـال، طبيعة المجتمعات العربية، وبخاصة فطبيعة الشعب العراقي.

ان (٧٠) مقـالـة جارحـة لا تعـادل اثر قصيدة بمستوى (ابو التمن) أو (هاشم الوتري) أو غيرهما من قصائد الشعراء الثائرين كلهم في هذا البلد العربي أو ذاك.

والشعب العراقي شعب عجيب، حتى الذي لا يقرأ ولا يكتب، يزحف كي يسمع الشعر المثير، سياسة كان، غزلاً كان، مدحاً كان، شتماً كان!.

في القصيدة، قلت ما لا يقال، وما لا يطاق. مع هذا خرجت بأمتداد قامتي معتـزاً وشـامخـاً، حراً ومحبـوبـاً، ويشهـد على ذلك من عاش فترة الاربعينات، من الذي كان يمتلك جماهير العراق.

لقد كانت قصيدتي هذه، شأن قصيدة (المعرة)، قد تسامت في آخر لحـظة. وكان اجود ما عندي في كل قصيدة يأتي على هذا المنوال، كأن الشحنة تنفجر عندي وتنفلت أشد الانفلات وأنا في اجيج اللمسات الأخيرة منها.

وهذا ما كان مني في (الوتري) ببغداد، وفي (المالكي) بدمشق على سبيل المثال لا الحصر. كيف قلت فيها ما لا يقال ساعتها؟! وكيف يسلم صاحبها؟

لقد كان الحاكمون انفسهم نزولاً على حب الجماهير وهم مرغمون، ثم نزولاً على حكم البـراءة والتجرد عن كل مطمع ومطمح لا يجرؤون ان يمدوا اليه يداً!!.

واذكر انني حين وصلت إلى....

قَسَمــاً بيومِـكَ والفُـرات الجـاري والـثـورةِ الـحـمــراء والـثُّــوار

قامت قيامة الحاضرين، رغم ان المجلس، مجلس تأبين، فقد خرج عن نطاق المـألـوف، فكـان الهتـاف والتصفيق اثنـاءَهـا، والاشارة جلية،

فالقصيدة تعني المخضرمين والشائخين والمتفرعنين من رجال الحكم، وكانوا في الطابق الأول من القاعة: رؤوساء ووزراء وساسة:

شاخَ الشبابُ الطيّبون وجُدّدتْ فيها شَبيبةُ شِيخةٍ أشرار
وبدا على وجهِ الحفيدِ وجدِّه للناظرينَ تقارُبُ الأعمار

وقيل ان (نوري السعيد) انسحب وأنا القي:
خمس وعشرون انقضت......

بعد القصيدة وما تلاها من وقع، عرض عليّ (سعد صالح) ـ وكان يحسب لها ولعواقبها ما كنت قد حسبت لهما ـ ان استريح في بيته للقيلولة، وافترش لي فعلاً في صالون الزائرين فراشاً نظيفاً. لكنني لم استطع النوم، فما وجدتني إلا وأنا انفض الغطاء عني وارتدي ملابسي، واخرج على طول قامتي، واغادر بيته (كان في الصالحية)، إلى بيتي في (الجعيفر) والذي يقع على الجانب نفسه من دجلة مشياً على الاقدام.

بقيت هناك إلى ان تلقيت هاتفاً منه مستفسراً.

قلت: «يا أبا لؤي، لست معتاداً ان أجد نفسي في مثل هذا المكان. أنا مغامر في حياتي، ومتوقع كل شيء. وغير مجد ان ابقى عندك اليوم متخفياً وغداً عند غيرك».

وذهبت إلى الجريدة، فالتقيت زائرين من ذوي العلاقة معي، اخبروني ان امراً بالقاء القبض عليّ صدر فعلاً، بينما كان المسؤولون كما علمت بعد ذلك بقليل، قد عدلوا عن ذلك.

ومهما كان الأمر فلم اكترث. وصدرت (الرأي العام) مساء، حاملة القصيدة بكاملها على الصفحة الأولى. ونقلتها صحف أخرى في اليوم التالي.

عدت إلى البيت سالماً، وبقيت سالماً، ولم تمد يد عليّ. اعيد

القول: هذا ما كان يسمى بالعهد الملكي وما سمي بعد ذلك بالعهد المباد. ومما كان بعده من عهد (جمهوري!!).

يتوجب على المرء ان يقف هنا، برهة، ليفكر، لا في ما عاشه من هذه الحياة الطويلة الشاقة، حسب، بل ليفكر أيضاً كيف يجب ان يكتب التاريخ، وبخاصة فللجماهير شبه المخدوعة في العراق، بصراحة وبصدق وبأمانة كما تقتضيه حقيقة التاريخ نفسه.

وبعد زمن قصير طلب الدكتور طه حسين هذه القصيدة مني، فكتب له الدكتور النحاس، استاذ الرياضيات في جامعة بغداد وممثل مجلة الكاتب الشهيرة، التي كان الدكتور طه حسين يرأس تحريرها، كتب:

«ان القصيدة قد نشرت في أكثر من خمس صحف»، واجابه الدكتور (طه) «انني اريد هذه القصيدة حتى وان نشرت»!! ومما قاله الدكتور طه حسين بصددها: «هو اني أريد بها ان أجعل الحاكمين الضيقي الافق والمحدودي المعرفة في كل بلد عربي، يعرفون متى يأتي دورهم!».

الفصل السابع

الفردوس المفقود، فلسطين..

في يوم من أيام هذه الفترة من النصف الأول للاربعينات، وأنا في جريدتي (الرأي العام) جاءني هاشم جواد ـ ولا أعرف ماذا كانت وظيفته آنذاك ولا السر في ان يصبح وزيراً للخارجية بعدها ـ جاءني في مقري، منتدبا عن البريطانيين المشرفين على محطة «اذاعة الشرق الأدنى» ليقول لي: انه مكلف من فرع هيئة الاذاعة البريطانية في بغداد بدعوتي لاقامة أمسية أدبية وشعرية في (يافا).

وترددت باديء ذي بدء لمجرد ان الانجليز بالذات هم المشرفون عليها، غير ان الذي شجعني هو سماعي قبل ذلك بأكثر من شخصية أدبية واحدة وعلى سبيل المثال، فـ (العقاد) و(طه حسين) وهم يلقون منها بعض احاديثهم.

قلت لـ (هاشم جواد): «فكرة لطيفة.. وتعجبني، وأريد ان أرى (فلسطين) العربية الجميلة، والدعوة مقبولة مبدئياً، شريطة ان ألقي ما أشاء من قصائدي أو كلماتي من دون تدخل في هذه أو تلك».

قال: «سأبلغ الجماعة، واخبرك بالجواب»، وفي اليوم نفسه جاء الجواب بالموافقة، وقال: «بكل ما تحب ولك الحرية في اختيار ما تشاء من قصائدك».

وطلب مني زيارتهم في مقر ممثلي الاذاعة، ذهبنا سوية إلى بيت في الباب الشرقي وكان بيتاً صغيراً جميلاً مطلاً على دجلة، وفيه ثلاثة أو أربعة أشخاص، يبدو انهم المسؤولون عن هيئة الاذاعة في العراق.

وجلسنا وتحدثنا، وتم تعيين موعد السفر، واستلمت بطاقة السفر بالطائرة. كان الطيران المدني حديثاً، ولاسيما في أثناء الحرب وذيولها، والاجواء ما تزال مرتبكة، وعندما جئنا إلى (الخطوط البريطانية)، قدموا لي استمارة وهي بما يشبه وصية لمن يريد ان يودع الدنيا (!) وبما مضمونه «ان الخطوط البريطانية غير مسؤولة عما يحدث خلال الرحلة»، ومن بين اسئلة الاستمارة، اسئلة شخصية تطلب ذكر اسماء أفراد اسرتك! ومن يجب أن تودع اليه منهم وصيتك، كانت تلك مقدمة لسفرة مخيفة كما يفترض، مع هذا لم اكترث ولم يراودني القلق، ملأت الاستمارة، ودوّنت اجاباتي ثم إلى المطار حيث انطلقت الطائرة..

كانت تلك تجربتي الأولى في الطيران، وقد استأنست بها كثيراً، وما أزال أستأنس من يومها بالطيران وبأجواء السماء التي يتصاعد معها ولا اهتم أيضاً بالكثير من اخطاره وكوارثه، فلابد لي من ان أكرر المثل الشعبي «حشر مع الناس عيد».

وفي الطائرة، وفي أول مرحلة مطمئنة منها، ابتدأت ادمدم، بقصيدتي (يافا):

بـ «يافـا» يومَ حُطَّ بهـا الـركـابُ تَمَـطَّرَ عارِضٌ ودجـا سَحـابُ

ولما وصلنا، كان أول لقاء لي هو حفل فخم وجميل في (يافا)، وكان فيه العديد من الوجوه الفلسطينية البارزة، واقطاب (يافا)، وشخصيات كبيرة، وقد اقيم في (النادي العربي).

القيت القصيدة وقوبلت باعتزاز كبير، وعندما وصلت إلى المقطع الفريد منها:

ولـمّـا طبَّقَ الأرَجُ الـثـنـايا ولـوّحَ مِنْ جنـانِ الـخُـلدِ باب
ولاحَ «الـلُّدُّ» مُنـبـسَـطاً عليهِ مِن الـزَهَـراتِ يانِعـةٌ خِضـاب

نظرْتُ بمُـقْـلةٍ غطَّى عليهـا   مِن الـدمـعِ الضليلِ بهـا حِجاب
وقـلتُ ومـا أُحيرُ سوى عِتـابٍ   ولـستُ بعـارفٍ لِمَـن الـعتـاب
أحـقّـاً بينَنـا آختـلَفَـتْ حُدودٌ   ومـا اختلَفَ الـطريقُ ولا التـراب
ولا افتـرقَـتْ وجـوهٌ عن وجـوهٍ   ولا الضّـادُ الفصيحُ ولا الكتـاب

كانت المناديل البيضاء ترفرف بين ايديهم وهي تمسح الدموع من عيونهم، وفعلاً كان ما طلبت من (هاشم جواد) ببغداد، والقيت كل ما أشتهي من قصائدي التي اذعتها فعلاً من الاذاعة تلك، وعلى الملأ وبخاصة تلك القصائد المناهضة للاستعمار والنفوذ الاجنبي في كل الأرض العربية وفي وطني العراق بالذات وضد بريطانيا وكل من يتعاون معها من الحاكمين، والقصائد هذه كلها معروفة ومنشورة وشائعة بين الجماهير بل ومحفوظة في ملفات الاذاعة البريطانية نفسها ومنها ـ ستالينغراد ـ و ـ جمال الدين الافغاني ـ:

فكَـمْ في الشَّـرقِ من بَلدٍ جريحٍ   تَشَكَّى لا آلجـروحَ بَلِ الضِّمـادا!

كما القيت القطعة المثيرة من قصيدة «ابو التمن».

لقد كانت رحلة من رحلات العمر لا تنسى، مع هذا ـ وسامحوني ـ ان أقول، ياليتني لم أر (فلسطين الجنة)، ولو ان وشيجتي بها كانت وشيجة (بشار بن برد) بالأشياء والعوالم، بالاذن لا بالعين، فلكان ذلك أفضل ولكان وقع الفاجعة عليّ أقل.

رأيت فلسطين العربية، رأيت الجنان، ولمست رهبة المسجد الأقصى، ورأيت (يافا) الجميلة الغافية على البحر، و(حيفا) ورأيت الفردوس المفقود بكل معنى الكلمة، الذي أحللنا فيه عدّواً مستذئباً وخرجنا منه اذلاء، مهزومين، انه لشيء فظيع لا يصدق!.

إنهم كانوا أقل من نصف مليون، والأمة العربية آنذاك أكثر من مائة وعشرين مليوناً أما اليوم، فأمتي!؟ أمة المائتين والخمسين مليوناً، كما تقول الاحصاءات الرسمية!!.

لقد اقيمت لي حفلات عديدة، حفلة تكريمية في (يافا) وأخرى في (حيفا)، وثالثة في (الجليل) وكان فيها الأدباء والشعراء والخطباء، ومن بينهم صاحب ابدع ترجمة لرباعيات (عمر الخيام) واعني به (وديع البستاني)، إن لم تخنيّ الذاكرة.

كان طريق العودة يمر بدمشق، التي وصلناها بسيارة خاصة، ومن هناك كنا نروم التوجه لبغداد. وعنّ للسائق ان يقترح:

«ما رأيكم ان نستريح في لبنان قليلاً؟»

قلت: «لا، ليست هناك حاجة، فنحن قادمون من فلسطين يابني».

كان فراق فلسطين في الروح والقلب.

من ذيول هذه الزيارة إلى (فلسطين)، ومن بقايا ألمي وتوجعي كانت قصيدتي «اليأس المنشود»، وهي في جملة المختار من شعري، والتي أقول فيها:

رُدُّوا إلى اليأسِ ما لم يَتَّسع طَمَعا ... شَرٌّ من الشرِّ خوفٌ منه أن يقَعا

قالوا «غدٌ» فَوَجَدتُ اليَومَ يفضلُهُ ... و«الصبرُ» قالوا: وكان الشَهمُ من جَزِعا

اقترنت هذه القصيدة بمعركة أدبية ينبغي ذكرها ـ لو صحت النسبة إلى الأدب والآداب! ـ، فقد كنت قد أرسلت القصيدة إلى الدكتور (طه حسين) بغية نشرها في (الكاتب المصري)، وكانت لي به علاقة وثيقة،.منذ (الوقوف في المعرة)، وكان الاتصال المستمر بيننا على يدي الدكتور (النحاس)، استاذ الرياضيات المار الذكر.

ولسوء الحظ لم تنشر على الرغم من اهميتها، وخلال زيارتي إلى لندن في عام (١٩٤٧) مررنا بالقاهرة، واغتنم الدكتور (طه) الفرصة، ليزورني في

الفندق المعد لنا، وليترك، حين لم يجدني، بطاقة ترحيب منه، ثم يهتف إليّ لتقبلي (دعوة شاي) عصراً في داره في الزمالك، وهناك حدثني عن أسفه لعدم تمكنه من نشر القصيدة، لاسباب طارئة، استوجبت ذلك، اعتذر الرجل بصراحة بريئة قائلاً انه لقي معارضة ممن يمولون المجلة.

ثم تأتي مجلة (الغد) البغدادية، ومن باب المحبة المفترضة لي، لتذكر هذه القصة التي كنت قد رويتها لـ (عبد الكريم الدجيلي) من باب الائتمان على شيء خاص بيني وبينه، ويبدو انه نقلها إلى شقيقه حسن الدجيلي المشرف على المجلة، فأستغل الموضوع، لا لمجرد الدفاع عني وعن فلسطين، بل وللتعريض والتشهير بالدكتور طه حسين، الشيء الذي أثارني كثيراً، ولاسيما اتهامه، وذلك شيء يدعو للاستنكار، بالميل حسب تعبيرهم إلى الصهيونية، فان يكون المُمول لهذه المجلة أو تلك من اليهود الاثرياء والمواطنين شيء، وان يكون المُمَوَل صهيونياً، كما عرضت به المجلة المذكورة فشيء آخر وظالم أيضاً.

كتبت مقالاً افتتاحياً شديد اللهجة وضدهم، اتيت فيه على مدى ضياع المقاييس، وعلى اثر ذلك جاءتني برقية شكر من الدكتور طه حسين، بعد اطلاعه على المقال هذا، وترك المقال اثره البالغ على القراء في العراق.
فيأتي إلى مكتبي محمود حلمي صاحب (المكتبة العصرية) أشهر واروج المكتبات في العراق آنذاك، وهو الموزع الوحيد لمجلة الكاتب المصري ـ وكانت الفترة بين مقالي وبين كتابة هؤلاء قد استغرقت أكثر من عدد من المجلة اياها ـ ليقول لي: «جئتك شاكراً يااستاذ».

قلت: لماذا؟»

قال: «قبل مقال هؤلاء.. كان يرد إليّ الف نسخة من المجلة، فتنفذ جميعها. وبعد مقالهم، وتجريحهم الشديد للدكتور طه حسين بقي منها أكثر من النصف، ولكن بعد مقالك، وصل العدد الجديد، فطلبت زيادة عن الالف المعهودة».

وبعد هذا الموقف، اشتدت العلاقة الحميمة مع الدكتور طه حسين وكان يرسل لي كل ما تطبعه الكاتب المصري التي اضطلعت بنشر أشهر

الكتب، المترجم منها والاصيل في اللغة العربية، وكانت هذه الكتب لمشاهير أدباء العالم بالاضافة إلى الأدباء العرب، مطبوعة في حلة نضرة قشيبة، وكان يرسل إليّ الرزمة بعد الأخرى منها، وللاسف فقدت مني هذه الكتب، أذكر منها اسماء عباقرة عظام مثل: ديستوفسكي، ستاندال، ايفان تورجنيف، اندريه جيد، اوسكاروايلد.

وكل ما طبع من جديد من مؤلفات (ابي العلاء المعري).

وفي القاهرة، في ذلك اللقاء نفسه، عرض عليّ الدكتور (طه حسين) طباعة ديواني وأشعاري، مبدياً الاستعداد، بل الافتخار، كما قال، بأن تكون المقدمة له، وللاسف فعندما صدرت طبعة بغداد ١٩٤٩، لم تحمل هذه المقدمة الموعودة. وبعد لقاء آخر ومن جديد في القاهرة، كان اعتذاره عن ذلك انشغاله بوزارة المعارف، التي أودعت اليه آنذاك!! يعني الوزارة ياشيخ الأدباء؟

وعلى كل حال فقد أثار هذا التنكر شيطان نثري فكانت «قارعة الطريق» التي بزت كل ما كان منتظراً من طه حسين أو غيره أن يكتبه.

الفصل السابع

طـــرطـــرا

يحار المرء، ماذا يقول في عالم الساسة، عهد ذاك. فعلى الرغم من المفارقات المتسامحة والتي يصح تسميتها بصمام الأمان، فقد كان الشاخص الأول وقبل كل شيء فيه هو التزلف والتهافت والانحناء لذوي الرتب والمراتب، التكبر والتعجرف على البسطاء من الناس، والركض وراء الالقاب والانساب، واشتهاء المقاعد، شاغرة أو مليئة، مقايضة للانساب بمقاعد نيابية، وشراء للذمم والضمائر بمثل ذلك.

وبين هذا وذاك، صلف وتجبر إلى جانب معارضات مفتعلة من اناس يتركون الوزارات فيما بين فترة وأخرى، ويعودون اليها، بعد اشتراكهم في أكثر من جريمة من جرائم النظام والحكم.

كنت أرى مباذل العهد بعين صاحية، فتهزني في الصميم، وفي يوم، آن للبركان ان ينفث حممه.

رويت كيف ان مصطفى العمري وصالح جبر تعاونا على غلق جريدتي (الرأي العام) وكيف اني رفعت شكوى مريرة مما كان إلى عبد الاله وبعد الشكوى بفترة وجيزة رحلت وزارة المدفعي ورحل معها مصطفى العمري وصالح جبر، غريما جريدتي.

بعدها، دارت في مجالس العراق، وصالوناته، احاديث عن فضيحة، تزكم الانوف، فصالح جبر يسعى إلى ان يزيد مقامه، ويرسخ اقدامه، بأن يتزوج على زوجته الأولى، ابنة الاقطاعي الكبير عداي الجريان المهيمن على أخصب الأراضي في الحلة وجوارها من أرض الفرات.

بيد ان لهذه العشائر تقاليداً واعرافاً تقضي ان لا يزوجوا نساءهم إلى امـريء في حسبه ونسبه ظل من شك، وهذا وامثاله من القبليات هو من مخلفات الجاهلية ومساوئها، وهو في الحقيقة فمردود عليهم.

ولسوء حظه، لم يكن صالح جبر، عصامياً، مكتفياً بنفسه وشخصيته بل أراد سموّاً مفتعلاً وموشحاً بأعراف الجاهلية، أراد حسباً ونسباً بكل ما يعنيه المصطلح الاقطاعي الاجتماعي.

ذهب صالح جبر إلى (بني ركاب) وهم عشائر معروفة في الناصرية، وقايضهم، فقايضوه مقاعد نيابية لهم، واعترافاً له، منهم بشجرة انتساب.

وبالفعل رفع (آل ركاب) عريضة النسب وجعلوه في الصميم منهم.

ألا ما أردأ هذه المقايضة؟

وفاز الكل، شيوخهم نواب على المقايضة وعشائر الجريان نواب على المصاهرة أما صالح جبر، فكسب من الاثنين، فاز من بني ركاب بالنسب والاتباع، ومن الجريان بالمصاهرة والاقتطاع.

لست ممن يتدخلون، ان لم أكن ممن يستنكرون على المرء تمسكه باغصـان شجرة العائلة وفروعها والتصاقه ببدعة الانساب فكيف بمن يزور لكي «يتشمر ويتعنز» ويتعثمن ويتعرّب!

في هذا المنـاخ، كنت شاعـراً بالازدراء، بالاشمئزاز، من كل ذلك فضلاً عما كان من أمر تعطيل الجريدة.

فبعـد اغلاقها بفترة، جاءني ذات يوم عبد الكريم الدجيلي وصديق آخر، فوجداني اخط كلمات على ورق مقوى مما يوضع على الطاولات. كنت «اخربش» ابياتاً، مستهزئاً بكلام عابر، كأنني اعبث بالكلمات وبخاصة بتلك الكلمـة الشعبية الموحية، «طرطرة» كناية عن السخرية بما يدور من تفلت في السياسـة والمـواقف، فكـان يقـال «طرطرة» استخفافاً بالاحاديث التافهة و«طرطور» للمعنيّ بها.

كانت ثلاثة أو أربعة أبيات القى عبد الكريم نظرة عليها، فقال: «أهذا شيء يترك؟!».

في لحظة التنبيه على الغفلة، تفجرت القصيدة.

كانت قطعة هزء نادرة بالحكم والحاكمين، ولم تكن مقتصرة على شخصية العمري وجبر، واتباعهما، وان كان لهما في سخريتها المريرة، القسط الاوفر.

وعلى جري العادة، اعلنت في الجريدة ان قصيدة (طرطرا) ستنشر غداً، بقضها وقضيضها. واوردت بضعة أبيات تشي بما تحمل من سخرية، هي بعض مساخر ذاك الزمان.



سعد صالح

والحق، انني استثمرت وجود سعد صالح وزيراً للداخلية، دافعاً مشجعاً، لنشرها وكنت واياه آنذاك - واشدد على آنذاك - على أشد ما تكون العلاقة فيما بين صديقين، في اليوم التالي، تهافت باعة الجرائد على مقر (الرأي العام) تهافتاً وصل إلى حد اضطرار حراس المطبعة لغلق ابوابها وصد زخم الباعة المتصارعين. ولشدة الاقبال، بيعت بعض النسخ منها، بدينار، أي بألف فلس بدلاً من عشرة.

ظلت القصيدة حديث المجالس، ودوّت دوّياً ما بعده دوّي. ورفع المعنيون بها (اعني المعنيين بالاسم لا بالتورية) القصيدة إلى عبد الاله كما ترفع جنازة القتيل. ودخلوا اليه شاكين، متظلمين، فتملص منها بمهارة في المخادعة، بقوله:

«كل ما اعرفه ان الأمر بينكم وبين الجواهري وجريدته التي اغلقت» .

وعلى أي حال، فقد عجلت القصيدة باستقالة وزارة توفيق السويدي بعد ان قاطع مجلس الاعيان الوزارة، وفي المقدمة منهم صالح جبر ومصطفى العمري وعبد المهدي المنتفكي، رافضين تصديق قراراتها في المجلس النيابي .

جاءت (طرطرا) على الوزن من القصيدة الدبدبية المشهورة :

«أي دبـدبـى تدبـدبـي	أنـا عليُّ الـمـغـربـي»
أي طرطـرا تطرطـري	تقـدمـي تأخـري
«تـزيّدي، تزبّـدي»	«تـعـنـزي تشـمـري»
كونـي اذا رمـت الـعـلى	من قُبُـلٍ أو دُبُـرِ
صالـحـةً (. . . . . .)	عامـرة (. . . .)
شامـخـةً شمـوخ قرن	الـثـور بين الـبـقـرِ

إلى ما بعد ذلك مما سيجده القارىء .

الفصل التاسع

بنت رسطاليس

لبنت (رسطاليس) ـ كما هو الشأن في أكثر من قصيدة واحدة ـ حكاية اوجزها: قبيل سفري إلى لندن، كان صادق البصام ذا علاقة قوية بالسيد بلاسم الياسين وهو اقطاعي كبير من شيوخ (الحيّ) وظلّ البصام يلح عليّ ان يعرفني ببلاسم الياسين، كي يشد من اواصر الصداقة بيني وبينه.

وذات مساء اتصل بي البصام قائلاً انه وبلاسم الياسين في جلسة طيبة في فندق زيا الشهير.

اعتذرت، فما لي واناس من هذه الطبقة؟ ولم يكف البصام، ففي مناسبة أخرى، اتصل بي من جديد، ملتمساً، ملحّاً ان اشجع اصحاب المشاريع الطيبة، ومنها، انشاء ثانوية في (الحيّ) قائلاً انه واجب انساني.

هذه، ثانوية، وأين؟ في الحيّ، في هذا المحيط المتململ ضد الاقطاع، وضد نهب الأراضي والخيرات على يد طبقة آل ياسين وآل عبيد.

كان المشروع جريئاً، ورأيت فيه وسيلة يخرج بها إلى الحياة جيل جديد متنور، ثائر. وموقف الانسان، والشاعر بخاصة، في مواقف كهذه، ان يكرم كل فعل طيب، كل مشروع جريء، نافع كهذا.

لم أجد بداً من ان استجيب للالحاح الثاني، بعد ان رفضت الأول. جاء بسيارته، واخذني إلى الحيّ، وفي الطريق نشأ تضاد في المزاج، أنا مستغرق في نظم (يابنت رسطاليس)، وهو يريد ان يتجاذب معي الحديث، فرجوته ان يخلو لنفسه ويدعني لنفسي، فأستجاب الرجل طائعاً.

ونظمت خير ما فيها وأنا في السيارة.

دخلنا، قصر بلاسم الياسين، الذي يقع خارج مدينة (الحيّ) بقليل، وتوجهنا إلى ديوانه الفخم، فوجيء بنا، ورحب بنا، وعلائم السرور بادية عليه.

كان المدعوون من كبار القوم في بغداد، واطراف العراق. بل كان بينهم رجل غير منتظر: صالح جبر، رئيس الوزراء الجديد في تلك الايام، الرجل الذي قلت عنه ما قلت، ولما علم الحاضرون ان لي قصيدة جديدة، توتر الموقف، فلا الحاضرون يجرؤون ان يسألوني، ماذا سأقول، ولا هم مطمئنون لما قد أقول. فكان عصارة كل ذلك خوفاً وقلقاً.

ونقل لي من نقل، ان صالح جبر نام ليلة ليلاء، فشبح (طرطرا) كان ما يزال يؤرقه على ما يبدو.

الحق أقول، لم يخطر هذا الموضوع ببالي قط، فما كان يشغلني هو موضوع الثقافة والمعرفة، وبنت رسطاليس، وبالطبع فقد عرجت بها، في بيتين أو أكثر على صاحب المشروع، تنويهاً به وبالثانوية.

ازداد التوتر لحظة بدأت انشد، ولما انتهت القصيدة بسلام، تنفس القلقون، الصعداء.

الغريب ـ والحق يجب ان يقال ـ ان صالح جبر، وهو رئيس الوزراء ساعتها، جاء إليّ، قاصداً، وما زلت متعجباً، كيف كان يستطيع ان يقابلني وجهاً لوجه، فضلاً عن ان يقصدني عامداً، لا ان اقصده أنا.

ابدى اعجابه بالقصيدة، وتحدث معي عن ذلك، على نحو اعتيادي، وليس من ضير ان اتوقف هنا لحظة، عند شخصية صالح جبر.

لقد فرض نفسه فرضاً، واقترن بنوري سعيد حتى اصبح يقال:

(نوري السعيد وصالح جبر) و(صالح جبر ونوري السعيد) نداً لند، وما هذا بقليل.

أقول الحق، انه كان ذا موهبة خاصة كي يفرض نفسه على الآخرين لولا ما التفت عليه التفاف الافعوان من شوائك العقد ورواسب المخلفات، غير ان احداً لم يقل شيئاً في نزاهته الشخصية، في كل ما شغل من مناصب، متصرفيات «محافظات» كانت أم وزارات.

أما ان يكون له حاشية واتباع طامعون منتهزون يستغلونه ويستغلهم، وان يتربص بجماعات وينصّب جماعات، فهذا شغل كل هؤلاء الحاكمين والمتحكمين بدون استثناء ولا تمييز، مضافاً اليه انعدام النزاهة في الكثير منهم.

الفصل السّابع

منادمة ومنافرة مع ملك العراق غير المتوّج.

بعد مهرجان (المعرة) ورحلة يافا، شهدت حياتي حوادث «أشد من السيوف مضارباً» على حد قول المتنبي، مضارب لا يزال اثرها باقياً في نفسي، وذيولها تنسحب عليّ في كل خطواتي.

فهي على خلاف تلك المضارب، تركت من الآثار والجروح ما هو أشد وأوجع سلباً أو ايجاباً، رفضاً أو اعجاباً، ومن هذه المضارب وعلى سبيل المثال، علاقتي بالملك فيصل وتقلباتها مما أتيت على ذكره في العشرينات والثلاثينات.

كم كان يحبني ويعزني دون كل الآخرين، وبفضل هذه العلاقة كنت ادعى من دون كل الصحفيين، لكل حفلة تقام في المناسبات الهامة مثل: عيد التتويج، أو عيد الميلاد وغيرها.

ومع ان هذه العلاقة، كانت مما يحرص الناس على تمديده، وتمتينه، وتقويته، واستغلاله واستثماره، فاني طيلة ست أو سبع سنوات، ومنذ أوائل الثلاثينات لم أذهب سوى مرة واحدة في عهد (غازي)، وكان ذلك على الأكثر في عام ١٩٣٦، قبل انقلاب بكر صدقي.

وبالوسع القول انني ذهبت مرتين أو ثلاثاً خلال ما يزيد على خمسة عشر عاماً، ثم جاء (عبد الاله) وصياً على العرش بعد حادثة موت الملك غازي، ثم بعد «حركة» رشيد عالي وخروجه ورجوعه (أي الأمير عبد الاله).

هذا كله، مرّ دون ان يهمني كثيراً.

ان المرة الأولى التي وضعت فيها قدمي في البلاط في عهد عبد الاله

جاءت أيام مصطفى العمري، أيام تحكمه وجماعته في الصحافة والصحف، كان ذلك، عهد الرقابة الصحفية الخانقة، ولم يكن لي من ملجأ غير ذلك الملاذ. لم تكن الجريدة تنشر إلا بعد ارسال صورتها إلى الرقيب ليراها، وبخاصة فالمقال الافتتاحي فيها. وكان الرقيب آنذاك في هذه الفترة نفسها وكما يبدو لطيفاً، فقد سمح باصدار ذلك العدد منها، ومع ذلك، وفي اليوم التالي، أبلغت بغلق الجريدة بسبب هذا المقال نفسه، هذا شيء لا يصدق، العدد مرخص من الرقيب، بما فيه الافتتاحية، أما القرار فيأمر بالغلق.



الأمير عبد الاله -
الوصي على عرش فيصل الثاني
ملك العراق غير المتوج

وجدتني شبه مضطر إلى ان الجأ إلى الوصي، لأول مرة، ان اراجعه بهذا الشأن.

فذهبت اليه، فرحب بي الرجل واكرمني، وبدقائق معدودات قلت له

ما قلت عن الموضوع، ومفاده، كيف يرخص الرقيب وتغلق الجريدة، طلب مني ان ابعث اليه بالعدد المذكور، فبعثته بيد أحد الشغيلة إلى صديقي تحسين قدري وقد سبق لي ان تحدثت عنه وهو الذي كان من المرافقين للعائلة المالكة، وفياً لها حتى العهد الأخير، بل حتى زوالها، وهو يقيم الآن في (سويسرا). كان يحبني كثيراً وأنا اضمر له التقدير والاعتزاز حتى الآن.

وبعد ذلك صدر الأمر بأن تواصل الجريدة الصدور.

هذا اللقاء العاجل، الفارط ـ كما يقولون ـ كان محض مصادفة، ومن دون ان يرتبط بشيء آخر.

أما اللقاء الثاني فقد ارتبطت به ممهدات، وآل إلى وعواقب، وعواقب وشملت تطورات قادمة، ترتبط بحياتي وبمصيري.

واحدة منها، وفي هذه المرة ـ كانت حفلة ام كلثوم عام ١٩٤٦ ـ تلقيت الدعوة إلى هذه الحفلة بمناسبة عيد التتويج، وفيها وقع ما وقع بحيث اشتدت الصلة بيني وبين عبد الاله، اشتدت بدرجة كبيرة لم يتوقعها أي كان، كنت مستعداً للانشراح والانبساط ونسيان العالم كله، لا الأمير ولا السمير أريد أن ارتاح، ان اسمع ام كلثوم، بعد ان فاتني حضور حفلتها الأولى في الثلاثينات ـ كنت يومها في البصرة ـ جئت قبيل الغروب، وأنا مستعد لهذا الجو الجديد، خارج الرسميات، والالتزامات الثقيلة عليّ، البغيضة إليّ. وتلقاني الشريف ناصر، ابن عمهم، بالترحاب.

كنت أروم مكاناً قصياً اعتزل فيه، لاناغي نفسي بما ستشدو به ام كلثوم وان اتناول، من دون سائر الاشربة المتناسبة والمنسجمة مع هذا الحفل الفخم، العرق العراقي، ـ شبه الممنوع على سبيل الافتراض في مثل هذا المقام ـ واتخذت مكاني القصي هذا، قبل ان يكتمل المجلس، قاصداً، متعمداً، متجاهلاً كل القادمين عليّ أو على غيري، ومن المصادفات العجيبة، وعلى النقيض مما تهيأت له، وجدت السيد محسن ابو طبيخ يتجه إليّ وكان وقع ذلك عليّ ثقيلاً، فالرجل محافظ، متدين، ملتحٍ، وشيخ من شيوخ قبائل الفرات وعضو مجلس الاعيان ولكنه أيضاً من متذوقي الأدب

والشعر. لذا كان يحب ان يلتقي معي ـ وبعد ذلك فقد كان منه ان قصدني إلى الجريدة وهو شبه ضرير ويتعكز صاعداً السلم ـ.

هذا أول شيء لم يخطر لي على بال ان نيتي غير نيته، واتجاهي غير اتجاهه، فكيف الخلاص منه بدون ان امسه؟

حرارة الجو، والعطش انقذاني منه، وجاءت اللقطة المنشودة، فقلت له، سأذهب بنفسي لادعو الساقي اليه، توجهت إلى ساقي الماء، وطلبت منه ان يسقي (السيد)، ثم افلتّ من الطوق، وعرجت على البار ورغم جو الحفل المتزمت، طلبت عرقاً عراقياً، وكان ما طلبت. ولحسن الحظ فان الرجل المقيم على البار، كان ممن يخدمون في البلاط الملكي أيام كنت فيه، واسمه (حنا) وعرفني ورحب بي. وجلب لي «ربع عرق» خاصاً به، بعد ان لفه بورق تفادياً لاعين الرقباء وانتحيت مكاناً كنت احسبه بعيداً عن الناس، واذا به على مبعدة مترين أو ثلاثة عن حومة الرئاسة والسفراء، وبينهم عبد الاله ونوري السعيد، ادرت العرق في الكأس أمام الناس، وكنت الوحيد الذي يشربه بنهم ولكن وبدلاً من ان تكون بادرة استنكار أو تحفظ، كان هناك، بالعكس، ما يفوق الرضى أو القبول.

واتضح لي ان هذا النشاز اعجب نوري السعيد، وكان إلى جانبي جماعة من عشائر لواء المنتفك (الناصرية) بينهم (موحان الخير الله، وخيون العبيد)، ونواب واعيان، واذا (بموحان) يقول لي:

«نوري باشا. يطلبك».

قلت: «لا تهتم».

كنت ثملاً، وفعلاً لم اكترث، رفعت نظري فوجدته يومىء لي ثانية، ايماءة لطيفة، وتغافلت عنها أيضاً، في الايماءة الثالثة كان عبد الاله يشاركه فيها، وعندها وجدت ان ما يسمى باللياقة والأدب تتطلبان مني الاستجابة.

كان الحفل مطوقاً بشباب الكلية العسكرية، الذين كانوا شباباً مثل الورود يختارون من كبار العائلات، وقسم منهم، كانوا من طلابي في البصرة، وذلك لاحاطة سياج الحديقة، لاثارة الزهو واللطف في الباحة الخضراء الجميلة.

لبيت الدعوة، وأنا مدرك ما سيطلب مني ، فقد كان عند الشباب نفس ما حدست به ، فما ان وضعت أول خطوة مني ، باتجاه الرجلين ، حتى كانت قد بدأت اقدامهم ترج الساحة منتظرين ما كانوا يتوقعون، من قطعة شعرية بهذه المناسبة ، في هذه الاثناء، كانت ام كلثوم، قد بدأت الغناء ، وأنا كنت وكأسي أمامي ، كأنني في حانة خمار، وليس في هذا الحفل المهيب، فوقفت إلى جانبهم وبادرني نوري السعيد قائلاً : كيف حالك ياجواهري؟

اجبت : «فوق النخل، فوق!» ـ الاغنية الدارجة في العراق ـ.

وكما حدست ، قال :

«ألا يوجد شيء؟» ، وهنا التفت إليّ عبد الاله وأكمل :

«أي صحيح ، ياجواهري ، ألا يوجد شيء؟» وكأنه يشد بذلك من ازر نوري السعيد، كنت قد هيأت جواباً يجمع بين الأدب والرفض.

قلت : آسف، كيف ارتجل الشعر في مثل هذا المقام؟

قال : والله ، صحيح ! وانتهى الموضوع.

لاحظت خيبة الشباب، وخيبة كل الحاضرين العراقيين، ورجعت حيث كنت، وحيث كأس العرق.

الفصل السابع

قصة النيابة

ايمكن ان يجتمع الاباء والطمع؟ أجل، ممكن لفترة أو لأكثر، يشتد الصراع فيها لمن خلق لواحدة منهما، ويحاول الانسياق إلى الثانية، صراع قد يقصر أو يطول ولكن الشيء المفروغ منه ان ينتهي الأمر به إلى ما خُلقَ له منهما.

وقد قدر لي، كما يتلمس القارىء ذلك في ذكرياتي هذه، ان أمر بمثل هذا الصراع في أكثر من موقف آخر، وحادثة وأخرى، وخرجت من ذلك صفر اليدين من كل متاعات الحياة واطماعها، لأنني لم اخلق للثانية منهما:

وعـدتُ مليء الصـدر غيضاً وقرحةً   وعادت يدي من كل ما أملت صفرا

لا أريد التعـالي ولا التبـاهي، قلت وتحـدثت عن العمامة، عمامة المتنبي، والبحتري، وابي تمام والمعري والشريف الرضي، وأخيراً فعمامة الرصافي، وما انتهت اليه كل هذه أو تلك، وبعد كل ما مر بها، ومرت بها عمامتي من بعدهم من مصارعات، فقد انتهت بي الحال، إلى مثل ما خلقت لاجله.

لقـد تكـلمـت عن أثـر قصيدتي «طـرطـرا» بشيء غير قليل من التفصيلات. ولكن الشيء الذي كان خافياً عليّ من أمرها، والذي لم اتعرف عليه إلا بعد حفلة ام كلثوم ومفارقاتها، وهو ان تلك القصيدة بما خلفته من خلفيات مريرة لدى كل الحاكمين، والمسؤولين وليس للعمري وصالح جبر

حسب، كانت إلى جانب ذلك، بل ومن قبيل التناقضات، مدعاة اعجاب واستحسان تجاوزا حدودهما المألوفة من قبل عبد الاله لتوافقها مع ما كان يحمله في طيات نفسه من استخفاف وازدراء بالأكثرية الساحقة من هؤلاء المسؤولين لما يعرفه كل المعرفة من أمر خباياهم وزواياهم.

وفهمت بعدها، انه شغف بالقصيدة بحيث كان العدد الذي يحتويها لا يفارقه حتى وهو في سفراته.

وكان اذا تنازع مع تلك الوجوه، وجوه الساسة في بغداد، من وزراء ونواب واعيان، ويكون الجدل محتدماً معهم في هذا الشأن أو ذاك، يقول لهم بما يشبه القاء الحجة، بل في واقع الحال بما يشبه الانذار: اتسكتون أم اجيء بـ «طرطرا»؟

فيقولون: لا ياسيدي، لقد انتهى الجدل.

كان عبد الاله ملعوناً ـ وأورد هذه الكلمة بالمعنى العراقي الدارج ـ معنى الخبث والمراوغة والشيطنة!

لِمَ اقول ذلك؟ لأن قصيدة (طرطرا)، تضرب الصميم من الوضع القائم في العراق، وعبد الاله هو في القب من الصميم، في القمة من هذا كله.

ولكن هذا عجيب، أول ما يفهم من قصيدة (طرطرا) هو الوضع المتهريء، الوضع القائم الذي يتبوأ عبد الاله القمة منه، لكن هذا الرجل لم يكن يهمه الظاهر. فكان يريد كشف أوراق هؤلاء الذين ابتلى بهم وابتلوا به أيضاً فكان يماحكهم، ويغضبهم بها.

قصارى الكلام انني من هذا المدخل المتناقض نفسه وبعد حفلة ام كلثوم وكأس العرق وجدتني مضطراً، وفي معركة (الانتخابات المزعومة) متوجهاً اليه، فوجدت شريكي في أمر الانتخابات النيابية وفي منطقة الكرخ بالذات عبد الرحمن البزاز، قد سبقني في ديوان التشريفات، فلقيته وتلقاني بالترحاب، ويبدو انه جاء للغرض نفسه.

بعد قليل، وقبل أي واحد ممن كان هناك، قيل لي ان الأمير يريدك، فدخلت، واستقبلني بحفاوة مميزة، قائلاً:

«افلا يجدر بنا ان نراك، الا ان نستدعي ام كلثوم؟» طلب علبة سجائر، وقدم لي لفافة اولعها بيده، بعد العتاب على انقطاعي، سألني ما عساه، ان يكون مبتغاي، ففتحت حديث المجلس النيابي، ومصيره مصوراً الأمور وكأن هناك قانوناً ونظاماً للانتخابات، وشرعية مفترضة له.

من هذا المدخل، دخلت، قلت: «نحن شباب واعون بذلك لو صحت الاربعينات ان تكون شباباً، ثلاثتنا، الدكتور البزاز نفسه وعلاء الوسواسي وأنا، يعرفنا القاصي والداني ببغداد، فيما يقف مقابلنا في الكرخ، رجل آخر، عنده اتباع مسلحون بخناجر وسكاكين وبنادق هو عبد العزيز القصاب، جئت اعرض عليك هذه الصورة، عسى ان تتخذ الموقف المناسب لمقامك في مثل هذه الأمور».

قال لي بالعبارة الواحدة: «قل لي ماذا يريد هذا الرجل ورجله مدلاة في القبر؟» مبدياً قرفاً وامتعاضاً من هذه الوجوه، كان الكل يخشاه، ويقدم له الطاعة، فهذا الشاب الملعون كان قد وضع فيصل الأول على مهابته في جيبه، أما نوري السعيد الرهيب، فلم يكن ينتبه لأسم أحد، انتباهه لأسم عبد الاله.

وعاتبني على مجيئي اليه متأخراً، حيث لم يبق إلا يومان على غلق باب التأمينات، أي غلق باب الترشيح قبل عشرين يوماً من الاقتراع.

وكرر عتبه قائلاً: «تجيء الآن وقد اوشكت الأمور ان تنتهي؟»

قلت: «اضطررت إلى المجيء، وما كنت أريد ذلك، ما كنت أريد ازعاجك، أو اقتطاع شيء من وقتك، وعسى ان تنتهي الأمور على وجهها المطلوب».

فأستدرك الحديث قائلاً: «أنت تعلم. . ان نوري ويقصد به (السعيد) كم يحبك؟ فدعني اراه على ان نلتقي غداً هنا، أي في البلاط الملكي».

وفي اليوم التالي وفي الموعد نفسه كنت عند (عبد الاله) ليقول لي: «ان نوري قد رشحك سكرتيراً خاصاً لي، وفي مكانتك السابقة عندنا وقد سررت أنا «والحديث للأمير عبد الاله» بنفسي بهذا الترشيح».

قد يكون نوري السعيد، مصيباً فهو يعرف دقائق الأمور ويعرف انني لم اخلق لمثل هذه المجالس النيابية.

بالبديهة والارتجال، وهذه من المواقف القليلة التي احسن فيها اللقطة، قلت: «شرف كبير للمرء ان يكون سكرتيرك الخاص، الملازم لك، ولكن رغبتي وطموحي هما كما ذكرت».

فألتفت إليّ قائلاً: سأتصل بنوري بعد قليل ولك ان تراجعه اليوم وقبيل انتهاء الدوام.

ثم سألني: «اعندك تلفون؟»

قلت: «أجل».

قال: «سأتصل بك عصراً»، وفي الموعد نفسه كان المرافق الأول (عبيد) الذي تحدثت عن والده (عبد الله مضايفي في العشرينات)، وراء الهاتف، ليقول لي، ان الأمير سيرسل اليك سيارته لتقلك إلى قصر الرحاب (قصره الخاص)، حيث كانت حفلة ام كلثوم، وليس إلى البلاط، وجاءت السيارة، والتقينا، ولكن على كأس ويسكي هذه المرة، وضع الثلج في الكأس والسيجارة في يده، وراح يسامرني. وكنت فيما بين اللقاءين في هذا اليوم بالذات، قد قصدت نوري السعيد، وكان عنده خليل كنّة، ورأيت كيف يمد نوري السعيد اصابعه، وبكلمة واحدة ليكون لا ترشيحاً للنيابة حسب، بل لشغل المقعد النيابي فعلاً.

كنت اعرف ان خليل كنّة من جماعة الأهالي، أي من الشباب الواعي التقدمي، وجريدة الأهالي الأولى، أي تلك التي كانت تصدر في الثلاثينات، انما كانت تصدر على يد حسين جميل، وعبد الفتاح ابراهيم، وخليل كنّة وعبد القادر اسماعيل وامثالهم، وكانت جريدة جميلة محترمة، وبعد ذلك بعدة سنوات، نشأ الحزب الوطني الديمقراطي ونشأت معه جريدة (الأهالي) الثانية.

المهم، رأيت خليل كنّة، عند نوري السعيد، الذي كان يعرف كيف يضع يده على الاكفاء للمشاركة في الحكم، من المقتدرين على هذا النمط

من التقلب ومن تحمل المسؤوليات الثقيلة، البغيضة في أكثرها. سمعته يقول لخليل كنّة باللهجة الدارجة:

«خليل روح للفلوجة» وراح فعلاً واصبح نائباً.

ثم قال لي:

«أنت تروح إلى كربلاء عند السيد حسين الددة».

وفي المقابلة التالية والمارة الذكر كنت في قصر الرحاب، وقصصت على عبد الاله مقابلتي لنوري السعيد وترشيحه لي عن منطقة النجف وكربلاء وان احل ضيفاً عند السيد (الددة)، فما كان من (عبد الاله) إلا ان قال لي: «هذا هو الهاتف بجانبك فأتصل، بحسين الددة، وقل له انك قادم اليه من قبلي».

واتصلت، واضطرب حسين الددة وهو يفاجأ بهذا النداء فيما بين ما يشبه التشرف بمن يتحدث من قبل الوصي على عرش العراق وبين قلق واضطراب لم أعرف سره.

وفي صباح اليوم التالي، وقبيل ان اتوجه إلى كربلاء، دق جرس الهاتف من البلاط الملكي، وكان على الطرف الآخر سعيد حقي ناظر خزينة البلاط ليقول لي:

«هل بوسعك ان تتفضل عندي لتشرب فنجان قهوة؟»، وقصدته فعلاً وفوجئت به وهو يقدم لي صكاً، ويقول:

- «هذه للتأمينات، وبرغبة من الأمير».

بالمناسبة، لا أدري كيف تسرب الخبر إلى جريدة «الساعة» التابعة لصالح جبر، فقد نشرت:

كلمة صغيرة مفادها، «ان هناك مرشحاً دفعت تأمينات ترشيحه من مقام أعلى».

اظن، ان نشر الخبر كان يراد به الرد على قصيدة (طرطرا) كمحاولة يائسة لسد الطريق عليّ.

وخرجت من عند ناظر الخزينة وقد تبقى لي ما لا يزيد عن ساعتين،

استأجرت سيارة من بغداد في الساعة الحادية عشرة بالضبط، لاطلب من سائقها ان يوصلني لكربلاء قبل الساعة الواحدة.

ساعة وصولي، كنت عند متصرف اللواء، (طاهر القيسي) ـ وهو صديق قديم لي ـ، فتلقاني بوجه عابس، وكأنه حدس الأمر.

قلت: «ياابا فلان، الساعة على الجدار تشير إلى الواحدة إلا خمس دقائق، وهذا صك لدي بمبلغ التأمينات فأرجو تسجيله».

ثم قصدت سيد (حسين الددة) وهناك اكتشفت المؤامرة قدر ما اكتشفت سر قلق (الددة) عصر اليوم السابق.

ذلك ان الحاج (عبد الرزاق شمسة) كان هو المرشح الذي جئت انافسه، ويصح لي القول، انني جئت على حتفه، فقد توفي، وأنا آسف كل الأسف، بعد ذلك بقليل. فالرجل كان من احدى البيوتات الكريمة، المحبوبة في النجف، طيب القلب والحال، طاهر النفس، ذا رفاه في المعيشة، واضافة إلى ذلك، كان صديقاً حميماً لوالدي وبعلاقة وثيقة مع عائلتنا كلها، وكنت أنا أصغر من ابنه.

لقد تقدم المسكين إلى الترشيح بعد جهود مضنية استمرت قرابة عشرين عاماً من خدماته للملك فيصل الأول، ومَنْ بعده، اذ كان الملك، كما أشرت في العشرينات لا ينزل ضيفاً إلا على دار الحاج (شمسة)، وهو رئيس بلدية النجف.

كان لذلك، وقع الصاعقة عليه، أن آتي أنا، مرسلاً من (عبد الاله) وبتأمينات من عنده، ولانزل عند سيد (حسين)، الذي كان (شمسة) هو أيضاً، في ضيافته وأكون وجهاً لوجه معه في بيت واحد وفي موقع الغريم له.

هذا كما قلت، أمر لا يصدق، بالنسبة لي، فأنا بعيد عن التيقظ في أكثر الاحيان فيما اتصرف به من شؤون ومواقف شبه حاسمة، بالرغم من انني ـ وهنا سر التناقض ـ عميق التفكير في الخطوات الأولى منها، وعميق التفكير بل وعميق التأثر أيضاً فيما قد فوته عليّ . . .

كيف جاءت اللقطة البارعة مني في ان اقصد الوصي على عرش العراق . . . كيف حدث هذا؟ . . . وكيف استجاب وفي تلك الساعة الحرجة

إلى طلب شبه محرج أيضاً، ثم كيف حدث بعده مباشرةً ان اختار وبصدد النيابة بلداً ازاحم فيه رجلاً مرشحاً للنيابة نفسها من قبل نوري السعيد؟ ولن يبرر هذا كون كربلاء والنجف هي المنطقة الانتخابية الأولى الاقرب والاليق فقد كان بوسعي وأنا المرشح من قبل الملك غير المتوج ان اختار أي منطقة أخرى غيرها. . . وللمرة الرابعة أو الخامسة اعيد القول كيف حدث هذا كله؟ ما الذي جاء بي وكيف تسرعت؟ أجئت لأزاحم رجلاً يريده نوري السعيد؟! أما كيف وعيت على ما فوتّه كما قلت وكيف عدت إلى الصراع من جديد فستأتي الاشارة اليه.

وعدت بدوري وللمرة الثانية إلى متصرف اللواء (القيسي) لاستطلعه جلية الأمر فأسرني قائلاً:

«ان النوم جفاه الليلة الماضية كلها، فنوري السعيد يفزه من النوم ليقول له ان المرشح، هو الحاج (شمسة)، ثم يأتي نداء تلفوني آخر من عبد الاله، ويقول ان المرشح الجواهري».

وقال: «التمس منك وأنا لا اخدعك، ان تذهب لتفاتح هؤلاء، كي يكونوا على بينة وقل للأمير نفسه، اذا رأيته، انه اذا عزلني نوري السعيد فلن يستطيع الأمير ارجاعي، لأني مجرد مأمور، موظف عند نوري السعيد أما مرشحهم ياجواهري، فهو عبد الرزاق شمسة.

دخت من العجب، قلت هذا شيء لطيف والله، هذا حلو والله!!

عدت إلى بغداد، ممتعضاً، وتوجهت إلى الأمير عبد الاله في اليوم نفسه، لم اطلب مقابلته، واكتفيت ان اطلب من رئيس التشريفات ان يخبر الأمير، بأنني لا أريد ان أزعجه، ولكن القضية كذا وكذا، فماذا يأمر حتى امتثل؟

عاد رئيس التشريفات ليقول بالحرف الواحد:

«عد إلى كربلاء».

رجعت فظلّ طاهر القيسي، حائراً. ما أطول ذلك اليوم عليّ وعليه، يوم غلق الصناديق، وهو أيضاً يوم انسحاب المرشحين.

قول يفيد ان ابقى مرشحاً، وقول يفيد الضد وبين الشيء ونقيضه لم يكن غير الحيرة.

اتصلت بالسيد صادق البصام شبه الوسيط فيما بيننا، واطلعته على حقيقة الأمر، من عودتي إلى بغداد، والحاح الأمير على رجوعي، ثم على حيرتي فيما بين هذا وذاك. وقلت، ان مرشحهم هو الحاج (عبد الرزاق)، وفي الوقت متسع مادامت الصناديق لم تغلق. وطلبت منه، وهنا تجدر الاشارة إلى استثناء يجري لأول مرة في تاريخ المجالس النيابية في العراق هو ان يظل أمر اغلاق باب التأمينات حتى الليل بدلاً من موعده المقرر وهو فيما بعد الظهر بساعتين، طلبت منه ان يخبرني باليقين، عبر الاتصال بمن هناك، يعني بقصر الرحاب، وابلغته اني أريد ان ارجع، ان اترك النيابة، فقد جزعت منها، ولكني لا أريد ان يقال ان الجواهري، اساء التصرف بانسحابه، لا أريد ان يلقى اللوم على كاهلي، فوعدني البصام بالجواب بعد نصف ساعة.

انتظرت وانتظرت، دق الجرس، وكان هو البصام، وقال: يافلان صح ما توقعت، وهم خجلون منك، لا يريدون ان يقولوا لك شيئاً.

وعدت في ليلة بائسة، خائبة حزينة. في هذا الاسبوع نفسه ابتدأت نظم المقصورة:

سلام على هضبات العراق. . . .

وكأن فيها النية لترك العراق. . وفي الصباح، قصدت البلاط الملكي وارجعت الصك إلى ناظر الخزينة، شاكراً اياه وشاكراً للأمير اتعابه في سبيلي. قال لي:

«يافلان، كنت تعمل هنا، وتعرف الاصول، والتقاليد. . . هذه هدية من الأمير ولا يجوز ان ترد».

قلت: هذه ليست هدية، وانما شيء خاص، في موضوع خاص، وارجعت المبلغ.

كلمة قصيرة لا أجد لي بُداً عنها وأنا بهذا الصدد فلربما تساءل الكثيرون عن مغزى اهتمامي ـ على حد سواء ـ فيما أريد لي لأكثر من مرة في

أنْ أكون نائباً في المجلس النيابي أو في ما أردته أنا لنفسي منها بل وعن مدى اهتمامي وألمي ولحد المبالغة فيما اعتبرته غلطة من غلطاتي في رفض ان أكون نائباً مما ستجيء الاشارة اليه في هذه الاربعينات.

قد يتساءل - كما قلت - الكثيرون عن ذلك كله وهم يتوقعون مني - وأنا المغامر والمقامر والرافض في حياتي كلها - ان أكون في غنى عن كل المناصب والمراتب. . . ان الجواب الوحيد وشبه المقنع لديّ وربما كان المقنع للمتسائل نفسه هو انني وبصراحة كنت وما أزال في ذلك الغنى المنشود عن كل تلك المطامح سوى اهتمامي - وأحياناً فاستماتتي - في ان أكون في الذروة من أعلى المنابر وأشدها التصاقاً بالجماهير والذي من خلاله، وليس هناك من بديل عنه، أُسمع الناس والتاريخ ما أريد ان أقوله بل وفي الحقيقة فما أريد ان أكونه من تفحص حقيقة نفسي وضميري وموقفي وكلمتي بل وربما فبامتحان نفسي ذاتها وصدق كلمتها وامتحان ضميرها أيضاً ومدى انطباق قصائدي وجرائدي ومقالاتي ومواقفي على الحقيقة والواقع وإن شئت فقل على ضدها أو الخروج عليها. . . أو التنصل منها، أو على مدى ما قد يلفني، كما لف غير قليل من طبقتي من المغريات، وهذا هو الامتحان العسير الذي كنت اسعى اليه غير مبالٍ بكل ما هنالك من بغية أخرى سواها. .

لقد كنت أريد بذلك كله - وبالامتحان العسير - ان أكون، أو لا أكون، أنا القائل عن نفسه:

وانت اذا زيفوا المعجبين	تلألأ للعين ثم انجلى
ولم تستطع همم المدعين	صبراً على جمرة المدعى
خلصت كما خلص بن القيون*	ترعرع في النار ثم استوى

---

* القيون: جمع قين وهو الحداد الذي عنده تصنع السيوف.

وختاماً واعادةً، مرةً اثر مرة، فهذا ما كنت أريده لامتحن مصداقيتي في المجلس النيابي وليس في أي اغراء آخر من كل مغريات الدنيا.

والآن فبعد فترة من هذه الواقعة «ارجاع المبلغ»، وجهت إليّ دعوة من البلاط في مناسبة (عيد الميلاد)، لبست بدلة رسمية - استعرتها من صديقي عبد الجبار الجلبي - وتهيأت، ثم استنكفت، واقسمت ان لا أذهب.

نزعت البدلة، رميتها قطعة قطعة، وفرشت الحصير على السطح المطل على دجلة وعذبات النسيم تروح وتجيء مدغدغة نفسي وانفاسي.

رن جرس التلفون، واذا بصادق البصام يتحدث من قصر الرحاب، يلح عليّ بالحضور، ناقلاً لي كلمات عبد الاله، من ان المائدة لن تفتتح إلا بحضوري، تعللت بحمى لم تكن بي، وبانحراف في الصحة مختلق، وتعكر في المزاج، لحمته الرفض وسداه الاستنكاف. «لا أقدر، لن أقدر، لا أريد». والح البصام، في نداء ثانٍ قائلاً، ان الأمير يريد ان يبعث طبيبه الخاص (سندرسن باشا)، رأيت ان لا مناص ولا مفر، فلتدوِّ الحقيقة.

قلت: اتريدني ان أقول لك لن آتي!!

هذه ليلة، من الليالي الشامخات، ألا ليت الانسان ينسجم مع نفسه دائماً، كنت ولست ابا العلاء على الحصير، وكوز الماء يرفدني، وذهني ورف يحمل الكتب.

بت ليلة هادئة، ناعمة جميلة ألا ما أهنأ التحدي الجسور صوناً للكرامة!؟.

الفصل السابع

أيام في لندن

يعلم من حولي جيداً من قصائدي وما حوته صحفي وما كان من مواقفي، مدى بغضي لبريطانيا، لما حملته للعراق من ويلات، منذ الاحتلال حتى الانتداب، فالحكم الوطني، مع ذلك فقد طرأت فرصة، بالاحرى دعوة إلى وفد صحفي لزيارة لندن والتعرف عليها، والح عليّ رفاقي الحاحاً شديداً لاقناعي بالمشاركة في هذا الوفد، قائلين:

«ومن الذي يليق ان يكون بمكانك في هذه الفرصة» ونزلت على ارادتهم، وكان ينبغي من باب المجاملة، مقابلة الأمير عبد الاله، قبيل السفر، مادام الأمر يتعلق بوفد رسمي، وكان لابد للجفوة التي نشأت بيني وبينه يوم احجمت عن تلبية دعوته إلى قصر الرحاب، من ان تبرز.

وبالفعل، كان غضوباً في المقابلة، وقال لي الكلمة اللعينة التي لا يقولها إلا المتغطرسون، المتجبرون الذين يجهلون مصائرهم:

«يعني ايش يصير، اذا تأخرت النيابة شهرين أو ثلاثة؟ اسمعني، ما أريده ان يكون، يكون».

قلت له: «ياسمو الأمير، لا تزعل، لك الحق، لربما أكون قد اخطأت ولكني اقسم لك، ان النيابة قد خرجت كلها من نفسي، والف شكر لك على ما كان منك، استودعك الله».

وسكت، كنت صادقاً فيما قلت، فالنيابة عافتها نفسي، ولم تعد منغصات ما رافقها تهمني.

قبل الذهاب إلى لندن، تطوع صادق البصام ـ وكان آنذاك عضواً في

مجلس الاعيان ـ ان يشرف بنفسه على شؤون جريدتي (الرأي العام) مدة غيابي، وقد عكف البصام، بما عرف عنه، من دأب على الحضور المنتظم، وتدقيق حسابات الجريدة، واكتشف ما اكتشف، حيث ابلغني وأنا في لندن قائلاً:

ـ «ياجواهري، الكل ينهبك، وبخاصة كاظم سلمان» هذا اليهوذا، الذي كان يأكل على مائدتي، وينهب كل ما تقع عليه يداه، كلص محترف وسارق من طراز فريد.

خلال وجودي ضمن هذا الوفد، تلقيت رسالة ثانية من البصام بصدد وفاة الحاج (عبد الرزاق شمسة)، وفراغ المقعد النيابي عن محافظة كربلاء والنجف ودعوته لي، وعلى لسان عبد الاله، ان أكون في مكانه.

بسرعة خاطفة، ووعي كامل، كتبت اليه وكنت، وأنا اعيد ما قلته لعبد الاله قبل السفر، اعني كل كلمة اقولها، أي ان شهوة النيابة، ان كانت تسمية الشهوة والاشتهاء تصح على مثل هذه الأمور، قد خرجت من نفسي، وقلت، ولكي لا يكون كلامي من باب التدلل، أو التعزز، فهناك لي طلب يصح ان يكون بديلاً عنها، وهو انني الآن في لندن، وفي الاطار الاوسع، في الصميم من أوربا، فحبذا لو ان المسؤولين، وفي مقدمتهم عبد الاله نفسه، يستبدلون ذلك، بايفاد لمدة سنتين أو ثلاث، للاستفادة من اللغة الفرنسية أو الانجليزية.

واذكر انني شددت على الفرنسية، واقترحت أيضاً بديلاً آخر، وظيفة يرون انني استحقها في السفارة العراقية أو في ما يشبه هذا.

في الرسالة الجوابية، أكد (البصام) ان ما كتبه إليّ، ليس إلا نقلاً عن لسان المسؤولين، وطلب مني ألا اطيل الحديث في الموضوع. وشدد على ان هؤلاء يصرون على موضوع النيابة، وان نوري السعيد سيأتي إلى لندن «ويحدثك بنفسه عن هذا الموضوع».

جاء نوري السعيد، ولأول مرة يراني وأنا عند القائم باعمال السفارة في لندن، وهو من ابناء شمال العراق (كردستان) ومن المحبين الصادقين، ففي

صريو صعوده إلى حيث يقيم السفير العراقي في لندن (الأمير زيد)، الابن الاصغر لشريف مكة (الملك حسين)، القى علينا التحية وقال لي :

«أنت جالس هنا؟ انتظرني . فأنا عائد بسرعة» .

وفعلاً عاد بعد قليل، وطلب مني ان نتمشى قليلاً، وعندها اعاد الحديث عن موضوع النيابة، متسائلاً «لماذا هذا الغضب؟ لماذا هذا الزعل؟ الحاج (عبد الرزاق شمسة) من دعاة العائلة المالكة ومن المخلصين لها وهو رجلٍ كبير السن وكان يستحق ان يكافأ عن ذلك، وقد توفي وهذا مكانك جاهز بديلاً عنه» .



الأمير زيد بن الشريف حسين

وجدتني محرجاً، وفي موقف يستدعي التأدب والمقابلة بالمثل، فشكرته، وقلت له، «لا، أنا الآن. وبعد هذه الرغبة الملحة من الأمير نفسه ومنك أنت بالذات. فانني لست مستعداً فقط. وانما شاكراً وممتناً» .

بعد هذا اللقاء الوجيز، توجه إلى السيارة، واذ هو يهم بركوبها يقول لي، وهو الشديد التأني فيما يقول ويختار من كلمات :

«أنت» الآن في لندن، فلا تقصر وبكل ما تستطيع، بأخذ حيفك من الاستعمار» وهو يقصد ان اقضي وقتي بالتسلية واللهو، وانتزاع ما استطيع «انتقاماً».

وبالمقابل، وفي اللحظة نفسها، كان مراسل (رويتر) في العراق، وهو عراقي واسمه (محمود) واقفاً إلى جانبه، يريد ان يتقرب أو يتسمع كلمة منه، فالتفت نوري السعيد، اليه، وقال له وقد مد يده اليه وهو يعدد اصابعه الخمسة ملمحاً إلى الدراهم أو الدنانير:

«وأنت يا (محمود) أيضاً اقض (التوبة)»، ويفهم القارىء مغزى ذلك. ولكن المغزى الأكبر أن تأتي الاشارة من نوري السعيد نفسه.

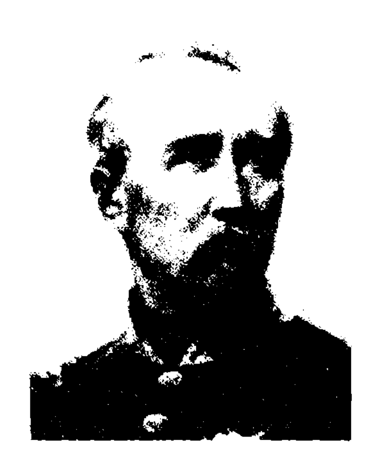
كان نوري السعيد - وأنا أكتب التاريخ - يحتقر من يتملق السفارة البريطانية ببغداد أو من يعرض نفسه للاستئجار عندها، وهو يكشف عن هذا الاحتقار في العاصمة البريطانية نفسها، متحملاً اثر ما يتقوله عليه الناس حول علاقته بالانجليز. ولا أحد ينكر ان علاقته هذه قوية ومتينة جداً، ولكنها في الحقيقة مجرد قناعة منه - ولم يتزحزح عنها ولا قيد انملة حتى يومه الأخير - بموالاة الغرب وهو رجل دولة وليس اجيراً، وبالمناسبة، كانت السفارة البريطانية ببغداد هي التي تتملق نوري السعيد، وليس العكس، لأنه لا يوجد ثمة بديل عنه في ادارة دفة الدولة كلها حينئذ، هذه صورة صغيرة احببت ان اوردها، وهي تبين كيف يشير عليّ نوري السعيد، بما ينطبق على بغضي للاستعمار البريطاني وان استوفي حقي منه في سهراتي وساعاتي، أو بعبارة أدق، في مباذلي، بينما يخاطب بكل استهانة واستخفاف من استأجرته وكالة رويتر، ليحصل على اجرة خدماته، هذا أمر يجدر بالقارىء ان يتوقف عنده ملياً.

واقعة أخرى، ذات مغزى مماثل:

جاءني تحسين قدري في السفارة، وكان يشغل آنذاك رئاسة الديوان الملكي بالنيابة، علاوة على كونه المرافق والسكرتير الأول لعبد الاله، في حلّه وترحاله، جاءني إلى دائرة القائم بالاعمال، وحياني ورحب بي في لندن، ولكنه قال: «ياجواهري، ماذا تصنع هنا؟ أأنت خلقت للندن؟ ما

تصنع بلندن؟ اذهب إلى باريس» ـ وكان هو قادماً منها بصحبة عبد الاله.

ان كل كلمة تصدر عن مثل هذا الرهط، يحسب حسابها، مهما بدت عفو الخاطر، فها هو المرافق الأول والأمين الأول لعبد الاله. يشجعني ـ اكرر يشجعني ـ على الخروج من لندن، مقارناً بين ضيق انفاسي بها وبجوها الضبابي الكئيب، فضلاً عن موقفي وموقف امثالي منها، وبين ما خلقت له وخلق لي في باريس وأجوائها الباسمة واهوائها الساحرة.



السير باتريس مكماهون

وكانت تنتظرني واقعة أخرى، فقد أقام الأمير زيد، حفلة لوفدنا الصحفي ولربما يحق لي القول، دون اتهام بتخطي حدودي، ان الحفلة اقيمت لمجرد وجودي في الوفد. لا أذكر اني التقيت الأمير زيد قبل ذلك. مع هذا كنت أرى انه يحبني كثيراً. كانت الحفلة مهيبة، حضرتها شخصيات بريطانية بارزة، وبخاصة ممن كان لهم الباع الطويل في القضية العربية، وفي التظاهر بالدفاع عنها، بينما حقيقة الأمر هو الدس عليها وتشويهها. وفي النموذج الأول منهم (السير مكماهون)، الذي اندلع الجدل بينه وبين الملك حسين شريف مكة ووالد الأمير زيد نفسه، بسبب القضية الفلسطينية. وقد دوّن التاريخ الحقيقة في مذكرات (مكماهون) وفي ما نشرته الصحف وبثته الاذاعات عن هذه المعركة التي انتهت باعتقال شريف مكة وترحيله عن

موطنه وموطن اجداده، على ظهر بارجة بريطانية إلى منفاه في قبرص حيث مات شهيداً بكل جلال هذه الكلمة.

كان هذا السير مكماهون، من بين ضيوف الأمير زيد، اضافة إلى وجوه أخرى، بعضها يمثل رمز الاستعمار والاحتلال والانتداب والسيطرة البريطانية حتى في العهد الوطني.

وبادر الأمير إلى ان يقدّم لي السير مكماهون ـ وليس ان اتقدم اليه ـ ليقول لي: «اقدم اليك السير مكماهون ابو القضية العربية!!» وليس ابا القضية العربية.

امعنت النظر فيه وأنا شبه مصعوق من اللقب الذي اسبغه الأمير زيد عليه، وكان هذا الرجل، مربوع القامة، خبيث الملامح، قويها.

موجة استنكار تصاعدت فيّ، فقلت:

«كيف ياسيدي، يكون السير مكماهون هو «ابو» القضية العربية؟»

قال: «أجل».

قلت: «اتسمح لي سيدي الأمير، ان أقول لك، ان اباك، حسبما اعرف هو ابو القضية العربية».

كنت ادافع عن حقيقة ابيه، واطعن في هذا المكماهون، ويكون هو في حقيقة الأمر وخلفياته بل وبما عرف عنه شخصياً يحاول بذلك ما يشبه السخرية مما كان ومما هو كائن، وليس النيل من ابيه بطبيعة الحال.

فقال بكل صراحة: أهو أبي أم ابوك؟ أقول لك مكماهون هو «ابو القضية العربية».

ألا ما أكثر هذا الرجل صراحة وتحدياً، رغم مكانته الكبيرة، ورغم مكانته الأكبر التي كان يراد له ان يتبوأها، أيَ ان يكون بدلاً من الأمير عبد الاله في وصايته على العرش.

ومثل ما كان مني مع (مكماهون) بل وبأوجع منه مع (السير كورنواليس) مستشار وزارة الداخلية في العراق ثم السفير لبريطانيا فيه، عندما بادرته والأمير زيد يقدمه إليّ وبما يشبه النص:

«ياسيد كورنواليس، هذه لقطة بديعة لي معك، أنت تسمى في العراق بـ (الملك غير المتوج) وقليلون يحلمون بالوصول اليك، وها أنت في لندن مجرد واحد من المدعوين في هذه الحفلة أو غيرها ومجرد شخص اعتيادي يتحدث إلى شخص مثلي، فكيف يكون ذلك!» وبلهجة عربية يرطن بها، قال لي، - «لا أدري، ولكن الأمر هكذا، وكما ترى»؟ - كان يضحك عليّ أو على نفسه؟. هذا نموذج ثانٍ من هذا الرهط الذي كان يُعّدُ وامثاله في ما وراء كواليس الاستعمار ليتحكموا كما شاءوا بمصائر الشعوب.

على اني تحدثت، في هذه الحفلة، وفي مناسبات كثيرة، معرضاً بالاستعمار البريطاني، وكأن ذلك من مألوف الأمور، وفي هذا المعرض نفسه، جاءت الحادثة التالية:

خلال وجودنا، اقام عمدة لندن حفلاً تكريمياً لنا، بكل الفخفخات والمراسيم والتقاليد البالية، وبما يصح ان يكون نموذجاً مصغراً لفخفخات وعنعنات التقاليد الملكية في بريطانيا، طبول تدق واقدام حراس تكاد تهز الأرض هزاً وطليعة معدودة منهم تؤذن «ان الهاً أتى» وبالصولجان المزركش، كل ذلك لتطلع علينا صورة أو ما يلوح من اساريرها من التكبر والتعجرف ثم ما يختفي وراءهما من أكثر من ملمح دفين.

وفي هذا الحفل الخاص كان لمندوب وكالة رويتر، «مع ترجمان» لقاء مخطط ومدبر معي بخاصة من دون أي واحد من أعضاء الوفد الآخرين، حيث سألني في جملة تساؤلاته العديدة عن رأيي في بريطانيا وأنا اليوم ضيف عليها، وحين قلت له وبالحرف الواحد «وأي بريطانيا تعني»؟

رد عليّ مستغرباً «وكم بريطانيا هناك؟» فأجبته:

- اثنتان.

- وما هما؟

- واحدة هنا بلندن.

- وما رأيك بها.

- حضارة عريقة، وموطن عباقرة خالدين، واحترام للفرد وللفكر وللكلمة.

ـ والثانية؟

ـ عندنا في العراق.

ـ وكيف هي؟

وهنا، تخطيت المترجم الذي يفصل فيما بيننا لاجيبه بالانجليزية «dirty» أي «قذرة». ومن المفارقات البعيدة، ولأقل وبحق حضارية، ان وكالة رويتر، اذاعت هذه المقابلة برمتها وحروفها. وكان لدى نفر من الشباب العراقي بلندن صورة منها معلقة على الحائط، وأخرى وجدتها بعد ذلك، معلقة في غرفة شاب عراقي في امريكا. وكان ذلك منهم اعتزازاً بكراماتهم وكرامة الوطن.

ولنعد الآن إلى الأمير زيد، فبعد وصول الوفد الصحفي وقبل حفلته التكريمية المارة الذكر، وحسب الاصول المرعية، لابد من زيارة السفير والسلام عليه.

وفي هذه الزيارة وقبل خروجي منها، جاءني سكرتير السفارة «أحمد كاشف الغطاء» وهو من ابناء أخوالي حاملاً قنينة (عرق) عراقي، وقدمها لي قائلاً: «ان الأمير زيد، يقول، انني اعرف ان الجواهري لا يشرب غير العرق، وهذه هديتي اليه» كانت هذه لقطة كريمة منه بالرغم من انه كان من المتعبدين، لا بالمعنى الديني، بل بمعنى الالتزام بمواقيت الصلاة والصيام، إلى جانب رقته وانطلاقه وحرصه على توفير ما يتناسب ومزاج ضيوفه.

ومع ذلك فقد كان لي موقف محرج ـ ان لم أقل مغلوط ـ معه، ففي أحد أيام الجمع، اصطحبني نوري السعيد معه في زيارة إلى بيت الأمير زيد، ودار حديث عن الصلاة، ولا أدري كيف صدرت مني هفوة حول صلاة الجمعة، ناسياً ـ بكل معنى النسيان ـ ان الأمير زيد، وبحكم التقاليد الرسمية المألوفة، هو الذي سيصليها، لعلني كنت في لحظة من لحظات ضياعي المعهود وهي غير قليلة عندي.

سع هذا فلم يرد عليّ الرجل، وسكت وكأن الحديث قد انتهى.

رأيت امارات الدهشة ترتسم على وجه نوري السعيد، ولا أعلم حقاً هل توقف الحديث بسبب ذلك، أم ان النهاية كانت طبيعية.

خرجنا، في السلم النازل إلى الشارع، التفت إليّ نوري السعيد قائلاً باللهجة الدارجة «شنو هاي منك» أي ما الداعي لمثل هذا الكلام، وكأنه يريد ان يعوض عن تأنيب الأمير زيد نفسه.

اجبته: «لقد افلتت مني يا ابا صباح»، واعتقد ان ذلك كان آخر عهد مؤسف لي بالأمير زيد وهو السفير في بريطانيا. أما اللقاء الثاني والأخير، ففي العراق وهو ينوب عن الوصي على عرش العراق، وفي طلب خاص مني اليه لا أتذكره استجاب له الرجل ونفذه.

من بين الوفد الصحفي العراقي، كان نور الدين داود وهو مدير الدعاية كما تسمى حينئذ، اذ لم تكن ثمة بعد وزارة باسم الاعلام، كان نور الدين هذا، لا يفوت فرصة عشاء أو غداء أو دعوة أو حفلة إلا ويلقي كلمة توحي وكأنه المسؤول عن هذا الوفد.

الواقع انني كنت المطلوب الأول في الوفد كما سبقت الاشارة.

كان الرجل يقوم بمناسبة أو بدونها ليمتدح ويشكر الانجليز على حفاوة ورعاية وما شابه ذلك.

صبرت وصبرت، مثنى وثلاثاً ورباعاً، وفي رحلة من لندن إلى خارجها إلى بلدة أو معلم من معالم بريطانيا، كرر الرجل فعلته، فانسحبت من الجلسة نفسها وفي عودتنا إلى لندن وفي الطريق إلى مدينة لا أعرف اسمها وليس لي فيها أحد، طلبت ان ينزلوا حقائبي، اعلنت عن انسحابي من الوفد، وكان لانسحابي وقع مؤذ عليهم، وكما قلت، فان السفارة البريطانية في بغداد تعرف ان الرمز المنشود لهذه الرحلة هو الجواهري، ليكون غطاءً لها ولمن فيها من بقية الصحفيين، الذين لا يهتم بهم أحد في العراق ولا يحتلون مكانة.

انسحابي من الوفد كان يعني انه لم يبق وفد، انزلت حقائبي وغادرت المدينة بالقطار، ونزلت على حسابي الخاص في شقة في لندن.

قامت القيامة في بغداد، وفي لندن، ما بين السفارة البريطانية ووزارة الخارجية، وبين المسؤولين عن الوفد والمرافقين له في لندن وفي السفارة العراقية هناك أيضاً.

سعت هذه الجهات إلى تدارك ما يمكن تداركه، واعادتي إلى الوفد، وابيت. وكان آخر ما في جعبتهم هو اقناعي بالبقاء ضيفاً عليهم أطول مدة أريد، ولكني رفضت ذلك، وشكرتهم على استثناء بقائي ولكن على حسابي الخاص، بينما سفّر الوفد العراقي، رغم انه أراد تمديد اقامته اياماً أخرى.

عين لي البريطانيون ضابطاً مرافقاً يرطن باللغة العربية، إلا اني استنكرت واستكبرت، فأنا لا أحب مثل هذه المظاهر الفارغة، وكنت وما أزال لا أحب ان لم أقل (ابغض) المتهافتين على هذه المظاهر واشباهها.

كان وجود الضابط كمرافق لي ثقيلاً عليّ مثل صخرة، رجوت الأمير زيد ان يضع لي مرافقاً عراقياً، ونزلوا عند حكم الأمير زيد، ولا أقول عند حكمي، فعُيّن لي طالب عراقي نابه، كمرافق، هو «احسان رفعة» الذي شغل فيما بعد تخرجه من جامعة لندن مركزاً مرموقاً في شركة النفط العراقية.

وبسبب ما كان مني، مما أوردته من مواقف في هذه الرحلة نفسها، وخصوصاً موقفي من «مكماهون» في حفلة الأمير زيد، بدا لي وكأنني في جملة من تلفهم القائمة السوداء عندهم، ولي الفخر، فأنا ممنوع من دخول بريطانية حتى الآن.

لِمَ اصدروا منعاً عليّ من دخولها؟ وفيها ما فيها من متعاطي المخدرات، ومغتالين ومهربين وسياسيين خائبين وغير خائبين، من كل لون وشاكلة؟!!

وبدل الانغماس في تبييض صفحة الحفاوة، وكما فعل الكثير من الصحفيين، رحت اتسلى عنها بأكثر من قطعة واحدة، هي ما بين صورة شعرية جميلة لمنظر طبيعي فيها، جميل مثلها وهو منظر البقعة الساحرة التي تسمى بما ترجمته «بحيرة الاخوين» ولهما ولضريحهما قصة مشهورة في بريطانيا:

هنا يرقدان وخضْرُ الجبالِ تَبُلُّ الينابيعُ أرادنَها
بحيث البحيرةُ تُنسيهُما عناءَ الحياةِ وأدرانَها

وأخرى في ضيق نفسي وصدري بلندن:

مَلِلتُ مُقامِيَ في لندنا مُقامَ «العَذارى» بدور الزِنا
مُقامَ «المسيح» بدارِ اليَهو دِ مُقام العذابِ، مُقام الضَنى

وستأتي في الخمسينات، اللقطة النادرة عن مدى اهتمام (كريم قاسم) لهذه القطعة وكيف يستشهد بها.

ومثلها فأمزوحة شاء حظ سكرتير السفارة أحمد ان يختص بها:

واحمدُ أبن كاشف الغطاءِ في لَنَدنٍ يمشي بلا استحياءِ
يمسكُ في ذراعِهِ ذراعَهَا يلطع كل ساعةٍ كراعها

وهناك بعد هذين البيتين ما لا ابيح لنفسي اعادته.

كنت برما بلندن الكئيبة على عظمتها وعراقة تأريخها الحضاري العميق الغور والبعيد المدى، وقد صدق تحسين قدري حين قال: «ماذا تصنع هنا، أأنت خلقت للندن»، وبالفعل فما كانت لندن بغيتي، وما كان مزاجي الخاص يتفق معها.

الفصل التاسع

ما بعد ذلك

تجمع في لندن، في اثناء تلك الايام، مزيج يثير التساؤل فوجود عبد الاله ونوري السعيد ثم فاضل الجمالي الذي جاء من امريكا إلى لندن، كان مقدمة لما يحاك اعني بذلك معاهدة (بورت سموث).

واذكر بهذا الصدد ان مناقشة خفيفة غير حادة، جرت بيني وبين فاضل الجمالي في ديوان القائم باعمال السفارة. أما بصدد الأمير (عبد الاله) فبرغم ما توطد ما بيننا من علاقة فاني لم أجد مدعاة لأن ازوره وهو في مقره بفندق الامراء (كلاريج) المُعّد لاستضافة الملوك. قلت، انني التقيت نوري السعيد مصادفة، فكيف الأمر مع عبد الاله:-

ذات يوم كنت اتنزه في أحد شوارع لندن، واذا بسيارة تقف بغتة وينزل منها ثلاثة شبان ليقولوا لي:

«لدينا أمر القاء القبض عليك»!

كانوا يفتشون عني منذ يومين أو ثلاثة، فلا يجدون لي اثراً، حتى انهم سألوا عني وتفقدوني في أكثر من مكان واحد وبخاصة ففي بيت ضابط شاب سيكون له شأن معهم وستكون لي معه وله معي حكايات وقصص.

وتلقفني هؤلاء، ولم يكونوا سوى مرافقي عبد الاله، واخذوني إلى الفندق الفخم لأجد نفسي أمام تحسين قدري المكلف باستقبال الزائرين، وهو يقول «أين أنت والأمير يفتش عنك، ويقلب لندن ليجدك؟» وتوجهنا اليه حيث كان ينتظر.

وينبغي لي ان استبق واحدة من هفواتي الناجمة عن جهلي بقواعد البروتوكول، فقد كنت بدوياً في لندن وأتذكر انني جلست على يمينه خلافاً

للقواعد المألوفة، بل ومن يصدق انني، وفي مثل هذه الشكليات بدوي حتى الآن: فقد ظللت طيلة حياتي لا أعرف، أين يجب ان يكون مكاني من مكان من هو أكبر مني سناً أو مقاماً أو ضيفاً أو مضيّفاً، فهناك أكثر من طرافة واحدة بهذا الصدد يحق لها ان تكون بمثابة الحكايات، وعلى أي حال، فانني كما قلت لم أكن واعياً أن هذا الكرسي الفارغ وإلى يمين الوصي على عرش العراق لابد ان يكون لعمه الأمير زيد ليس إلا . . . ومع هذا فقد استدار الرجل بكرسيه ليرحب بي ويسألني أين كنت في هذه المدة كلها. قلت وأنا اجافي الحقيقة: «لقد زرتك فلم أجدك»، وواقع الحال يفضح كذبتي، فهناك كما قلت: من هو مكلف بالزيارات والزائرين، وتقبلها عبد الاله.

وقال: «احب وأنت في الطليعة فيمن احب، ان اخصك بشيء، اعتبره بمثابة تصديق لهذا الحب، ان اطلعك على ما يهم الناس من نصوص المعاهدة».

من هفواتي، فيما بعد، ان اشرت في جريدتي (الرأي العام) إلى هذا الأمر الذي استقبله الناس بدهشة اذ كيف يصح لي ان اذيع ما كنت مؤتمناً عليه من أمر خطير، هناك من لامني، محبة، على ذكر ذلك ونشره.

المهم ان عبد الاله، اطلعني على النص، وقال:
«أريد ان تبين لي نقاط الضعف في هذه المعاهدة»!.

وعيت على نفسي، ووعيت على انني يجب ان اقابل هذه اللفتة بمثلها وان لا اضع نفسي بمكان من يريد ان يناقش فيها. ركزت ملاحظاتي، على ما يتعلق بالقواعد العسكرية البريطانية في العراق وعلى ما يشبه التملك لطرق المواصلات وبخاصة فالسكك الحديدية وعلى طول مدة هذه المعاهدة الجديدة والجائرة أيضاً.

وكانت مني مداخلة بهذا الصدد في احدى جلسات المجلس النيابي بعد ذلك وفي العام هذا نفسه، وكانت نصوص المعاهدة المراد تعديلها في يدي وأنا اتلوها فقرة فقرة، علماً مني بان الغالبية الساحقة من النواب كانت لا تعرف من المعاهدة غير اسمها، والصفة المناسبة لها وهي «الجائرة».

قلت لعبد الاله، فيما أنا اتفرس ببنود المعاهدة، وما تفرضه من سيطرة على المواصلات والخطوط العسكرية المفترضة:

«اذا لم تكن جرأة مني، فملاحظاتي تنصب على هذه النقاط».

فقال لي، وهذا ما احب ان اشدد عليه للقراء، وهو ما يدل على أبعد من حروفه وكلماته بل ما يصحح محاولات تزوير التاريخ، قال لي بالحرف الواحد، وباللهجة الدارجة «شنسوي»، أي «ماذا نفعل» أو «ما العمل» ماذا نقدر على أكثر من هذا، وهم ياجواهري يخوفوننا ـ يقصد الانجليز ـ بين الحين والآخر بـ (البعبع). وفهمت، ويفهم من ذلك حتى قليل الفهم، ان المقصود بذلك هم السوفييت.

هكذا جرى اللقاء، بمثل هذا الجو الذي يدل بنفسه على نفسه، حاولت ان استأذن، فقال: «إلى أين؟ أنت هنا معي».

قلت ببساطة بدوية، أريد الاعتذار عن هذا الطلب، فقد حجزت للسفر على الطائرة إلى بغداد، وكان لهذا العذر الساذج مفعوله، فأنطلق عبد الاله ضاحكاً ضحكة لها مغزاها، والواقع اني اضحك من نفسي كلما تذكرت ذلك العذر البدوي الذي اصطنعته وأنا جاهل بعالم الطيران وتذاكر السفر. وقال: «اهذا عذر؟ البطاقات تبدل بسهولة».

وطبيعي ان لا استطيع بهذه الحجة الواهية ـ ان لم تكن المضحكة ـ الافلات فقد غطى عليها الرجل لينتقل منها إلى ما هو المطلوب، ليقول: «يافلان لا تفكر، أنا أعرف نفسيتك، فأنت بعيد عن التحدث في كل الماديات، بمعنى آخر لا تفكر بجيبك ومصروفك، فكل شيء مهيأ».

عندئذ ابتدأ الوعي الآخر عندي، وهو الوعي الصحيح، كيف اواجه الناس وأنا من أنا لديهم؟!. كيف أعود مع حاشية عبد الاله؟ كيف سأواجه الجماهير المشدود بها وماذا ستكون مسؤوليتي؟.

وكنت، وما أزال ـ وان شَقَ ذلك على القارىء ـ اشهد ان عبد الاله هذا ليس كما يراه الناس، بل لا يشبهه أحد من كبار المسؤولين في الدولة في موقفه، واحترامه لنفسه، ووجدت نفسي وأنا اعتذر، قائلاً له:

«انني بوجودك في غنى عن كل حاجة»، ومع هذا كله، وبأكثر من عذر غير مقبول، فقد تخلصت منه، إلا انه وبرغم ذلك لم يتخلص مني . . .

وبينما كنت اغادر قال:

«مع السلامة، ولكني احب ان اقول لك، انني كتبت إلى صالح جبر ـ وهو رئيس الوزراء آنـذاك والمعنّي بـ (طرطرا) وقساوتها ـ حول مسألة النيابة» .

لقد كان معنى ذلك واضحاً عندي، انه كتب إلى المعني بكل ما بيني وبينه لا بـ (طرطرا) وحدها، لاصبح نائباً في المجلس النيابي في عهده وعلى يده .

لقـد أشـرت إلى مدى اعتزاز عبد الاله بقصيدة (طرطرا) وباشهارها سلاحاً في وجوه الساسة الذين يتجادلون معه وهو ببغداد، ولكن الغريب ان يبعث بأكثر من واحد ممن معه ليجيء بها اليه وهو في لندن، وقد علمت ذلك من تحسين قدري نفسه .

ولي ان اختم حديثي عن أيام لندن هذه بما كان بيني وبين رجل، من أكثر من حادثة واحدة في المرافقة والمصاحبة، والذي أصبح له بعد عقد من الزمن، دور يلتصق بكل تاريخ العراق .

الفصل التاسع

الضابط الشاب

في الملحقية العسكرية بلندن، وهي أكبر ملحقية، كما هي أكبر سفارة للعراق في العالم، كانت بعثة عسكرية خاصة تضم ملحقين وموفدين من ضباط يتسابقون عليّ، ويجرني الواحد بعد الآخر من أرداني.

كنت قماشة خالصة تنخلع على كل الاطراف الوطنية، وهذا من حسن حظي ودواعي افتخاري حتى يومي هذا.

وكان بينهم ضابط شاب، كان، من دونهم، أشد الحاحاً عليّ بأخذ حصة أكبر، أو الحصة الكبرى من الجلسات واللقاءات، من جملة ذلك أن اصطحبني إلى بيته، وهو شقة متواضعة بملحقاتها.

هذه «الدويرة»، شهدت ثلاث لقطات، تصح ان تكون على بساطتها ذات كلمة ومغزى، لما سيكون لهذا الرجل من دور خطير في تاريخ العراق. والواقع انني نسيت اسمه وملامحه في زحمة الاحداث، ولم استطع بسبب كثرة الضباط المحبين والعاطفين المتسابقين عليّ من أفراد البعثة العسكرية آنذاك في السفارة العراقية في لندن، ان استعيد شبح وجهه بعين مخيلتي.

فقد كنت اتنقل مع زمرة من الشباب العراقي المقيم في لندن والمتنقلين بي، من هذا البيت إلى ذاك، ومن تلك المقهى إلى أخرى، ومن هذه السهرة إلى سواها، أي اني كنت أريد ان اقتنص ما يعن لي من ساعات وأيام، كي اتعرف واتلهى بهذه الاجواء التي يشغف بها امثالي من محبيّ الحياة. من ناحية أخرى كنت اميل إلى ان اخلد لنفسي ساعات، وبعيداً عن هذا وذاك، اذ لم تكن لي لغة مشتركة بيني وبين هؤلاء الضباط.

كانت لغتي، لغة الأدب والشعر والحرف والنغم، وكانت لغتهم في مستوى آخر، من بين هؤلاء، كان شاب ينجذب إليّ، بكل معنى الكلمة، حتى انه لكي يطيل مدة التقائي واياه، كان يلجأ إلى قناني (الجعة) فيما بين اللقـاء واللقاء، في حين كان هو لا يتعاطاها، ومعلوم من ذلك، ان شرب (الجعة) ليس بسهولة شرب فنجان قهوة.

كيف توثقت عرى المعرفة بيننا؟ اظن انني شكوت وجعاً في اسناني كنت اعاني منه وأنا ببغداد، ووصف لي حينئذ، صديق من اصدقائي، علاجاً جديداً لقلع الاضراس، وهو ما يشبه قربة غاز تسلط بانبوب على الضرس فيسهل قلعها بلا ألم، أو انها تنقلع من تلقاء نفسها.

حدثت الضابط الشاب في ذلك فقال، انه يعرف طبيب اسنان انجليزياً شهيراً وعد ان يأخذني اليه، وقال الطبيب، عندما تحدث مع الضابط عن العلاج المفترض، ان نعم!... واستدعى الطبيب مساعده، وهو الموكل بتسليط هذا الغاز.

حدثت مصادفة، ان انقطع الانبوب المتصل بقنينة الغاز، بينما الطبيب يقلع الضرس الكبير، المكين حتى بدون تخدير، واذا بي اصرخ من الألم صرخة مدوّية سمعها كل من في قاعة الانتظار ومنهم رفيقي.

وعلى أي حال، كنت قد دفعت اليه المبلغ المطلوب وسلمه هو بدوره إلى الطبيب، وكان قدره (٣٠) جنيهاً استرلينياً.

وفي موقف تالٍ، شكا لي، وأنا في احدى تلك الزيارات، والفحوص الطبية أمامه، ان وزارة الدفاع أو المسؤولين عنها، يرفضون ان يتكفلوا بمصاريف علاجه كما هو المفترض بكل ذي وظيفة أو منصب في الدولة يصاب بهذا المرض أو ذاك وفي الصميم من القيام بخدماته فيها، فكان مني ان قلت له: «ان هؤلاء القوم، وفي المقدمة منهم، الأمير عبد الاله، ونوري السعيد، وكما تعلم، يتوددون إليّ، فهل تسمح لي ان اذكر شكواك العادلة اليهم، بأمانة؟ اكتفى الضابط الشاب بالسكوت، وفهمت من ذلك ما سبقني اليه المثل القائل «السكوت من الرضى» وبأمانة أيضاً، فلا اتذكر انه قد كان

منى في زحمة الاحداث شيء مما كنت أحب ان أقدمه اليه من خدمة مطلوبة.

لم يكن هذا الضابط احداً آخر سوى «عبد الكريم قاسم»! هذا الرجل الذي أصبح أكبر من رئيس للجمهورية صباح ١٤ تموز ١٩٥٨، وشوهد وجهه في القمر!!، وأنا ناسٍ اسمه حيث كنت في «علي الغربي» وبعيداً عن بغداد يومها وساعتها.



عبد الكريم قاسم

ولأول مرة يبرز شبح رفيقي هذا وأنا في لندن، مقروناً باسمه المنسي عندي وأنا عائد من محافظة العمارة إلى بغداد وثلة من الشباب يودعونني عندما رأيت صورته بزيه العسكري الذي عهدته في لندن ملصوقة على الزجاج الامامي للسيارة التي استقلها كما هو الشأن في كل سيارة أو شاحنة أو جدار أو حانوت أو بيت في كل انحاء العراق.

اذن هكذا يملي التاريخ والاقدار ما تملي وبمثل ذلك من تشاؤه المجتمعات العربية!!.

الفصل السابع

من المجلس إلى الوثبة

رجعت من لندن، ووجدت الأمور مهيأة، وفي موعد الانتخابات، ذهبت إلى (كربلاء) وعلى الطريقة المألوفة وخلال ساعة واحدة، اصبحت نائباً بالتزكية ـ كما يقولون ـ باجماع الناس والناخبين والجماهير وبمحض ارادتهم وبمطلق حرياتهم!، هكذا كانت تسير الأمور.

ويصادف بعد ذلك بقليل، ان يأتي الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية، فيكون ضيفاً على الحكومة العراقية، وتقيم له امانة العاصمة حفلة بهذه المناسبة، لم تكن لي معرفة شخصية بالشيخ الخوري، بيد اني قد سمعت به كثيراً رئيساً للدولة، يحمل معها ومنها سمات المثقف ويتمتع بملكات أدبية، وما زلت اتذكر كلمته التي القيت في مهرجان (ابي العلاء المعري) والتي كانت حقاً ملفتة للنظر من ناحية القوة والعمق.

والحق، كنت صادقاً عندما احببت تكريم الضيف ومعنى ذلك ومضمونه فتكريم مضيفه، وابتدأ الحفل الفخم في امانة العاصمة، وكان بين الحضور كبار رجال الدولة والسفراء الاجانب، وأقول هذا لأن قصيدتي كانت في جملة ما اعتز به من قصائد لي معدودات وليس لأن اسم هذا أو ذاك من الناس قد ورد فيها، واؤكد انها تعجبني جداً، وقد قلتها من صميم قلبي ودمي، وكنت وما زلت صادقاً وأميناً عليها، واحس انها جزء من كياني وضميري، كنت أريد ان أقولها. وقد قلتها كما أردت لها ان تقال.

وابتدأ الحفل، وبينما أنا اقرأ بيتين أو ثلاثة، انبعثت ضجة مفتعلة كان مثيروها صالح جبر واتباعه، وكانت غايتهم التشويش، حاسبين ألف حساب

لما سأقوله، شأنهم في ذلك، ما كان من شأنهم في حفلة ثانوية الحيّ المارة الذكر.

ولاحظ عبد الاله اني أُلجلج في إلقاء الابيات الأولى، فأحترس وعرف جلية الأمر فهمس إلى تحسين قدري ان يذهب إلى الجانب الثاني من بهو الامانة وينبه هؤلاء، بل ويستدعيهم اليه، فخفتت الحركة، وهدأت الضجة نزولاً على حكمه فواصلت الالقاء بكل ما فيّ من قوة ايمان لصدق ما أقول:

ناغيت «لُبنـانـاً» بشِعـريَ جيلا ... وضـفـرتـه لجـبـينـهِ إكـليلا

ورَدَدْتُ بالـنغَـمِ الـجميلِ لأرزه ... ظِلّاً أفـاءَ به عليَّ ظَليلا

أوَ ما ترى شعـري كأنَّ خِلالَـه ... نسيَ الـنسيمُ جنـاحَـهُ المبلولا

وحِسبانَ لُبنانٍ منحتُ قصائدي ... فسـحـبـنـهـنَّ كَذَلّـهنَّ ذُويلا

أهـديتُـهُـنَّ عُيونَـهـنَّ نوافِـذاً ... كعـيونـهِـنَّ إذا رَمَـيْنَ قَتـيلا

فرِدَّدنـهـنَّ مِنَ الأسـى وجـراحِـه ... كِسَـراً. فَرحْـتُ ألـمُّـهنَّ فُلولا

ورَجَـعْـتُ أدراجـي أجـرُّ غنيمـةً ... من «بـنـتِ بيروتٍ» جوىً وغـليلا

لُعـنَ الـقصيدُ فأيُّ مُثـرٍ شامـخٍ ... سرعان ما آستجدى الحسانَ ذليلا

وخلصت من هذا المدخل، إلى ايفاء الضيف (الخوري) حقه من التنويه ومن الاشادة بما كان له من مواقف مشهودة ضد المحتلين الفرنسيين وستأتي هذه القصيدة في المستدركات.

وكان مسك الختام كما يقال منها ما يختص بفلسطين وربما كان ابدع وأفخم ما في القصيدة كلها، مما استوجب النقيضين، ان يعجب، بل ان يهتز لها عبد الاله المسؤول الأول في الدولة، عما فيها وبخاصة فعن حصة بريطانيا شبه المسيطرة على الحكم والحاكمين، ثم ان تغضب السفارة البريطانية فتقدم احتجاجها على تلك الحصة، ذلك ان الحفلة كانت رسمية وبكل معنى هذه الكلمة. ثم ألا ينتهي الأمر بهذا كله بل ان ينتزع عبد الاله

من عنق رئيس الديوان الملكي آنذاك تحسين قدري وسام الرافدين المذهب، ليخلعه عليّ، وبحكم التقاليد فان ينتزع بشارة الخوري من عنق مجيد ارسلان وزير دفاعه وسام الارز اللبناني المذهب أيضاً، وها هي حصة فلسطين من القصيدة:

ياشيخَ «لُبنان» شكيَّةَ صارخٍ ... تتخلَّلُ الترحيبَ والتأهيلا
كنّا نُريدُك لا القلوب «مُغيمةٌ» ... فينا. ولا خِصبُ النفوس مَحيلا
لنريكَ أفراحَ العراقَ شَمالَه ... وجنوبَه، وشبيبةً، وكُهولا
جئتَ العراقَ ومن فِلَسْطِينٍ به ... وَجَعٌ مُطبِّبُهُ يعودُ عليلا
والمسجدُ المحزونُ يُلقي فوقَه ... ليلاً ـ على الشرق الحزين ـ طويلا
ذهبتْ فلَسْطِينٌ كأن لم تَعترفْ ... مِن كافليها ضامناً وكفيلا
وعفَتْ كأنْ لم يمشِ في أرجائها ... «عيسى»، و«أحمدُ» لم يَطِرْ محمولا
و«المسجدُ الأقصى» كأنْ لم يرتفعْ ... فيهِ أذانٌ بُكرةً وأصيلا
وثرى «صلاحِ الدين» دِيسَ وأنعلتْ ... منه جيوشُ الواغِلين خُيولا
و«الحنظليُّ» بحِلْفِهِ ووُعودِهِ ... ما زالَ كاذبُ وعده ممطولا[1]
لم يرعَ شرعَ الكافرينَ، ولا وفى ... حقَّيهما القرآنَ والانجيلا
أعطى «إلَنْبي» أهلَها فاستامهم ... «بلفورُ»، فاستوصى بهم عِزريلا[2]
واليومَ يفخرُ «بالحيادِ» كفاخرٍ ... بالقتلِ إذ لم «يَسلَخِ» المقتولا

ساعة من ساعات معدودات ـ على كل مفارقاتها ـ اعتز بها، ويتردد صداها في نفسي، ونزولاً على حكم التقاليد والاعراف أيضاً، فقد تقدم لي

---

(١) الحنظلي: يريد به المستعمر البريطاني، و «بنو حنظلة» يضرب بهم المثل في الكذب.
(٢) المقصود به جسر (إلَنْبي) القائد البريطاني المعروف وفاتح القدس في الحرب العالمية الأولى

بالتهاني عليها وعلى رموز التكريم فيها، كل الشخصيات البارزة من الحاضرين، وواحد منهم كان جميل المدفعي الذي قال لي:

«ان من المألوف في مثل هذه المناسبات، ان تطلب يد من تشاء من فتيات العوائل الشاخصة في هذا الحفل، للرقص معها» وكانت في هذا الحفل أكثر من عائلة واحدة بهذه المستويات كعائلة (طبّارة اللبنانية) الشهيرة بجمالاتها وكم كان اسفي عندما اجبته:

«انني لا أعرف الرقص يا ابا سعد»، وفعلاً فقد حرمت من تلك الايدي الجميلة الناعمة من بين تلك العائلة وتقدم اليها صادق البصام ليكون بديلاً عني فيها.

وشاء الحظ لي بعد ذلك بسنين عديدات ـ وأنا في براغ الساحرة ـ وكأني أريد فيها ان انتقم لنفسي مما فوت عليها، فأجدت الرقص كل الرقص، وبكل اجادة!.

دخلت المجلس النيابي في جلسة الافتتاح من جديد، ولأول مرة، أجدني، نائباً، وفي مجلس نواب بعد ثمانية عشر عاماً من خسراني النيابة، أكثر من مرة ومرة، من قبل ان أكمل السن القانوني، كما يقولون، والمطلوب للنواب في المجلس النيابي ثم بعد ذلك في الثلاثينات وضياع حقي منها، نعم منذ ثمانية عشر عاماً بالضبط بعد خروجي من البلاط الملكي، واصداري جريدة (الفرات).

كان المجلس ازاء قضية خطيرة، هي طرح الثقة بوزارة صالح جبر، والذي يجدني، بعد هذا كله، وفي أول جلسة لطرح الثقة به، أقف إلى جانب المعارضين، ولا أدري لماذا فعلت ذلك، وأنا العارف بحقائقهم وبحقيقة نفسي، وأكثر من هذا، فقد وجدتني، وكأن تلك الطفولة التي قلت، وما أزال أقول عنها، انها تلاحقني الآن وأنا على ابواب التسعين، كانت تعيد نفسها.

وجدتني وأنا لم تُصدق بعد (مضبطتي) الانتخابية، التي لا تتم النيابة إلا بها رافعاً اصبعيَّ وكأنهما شوكتان واخزتان في عيني صالح جبر ليقولا

له، اني مشارك بارز ـ وعن طريق الاستثناء ـ من دون كل من هم نواب فعلا، في اطراح الثقة به وعنه، وفي معارضته.

الموضوع المعني بهذا الصدد هو أشتداد تزاحم الناس على (الرغيف) بل وعلى طرح الخبز الملوث في الاسواق، وعلى يد المحتكر الأول (الدامرجي) صاحب المطاحن الشهيرة، والذي كان حديث المجالس، هو وعضده الايمن، الرجل الذي لا حاجة بي إلى اعادة اسمه من جديد، فقد مرت الاشارة اليه في معرض من يشكلون (الوزارة) لأكثر من مرة ومرة.

وعلى كل حال، فقد سببت الازمة تلك، ضائقة للجماهير كلها ولصالح جبر نفسه، واستغلها من خلق للاستغلال ومن لم يخلق له، وحراجتي أنا بالذات وعلى وجه أشد عنفاً، بل وتهوراً، انني كنت قد كتبت مقالاً شديد اللهجة وفي صباح اليوم نفسه، في جريدتي.

صوّتُ، ضد صالح جبر وسط دهشته قبل كل أحد ثم دهشة اتباعه الكثيرين، وفيما يخصني بالذات وبمدخل من الحب والعاطفة والقرابة، فدهشة علي الشرقي، ابن عمتي، الذي كان في شرفة مجلس الاعيان من المتفرجين على الجلسة، بل وعلى موقفي أنا بخاصة منها، كان وكأنه غير مصدق هذا الموقف، كما قلت، غير المنطقي من نائب جديد لم يصادق على نيابته بعد! يتوجب عليه الانتظار والتريث وعدم تحديد موقفه بهذه السرعة الخاطفة والمغلوطة، ونزل من الشرفة ليكون إلى جانبي، وليقول لي: «ما هذا يا ابن خالي؟ (امس العصر، دخلت القصر)، ثم أنت لم تصبح بعد عضواً رسمياً، لماذا اتخذت هذا الموقف وأنت في غنى عنه؟!»

قلت: «لا والله، كل ما احببت هو الانسجام بين ما أقوله وما أفعله، بين ما كتبته في جريدتي عن هذه الأزمة وعن مسببيها، وبين موقفي هذا».

فكان جوابه عميقاً، ومقنعاً ـ ان لم يكن مخجلاً، قال:

«طيب، لا تحضر الجلسة وكن واحداً من المتغيبين وهذا من حقك، وأكثر من هذا يا ابن خالي، فمن حقك ان تحضر وان تمتنع عن التصويت».

قلت: «انني آسف، لم افكر في هذا من قبل، ولن ينفعني التفكير به

بعد، انني يا ابن عمتي العزيـز ما أزال كما تعرفني (بدوياً في باريس) وذلك الطفل الذي كنت تحتضنه قبل ابيه واخوته».

ولم تمض الايام، حتى بدأت المرحلة الثانية، واعني بها المؤشرات المتـلاحقة لبداية (الوثبة) فلقد كانت ثمرة جديدة تلقفها المستغلون لأسم المعارضة دون ايمان بجوهرها وحقيقتها وانما محاولة عابثة لكسب الجماهير اذ ان الحقيقة الساطعة هي ان الجماهير وبخاصة الجيل الواعي والصاعد منها لم يكن فريسة لهؤلاء المنتهزين، فلم يكن لديهم أية حصة فيها. . . لقد كانت ارادتهم بايديهم وبمحض وعيهم واندفاعاتهم وللحديث صلة.

لقطة حلوة ..

وَلقطة مُرّة ..

وفي هذه المرحلة من الاربعينات وأنا أطوي صفحات الجزء الأول من ذكرياتي، لا يفوتني، ان اخص بالشكر والامتنان كل من يكون قد فاتني ذكر اسمه من كل الذين يشدني بهم ازر الحب الصادق، والمواقف النبيلة وفي هذه الفترة بالذات من أي طبقة كانوا، وبوجه اخص واوجب، ممن كانوا الوجوه البارزة في جريدتي (الرأي العام) وسائر الصحف الأخرى التي كانت تسد الفراغ بين هذا (التعطيل) منها والآخر، ومهما نسيت اسماء منهم غير قليلة فلن انسى الاسماء الشاخصة حتى الآن، وفي المقدمة منهم، ـ وعلى تسلسل الزمن ـ فـ (سليم طه التكريتي) و (بدر شاكر السياب) و (الياس وزير) والشهيد (حسين مروة) و (عبد القادر البراك) فهؤلاء هم الذين كانوا الصفوة المختارة في كل الصحف التي اصدرتها.

وبعد، فهذه الصورة الصادقة والمؤتمنة كما حاولت جاهداً ان تكون المرحلة الأولى من حياة اختزلتها، وما سيجيء من مراحلها الأخرى، بكلمات ثلاث رسمتها على وجه الغلاف من هذه الذكريات:

ولدوا. . . فتعذبوا، أما الثالثة (فماتوا) فلم يحن بعد أوانها.

واخيراً فلا أدري ما اذا كان سوء تصـرفي وجهلي بنفسي بل وجهلي بأقدار الآخرين، وما يحق للقارىء ان يضيف اليها من مرادفات، اقول لا أدري ما اذا كان كل ذلك شفيعاً لي ـ لو صح ان تكون هناك شفاعة كهذه الشفـاعة ـ لا لمجرد الاعتذار إلى من تفضلوا عليّ، ان تكون اطروحاتهم الأدبية عني بالذات، بل حتى بعدم الرد مني على رسائلهم، وفي المقدمة منهم صديقي، الأديب العراقي المبدع الدكتور (عبد الجبار المطلبي) الذي لابد ان يكون الآن ـ وهو في العراق ـ متذكراً «امزوحتي» في «كابول»، عندما كنت واياه مندوبين لحضور مهرجان أدبي لأحياء ذكرى اكبر شعراء «الافغان» في اوائـل السبعينات، عندما تحرشت به عامداً، لأسأله: لقد ابدعت كل الابداع في اطروحتك عن «رؤبة ابن العجاج» الرسام الخلاق الذي كان أول شاعــر عربي عبقـري، انصف بدوره هذا الحيوان الصلب، والصـامـد، والصابر، ومن يضرب به المثل للانسان الصابر في الحروب والمكاره، فقد قال أول خليفة عباسي عن آخر خليفة اموي لم ينزل عن فرسه: «آه من مروان الحمار» مبدلاً به مروان الشجاع، ولكني ـ والحديث ما يزال لي ـ كيف عنَّ لك هذا الاختيار؟ وسرعان ما كان منه ما أنا عارف به سلفاً: وماذا اصنع، اذا كان «الجـواهـري» لم يرد عليّ بكلمة؟ حسبي بهذا الاعتذار إلى الدكتور «المطلبي» ان يكون صورة صادقة وامينة للاعتذار أيضاً، إلى السيد «خليل الداغستاني» في جامعة «بروكسيل» وان لم تخنـي الذاكرة ففي جامعة «كوبنهاغن».

وإلى السيدة الكريمة السورية، وقد انساني الزمن اسمها، وهي في جامعة «دمشق» تحاول تقديم اطروحتها.

وإلى السيدة السوفياتية التي قدمها واطروحتها الضخمة إليّ ولدي الحبيب «فلاح» وهو واياها في جامعة «موسكو» وكان عذري اتعس من فعلي، في عدم مراجعة اطروحتها، بحجة، انني لا اريد التدخل فيما كتبت عني.

هذا اعتراف مخجل، وبكل المؤشرات عليه أقول لمن قد يصدق شيئاً من هذا القبيل...... صدقني!!



مسودات تبين طريقة الجواهري في نظم الشعر

الثورة العراقية

- نظمت عام ١٩٢١ في أعقاب الثورة العراقية .
- نشرت في نيسان ١٩٢٢

لعلَّ الذي ولّى من الدّهرِ راجعُ ... فلا عَيشَ إنْ لم تَبقَ إلاّ المطامعُ
غرورٌ يُمنينا الحياةَ : وصَفْوُها ... سرابٌ وجناتُ الأماني بلاقع
هو الدهرُ قارِعْهُ يصاحبكَ صَفْوُهُ ... فما صاحَبَ الأيامَ إلا المُقارع

* * *

تُحدِّثُ أوضاعُ العراقِ بنهضةٍ ... تُرَدِّدُها أسواقُه والشوارع
وصرخةُ أغيارٍ لإنهاضِ شعبِهمْ ... وإنعاشِهِ تستكُّ منها المسامع
ستعرِفُ ما معنى الشعورِ وكم جَنَتْ ... لنا مُوجعاتِ القلبِ هذي المقاطع
بني الوطنِ المستلفتِ العينَ حسنُهُ ... أباطِحُهُ فَينانةٌ والمتالع
يُرَوِّي ثراهُ « الرافدانِ » وتزدهي ... حقولٌ على جنبيهما ومزارع
تغذّيهِ أنفاسُ النسيمِ عليلةً ... تُذيعُ شذاهنَّ الجبالُ الفوارع

* * *

وقد خبَّروني أنَّ في الشّرقِ وَحدةً ... كنائسُهُ تدعو فتبكي الجوامع
وقد خبَّروني أنَّ للعُرْبِ نهضةً ... بشائرُ قد لاحتْ لها وطلائع
وقد خبَّروني أنَّ مصرَ بعزمِها ... تُناضلُ عن حقٍّ لها وتدافع
وقد خبَّروني أنَّ في الهندِ جذوةً ... تُهابُ إذا لم يمنعِ الشرَّ مانع
هبوا أنَّ هذا الشرقَ كانَ وديعةً ... « فلا بدَّ يوماً أن تُرَدَّ الودائع »

* * *

وفي الكوفةِ الحمراءِ جاشت مراجلٌ ... من الموتِ لم تهدأ وهاجتْ زعازع
أُديرَتْ كئوسٌ من دماءٍ بريئةٍ ... عليها من الدَّمعِ المُذالِ فواقع
همُ أنكأوا قرحاً فأعيتْ أُساتُه ... وهُمْ اوسعوا خَرْقاً فأعوَزَ راقع
بكلِّ مُشبٍ للوغى يُهْتَدى به ... كما لاحَ نجمٌ في الدُجُنَّةِ ساطع

* * *

جرى ثائراً ماءُ الفراتِ فما ونى ... عن العزم يوماً مَوْجُهُ المتدافع
حرامٌ عليكمْ وِرْدُهُ ما تزاحمتْ ... على سفحِهِ تلك الوحوشُ الكوارع
همُ وجدوا حولَ الفُراتِ أمانياً ... لِطافاً أضلَّتْهَا نُفوسٌ نوازع
ولو قد أمدَّتْهُ السّيوفُ بحدِّها ... لغصَّ بِمَوّارٍ من الدَّمِ كارع

* * *

فيا وطني إنْ لم يجِنْ ردُّ فائتٍ ... عليكَ فانَّ الدَّهرَ ماض وراجع
وأحلامُنا منها صحيحٌ وكاذبٌ ... وأيّامُنا منهنَّ مُعطٍ ومانع.
كما فرَّق الشَّمْلَ المجمَّعَ حادثٌ ... فقد يجمعُ الشَّمْلَ المفرَّقَ جامع.
وما طالَ عصرُ الظُلمِ إلاَّ لحكمةٍ ... تُنْبِىءُ أنْ لا بُدَّ تدنو المصارع

تذكر العهود

- نظمت عام ١٩٢٤ .
- نشرت في شباط ١٩٢٤ .

وحاشاك ، حاشاك كيف استُخِفَّ ، لما بلَّغوا ، حِلْمُك الراجح
بوديَ لو مجمَلاتُ الحديث تُباح ليَنشُرَها شارح
لتعلمَ كيف خبايا الصُدور ومن هو في غيبهِ جارح
لئن سرَّهم أننا عزَّلٌ فقد أخطأ المقتلَ الرامح
وفيمن تصول لرد الصِّيال يمينٌ لها عَضُدٌ طائح
تذكَّرْ لعل أدكارَ العُهود يُراح به نَفَسٌ رازح
غداةَ آستضمّك في «كربلاء» وإياهم المجلسُ الفاسح[1]
هُمُ ألقحوا الأمر حتى إذا تَمخَّض لم يَجْنِه اللاقح
فيا جَبرَ اللّهُ ذاك الكسير ويا خَسِرَ الصفقةَ الرابح
ووالله لا الوِرْدُ عذبُ النمير ولا العيشُ من بعدِهِمْ صالح
وأُقسِمُ لولا أمانٍ يُراض بتعليلهن ٱلحشا الجامح
لبِتنا وكلٌّ له شاغل وكلٌّ على قربه نازح

(١) هو المؤتمر الذي عقد بدعوة من الشيخ مهدي الخالصي ، في كربلاء عام ١٩٢٢ .

الذكرى المؤلمة

● نشرت في مجلة الحرية عام ١٩٢٤.

أقول وقد شاقتنيَ الريحُ سحرةً ... ومَنْ يذكرِ الأوطانَ والأهل يَشْتَقِ

ألا هل تعودُ الدارُ بعد تشتُّتٍ ... ويُجْمَعُ هذا الشملُ بعدَ تفرُّق

وهل ننتشي ريحَ العراقِ وهل لنا ... سبيلٌ إلى ماء الفرات المصفَّق

حبيبٌ إلى سمعي مقالةُ «احمدٍ»: ... «أأحبابَنا بين الفراتِ وجِلَّق»[1]

فوا اللّهِ ما رَوحُ الجنان بطيّب ... سواكم، ولا ماءُ الغوادي بريق

واللّهِ ما هذي الغصونُ وإن هَفَتْ ... بأخْفَقَ من قلبي إليكم وأشوق

شرِبنا على حكمِ الزمانِ من الأذى ... كؤوساً أضرّت بالشراب المعتق

فمَن كان يَهْنيه صَبوحٌ ومغبقٌ ... فإنَّ من البلوى صَبوحي ومغبقي

* * *

خليليَّ لا تُلْحى سهامُ مصائبٍ ... أُتيحت، فلولا حكمةٌ لم تُفَوَّق

تعنف أحكامَ القضاء حماقة ... كأن القضاءَ الحتمَ ليس بأحمق

كفى مخبراً بالحال أنْ ليس مُنيةٌ ... لنفسيَ إلا أنْ نعودَ فنلتقي

وما فارسٌ الا جنانٌ مُضاعةٌ ... ويا رُبَّ خمْرٍ لم تجد من مُصفِّق

هنيئاً فلا مسرى الرياح بخافتٍ ... وبيٌّ، ولا مجرى المياهِ بضيّق

أتى الحسنُ توحيه إليها من السما ... يدُ الغيث في شكل الكمام المفتَّق

مضى الصيفُ مقتاداً من الحسن فيلقاً ... وجاء الشتا زحفاً إليها بفيلق

كأن الثلوجَ النازلاتِ على الرّبى ... عمائمُ بيضٌ كُوِّرَتْ فوق مَفْرِق

(١) احمد: أبو العلاء المعري.

سجين قبرص

● نشرت في ٥ آب ١٩٢٥ .

هــي الـحــيــاة بـاحــلاءٍ وإمــراءِ ... تمضي شعاعاً كـزَند القـادحِ الواري
سجيّـةُ الـدهــر والبلوى سـجيتُـهُ ... تَـقَـلُّبٌ بـيــن إقـبــالٍ وإدبــار
لم يـدرِ من أحسنوا صُنْعاً لغيرِهِمْ ... بــأنَّ عـقبــاهُـمُ عُقْبَى « سِـنِمّـارْ »
ود الأُبــاةُ وقــد سِيمــوا منــاقصــةً ... في الرّوح لو أبـدلوهم نقصَ أعمـار
مَن ضــامِنٌ لــك والأيــامُ غــادرةٌ ... أن ليس ينشُب فيك السَهمُ يا باري
مـا للتمــدُّن لا يـنفــكُّ ذا بِـدَعٍ ... في الكون يأنَفُ منها وحشةُ الضاري
كم ذا يُسمُّـونَ أحراراً وقـد شَهِدَت ... فِـعــالُهـم أنّهــا مـن غـيــر أحــرار

* * *

مـا للجزيـرة لم تـأنسْ مـرابعُها ... بعـدَ « الحُسينِ » ولم تحفِلْ بسُمّار
مُغبـرَّةً خلْفَ الليـلُ الـسـوادَ بهـا ... أو جلَّلتْها سـمــاءُ الهـمِّ بــالقــار
دارٌ بـديّـارهــا من طـارق حُفِـظَت ... وطــالــمــا حُـفِـظَت دارٌ بـديّــار

* * *

شيخَ الجزيـرة أنت اليوم مُـرتَهَنٌ ... بحسـنِ فِعـلك من صِـدقٍ وإيـثـار
لتحمَـدَنَّ من الـدنيــا عــواقبَهــا ... فقـد أرَيـنَـكَ عُـقبى هــذه الـدار
يـا حـاملين على الأمــواج عزمتَـه ... قـابـلتُـمُ البـحــرَ تيّــاراً بـتــيّـار
هل بلَّغتْ قِبرصٌ عن ضَيف بُقعتِها ... بــأنّــه أيُّ نَــفّــاعٍ وضـــرّار
كمثـل ثـائــرِ ذاك المـوجِ ثــورتُـهُ ... يـوم استـنشـاطَ وهـاجَتْ سَوْرةُ الثـار
ممــا يُعيــد إلى التــاريــخ روعتَــه ... تـخـليــدُه مـلـكــاً فــي زيّ أحـبــار

يـا نـاهضـاً بـأبـاة الضيم منتفضـاً عن أن يمـدَّ يـداً لـلذُّلّ والـعـار
في ذمـة الله والتـاريـخ مـا تـركت أيـامُـك الغُـرُّ من محـمـود آثـار
إن لم يقيمـوا لك الـذكرى مخلَّدةً فحـسْنُ فعلك فينـا خيـرُ تـذكـار

بريد الغربة

- نظمت عام ١٩٢٦
- نشرت في ٣١ آذار ١٩٢٧

هبَّ النسيم فهبتِ الأشواقُ ... وهفا إليكمْ قلبُه الخفّاقُ
وتوافَقَا فتحالفا هو والأسى ... وحَمامُ هذا الأيكِ والأطواق
عارٌ على أهل الهوى ان تُزدرى ... هذي النفوسُ وتُشترى الأعلاق
ذَم الفراقَ معاشرٌ جهلوكُمُ ... من أجلكم حتى الفراقُ يُطاق
ما شوقُ أهل الشوق في عُرفِ الهوى ... نُكرٌ فقد خُلِقوا لكي يشتاقوا
أما الرفاقُ فلم يَسُؤْني هجرهمْ ... إذ ليس في شرع الغرام رفاق
لو أُبرم الميثاقُ ما كَمَلَ الهوى ... شرطُ الهوى أن يُنقَض الميثاق
كُتُبُ الاله تشرّفت في ذكره ... وبذكركمْ تتشرفُ الأوراق
هذا القريضُ تكسَّرت نَبَراتُهُ ... إذ ضاق من ألم الفراق خناق
عَمَرت بذكركمُ اللذيذِ مجالسٌ ... وازَّيَّنَتْ بهواكُمُ أسواق
ماذا أذُم من الهوى ، وبفضله ... قد رق لي طبعٌ ، وصحَّ مَذاق

* * *

هي « فارسٌ » وهواؤها ريح الصَّبا ... وسماؤها الأغصانُ والأوراق
وَلِعَتْ بها عُشّاقها وبليةٌ ... في الشرقِ إنْ وَلِعَتْ بها العشاق
سالت بدفاق النُّضار بقاعُها ... وعلى بنيها شحتِ الأرزاق
يا بنتَ « كومرثٍ » أقلّي فكرةً ... فلقد أضرَّ برأسك الإخفاق
وتطلّعي تَتَبَيَّني الفجرَ الذي ... تتوقعينَ وتنجلي الآفاق

* * *

لي في العـراق عصـابـةٌ لـولاهمُ ... مـا كـان محبـوبـاً اليّ عـراقُ
لا دجـلةٌ لـولاهـمُ ، وهـي الـتـي ... عـذُبت ، تروق ولا الفـراتُ يـذاق
«شمـرانُ» تُعجِبُني ، وزهـرةُ روضِهـا ... وهـواؤهـا ، ونميـرُهـا الـرُّقـراق
متكـسـراً بيـن الـصـخـور تـمـدُّهُ ... فـوقَ الجبـال مـن الثُّلوجِ طبـاق
وعليـه من وَرَقِ الغُصـونِ سُـرادِقٌ ... مـمـدودةٌ ومـن الـظِلالِ رُواق
فـي كـل غصْـنٍ للبـلابـل نـدوةٌ ... وبـكـلِّ عـودٍ للغـنـا «إسحـاق»
كـانت مُنـايَ فـلم تُعَقْ وعجيبـةٌ ... أنـي أُحِـبّ مـنىً فـلا تُـعـتـاق
سـرُّ الحيـاة نجـاحُ آمـالِ الفـتى ... أمّـا الـمـمـاتُ فسـرُّه الإخـفـاق

ثورة الوجدان

● نظمت أواخر عام ١٩٢٧
● نشرت في عام ١٩٢٨

سَكَتُّ حتَّى شَكَتْني غُرُّ أشعاري ... واليومَ أنْطِقُ حُرّاً غيرَ مهذارِ
سلَّطتُ عقلي على مَيلي وعاطفتي ... صَبْراً كما سَلَّطوا ماءً على نار
ثُرْ يا شُعورُ على ضَيْمٍ تُكابِدُهُ ... أوْ لا فلستَ على شيءٍ بِثَوّار
وقَّعْتُ أُنشودتي والحزنُ يملأها ... مَهَابَةً ، ونِياطُ القلبِ أوتاري
في ذِمَّةِ الشِّعْرِ ما ألقى وأعظَمُهُ ... أنّي أُغنّي لِأَصْنامٍ وأحجار
الشعبُ شعبي وإن لم يرضَ مُنتَبَذٌ ... والدارُ رغمَ « دخيلٍ » عابَني داري
لَوْ في يدي لَحَبَسْتُ الغيثَ عن وطَنٍ ... مُسْتَسْلِمٍ وقَطَعْتُ السلسلَ الجاري
ما عابَني غيرُ أنّي لا أمُدُّ يداً ... إلى دنيءٍ ، وأنّي غيرُ خوّار

* * *

العُذْرُ يا وطناً أغليتُ قِيمَتَهُ ... عَنْ أنْ يُرى سِلعةً للبائعِ الشّاري
الكُلُّ لاهونَ عن شكوى وموجِدَةٍ ... بما لَهُمْ مِن لُبانَاتٍ وأوطار
وكيفَ يُسْمَعُ صوتُ الحقِّ في بلدٍ ... للإفكِ والزُّورِ فيهِ ألفُ مِزمار
يا أيُّها السائحُ المُجتاز أوديةً ... مشى الربيعُ عليها مشيَ جبَّار
مَرَّ النسيمُ على أكنافِها فَذَكَتْ ... كأنّما جَرَّ فيها ذَيْلُ مِعطار
مَحِّصْ بِعَينيْ نزيهٍ غيرِ ذي غَرَضٍ ... حالَ العراقِ وخلِّدْهُ بأسفار
إنَّ القصورَ التي شاهَدْتَ ، قائمةٌ ... على أساسٍ من الإجحافِ مُنهار
خَلِّ الخُوانَ وإنْ راقَتْ مَطاعِمُهُ ... وبِتْ بليلةِ ذاكَ الجائعِ العاري
وآنظُر إلى الكوخِ قد بِيعتْ دعائمُهُ ... وحَوِّلُوها لأقراطٍ وأسوار

في كُلِّ يومٍ بأشكالٍ وأنمِطةٍ   وكُلِّ آنٍ بهيئاتٍ وأطوار

مأجورةٍ لم تَقُمْ يوماً ولا قَعَدَتْ   إلّا على هَتْكِ أعراضٍ وأستار

عَوَتْ فجاوَبَها أمثالُها هَمَجٌ   مِنْ كلِّ مستصرَخٍ لِلغَيِّ نَعَّار

يُحصونَ تاريخَ أقوامٍ وعندَهمُ   صحائفٌ مُلِئَتْ بالخزيِ والعار

لَجّوا على أنْ يزيدوا كلَّ ثائرةٍ   تسعيرةً، وأصرُّوا كلَّ إصرار

أينَ المساميحُ بالأرواحِ إنْ عَصَفَتْ   هوجاءُ تُنْذِرُ أوطاناً بإعصار

يا للرِّجالِ لأوطانٍ مُوَزَّعةٍ   في كفِّ كلِّ مُهانِ النفسِ دَعَّار

شَلَّتْ يدٌ عبِثَتْ في أُختِها، وكَبَتْ   رِجلٌ إلى نفسِها تسعى بأضرار

ماذا السُكونُ الا تهتاجُ نخوتَكُمْ   انَّ العُروبةَ قد حُفَّتْ بأخطار ؟

الرجعيون

● نشرت في ٢٦ آب ١٩٢٩ .

سَتَبقَى طـويـلاً هـذه الأزَمـاتُ ... إذا لم تُقَصِّرْ عُمْرَها الصَّدَماتُ
إذا لم يَنَلْهـا مُصلحونَ بـواسـلٌ ... جـريئـونَ فيمـا يَـدَّعـونَ كُـفـاة
سَيبقى طويلاً يَحمِلُ الشعبُ مُكْرَهاً ... مَسـاوِىءَ مَنْ قـد أبْقَتِ الفَتَـرات
قُيوداً من الارهاقِ في الشرقِ أُحكِمَتْ ... لتسخيـرِ أهـليْـه ، لهـا حَـلَقـات
ألمْ تَـرَ أنَّ الشعْبَ جُلُّ حقـوقِهِ ... هي اليـومَ لـلأفـرادِ مُمتلَكـات ؟
مشتْ كلُّ جاراتِ العراقِ طَموحةً ... سِـراعـاً ، وقـامتْ دونَـهُ العَقَبـات
ومِنْ عَجَبٍ أنَّ الـذينَ تـكـفَّـلوا ... بـانـقـاذِ أهـليـهِ هـمُ الـعَـثَـرات
غـداً يُمْنَـعُ الفتيـانُ أنْ يتعلَّمـوا ... كمـا اليـومَ ظُلمـاً تُمْنَعُ الفتيـات

* * *

أريـدُ أكُفّـاً مُـوجِعـاتٍ خفيفةً ... عليهـا - متى ما شـاءتِ - اللَّطَمات
فـانْ ينـعَ أقـوامٌ عليَّ مـقـالتي ... ومـا هـي إلَّا لـوعـةٌ وشَـكـاة
فقد أيقَنَتْ نفسي ، وليسَ بضائري ... بـأنّيَ في تـلكَ الـعُـيـونِ قَـذاة
وَهَبْنيَ مـا صلَّتْ عليَّ معـاشـرٌ ... تُـبـاعُ وتُشـرى منـهـمُ الـصَّلَوات
فلو كنتُ مِمَّنْ يطمعونَ بمـالِـهِ ... لعـادَتْ قداساً تلكُـمُ اللعنـات
دَعُـوهـا لغيـري عَلَّكُمْ تحلِبُونها ... ستُغنيكُمُ عـن مِثْلِيَ الـبَـقَـرات
ومـا هيَ إلَّا جمـرةٌ تُنكِـرونَـهـا ... ستـأتيكُمُ من بَعـدِهـا جَمَـرات
قـوارصُ قـولٍ تقتضيهـا فِعـالُكُمْ ... وتدعو «الهَناتِ» القارصاتِ «هَنات»

* * *

أتَجبى مـلايينٌ لفـردٍ ، وحـولَـهُ ... ألـوفٌ عليهمْ حَلَّتِ الصَّـدقـات ؟!

واعجبُ مـنهـا أنّـهم يُـنكِـرُونَـهـا ... عليهم ، وهمْ لـو يُنصِفُونَ جُبـاة

قذىً في عيونِ المصلحينَ شـواهقٌ ... بـدتْ حـولَهـا مغمـورةً خَـرِبـات

وفي تلك مِبطانونَ صُغْرٌ نُفُوسُهمْ ... وفي هـذه غـرثى البـطونِ أُبـاة

ولـو كـانَ حُكْمٌ عـادلٌ لتهـدَّمَتْ ... على أهلِهـا هـاتيكُـمُ الشـرُفـات

على بابِ «شيخِ المسلمين» تكدَّسَتْ ... جِيـاعٌ عَـلَتْـهـم ذِلَّـةٌ وعُـراة

همُ القـومُ أحيـاءٌ تقـولُ كـأنَّهم ... على بابِ «شيخِ المسلمين» موات

يُلَمُّ فتاتُ الخُبزِ في التُّرابِ ضائعاً ... هُـنـاك ، وأحيـانـاً تُـمَصُّ نـواة

بيـوتٌ على أبوابهـا البؤسُ طـافحٌ ... وداخِـلَـهُـنَّ الأنسُ والـشَّـهَـوات

* * *

يـدي بيـدِ المستضعَفِينَ أُريـهمُ ... من الظُّلْمِ ما تعيا به الكَلِمات

أُريهمْ على قلبِ «الفُراتِ» شواهقاً ... ثِقـالاً تَشَـكَّى وطـأهُـنَّ « فُـرات »

بنتْهُنَّ أمـوالُ اليتـامى ، وحـولَهـا ... يكـادُ يَبِـينُ الـدمـعُ والـحسَـرات

بقـايـا أُنـاسٍ خلَّفـوهـا مـوارداً ... تسـدُّدُ لهـوَ الـوارِثـينَ ، ومـاتـوا

---

(١) اشارة إلى املاك كاظم اليزدي المشيدة في الكوفة وعلى ضفاف نهر الفرات .

فلسطين الدامية

● نشرت في ١٨ أيلول ١٩٢٩

لو استطعتُ نشرتُ الحزنَ والألما ... على فِلسْطينَ مسودّاً لها علما
ساءت نهاريَّ يقظاناً فجائعُها ... وسُئن ليليَ إذ صُوِّرْنَ لي حلما
رمتُ السكوتَ حداداً يومَ مَصْرَعِها ... فلو تُركتُ وشاني ما فتحت فما
أكلّما عصفت بالشعب عاصفةٌ ... هوجاءُ نستصرخُ القرطاسَ والقلما ؟
هل أنقذَ الشام كُتّابٌ بما كتبوا ... أو شاعرٌ صانَ بغداداً بما نظما
فما لقلبيَ جياشاً بعاطفةٍ ... لو كان يصدقُ فيها لاتفاضَ دما
حسبُ العواطف تعبيراً ومنقصةً ... أنْ ليس تضمنُ لا بُرءاً ولا سقما
ما سرّني وَمضاءُ السيفِ يُعوزني ... أني ملكتُ لساناً نافثاً ضَرما
دم يفور على الأعقاب فائرُهُ ... مهانةٌ ارتضي كفواً له الكلما

* * *

يا أمةً لخصوم ضدُّها احتكمت ... كيف ارتضيتِ خصيماً ظالماً حكما
بالمِدفع آستشهدي إن كنت ناطقةً ... أو رُمْتِ أن تُسمِعِي من يشتكي الصمم
وبالمظالمِ رُدي عنك مظلمةً ... أو لا فأحقرُ ما في الكون مَنْ ظُلِما
سلي الحوادثَ والتأريخَ هل عرفا ... حقاً ورأياً بغير القوةِ احتُرما
لا تطلُبي من يد الجبار مرحمةً ... ضعي على هامةٍ جبارةٍ قدما
لا تجمعُ العدلَ والتسليحَ أنظمةٌ ... إلّا كما جمعوا الجزّارَ والغنما
أقسمتُ بالقوة المعتزِّ جانبُها ... ولست أعظمَ منها واجداً قسما
أنّ التسامح في الاسلام ما حصدت ... منه العروبةُ الا الشوكَ والألما

حلتْ لها نجدةُ الأغيار فاندفعت لهم تُـزجِّي حقـوقـاً جمـةً ودمـا
في حين لم تعرف الأقوامُ قاطبةً عند التزاحم الا الصارمَ الخذمـا
أعطت يداً لغريبٍ بات يقـطعُها وكـان يلثمُهـا لـو أنه لُـطِمـا
أفنيتِ نفسَكِ فيما ازددتِ من كرم ألا تكفِّينَ عن أعدائك الكرما ؟!
لا بدَّ من شيمٍ غُرٍّ فإن جلَبتْ هُلكاً فلا بد أن تستأصلي الشيما

* * *

فيـا فِلَسْطِينُ إن نَعْـدمْكِ زاهـرةً فلستِ أوّل حـقٍّ غيـلةً هُضِـمـا
سُورٌ من الوَحْدةِ العصماءِ راعَهُمُ فـاستحدثـوا ثُغْرَةً جـوفاءَ فـانثَلَمَـا
هــزّت رزايـاكِ أوتـاراً لنـاهضــةٍ في الشرق فاهتَجْنَ منها الشجوَ لا النَغَما
ثارَ الشبابُ ومن مثلُ الشبابِ اذا ريعَ الحمى وشُواظُ الغَيْرَةِ احتدما
يـأبى دمٌ عـربيٌّ في عـروقِهِمُ أنْ يُصْبِحَ العربيُّ الحرُّ مهتضما
في كـل ضاحيـةٍ منهم مـظاهـرةٌ مُـوحِّـدين بهـا الأعـلامَ والكلمـا
أفدي الذينَ إذا مـا أزمةٌ أزَمَتْ في الشرق حُزناً عليها قصَّروا اللِّمَمَا
ووحَّــدتْ منهُـمُ الأديـانَ فــارقــةً والأمـرَ مختلفاً ، والـرأيَ مُقتَسَمَـا
لا يأبهون بـارهابٍ إذا احتـدَموا ولا بِمَصْـرَعِهِمْ إن شعبُهم سَلِما

عناد

● نظمت عام ١٩٢٩ .

عِنادٌ من الأيّامِ هذا التعسّفُ تحاول منّي أنْ أُضامَ وآنفُ
وتطلبُ أن يُستلَّ في غير طائلٍ لسانٌ فراتيٌّ المضاربِ مُرْهَف
ولِلنفسِ مِنْ أنْ تألفَ الذلَّ خُطّةٌ أجلُّ ومن أن تُرخِصَ القولَ أشرف
فكان جزائي شرُّ ما جُوزيَ آمرؤ عن العيشِ ملتاثِ المواردِ يَعزف

* * *

تعرُّفُ إلى العيشِ الذي أنا مُرهَقٌ به وإلى الحال التي أتكلّف
تجد صورةً لا يشتهي الحرُّ مثلَها يسوءُ وقوفٌ عندَها وتَعرُّف
تجد حَنِقاً كالأرقم الصلِّ نافخاً وذا لَبَدٍ غضبانَ في القيد يرسف
أُنغَصُّ في الزاد الذي أنا آكلٌ وأشْرَق بالماءِ الذي أترشَّف
كما قذفَ المسلولُ من لُبّةِ الحشا دماً ، أستثيرُ الشعرَ جمراً وأقذف
وإنّي وإنْ مارستُ شتّى كوارثٍ إذا راحَ منها مُتْلِفٌ جاء متلف
فما حزَّ في نفسي كَغَدرةِ غادرٍ له ظاهرٌ بالمُغريات مُغلّف
وفرحةِ أقوام شجاهم تفوُّقي بأني عنهم في الغنى متخلّف

عتاب مع النفس

● نشرت في ٦ كانون الثاني ١٩٣٠ .

يدايَ أعانت يدَ الحادثات فَرُنّقَ طوعَ يدي مشربي
أجِدُّ وأعلمُ عِلمَ اليقين بأنّي من الدهر في ملعب!
وأنّ الحياةَ حَصيدُ الممات وأنّ الشروقَ أخو المغرب !
وإني على قدْر ما كان بالفُجاءاتِ مِن قَسوةٍ كان بي
بَعثْنَ البَواعثَ يَضْطَذنَني وأبصرتُ مَنجى فلم أهرب !
وثارتْ مُخيّلتي تَدَّعي بأنّ التنزُّلَ مَرعى وبي
وأنّ الخِيانةَ ما لا يجوزُ وأنّ التقلّبَ للثعلب
وأنْ ليس في الشرِّ من مَغنمٍ يُعادِلُ ما فيه مِن مَثْلَب
ولما أُخِذْتُ بها وآنثنَيْتُ نُزولاً على حُكمها المُرهِب
ووَطّنْتُ نفسي ، كما تشتهي على مَطْعمٍ خَشِنٍ أجْشَب
مشى لِلمثالِبِ ذو فِطنةٍ بقوّةٍ ذي لِبَدٍ أغلب[1]
جَسورٍ رأى أنّ مَن يَقتحِمْ يُحكّمْ، ومَن يَنكمشْ يُنْهَب
وأفرغَها من صُنوفِ الخِداعِ والغشّ في قالبٍ مُذْهَب
فرفّتْ عليه رَفيفَ الأقاحِ في مَنبِت نَضِرٍ مُعشِب
تُسمّى خَلائقَ محمودةً ويُدعَى أبا الخُلُقِ الأطيب !
وراحَ سليماً من الموبقات ورُحتُ كذي عاهةٍ أجرب !

---

(١) يراد بذي اللبد الأغلب الأسد ، واللبد « جمع لبدة » : الشعر المتجمع بين كتفي الأسد ، والأغلب الغليظ الرقبة ، وهي من أوصافه .

ولم أدرِها عِظَةً مُرَّةً ... بأني متى احترِسْ أُغلَب
ويوم لَبستُ عليه الحياةَ ... سوداءَ كالليلة الغَيْهَب
أرى بَسمةَ الفجرِ مثلَ البُكاء ... وشَدْوَ البَلابل كالمَنْعب !
وَبِتُّ عكرفاً على غُمّتي ... حريصاً على المنظر المُكْرِب !
وَبعثرتُ هاجعةَ الذكريات ... أُفَتّش عن شَبَحٍ مُرعِب !
حَملتُ همومي على مَنكِبٍ ... وهمَّ سوايَ على مَنكِب
ولاشيتُ نفسيَ في الأبعدين ... أُفكّرُ فيهمْ ، وفي الأقرب!
ولمّا فَطَنتُ على حالة ... تَليقُ بمنتحِرٍ مُحرِب ..
نسيتُ بأني اقترفْتُ الذنوبَ ... وانصَعْتُ أبحثُ عن مُذنِب!
أخذتُ بمخنَق هذا الزمان ... لم يفتكِرْ بي ولم يحسِب !

* * *

ويوم تَنَعَّمْتُ مِن لَذَّةٍ ... متى لم أُنعَّم بها تذهب
ولمّا انطوتْ مثلَ أشباهِها ... وكلُّ مَسيلٍ إلى مَنضَب ..
تَخيَّلتُ حِرصاً بأنّ الزمان ... عدوُّ اللُّبانةِ والمأرَب
وأنّ الطبيعةَ والكائنات ... ما يَستبينُ وما يَختبي
تألبنَ يَسْلُبْنني فُرصةً ... من العُمْرِ إنْ تنأ لا تَقْرُب!
وأنّ الزمانَ مشى مُسرعاً ... يُزاحمُ مَوكِبُهُ مَوكِبي !
وأنّ الكواكبَ طُرّاً سُعِدْنَ ... ولم يَشْقَ منها سوى كوكبي !
وأنّيَ لو كنتُ في غَمرةٍ ... مِن الفكر أو خاطرٍ مُتعِب
لقَلّلَ من خَطوهِ جاهداً ... كمِشْيَةِ مُثْقَلةٍ مُقرِب ![1]
ورُحتُ أُشبِّهُ ما فاتني ... من العيش بالبارق الخُلَّب
مُغالَطَةً ، إنّ شرَّ العَزاءِ ... تعليلُ نفسك بالمُكذِب !

* * *

(١) المثقلة المقرب : المرأة التي دنا وقت مخاضها .

وإني على أنَّ هذا المزاج رمـانيَ بـالمُـرهِق المُنْصِب
وَرَفَّتْ ظِلالٌ تُشِيعُ القُنوط على صَفْحَتيْ وجهيَ المُتعَب
وكنتُ على رُغم عُقْمِ الخليِّ أهـوى حيـاةَ خليٍّ غبي
لأحمِـل ، للفُرَص السـانحاتِ ولـلأريحيَّـة ، نَفْسَ الصبي
طليقاً من التَبِعات الكثارِ حُـرَّ العقيـدة والمـذهب
طَموحاً وأعرفُ عُقْبى الطُموح فلا بالـدَّعِيِّ ولا المُعْجَب
تَمَتَّعْتُ في رَغـدٍ مُخصِب وهُذِّبتُ في يَبَسٍ مُجدِب
وأفضَلُ من رَوَحاتِ النعيم على النفس مَسغبَةُ المُترِب[1]
فانْ جِئتُ بالمُوجعِ المُشتكي فقد جئتُ بالمُرقِص المُطرِب !

* * *

دَعِ الدهرَ يذهبْ على رِسْلِهِ وسرْ أنتَ وحدكَ في مَذهب[2]
ولا تَـحـتـفِـل بـكـتـابـاتِـهِ ارِدْ أنتَ ما تشتهي يُكتب !

(١) المترب : « كالمدقع » اللاصق بالتراب لفقره .
(٢) الرسل : الاتئاد في السير .

الاوباش

●نشرت في ٢٩ أيار ١٩٣١

جهلنا ما يُراد بنا فقُلنا نـواميسٌ يـدبِّـرهـا الخفـاءُ
فلمـا أيقَـظَتْنـا من سُبـاتٍ مكـائـدُ دبِّـرتهـا الأقـويـاء
وليس هناكَ شكٌّ في حياةٍ تدوسُ العاجزين ولا مِراء
لجـأنـا للشـرائـعِ بـالـيـاتٍ لتَحمِيَنا وقد عـزَّ احتمـاء
فكـانتْ قـوَّةٌ أخـرى وداءٌ رَجَونا أن يكونَ به الدواء
حثيثٌ سيرُهنَّ إلى ضعيفٍ تلقَّفُـه وعنْ أشِـرٍ بِـطاء
تسيرُ وشأنَها حتى إذا ما تصـدَّتْ قـوَّةٌ فيهـا التـواء
وقامَ السيفُ يُرهِب دفَتيها تـؤيِّـدُه مـيـولٌ وارتـشـاء
إذا لم تُرضِهِ منها سطورٌ تولَّتْ محوَ ما فيها الدِّماء
فيا أضحوكةَ السيفِ المُدمَّى تفايضَ مِن جوانبكِ الغباء

* * *

المحرقة

● نشرت في ٩ كانون الأول عام ١٩٣١ .

أحاوِل خرقاً في الحياةِ فما •أجرا — وآسَفُ أن أمضي ولم أبقِ لي ذكرا
ويُؤلمني فرطُ افتكاري بأنني — سأذهبُ لا نفعاً جلبتُ ولا ضُرّا
مضتْ حِججٌ عَشْرٌ ونفسي كأنها — من الغيظ سيلٌ سُدَّ في وجهه المجرى
خبَرْتُ بها ما لو تخلَّدتُ بعدَه — لَمَا آزددْتُ عِلماً بالحياةِ ولا خُبرا

* * *

أقولُ آضطراراً قد صَبرتُ على الأذى — على أنني لا أعرِفُ الحُرَّ مُضطرّا
وليس بحُرٍّ مَن إذا رامَ غايةً — تخوَّفَ أن ترمي به مَسلكاً وعْرا
وما أنتَ بالمُعطي التمرُّدِ حقَّه — إذا كنت تخشى أن تجوعَ وأن تَعرى
وهل غيرَ هذا ترتجي من مَواطنٍ — تُريد على أوضاعها ثورةً كبرى

* * *

تحولتُ من طبعٍ لآخرَ ضدُّه — من الشيمةِ الحسناءِ للشيمةِ النَكرا
وشَجَّعتُ ما أقوى يَراعةَ كاتبٍ — يُزيحُ بها عن كلِّ ذي عورةٍ سِترا
ومَجَّدتُ من بَثَّ الدعايةَ ضدَّهم — ومَن قالَ في تَسخيفِ آرائهم شعرا
ولَو حُمَّ لي أنْ أحكمَ الناسَ ساعةً — وأن أتولّى فيهُمُ النهيَ والأمرا
لمزَّقتُ وَجهاً بالخديعةِ باسِماً — ولاشيتُ ثغراً بالضَغينةِ مُفترًّا
وَقَطَّعتُ كفَّيْ من يمدُّ يمينَهُ — يَصافحني في حين تَطعنُني اليُسرى
وَعاتَبتُ سرّاً من يضِلُّ لنفسِهِ — ومَن ضلَّلَ الجمهورَ أخزيتهُ جَهْرا

* * *

ذممتُ مُقامي في العراقِ وعلَّني — متى أعتزمْ مسرايَ أن أحمَدَ المسرى
لَعلي أرى شِبْراً من الغَدرِ خالياً — كفاني اضطهاداً أنني طالبٌ شِبْرا

عريانة

● نظمت عام ١٩٣٢ .

أنتِ تدرين أنني ذو لُبانَهْ ... الهوى يستثيرُ فيَّ المَجانَهْ
وقوافيَّ مثلَ حُسنك لما ... تَتَعَرَّينَ حرّةٌ عُريانه
وإذا الحبُّ ثارَ فيَّ فلا تَمْـ ... ـنَعُ أيُّ احتشامة ثوَرانه
فلماذا تُحاولين بأنْ اعـ ... ـلنَ ما يُنكِرُ الورى إعلانه
ولماذا تُهيِّجين من الشا ... عِر أغفى إحساسُهُ، بركانه
لا تقولي تجهُّمٌ وانقباضٌ ... بغَضا منه وَجهَه ولسانه
فهما ثورةٌ على الدهر منّي ... كجَواد لا يرتضي مَيدانه
أنا في مجلسٍ يضمُّكِ نشوا ... نُ سروراً كأنني في حانه
لو تُحسّين ما أحسُّ إذا رجُـ ... ـفْتِ في الرَّقص بطنُك الخمصانه[1]
رجفةً لا تمسُّ ما بين رفْغَيْـ ... ـكِ، وتُبقي الصدرَ الجميلَ مكانه
والذراعَينِ كلُّ ريانةٍ فعـ ... ـماءَ تُلقي في فَعمةٍ رَيّانه
والثديَيْنِ كلُّ رُمانة فر ... عاءَ تَهزا بأختِها الرُمّانه
عاريا ظهرُكِ الرشيقُ تُحبُّ الـ ... ـعينُ منه اتساقَهُ واتزانه
ما به من نحافةٍ يُستَشَفُّ الـ ... ـعظمُ منها ولا به من سَمانه
خُصَّ بالمحض من بُلَهنيةِ العَيـ ... ـشِ وأُعطي من الصبا عنفوانه[2]
وتراه يجيء بين ظُهور الـ ... ـخُرَّدِ الغيدِ سابقاً أقرانه
إذ تميلين يَمنةً ويَساراً ... مثلَما لاعبت صَباً خيزُرانه

---

(١) البطن خلافاً ـ لما يعتقده أحد شارحي «الديوان» مما يجوز فيه التذكير والتأنيث .

(٢) البلهنية : الرخاء وسعة العيش .

القرية العراقية

- نظمت عام ١٩٣٢
- نشرت في ١ كانون الأول ١٩٣٩ .

للقُرى رَوعةٌ وللقرويِّين إذا صابَ أرضَهم شُؤبوب
تُبصِرُ الكلَّ ثمَّ حتى الصَّبايا فوقَ سِيماتِهم هناءٌ وطِيب
يُفرِحِ البيتَ أنَّه سوف تُمسي بقراتٌ فيه وعنزٌ حَلوب
ويرى الطفلُ أنَّ حصَّته إذْ يُخصبُ الوالدان ثوبٌ قشيب
أذكياءٌ عيونُهم تسبقُ الألسُنَ عمَّا ترومه وتنوب
والذي يَستمدُّ من عالم القريةِ وَحياً وعيشةً لَلَبيب
مطمئنون يحلُمونَ بأنَّ الخيرَ والشرَّ كُلَّهُ مكتوب
لا يطيرونَ من سرورٍ ولا حُزنٍ شَعاعاً ، لأنَّه محسوب
ولقد يغضبون إذ ينزلُ الغيثُ شحيحاً . . والأرضُ عطشى تلوب
أتُرى كانَ يُعوِزُ اللَّهَ ماءٌ لو أتتْ دِيمةٌ علينا سَكوب
ثمَّ يستفظعون إثمَ . الذي قالوا فينوونَ عندَهُ أنْ يتوبوا
فإذا الشمسُ فوقهم فيقولون : أعُقبى إنابةٍ تعذيب ؟
أفإيمانُنا بعيدٌ عنِ الخيرِ وكُفرانُنا إليهِ قريب . . !
هكذا يَرجِعُ التقيّ أمامَ العقلِ وهو المشكِّكُ المغلوب

* * *

عبادة الشر

● نظمت عام ١٩٣٣ .

إليكَ النصيحةَ من مُضطَلٍ بنار التجارب مُسْتَخْصَد
ستطلُبُها عند عضِّ الخطوب عليك بأنيابها الحُرَّد
رِدِ العيشَ مزدحمَ الضِفَّتَيْنِ من الغِشّ ملتحمَ المورد
مَليّاً بذي قوةٍ يَشْتَقي وذي عِفَّةٍ مُستضامٍ صَدي
وجُلْ فيه أروغَ من ثعلبٍ وأشجعَ من ضيغمٍ مُلْبِد
وكن رجلَ الساعةِ المُجْتَبي من اليوم ما يُرتَجَى في غد
وإلا فإنَّك من مُنْكَدٍ من العيش تمشي إلى أنكد
ذليلاً متى تمضِ لا يُبتأسْ عليك ، وإن تبقَ لا تُنْشَد
وأنتَ إذا لم تُماشِ الظروفَ على كلِّ نقصٍ حريبٌ رَدي

عقابيل داء

● نظمت عام ١٩٣٤ .

عقابيلُ داءٍ ما لهُنَّ مطبِّبُ ووضعٌ تغشَّاهُ الخَنَا والتَذَبْذُبُ[١]

ومملكةٌ رهنُ المشيئاتِ أمرُها وأنظمةٌ يُلهى بهنَّ ويُلْعَب

وناهيكِ مِن وضعٍ يعيشُ بظلّه كما يتَمَنّى مَن يخونُ ويكذِب

وقرٌّ على الضيمِ الشبابُ فلم يُثُرْ وأخلدَ لا يُسدي النصيحةَ أشيب

كأنْ لم يكنْ في الرافدينِ مُغامرٌ وحتى كأنْ لم يبقَ فيه مجرِّب

فما لكِ لا بينَ السواعدِ ساعدٌ يُحَسُّ ولا بينَ المناكِبِ مَنكِب

تنادتْ بويلٍ في ديارِكِ بومةٌ وأعلنَ نَحْساً في سماكِ مُذَنِّب[٢]

وأُلبِسْتِ من جَورٍ وهضمٍ ملابساً أخو العزِّ عنها وهو عريانُ يرغب

* * *

(١) العقابيل : بقايا العلة والمرض .

(٢) يراد بالمذنب هنا الاشارة الى ما كانت ـ وما تزال ـ تتطير العرب منه وهو ظهور النجوم المذنبة في السماء قارنة ظهوره بحدوث شر عظيم .

معرض العواطف

● نشرت في ٢٥ نيسان ١٩٣٥

أبـرزتُ قـلبي لـلرمـاة معـرَّضـا ... وجلوت شعـري للعواطف مَعـرِضا
ووجـدتُني في صفحـةٍ وعقيبهـا ... متنـاقضاً في السُّخْط مني والـرضا
أبـرمتُ مـا أبـرمتـهُ مستسهـلاً ... إن حـانَ موعِـدُ نقضِهِ ان يُنقَضـا
ونـزلتُ منه على الـطبيعة مَنـزِلاً ... ألفيتُني فيـه على جَمـر الـغَضـا
متجـانياً عن خيـر مَن أبغَضتُـهُ ... ولـشـرٍّ من أحببتُـهُ مُـتـعـرِّضـا
ومدَحْتُ من لا يستحقُّ وراقَ لي ... تَكفيـرتي بهجـائِـهِ عمـا مَضى
ووجـدتُني مُستصعِبـاً إطـراءَ مَن ... أطـريتُـه بـالأمسِ طَـوعـاً ريِّضـا[1]
وحَمِدت أني عبدُ قلبي ما اشتَهى ... أن يـنثـني بـوِدادِهِ أو يَـمـحَـضـا
وحمـدتُ من هذا اللـسـان سُكوتَـه ... حتى يُـحـرِّكَـه الفـؤادُ فينبِـضـا
فـوَّضتـهُ وحَمَـلت ألفَ مـصيبـة ... من أجـل أن راح الفؤادُ مفوَّضـا

* * *

نـافقتُ إذ كـان النفـاق ضـريبـةً ... متحـرِّقـاً من صَنعتي متـرمِّضـا[2]
ولـكم قَـلِقتُ مـسهَّـداً لـمـواقفٍ ... حَكَمت عليَّ بـأن أداري مُبغِضـا
ولَعَنت ربَّ الشعر فيما اختـار لي ... وبما قَضى، ولَعَنت أحكامَ القَضَـا
وصَـدَعت فيهـا بـالصـراحـة مَرَّةً ... زُمَـراً تُجـوِّدُ ان تقـولَ فتُغمِضـا

---

(١) الريض : الطيع .

(٢) الارماض : كل ما اوجع ، وارمضني : اوجعني .

ولقد حَذَوت بأصغَريَّ ليُمليا ... ما يطلُبان على اليراع ويَفرِضا[1]
غَلَبَ السرورُ فشعَّ رونقُ بعضِها ... وخبا رُواءُ الأُخرَيات فغُيِّضا[2]
واسْودّ بالنِيات سوداً خاطرٌ ... ومَشَى على البعضِ الصفاءُ فَبَيَّضا
وخلا فجفَّ من العواطف بعضُه ... وزها بها بعضٌ فرفَّ وروَّضا
وأتى على عفوٍ فصحَّ نسيجُه ... بعضٌ وبعضٌ بالتكلف أُمرضا
وضَحِكت من تشبيهِ ما استعجَلتهُ ... بالسَقْط أعجله المخاضُ فأُجهضَا
ووجدتُ في أثنائها رَجعيَّةً ... طَفَحَت وكنتُ لها العدوَّ المُبغِضَا
ولكم تبينتُ الجمودَ مُجسَّماً ... في بعض ما قد قلتُه مستنهضا

* * *

ولقد حُسِبت مُصارِحاً مُتخلِّعاً ... في مؤنساتٍ قلتُهن مُعرِّضا
فوددتُ لو أنّي استقيتُ تَرفُّهاً ... فيما استَقَيتُ من المُجون تَبرُّضا[3]
وأنِفت من هذي الطبيعة حرةً ... يعتاقُها التدليسُ أن تتمخَّضا
وخشيتُها مكبوتةً لتحفُّزٍ ... كالليثِ أرهَبُ ما يُرى أن يربِضا
وعَجِبتُ ممن لستُ أبلُغُ شأوَه ... في الموبقات توغُّلاً وتعرُّضا
عَبَّرتُ في الإحماض عن شهواته ... ومضى عفيفاً مُنكِراً أن أُحمِضا[4]
وكشفتُ عن هذي الطبائع ثوبَها ... وبسطتهنَّ حريصةً أن تُقبَضا
فاذا بها الحشراتُ تسكن جيفةً ... مستورةً ، والخزيُ ان تَتَنفَّضا
ورأيتُها ملأى بكل رذيلةٍ ... تجري مع العَرَقِ الخبيث تحرُّضا[5]
فاذا استثار الشعرُ بعضَ صفاتها ... شوهاءَ؛ اوجعَها البيانُ وأمعَضا[6]

(١) الأصغران : القلب واللسان .
(٢) غيض : نقص وضعف .
(٣) تبرض الماء : اخذه قليلاً قليلا .
(٤) احمض القوم احماضاً اذا افاضوا فيما يؤنسهم من الحديث والكلام .
(٥) الحرض : بكسر الراء وفتحه ، الفاسد .
(٦) أمعض : أغضب .

واستثقلت كشفي لهُـنَّ، ولـــذًّ لي كوني على ما استَثْقَلْته مُحرًّضـا[1]
ووجدتُ في هَتكِ الـرياء مخـاضَةً وحَلفت أبرحُ ما استطَعت مخوًّضا[2]

* * *

(١) المحرّض : من التحريض ، والإثارة .
(٢) التخويض : في الأصل السير في الماء .

الفرات الطاغي

● نشرت في ٧ أيار ١٩٣٥ .

طغَى فضوعف منه الحسنُ والخَطَرُ ... وفاض فالأرضُ والأشجارُ تنغمِرُ
وراعتِ الطائرَ الظمآنَ هيبتُه ... فمرَّ وهو جبانٌ فوقَه حذِر
كأنما هو في آذيِّه جَبَلٌ ... على الضفاف مُظلٌّ وهي تنحدر[1]
رَبُّ المزارعِ والملّاحِ راعَهما ... بالحَول منه عظيمُ البطش مقتدِر
باتت على ضَفَّتيه الليلَ تحرسُهُ ... غُلْبُ الرجال لما يأتيه تنتظر[2]
راحوا أُسارى مطأطين الرؤوسَ له ... وراح طوعَ يديه النفعُ والضرر
مَشَى على رِسْلِه لا الخوفُ يَردَعُه ... ولا عنَ الفِعلة النكراءِ يعتذِر
ومرَّ يَهزَأُ من أيدٍ تقاومه ... تسعَى لتحكيم أسداد وتبتدِر
كم من معاركَ شنَّ الفنُّ غارتَها ... على «الفرات» ولكنْ كانَ ينتصر

* * *

هو «الفراتُ» وكم في أمره عَجَبٌ ... في حالتيهِ وكم في آيِه عِبَر
بينا هو البحرُ لا تُستطاع غضبتُه ... إذا استنشاطَ فلا يُبقي ولا يَذَر
إذا به واهنُ المَجرى يعارِضُه ... عُودٌ، ويمنعه عن سيره حَجَر

* * *

وصفحةٍ من بديع الشعر منظرُه ... طامي العُباب مُطِلاً فوقَه القَمَر

---

(١) الآذي : الموج .
(٢) الغلب : جمع أغلب وهو الشديد الشجاع .

وقد بدت خضرةُ الأشجار لامعةً ... مغمورةً بسناه فهي تزدهر
ومِنْ على ضَفَّتيه انصاعَ مُنغمِرا ... في الماء نصفٌ، ونصفٌ فوقَه الشَجر
باتت على خَطَرٍ ناسٌ بثورته ... وراح يؤنسُنا في المنظر الخَطَر
وهكذا الناسُ يُغريهم تخيُّلُهم ... حتى يَجيئوا الى البَلْوى فيختبروا
كما أتى الحربَ فنانٌ ليرسُمَها ... في حينَ آخرُ يُصلي جسمَه الشرَر

* * *

روحٌ جرت لم يُرِدْ نَفعا بها بدنٌ ... وعسجدٌ سالَ إلا أنّه هَدَر
هذا المشيِّدُ للعُمران ريِّقَه ... في الرافدين به العُمرانُ يندثر
كان العراقُ سَواداً مِن مزارعه ... على بنيهِ يفيءُ الظلُّ والثَمَر
تَفيض خيراً على الأقطار غلَّتُه ... موفورةً لسنين الجوع تُدَّخر
ووزِّعَ الماءُ عدلاً في مسايله ... فكلُّ ناحيةٍ يجري بها نَهَر
باسم «الفرات» وتنظيمٍ له خُلقتْ ... دوائرٌ لم يَبِنْ من سعيها أثَر
أغفَت طويلاً ولما هاجَ هائجُه ... جاءته بعد فواتِ الوقتِ تبتدِر
وها هو الماءُ موتٌ في زيادته ... وفي النقيصةِ مسروقٌ فمُحتَكَر

حالنا . . أو
في سبيل الحكم

● نشرت في ١٢ تشرين الأول ١٩٣٥ .

وكــانت طبــاعٌ للعشــائــر تُــرتـجى ... فقــد لُـوِّثت حتّى طبــاعُ العشــائــر
وكــان لنــا منهم سِــلاحٌ فــأصبحــوا ... ســلاحــاً علينــا بين حين وآخــر

* * *

وإنَّــك من هــذي الشنــائعِ نــاظرٌ ... إلى مُخــزيــاتٍ هن شــوكٌ لنــاظــر
اذا ما أجَلْتَ الطَّرْف حولَك وانجلت ... بعينيــك يــومــاً مُخبآتُ الضمــائــر
وكشَّفتَ عن هــذي النفوس غطاءَها ... وأبــرزتَهــا مثــلَ الاِمــاءِ الحــواسِــر
وفتَّشتَ عمــا فــي زوايــا الــدوائــر ... وغربَلْتَ مــا ضمَّت بطونُ الــدفــاتــر
ولا تحسبنَّ الشعــرَ سَهــلاً مهبُّــه ... بهــذي المســاوي بين بادٍ وحــاضــر
فــإن عــظيمــاً أن يُخلِّدَ شــاعــرٌ ... مخــازيَ جيــلٍ بــالقوافي الســوائــر
سنُضحــكُ قرّاءَ التــواريـخ بعــدنــا ... ونبــدو لهم فيهنَّ إحــدى النــوادر

أول العهد

● نظمت عام ١٩٣٥ .

أوّلُ العهدِ بالّتي حمّلتني شططاً في الهوى وأمراً فِريّا[1]
وَضْعُ كفّي في كفّها تتلظّى من غرامٍ كَمَنْ يُناوِل شيّا
رجفَت رَجْفةٌ قرأتُ التشهّي فوقَها واضحاً بليغاً قويّا
ثم قالت بطرفها بعدَ لأيٍ: عن طريقٍ سهلٍ وصَلْتَ إليّا!

* * *

وهيَ سمراءُ في التقاطيع منها يجِدُ الحالمونَ شِبعاً وريّا
ينفحُ العطر جِلدُها ويسيلُ الدِفءُ في عِرْقها لذيذاً شهيّا
لو قرأتَ الخطأ! الذي واسَطَ النهدينِ يستهدفُ الطريقَ السويّا!
لَتَمَشّيْتَ فوقَه بالتمنّي ووصلت الكنزَ الثمينَ الخفيّا
وتصبّاكَ منتهاهُ تصبّي عالَمٍ آخرٍ تقيّاً نقيّا

---

(١) الفري : الأمر العظيم .

تحرك اللحد

● نشرت في ١٩ كانون الثاني ١٩٣٧ .

كِلُوا إلى الغَيبِ ما يأتي به القَدَرُ ... واستَقبلوا يومَكُمْ بالعزمِ وابتدروا[1]
وصَدِّقوا مُخبِراً عن حُسْنِ مُنْقَلَبٍ ... وآزِرُوهُ عسى أنْ يَصْدُقَ الخَبَرُ
لا تَتْرُكوا اليأسَ يَلقى في نُفوسكم ... لَه مَدَبّاً ، ولا يأخُذْكُمُ الخَوَر
إنَّ الوساوِسَ إنْ رامَتْ مَسارِبَها ... سَدَّ الطريقَ عليها الحازِمُ الحَذِر
تَذكَّروا أمسِ واستُوحُوا مَساوِئَهُ ... فقدْ تكونُ لَكُمْ في طَيِّه عِبَر
مُدُّوا جَماجِمَكُمْ جِسراً إلى أملٍ ... تُحاوِلونَ وشُقُّوا الدربَ واخْتَصِروا
وأجْمِعُوا أمرَكُم يَنْهَضْ بسعيِكُمُ ... شَعبٌ إلى هِمَمِ الساعينَ مُفتَقِر
أتَتْكُمُ زُمرةٌ تحدو عزائِمَها ... ما خَلَّفت قَبلَها من سيّءٍ زُمَر
الفتْ على كلِّ شبرٍ من مَسالكها ... يلوحُ مما جَنى أسلافُها أثر
مُهمةٌ عظُمت عن أنْ يقوم بها ... فردٌ وأن يتحدّى أمرَها نفر
ما إن لكُم غيرَهُ يومٌ فلا تَهِنوا ... وقد أتتكم بما تخشونه نُذُر
طالتْ عَمايةُ ليلٍ ران كَلْكَلُه ... على البلادِ ، وإنَّ الصُبْحَ يُنتظر
وإنَّما الصُبحُ بالأعمال زاهيةً ... لا الوعدُ يُغري ولا الأقوالُ تنتَشِر

* * *

إنّي أُصارِحك التعبيرَ مُجترِئاً ... وما الصريحُ بذي ذَنبٍ فيعتذر
إنَّ السماءَ التي ابديتَ رَونَقَها ... يومَ الخميس بدا في وجهها كَدَر

(١) كلوا : بمعنى اتركوا ودعوا . «وابتدروا» أي استبقوا واستعجلوا .

تَهامَسَ النفَرُ الباكون عَهدَهُم أن سوفَ يرجِعُ ماضيهم فيَزدهِر
تَجري الأحاديثُ نكراءً كعادتِها ولم يُرَعْ سامرٌ مِنهُمُ ولا سَمر
للآن لمْ يُلغَ شبرٌ من مَزارِعهم ولا تَزحزح مِمّا شيَّدوا حَجر
ولم يزل لهمُ في كلِّ زاويةٍ مُنوَّةٌ بمخازيهم ومُفتَخِر
أصبحتُ أحذرُ قولَ الناسِ عن أسفٍ من أن يروا تِلكمُ الآمالَ تَندَثِر
تحرَّكَ اللَّحدُ وانشقَّت مُجدَّدةً أكفانُ قَومٍ ظننَّا أنَّهم قُبِروا

في السجن

● نظمت عام ١٩٣٦

مـاذا تُـريـدُ مـن الـزمـانِ ومـن الـرغـائـب والأمـانـي
أوَ كـلّمـا شـارفـتَ مـن آمـالـك الـغـرِّ الـحـسـان
ورعـتـك ألـطافُ الـعـنـا يـة بـالـرفـاهِ وبـالأمـان
أغْـرِمْـتَ بـالآهـات إغـرامَ الـحـنـيـفـةِ بـالأذان ؟
إن كـنـتَ تَـحـسُـدُ مـن يـحـوطُ الـبـابَ مـنـه حـارسـان
فـلديـكَ حـراسٌ كـأنّـك مـنـهُـمُ فـي مـعـمـعـان
ومـوكّـلون بـمـا تُـصـرِّفُ فـي الـدقـائقِ والـثـوانـي
أسـكـنـتَ داراً مـا لَـهـا في الصيت والعظَموت ثاني
مـا إن يـبـاحُ دخـولُـهـا إلا لـذي خَـطَرٍ وشـان
دارٌ يُـشـيـرُ لـهـا صـديـقٌ أو عـدوٌّ بـالـبـنـان
اهـوى عـلـيـهـا ألـفُ بـا كِ ، وادّعـاهـا ألفُ بـانـي
وُقّـيـتَ فـيـهـا رَغـمَ أنـ فِـك من خبيثـات الـدِنـان
وحُـفـظْتَ فـيـهـا من غـرور الـمـال ، أو سِـحْـرِ الـحـسـان
حـجبُـوكَ عـن لـحظِ الـعـيـو نِ تـأنقـاً لـك في الصيّـان
مـثـل الـمُـعـيـذيِّ الـسُّـمـا عُ بـه أحـبُّ مـن الـعِـيـان

* * *

وَعلامَ تَـحْـسُـدُ مـنْ تـلهّـى بـالـمـثـالـث والـمـثـانـي
أوَ لـيـس خـشـخـشـةُ الـحـديـدِ ألَـذَّ من عـزفِ الـقِـيـان

يشدو بها من أجل لهوك ألفُ مكروبٍ وعاني
أوزانُ شعرِك بعضُ أوزانٍ حوتها باتزان

* * *

ماذا تريد من الزمان أُعطيتَ ما لم يُعْطَ ثاني
أُعطيتَ من لطف الطبيعة أن يُشِعَّ النيران(1)
صبحاً وإمساءً ، وأن يُوحي إليك الفرقدان
سبِّحْ بأنعُمِهِمْ فأنت بفضل ما أولَوْك جاني
صكَّ الحديدِ على يديكَ جزاءُ ما جَنَتِ اليدان
يا عابثاً بسلامة الوطنِ العزيز ، وبالأمان
ومفرِّقاً زُمَرَ اليهودِ طوائفاً كُلاًّ لِشان
ما أنتَ و«الكاشيرَ» و«الطاريفَ» من بقرٍ وضان(2)
إن الصحافةَ حرةٌ لكن على شَرْطِ الضمان

* * *

سَبِّحْ بأنعُمِهمْ وإنْ عانيت منهم ما تعاني
إن لم تُفِدْكَ عقوبةٌ فعسى تُفيدُ عقوبتان
أوْ لَمْ يُفِدْك مطهر فلقد يُفيدُ مطهران

---

(1) النيران : الشمس والقمر .
(2) الكاشير : ما يحل أكله من اللحوم عند اليهود ، والطاريف ما يحرم أكله عندهم .

ناجيت قبرك

● نشرت في ١٨ آذار ١٩٣٩

في ذِمَّةِ اللّهِ ما ألقى وما أجِدُ | أهذِهِ صَخرةٌ أمْ هذِهِ كبِدُ
قدْ يقتُلُ الحُزنُ مَنْ أحبابهُ بَعُدوا | عنه فكيفَ بمنْ أحبابُهُ فُقِدوا
تَجري على رِسْلِها الدُنيا ويتبَعُها | رأيٌ بتعليلِ مَجراها ومُعتقَد
أعيا الفلاسفةَ الأحرارَ جهلُهمُ | ماذا يخبِّي لهمْ في دَفَّتيهِ غد
طالَ التَمحلُ واعتاصتْ حُلولُهم | ولا تزالُ على ما كانتِ العُقَد[1]
ليتَ الحياةَ وليت الموتَ مَرحَمَةٌ | فلا الشبابُ ابنُ عشرينٍ ولا لَبَد[2]
ولا الفتاةُ بريعانِ الصِبا قُصفَتْ | ولا العجوزُ على الكفّينِ تَعتمِد
إنّا إلى اللّهِ ! قولٌ يَستريحُ بهِ | ويَستوي فيهِ مَن دانوا ومَن جَحدوا

* * *

ولَفَّني شَبَحٌ ما كانَ أشبَهَهُ | بجَعْدِ شَعركِ حولَ الوجهِ يَنْعقد
ألقيتُ راسيَ في طيَّاتِه فَزِعاً | نظيرَ صُنْعِيَ إذ آسى وأفتاد
أيّامَ إنْ ضاقَ صَدري أستريحُ إلى | صَدرٍ هو الدهرُ ما وفى وما يَعِد
ضاقتْ مرابِعُ لُبنانٍ بما رَحُبَتْ | عليَّ والتفَّتِ الآكامُ والنُجُد
تلكَ التي رَقَصَتْ للعينِ بَهْجَتُها | أيامَ كُنَّا وكانتْ عِيشةٌ رَغَد
سوداءُ تنفُخُ عن ذِكرى تُحرِّقُني | حتّى كأني على رَيعانِها حَرِد[3]

---

(١) التمحل : اللف والدوران حول الشيء، والتحيل للوصول اليه . واعتاصت : تصعبت وتعقدت .

(٢) لبد : هو اسم أحد النسور التي احتضنها «لقمان بن عادياء» في الأسطورة الواردة عن طول عمره وانه استنزف أعمار هذه النسور كلها وكان لبد أطولها عمرا . ويوضح ذلك البيتان التاليان

(٣) حرد : غاضب .

سُرعانَ ما حالتِ الرؤيا وما اختلفَتْ رُؤىً، ولا طـالَ - إلا ساعـةً - أمَـد
مـررتُ بـالـحَـورِ والأعـراسُ تملأهُ وعُـدْتُ وهـو كمشـوى الجـانِ يَـرْتَعِـد

* * *

لبنان

● نشرت في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٩ .

أرجِعِي ما آستطعتِ لي من شَبابي ... يا سُهولاً تَدَثَّرَتْ بالهِضابِ
غَسَلَ البحرُ أخْمَصَيْها ، ورشَّتْ ... عبقاتُ النَّدى جِباهَ الرَّوابي
وآحتَواها «صِنّينُ» بينَ ذِراعيـ ... ـه عَجوزاً لـه رُواءُ الشَّباب[1]
كلَّلتْ رأسَهُ «الثّلوجُ» ، ومسَّتْـ ... ـهُ بأذيالِها مُتونُ السَّحاب
وآنثنى «كالإطار» يحتضِنُ الصّورةَ ... تُزْهَى ، أو جَدْولٍ في كتاب
كلّما غامَ كُربةً من ضَباب ... فرَّجَتْ عنه قُبْلةٌ من شِهاب
وبدَتْ عندَ سفحِهِ خاشِعاتٌ ... آلدُورِ مثلَ «الزّميت» في مِحراب[2]
وحوالَيهِ من ذَراريهِ أنما ... طُ لِطافٌ، من مُسْتَقِلٍّ وكابي

* * *

والبيوتُ المُبَعْثَراتُ «نُثارُ» ... آلغُرسِ مبثوثةً بدونِ حساب
وتَراها بينَ الخمائلِ تلتفُّ، ... عليها ، عمارةٌ في غاب
وتَماسَكْنَ - والطبيعةُ شِعرٌ - ... كقوافٍ يَلْمَعْنَ غيرَ نوابي
زهوُ حُمْرِ آلقِباب في آلجَبَلِ الأخـ ... ـضرِ يَسْبي كزهو أهلِ آلقِبابْ

* * *

و«الكرومُ» المُعرِّشاتُ حُبالى ... مُرضِعاتٌ كرائمَ الأعناب

---

(١) «صنين» هو أعلى جبال لبنان وأجملها .

(٢) في البيت تشبيه للدور المتظامنة عند سفوح جبل صنين بـ «الزميت» وهو الرجل المتزمت المتعبد .

حانياتٍ على « الدوالي » تُحَلِّيـ ـنَ عناقيدَ زينةً للكعاب
رافعاتُ الرؤوسِ شُكْراً ، وأُخرى ساجداتٌ شُكْراً على الأعتاب
سِلْنَ في الحَقْلِ مثلَ رُوحٍ لجسمٍ وتمدَّدْنَ فيهِ كالأعصاب
وتصايَحْنَ : أين . أينَ النّدامى ؟ وتغامَزْنَ ثَمَّ للأكواب
إنَّ خيرَ الشُهورِ إرثاً لشهرٍ ما تَلقَّى «أيلولُ» من شهرِ «آب»
كيفَ لا ترقصُ الطبيعةُ في أر ضٍ ثراها مُخَضَّبٌ بالشراب

* * *

قلتُ إذ جِرتُ : أيُّ أرض لها الفضلُ على غيرها وحارَ صِحابي !
أَدْخُلوا «جَنَّةَ» النَّعيم تُلاقوا ألفَ «رُضوانَ» فاتحاً ألفَ باب
غيرَ أنّي أنكرتُ في جَنَّةِ الفِر دوسِ «ربّاً» مُوَكَّلاً بعذاب!

* * *

إيهِ «لُبنانُ»، والحديثُ شجونٌ هلْ يُطيقُ آلبيانُ دَفْعاً لما بي؟
حارَ طيَّ اللَّهاةِ منّي سُؤالٌ أنا أدرى بردِّهِ وآلجواب
ما تقولونَ في أديبٍ «حريبٍ»! «مُسْتَقلٍّ» يلوذُ بـ «الانْتداب»؟
خلتُ أني فررْتُ مِن «جور بغدادَ» وطُغيانِ «جَوِّها» اللَّهَّاب
ومِنَ آلبغيِ والتَّعَسُّفِ والذُّلِّ فظيعاً مُحَكَّماً في الرّقاب
ومِنَ الزّاحفينَ كالدُودِ «هُوناً» تحتَ رِجليْ «مُسْتَعْمِرٍ» غَلّاب
ومنَ «الصّائلينَ» في الحُكْمِ زُوراً كخيولٍ « مُسوَّماتٍ » عراب
خِلْتُ أنّي نجوتُ مِنْ ذا ومِنْ بَطشةِ عاتٍ ، وخائنٍ كذّاب
غانماً «سَفرتي» وها أنا في حا لِ تُريني غنيمتي في الإياب
أفَيَبْقى « آلأحرارُ » مِنّا ومِنكُم بينَ سَوْطِ «آلغريبِ» والإرهاب؟

اجب ايها القلب

● نظمت عام ١٩٤٠ .
● نشرت في ٢٨ كانون الثاني ١٩٤١ .

أُعيذُ القوافي زاهياتِ المطالعِ ... مزاميرَ عزّافٍ، أغاريدَ ساجعِ
لِطافاً بأفواه الرُّواة، نوافذاً ... إلى القلب، يجري سحرُها في المسامع
تكادُ تُحِسّ القلبَ بين سُطورها ... وتمسَحُ بالأردانِ مَجرى المدامع
بَرِمْتُ بلوم اللائمين، وقولِهِمْ : ... أَأنتَ إلى تغريدةٍ غيرُ راجع
أأنتَ تركتَ الشعر غيرَ مُحاولٍ ... أمِ الشعرُ إذ حاولتَ غيرُ مطاوع
وهلْ نضَبَتْ تلك العواطفُ ثَرَّةً ... لِطافاً مجاريها ، غِزارَ المنابع

* * *

أجبْ أيّها القلبُ الذي لستُ ناطقاً ... إذا لم أُشاورْهُ، ولستُ بسامع
وَجَدِّثْ فانَّ القومَ يَدْرُونَ ظاهراً ... وتخفى عليهمْ خافياتِ الدوافِع
يظُنّونَ أنّ الشِّعْرَ قبسةُ قابسٍ ... متى ما أرادُوه وسِلعةُ بائع
أجب أيُّها القلبُ الذي سُرَّ معشرٌ ... بما ساءهُ مِنْ فادحاتِ القوارعِ
بما رِيع منكَ اللبُّ نفَّسْتَ كُربةً ... وداويتَ أوجاعاً بتلكَ الروائع
قُساةٌ مُحبّوك الكثيرونَ إنّهمْ ... يرونكَ - إنْ لم تَلْتَهِبْ - غيرَ نافع
وما فارَقَتْني المُلْهِباتُ وإنَّما ... تطامَنْتُ حتَّى جمرُها غيرُ لاذعي

* * *

ويا شعْرُ سارعْ فاقتَنصْ منْ لواعجي ... شواردَ لا تُصطادُ إنْ لم تُسارِع
تراميْنَ بعضاً فوقَ بعضٍ وغُطّيتْ ... شَكاةٌ بأخرى، دامياتِ المقاطع

وفَجْر قُروحاً لا يُطاقُ آختِزانُها ولا هي مما يتقى بالمباضع
ويا مُضْغَةَ القلبِ الذي لا فَضاؤها بـرَحْبٍ ولا أبعادُها بشواسِع
أأنتِ لهذي العاطفاتِ مفازَةٌ نسائِمُها مُرْتَجَّةٌ بالزعازِع
حَمَلْتُكِ حتّى الأربعينَ كأنني حَمَلْتُ عَدُوّي من لِبانِ المراضع
وأرْعَيْتِني شَرَّ المراعي وبِيلةً وأوْرَدْتِني مُشْتَوْبَآتِ الشرائع

* * *

تَلفَّتُّ أطرافي ألمُّ شتائتاً من الذكرياتِ الذّاهباتِ الرواجع
تحاشَيْتُها دَهْراً أخافُ آنبعاثَها على أنَّها معدودةٌ مِنْ صنائعي
على أنَّها إذْ يُعْوِزُ الشِّعْرَ رافِدٌ تلوحُ له أشباحُها في الطلائِع
فمنها الذي فوقَ الجبينِ لوقعهِ يدٌ، ويدٌ بين الحشا والأضالع
ومنها الذي يُبكي ويُضحِك أمرُهُ فيفترُّ ثغرٌ عَنْ جُفونٍ دوامع
ومنها الذي تدنو فتبعدُ نُزَّعاً شواخِصُهُ مِثْلَ السَّرابِ المُخادع
ومنها الذي لا أنتَ عنهُ إذا دَنا براضٍ ولا منهُ - بَعيداً - بجازع
حَوى السِجنُ منها ثُلَّةً وتحدَّرَتْ إلى القبرِ أخرى، وهي أمُّ الفجائع
وباءتْ بأقساهُنَّ كَفّي وما جَنَتْ مِن الضُرِّ مما تَتَّقيهِ مسامعي
ومكْبوتةٍ لم يشفَعِ الصَّفْحُ عندَها مددتُ إليها مِنْ أناةٍ بشافِع
غَـزَتْ مُهجتي حتّى ألانَتْ صفَاتها ولانَتْ دمي حتى أضَرَّتْ بطابَعي[1]
رَبتْ في فؤادٍ بالتشاحُنِ غارِقٍ مليءٍ، وفي سمِّ الحزازاتِ ناقع
كوامِنُ مِنْ حِقْدٍ وإثمٍ ونِقْمَةٍ تَقَمَّصْنَني يَرْقُبْنَ يومَ التراجُع
وقُلْتُ لها يا فاجراتِ المَخادِع تَزَيَّنَ زِيَّ المُحصَناتِ الخواشع
وقَرْنَ بصدْرٍ كالمقابر مُوحِشٍ ولُحْنَ بوجهٍ كالأثافيِّ سافِع[2]
وكُنَّ بريقاً في عُيوني، وهِزَّةً بجسمي، وبُقْيا رَجفَةٍ في أصابعي
وأرعبْنَ أطيافي وشَرَّدْنَ طائفاً مِن النوم يَسري في العيون الهواجع

(١) الصفاة : الصخرة الملساء .
(٢) سافع : أسود .

ودِفْنَ زُعافاً في حياتي يُحيلُها | إلى بُؤرةٍ من قسوةٍ وتقاطُعِ
وعلّمْنني كيفَ آحتباسي كآبتي | وكيفَ آغتصابي ضِحكةَ المُتصانِعِ
وثُرْنَ فظيعاتٍ إذا حُمَّ مَخْرَجٌ | وقُلْنَ ألسنا من نَتاجِ الفظائعِ

أجب أيها القلب..

ويا شعرُ سارعْ فاقتنصْ من لواعجي | شواردَ لا تُصطادُ إن لم تُسارعِ
تراميْنَ بعضاً فوقَ بعضٍ، وغُصَّتْ | شكاةٌ بأخرى، داميات المقاطعِ
وفجِّرْ قروحاً لا يُطاقُ اختزانُها | ولا هيَ مما يُتّقى بالمباضعِ
ويا مضغةَ القلبِ التي لا فضاؤها | يرحبُ، ولا أبعادها بشواسعِ
أأنتِ لهذي العاطفاتِ مفازةٌ | نسائمُها مرتجّةٌ بالزعازعِ
حملتكِ حتى الأربعين كأنني | حملتُ عذوي من لِبانِ المراضعِ
وأرعيتني شرَّ المراعي وبيلةً | وأوردتني مستوبَلاتِ الشرائعِ
وعطّلتِ من منطقِ العقلِ مُلقياً | لعاطفةٍ عمياءَ زِمامَ المتابعِ

***

تلفّتُّ أطرافي ألمُّ شتاتَها | من الذكرياتِ الذاهباتِ الرواجعِ
تحاشيتُها دهراً أخافُ ابتعاثَها | على أنها معدودةٌ من صنائعي
على أنها إذ يعوزُ الشعرَ رِفْدُه | تلوحُ له أشباحُها في الطلائعِ
فمنها الذي فوقَ الجبينِ لوقعه | ندوبٌ، وبينَ الحشى والأضالعِ
ومنها الذي يُبكي ويُضحكُ أمرُه | فيفترُّ ثغرٌ من جفونٍ دوامعِ
ومنها الذي تدنو فتبعدُ نُزَّعاً | شواخصُه مثلَ السرابِ المخادعِ
ومنها الذي لا أنتَ عنه إذا دنا | براضٍ، ولا منه بعيداً بجازعِ
هوى "السجنُ" منها ثُلّةً، وتحدّرتْ | إلى القبرِ أخرى، وهي أمُّ الفجائعِ
وباءتْ بأقساهنَّ كفّي وما جنتْ | من الضرِّ ما تنفيهِ مسامعي

الجواهري

الى الجواهري

[illegible]

معروف الرصافي

ستالينغراد

● نشرت في ٢١ شباط ١٩٤٣ .

نـضـت الـروح وهـزتـهـا لـواء   وكـسَـتـه واكـتـسـتْ مـنـه الـدمـاء
واستمـدتْ من إلـه الحَـقـلِ والـ   ـجبتِ والمصـنـعِ عَـزمـا ومَضَـاء
رَمتِ الـزرعَ بعيـن أثـلجَ الـدَمـعُ فيـهـا ضـرمَ الـجِـقـد اجـتـواء
أعـجِـلـتْ عـنـهُ فـآلـت قَـسَـمـاً   أن سـتـسـقـيـهِ دمَ الأعـداءِ مـاء
ومـشـت فـي زحـمـةِ الـمـوتِ عـلى   قـدَمٍ لـم تـخـشَ مَـيْـلا والـتـواء
قـيـل لـلـعـيـشِ فـفـاضـت أمـنـاء   وإلى الـمـوتِ فـفـاضتْ شـهـداء
ومشى الـتـاريـخُ مـوزونَ الـخُـطى   مـا انـحـنـى ذُلاًّ ولا ضـجَّ ادّعـاء
هـذه الـتـربـةُ لا مـا سُـمِّـيـت   وطـنـاً يُـنـبِـتُ جـوعـاً وعـراء
وهي ذي الحُفرَةُ إذ طارت عَجاجاً   ألـفُ نـفسٍ مـعـهـا طـارت فـداء

* * *

قف على « القَفْقـاس » وانـظر مـوكبَ المجـدِ والعـزَّةِ يمشي خُـيَـلاء
وسـلِ (القُـوزاقَ) هـل كـان دمـاً   لـمـعـانُ الـسـيـفِ أم كـان طـلاء
وجـدَ الـغـادرُ مـن قَـسـوتـهـا   مـا رأى من لـطفهـا الضيفُ سخـاء

* * *

يـا عـروسَ « الـفُـلغ » والـفـلغـا دمٌ   سـاءت الـبلوى فـأحـسـنـت الـبـلاء
صُـبِـغَ « الـدونُ » دمَـاءيـنِ هُـمـا   بُـعـدُ بين الـرجسِ والـطهـرِ التقـاء
وجـرت أمـواجُـه حـامـلـةً   فـوقـهـا الـضـدّيـن صُـبحـاً ومـسـاء

وعلى الجُرفين «عظمان» هما رمزُ عهدَيْنِ انحطاطاً وارتقاء
يا ابنةَ النهرين دومي شَبَحاً لقويٍّ وضعيفٍ يُتراءى
للمُهينينَ عِقاباً وجَزاء والمُهانين انتفاضاً وإباء
كنتِ أسمى مَثَلاً من ظَفَرِ لم تَلِدْهُ خططُ الحربِ دهاء
غُلِبَ الغالبُ فيه وانثنى الطوقُ - كالحبل - على الطوق انثناء
كنتِ رمزاً أَلْهَمَ آلجيلَ الفداء وهَدى الأعقابَ ما شاءت وشاء

* * *

حسِبوا أمرَكِ ما قد عُوِّدُوا صَعقَ الحربِ اتقاداً وانطفاء
وابتداءً من حديدٍ ودمٍ يُمهَرُ الفتحُ به ثم انتهاء
واستجاشوا فيلقَ الموتِ على ظمأ للدم منّوه ارتواء
ومضوا فيما أرادوا خطوةً أوشك اليأسُ بها يمحو الرجاء
أوجف الغربُ على وطأتِها وأمالت كلكلَ الشرقِ فناء[1]
وتلوت جيرةٌ طمَّاحةٌ أفناءٌ تَتَلَقّى أم بقاء ؟
حملت حاضرَها واثقةً أنَّ في مستقبلٍ آتٍ عزاء
وانبرى التاريخُ في حَيْرتِهِ أأماماً يتخطّى أم وراء ؟
وسرت أنباءُ سُوءٍ تَدّعي أن ريحاً تُنذِرُ الدنيا وباء
حُلُمٌ حلوٌ مُمِرٌّ مؤنسٌ مُوحشٌ سرَّ بما جاء وساء
طافَ بالكونِ فأغفى أهلُه تعساءً وأفاقوا سعداء

* * *

فإذا العِزَّةُ في عَليائها تتضرَّى فتدوسُ الكبرياء
وإذا الأنقاضُ في كُرْبتِها تُفْعِمُ المكروبَ كالرَّوض شذاء
وإذا المُنقَضُّ من أحجارها لمحُ النجمِ تعالى فأضاء
وإذا الطاغوتُ في أعراسه يملأ الدنيا نحيباً وبكاء

---

(١) وجف : اضطرب .

أنتِ أمليتِ على تاريخه طافحاً بالكِبر ذُلاً واختذاء
ومحوتِ العُجْبَ من أسطاره وملأتِ الصَّلَفَ المحضَ ازدراء
وصفعتِ الدنَّ في يافوخِهِ صفعةً لم تُبْقِ خَمْراً وانتشاء
نحنُ أهلَ الأرض لو نقْوى وفاء لرفعناكِ على الأرض سماء
لجعلنا كلَّ عينٍ ـ مثلَما كلُّ قلبٍ ـ تتملاّكِ اجتلاء

* * *

يا ثريّاً وهبَ الناسَ الثراء قُمْ ترَ الناسَ جميعاً أثرياء
قُمْ تَجِدْهم مالِكي غَلَّتهمْ من على عهدِكَ كانوا الأُجَراء
هكذا (الفكرةُ) تزكو ثَمَراً إن زكتْ غرساً، وإن طابت نَماء

* * *

يا آبنةَ «النهرين» هذا نَسَبٌ من وَلاءٍ لو تقبَّلتِ الولاء
بَعُدَ المَرْمى بما استهدفتهُ واختذى السهمُ فقصَّرتُ عياء
وارتمى الحِسُّ على الحِسِّ فما يستطيعُ اللفظُ للوعي اداء
ومن الظُلمِ ـ الذي تأبَيْنَه ـ أن تسومي المُعجزاتِ الشعراء[1]
عاطفاتٌ حُوَّمٌ عاجت على أبْحُرِ الشعر فردَّتها ظماء
وهي ما كانت لتُدلي سبباً لك، لولا أنَّها كانت بَراء
لم تُثِرْها نزوةُ النفسِ، ولم يَزهِها العُجْبُ ولم تنبِضْ رياء
جُلُّ ما يُسعِفُني الشعرُ به أن يلبِّي «الفمُ» للقلبِ نداء

---

(١) المعجزات: ما يعجز.

إلى الرصافي

● نشرت في ١٥ أيار ١٩٤٤

تمرَّستَ «بالأولى» فكنتَ المُغامِرا ... وفكَّرتَ «بالأخرى» فكنتَ المُجاهِرا
وفضَّلتَ عيشاً بين تلكَ وهذه ... به كنتَ، بل لولاهُ، ما كنتَ شاعرا
وما الشِّعرُ إلاَّ ما تفتَّقَ نَورُه ... عن الذهنِ مَشبوباً، عن الفكر حائرا
عن النفس جاشتْ فاستجاشت بفيضها ... عن القلبِ مرتجٌّ العواطفِ زاخرا
وما زجَّ في شتَّى المَهاوي بربِّه ... وقحَّمهُ «النَهجينِ» قصداً، وجائرا
وما هو بالحبلِ الذي رُحتَ مُرغِماً ... «أوائلَه» أنْ تلتقي و«الأواخرا»

* * *

وكنتَ جريئاً حين يدعوكَ خاطرٌ ... مِن الفكر أن تدعو إليك المَخاطرا
على ثقةٍ أنْ لستَ في الناس واجداً ... على مِثله - إلاَّ القليلَ - مُناصرا
وكنتَ صريحاً في حياتكَ كلِّها ... وكانَ - وما زالَ - المُصارِحُ نادرا
فانْ شابَها ما لم تجدْ عنه نُدحةً ... شَفَعْتَ به حُكمَ الظروف مُسايرا
فقد كنتَ عن وحي الضرورةِ ناطقاً ... وقد كنتَ عن محضِ الطبيعة صادرا
وقد كنتَ في تلك «الأماديحِ» شاتماً ... مُحيطاً «بأربابِ» القرائحِ كافرا
وإلاَّ فأنتَ المانعُ الصُغرِ «عن يدٍ ... أبتْ أنْ تُحلَّى في الجِنان أساورا»[1]

---

(١) اشارة الى بيت ورد للرصافي في قصيدة له ينتصر بها لحرية الفكر والراي وهو :
ومن أجل مقتي « للمخانيث » أنكرت ... يدي أن تحلى في « الجنان » أساورا .

وإنَّـكَ أنقى من نُفـوسٍ خبيثـةٍ تُـراوِدُ بـالصَّمت المُـريبِ المَنـاكـرا
تَعيبُ على الشِّعـرِ التَّحـايـا رقيقـةً وتلثُم من «بغـلٍ هـجيـنٍ» حـوافـرا
وتُنكـر أنْ يُستنشقَ الشعـرُ «نفحـةً» وقـد فَغـرتْ أشـداقَهـا والمنـاخـرا
من العـارِ أنْ نرضى التـذبذبَ صـامتاً دنيئـاً، خبيثـاً، والـغـاً، متـصـاغـرا
على حينَ نـأبى أن تحـرِّكَ شـاعـراً ضـرورةُ حالٍ بـذَّأتْ منه خـاطـرا
وإنـيَ إذْ أُهـدي إلـيـكَ تـحيَّـتي أهـزُّ بـكَ الجيْـلَ العَقـوقَ المُعـاصِرا
أهـزُّ بـكَ الجيـلَ الـذي لا تـهـزُّه نـوابغُـه، حتى تـزورَ المقـابـرا

ابو العلاء المعري

● نشرت في ٥ تشرين الأول ١٩٤٤ .

قِفْ بالمَعرَّةِ وآمسَحْ خدَّها التَّرِبا[١] وآستَوحِ مَنْ طَوَّقَ الدُّنيا بِمَا وَهَبا

وآستَوحِ مَنْ طبَّبَ الدُّنيا بحكْمَتِهِ ومَنْ على جُرحِها من رُوحه سَكَبا

وسائلِ الحُفْرةَ المرموقَ جانِبُها هل تبتَغي مَطْمَعاً أو ترتجي طلَبا ؟

يا بُرجَ مفْخَرةِ الأجداث لا تهِني أنْ لم تُكوني لأبراج السَّما قُطُبا

فكلُّ نجمٍ تمنَّى في قرارته لو أنَّه بشُعاعٍ منكِ قد جُذِبا

والمُلْهَمَ الحائرَ الجبَّارَ ، هل وَصَلتْ كَفُّ الرَّدى بحياةٍ بَعْدَه سَببا[٢] ؟

وهل تَبدَّلتَ رُوحاً غيرَ لاغِبةٍ أم ما تزال كأمسٍ تشتكي اللَّغَبا[٣] ؟

وهل تخبَّرْتَ أنْ لم يألُ مُنطَلِقٌ من حُرِّ رأيكَ يَطْوي بعْدكَ الحقَبا[٤] ؟

وهل تصَحَّحَ في عُقباكَ مُقتَرحٌ ممَّا تفكَرتَ ، أو حَدَّثْتَ ، أو كُتِبا[٥] ؟

نُورٌ لَنا ، إنَّنا في أيّ مُدَّلجٍ ممَّا تَشكَّكْتَ ، إنْ صِدقاً وإنْ كَذِبا[٦]

«أبا العلاء» ، وحتَّى اليومِ ما بَرِحتْ صَنَّاجةُ الشّعرِ تُهدي المترفَ الطَّربا[٧]

يَستنزِلُ الفكرَ من عَليا مَنازِلِه رأسٌ ليمسحَ من ذي نعمةٍ ذَنَبا

وزُمرةُ الأدبِ الكابي بزُمرته تفرَّقَتْ في ضَلالاتِ الهوى عُصَبا

تَصيَّدُ الجاهَ والألقابَ ناسيةً بأنَّ في فكرةٍ قُدسيَّةٍ لقَبا

---

(١) الترب (بكسر الراء) : الذي يكسوه التراب .

(٢) الملهم منصوبة «بسائل» مضمرة .

(٣) اللاغبة : المتعبة .

(٤) لم يأل أي لم ينفك ولم يبرح .

(٥) تفكرت : بمعنى فكرت .

(٦) المُدلج : السائر في آخر الليل خاصة .

(٧) الصنج : من آلات الطرب وصناجات الشعر المغنون به والمرفقون اياه .

وأنَّ للعبقريّ الفذِّ واحدةً ... إمَّا الخُلودَ وإمَّا المالَ والنَّشبا
من قبلِ ألفٍ لَوَ انَّا نبتغي عِظةً ... وعَظْتَنا أنْ نصونَ العلمَ والأدبا

* * *

على الحصيرِ .. وكوزُ الماء يَرفدُه ... وذهنُه .. ورفوفٌ تحمِلُ الكتبا
أقامَ بالضَّجَّةِ الدُّنيا وأقعدَها ... شيخٌ أطلَّ عليها مُشفقاً حَدِبا
بَكى لأوجاع ماضيها وحاضرِها ... وشامَ مُستقْبَلاً منها ومرتقَبا
وللكآبةِ ألوانٌ ، وأفجعُها ... أنْ تُبصرَ الفيلسوفَ الحُرَّ مكتئِبا
تناولَ الرثَّ من طبعٍ ومُصطَلحٍ ... بالنقدِ لا يتأبَّى أيَّةً شجبا
وألهَمَ الناسَ كي يَرضَوا مغبَّتهم ... أن يُوسعوا العقلَ ميداناً ومُضطَربا(١)
وأنْ يَمدُّوا به في كلِّ مُطَّرحٍ ... وإنْ سُقوا مِن جَناه الويلَ والحربا
لِثورةِ الفكرِ تأريخٌ يحدِّثُنا ... بأنَّ ألفَ مسيحٍ دونَها صُلِبا
إنَّ الذي ألهبَ الأفلاكَ مِقولُه ... والدَّهرَ .. لا رَغَباً يرجو ولا رَهَبا ..
لم ينسَ أنْ تشمَلَ الأنعامَ رحمتُهُ ... ولا الطيورَ .. ولا أفراخَها الزُّغُبا
حَنا على كلِّ مغصوبٍ فضمَّده ... وشجَّ مَنْ كان ، أيّاً كان ، مُغتصِبا
سَلِ المقاديرَ ، هل لا زلتِ سادرةً ... أمْ أنتِ خجلى لِما أرهقتِهِ نصَبا ؟
وهل تعمَّدتِ أنْ أعطيتِ سائبةً ... هذا الذي من عظيمٍ مثلِه سُلبا
هذا الضياءَ الذي يَهدي لِمكْمَنِه ... لِصّاً ويُرشدُ أفعى تَنفُثُ العَطَبا

* * *

رأسٌ من العَصَبِ السامي على قَفَصٍ ... من العظام ، إلى مهزولةٍ عُصِبا
أهوى على كُوَّةٍ في وجههِ قَدَرٌ ... فسَدَّ بالظُّلمةِ الثُّقبينِ فاحتجبا(٢)
وقال للعاطفاتِ العاصفاتِ بهِ ... ألآنَ فالتمسي مِن حُكْمهِ هربا
ألآنَ يشربُ ما عتَّقتِ لا طَفَحاً ... يَخشى على خاطرٍ منه ولا حَبَبا
ألآنَ قولي إذا آستوحشتِ خافقَه ... هذا «البصيرُ» يُرينا آيةً عَجَبا
هذا «البصيرُ» يُرينا بينَ مُندرِسٍ ... رثِّ المعالم ، هذا المرتَعَ الخصِبا(٣)

* * *

---

(١) المغبة : العاقبة .

(٢) الكوة اشارة الى دائرة العين ومركزها ، والثقبان هما فتحتا العينين .

(٣) مندرس رث المعالم : يراد به أديم الوجه المتأثر بانطماس العينين . والمرتع الخصب : يراد به عقل أبي العلاء وروحه .

يا حاقِرَ النبعِ مزهُوّاً بقوَّتِه ... وناصراً في مجالي ضعفهِ الغَرَبا[1]
وشاجبَ الموت من هذا بأسهمه ... ومُستمِنّاً لهذا ظِلَّهُ الرَّحِبا
ومُحرِجَ المُوسِرِ الطاغي بنعمته ... أنْ يُشرِكَ المُعْبِرَ الخاوي بما نهبا
والتّاجُ إذ تتحدّى رأسَ حامله ... بأيِّ حقٍّ وإجماعٍ به اعتصبا

* * *

وهؤلاء الدُّعاةُ العاكفونَ على ... أوهامهم ، صنماً يُهدونه القُرَبا[2]
الحابطونَ حياةَ الناس قد مَسخوا ... ما سنَّ شَرْعٌ وما بالفطرة اكتُسِبا
والفاتلونَ عثانيناً مُهرّأةً ... ساءتْ لمحتطِبٍ مَرعى ومُحتطَبا[3]

والمُلصِقونَ بعرشِ اللّهِ ما نسجت ... أطماعهُم : بِدَعَ الأهواءِ والرِّيَبا
والحاكمونَ بما تُوحي مطامعهُم ... مؤوَّلينَ عليها الجِدَّ واللَّعبا
على الجلودِ من التدليس مَدرعةً ... وفي العيونِ بريقٌ يخطَف الذهبا
ما كان أيُّ ضلالٍ جالباً أبداً ... هذا الشقاء الذي باسم الهُدى جُلبا !
أوسَعْتَهم قارصاتِ النقدِ لاذعةً ... وقلتَ فيهم مَقالاً صادقاً عجبا
« صاحَ الغرابُ وصاحَ الشيخُ فالتبستْ ... مسالِكُ الأمر : أيُّ منهما نعبا »

* * *

أجللتُ فيك من الميزات خالدةً ... حُريَّةَ الفكرِ والحرمانَ والغضبا
مجموعةً قد وجدناهُنَّ مُفرَدةً ... لدى سواكَ فما أغنيننا أرَبا
فربَّ ثاقبِ رأيٍ حطَّ فكرتَه ... غُنمٌ فسَفَّ .. وغطَّى نورَها فخبا
وأثقلَتْ مُتَعُ الدُّنيا قوادِمَهُ ... فما آرتقى صُعُداً حتّى ادّنى صَبَبا
بَدا له الحقُّ عُرياناً فلم يَرهُ ... ولاحَ مقتلُ ذي بغيٍ فما ضربا
وإنْ صدقتُ فما في الناس مُرتكِباً ... مثلُ الأديب أعانَ الجورَ فارتكبا
هذا اليراعُ ، شواظُ الحقّ أرهفه ... سيفاً وخانعُ رأيٍ ردَّه خشبا
وربَّ راضٍ من الحرمان قِسمَته ... فبرَّرَ الصبرَ والحرمانَ والسغبا
أرضى ، وإنْ لم يشأ، أطماعَ طاغيةٍ ... وحالَ دونَ سوادِ الشعب أن يثبا

---

(١) النبع : شجر يعرف بقوته وتتخذ منه السهام والقسي . والغرب : شجر معروف بسهولة انكساره .
ومعنى البيت الاشارة الى شجب المعري القوة بكل مظاهرها ، واحتضانه الضعفاء من كل جنس .
(٢) يريد بهم المشعوذين باسم الدين والذين يروجون للبدع وللخرافات ويضيقون آفاق الحياة على الجماهير .
(٣) العثانين : جمع عثنون بالضم : اللحية .

وعوَّضَ الناسَ عن ذُلٍّ ومَتربَةٍ ... مِنَ القناعةِ كنزاً مائجاً ذهبا !!
جيشٌ من المُثُلِ الدُّنيا يَمُدُّ به ... ذوو المواهبِ جيشَ القوَّةِ اللَّجبا

* * *

آمنتُ باللهِ والنورِ الذي رسَمَتْ ... به الشرائعُ غُرّاً منهجاً لَحِبا
وصُنتُ كلَّ دُعاةِ الحقِّ عن زَيغٍ ... والمُصلحينَ الهداةَ ، العُجْمَ والعَرَبا
وقد حَمِدتُ شفيعاً لي على رَشَدي ... أُمّاً وجدتُ على الاسلامِ لي وأبا
لكنَّ بي جَنَفاً عن وعي فلسفةٍ ... تقضي بأنَّ البرايا صُنِّفتْ رُتَبا[1]
وأنَّ مِن حِكمةٍ أنْ يجتني الرُّطَبا ... فردٌ بجَهدِ ألوفٍ تعلكُ الكَرَبا[2]

(١) الجنف : الميل والانحراف .
(٢) الكرب : أصول سعف النخل .

جمال الدين الافغاني

● نشرت في ١٦ كانون الأول ١٩٤٤ .

هَـويتَ لِنُصـرةِ الحقّ السُهـادا | فلولا المـوتُ لـم تُـطِقِ الـرُّقـادا
ولـولا المـوتُ لم تَتْـرُكْ جِهـاداً | فَـلَلْتَ بـه الـطغـاةَ ولا جِـلادا
ولـولا المـوتُ لم تُفْـرِحْ فُـرادى | صعَقْتَهُـمُ ، ولم تُـحـزِنْ سـوادا[1]
ولـولا الموتُ لم يَـذهبْ حـريقٌ | بيـانـعـةٍ وقـد بَلَغَـتْ حَـصـادا
وإنْ كـانَ الـحـدادُ يَـرُدُّ مَيـتـاً | وتَـبـلُغُ مـنـه ثـاكـلةٌ مُـرادا
فـإنَّ «الـشَّـرقَ» بيـنَ غـدٍ وأمسٍ | عـليـكَ بِـذِلَّـةٍ لـبِسَ الـحِـدادا!

* * *

تـرفَّـعْ أيُّـهـا النجم الـمُسَجَّى | وزِد فـي دارة الـشَّـرَفِ اتّـقـادا
ودُرْ بـالـفكـر فـي خَلَدِ الـليـالـي | وجُـلْ في الكـون رأيـاً مُستعـادا[2]
وكُنْ بـالصَّمتِ أبلغَ منـك نُـطْقـاً | وأورى فـي مُحـاجَـجـةٍ زِنـادا[3]
فـانَّ المـوتَ أقصـرُ قِيـدَ بـاعٍ | بـأنْ يَغتـالَ فِكـراً وآعْـتـقـادا[4]

* * *

جمـالَ الـدين، يـا رُوحـاً عَليّـاً | تـنـزَّلَ بـالـرسـالـة ثـمَّ عـادا
تجشَّمْتَ الـمهـالـكَ فـي عَـسوفٍ | تجشَّمَـهُ سـواكَ فمـا آستَقـادا[5]

---

(١) فُرادى : يعني الخاصة . السواد : يعني العامة .

(٢) الخلد ، البال والقلب .

(٣) النطق (بفتح النون وكسر الطاء) : الناطق .

(٤) القيد هنا بمعنى المقدار ويجيء بكسر القاف وبفتحها .

(٥) العسوف : الصعب الوعر . استقاد : انقاد .

وجَـدْتَ الـلذّةَ الكُبـرى فكـانـت طـريفَ الفِكـرِ والهِـمَمِ التِـلادا
وأعـصـابـاً تَـشُـدُّ عـلى الـرَّزايـا إذا طـاشَـتْ وتَـغـلِبُـهـا اتّـئادا
ولـمَّـا كنـتَ كـالفـجـر آنبـلاجـاً «وكـالعنقـاء تكْـبُـرُ أنْ تُصـادا»[1]
مَـشَيْـتَ بقـلبٍ ذي لَـبـدٍ هَـصـورٍ «تُعـانِـدُ من «تُـريـدُ» لـه العِنـادا»
صليبَ العُـودِ، لم يَغمِزْكَ خَـوفٌ ولم تَسهُـلْ على التَرفِ انعقـادا[2]
ولـم تَـنـزِلْ عـلى أهـواء طـاغٍ ولا عـمَّـا تُـريـدُ لِـمـا أرادا
ولـم تَـجِـدِ الأمـانـيَ والـمـنـايـا مُـبـرِّرةً عـن الـحـقِّ ارتـدادا
ولـم أرَ في الـرجـالِ كـمُستَمِـدٌّ مـن الـحـقِّ اعـتـزازاً واعـتـدادا
وكـان مُعسكـرانِ: الـظُّلمُ يَـطغى ومـظلومٌ، فـلم تَـقـفِ الحِـيـادا
ولـم تـحـتـجَّ أنَّ الـبَـغْـيَ جـيـشٌ وأنَّ الـزاحـفـيـنَ لـه فُـرادى
ولا أنَّ الـلـيـالـيَ مُـحـرِجـاتٌ وأنَّ الـدَّهـرَ خـصـمٌ لا يُـعـادى
وأنَّ الأمـرَ مـرهـونٌ بـوقـتٍ يـنـادي حيـنَ يـأْزَفُ لا يُنـادى[3]
مَـعـاذيـرٌ بـهـا آدَّرَعَـتْ نُـفـوسٌ ضعـافٌ تَـرهبُ الكُـرَبَ الشِّـدادا

* * *

جمـالَ الـدينِ كنتَ وكـانَ عهـدٌ سُقيتَ لما صمَدْتَ لـه العِهادا[4]
نَـمَـا واشـتطَّ واشـتـدَّتْ عُـراه وزادَ الـصـامـدونَ لـهُ آشتـدادا
مشَتْ خمسـونَ بعـدَكَ مُـرْخِيـاتٍ أعِنَّتَهـا، هِجـانـاً لا جِيـادا[5]
مـحـمَّـلةً وُسُـوقـاً مـن فُـجـورٍ وشـامـخـةً كَمُحصنَـةٍ تَهـادى[6]

---

(١) في هذا البيت والبيت الذي يليه تضمين ومعارضةٌ لبيت المعري المشهور :

أرى الـعـنـقـاء تـكـبـر ان تـصـادا فـعـانـد مـن تـطيـقُ لـه عـنـادا

أي فعاند من تُريد ، وليس من تطيق عناده!

(٢) انعقد الشيء وعليه : أي خلص له واستقام .

(٣) يأزف : أي يحين .

(٤) العهاد : المطر .

(٥) خمسون يراد بها السنون التي أعقبت موت السيد الأفغاني . ومرخيات اعنتها : كناية عن استرسالها . والهجان غير الكريمة ولا الأصيلة في انسابها .

(٦) الوسوق : الأحمال والأثقال .

ولُطِّفَتِ الابادةُ، فهو حُرٌّ بأيِّ يَدٍ يُفَضِّلُ أنْ يُبادا!
ومُدَّتْ إصْبَعٌ لذويهِ فيهِ فعاثَتْ فوقَ ما عاثُوا فسَادا!
فكَمْ في الشَّرقِ من بَلَدٍ جريحٍ تَشَكّى لا ٱلجروحَ بَلِ الضِّمادا!
وكان إذا تهضَّمهُ غريبٌ أقامَ له القيامةَ والمَعادا
فأسلَمَهُ الغريبُ إلى قريبٍ يُسخِّرُهُ كما شاءَ آضطهادا
وكان الأجنبيُّ وقد تَولَّى زمامَ الأمرِ وآغتَصَبَ البلادا
يرى أدنى الحُقوقِ لهمْ عليه مُساغَ النقدِ والكلِمَ المُعادا
فأضحوا يحسبونَ النقدَ فتحاً لو آسطاعُوا لِما يَصِمُّ انتِقادا
فبئسَ مُنىً لمصفودٍ ذليلٍ لَوَ انَّ يَديه لم تَضَعا الصِفادا[1]
وبئسَ مَصيرُ مُفتَرِشينَ جمراً تَمنّيهم لو آفتَرَشوا القَتادا ![2]
وكانوا كالزُّروعِ شَكَتْ مُحولاً فلمَّا آستمْطرتْ مُطِرَتْ جرادا!

---

(١) الصفاد : بالكسر ما يوثق به الأسير .
(٢) القتاد : شجر له شوك .

يافا الجميلة

● نشرت في ١٦ آذار ١٩٤٥

بـ «يـافـا» يـومَ حُطَّ بهـا الـركـابُ ... تَـمَـطَّرَ عـارِضٌ ودجـا سَـحـابُ
ولـفَّ الـغـادةَ الـحـسـنـاءَ لـيـلٌ ... مُـريبُ الخـطوِ لـيسَ بـه شِهـاب
وأوسـعَـهـا الـرَذاذُ الـسَـحُ لَـثْـمـاً ... فَفيهـا مِنْ تحـرُّشِـهِ اضـطِراب[1]
و«يـافـا» والـغُـيـومُ تَـطوفُ فـيهـا ... كـحـالِـمـةٍ يُـجـلِّلُهـا اكـتـئـاب
وعـاريـةُ الـمحـاسـن مُـغـريـاتٍ ... بكفِّ الـغَيـمِ خِيطَ لـهـا ثـيـاب
كـأنَّ الجـوَّ بيـن الشـمسِ تُـزْهَى ... وبيـنَ الـشـمسِ غـطَّاهـا نِـقـاب
فـؤادٌ عـامِـرُ الإيـمـانِ هـاجَـتْ ... وسـاوِسُـه فـخـامَـرَهُ ارتـيـاب
وقـفـتُ مُـوزَّعَ الـنَّـظَراتِ فـيـهـا ... لِـطَرفـي في مـغَـانيهـا انسـيـاب
ومـوجُ البحـرِ يَغسِـلُ أخْمَصَيْهـا ... وبـالأنـواءِ تـغـتـسـلُ الـقِـبـاب
و«بـيَّـاراتُـهـا» ضَـربَـتْ نِـطاقـاً ... يُخـطِّطُهـا كـمـا رُسمَ الكتـاب[2]

* * *

أقـلَّتـنـي مـن الـزوراءِ ريـحٌ ... إلـى «يـافـا» وحـلَّقَ بـي عُـقـاب
فيـا لَـكَ «طـائـراً» مَـرِحـاً عليـه ... طـيـورُ الجـوِّ من حَنَـقٍ غِضـاب
كـأنَّ الـشـوقَ يَـدفَعُـهُ فيُـذكـي ... جـوانِـحَـه مـن الـنجـمِ اقـتـراب
أرانـا كيـف يَـهفـو الـنجـمُ حُبّـاً ... وكـيفَ يُـغـازِلُ الـشـمسَ الـضَّبـاب

---

(١) الرذاذ : المطر الضعيف في أول نزوله . والسح مصدر أقيم مقام الصفة وهو بمعنى المنصب والمنسكب
(٢) «البيارات» : هي مغارس البرتقال عند أهل فلسطين .

وكيفَ الجوُّ يُرقِصُهُ سَناها   إذا خطرتْ ويُسكِرهُ اللُّعاب
فما هيَ غيرُ خاطرةٍ وأُخرى   وإلّا وَثْبةٌ ثُمَّ انصِباب
وإلّا غفوةٌ مسَّتْ جُفوناً   بأجوازِ السماءِ لها انجِذاب
وإلّا صحوةٌ حتّى تمطَّتْ   قوادِمُها، كما انتفَضَ الغُراب

* * *

ولمّا طبَّقَ الأرَجُ الثنايا   وفُتِّح مِنْ جِنانِ الخُلدِ باب
ولاحَ «اللُّدُّ» مُنبسِطاً عليهِ   مِن الزَهَراتِ يانِعةً خِضاب[1]
نظرْتُ بمُقْلةٍ غطَّى عليها   مِن الدمعِ الضَليلِ بها حِجاب
وقلتُ وما أُحيرُ سوى عِتابٍ   ولستُ بعارفٍ لِمَنِ العتاب[2]
أحقّاً بيننا آختلَفتْ حُدودٌ   وما اختلَفَ الطريقُ ولا التراب
ولا افترَقتْ وجوهٌ عن وجوهٍ   ولا الضّادُ الفصيحُ ولا الكِتاب

* * *

فيا داري إذا ضاقَت ديارٌ   ويا صَحبيْ إذا قلَّ الصِحاب
ويا مُتسابِقينَ إلى آحتِضاني   شَفيعي عِندَهم أدبٌ لُباب
ويا غُرَّ السجايا لم يَمُنُّوا   بما لَطُفوا عليَّ ولم يُحابوا
ثِقوا أنّا تُوَحِّدُنا همومٌ   مُشارِكةٌ ويجمعُنا مُصاب
تَشِعُّ كريمةً في كلِ طَرفٍ   عراقيٍّ طيوفُكُمُ العِذاب
يُزَكينا من الماضي تُراثٌ   وفي مُستَقْبَلٍ جَذِلٍ نِصاب
لئنْ حُمَّ الوَداعُ فضِقتُ ذرعاً   بهِ، واشتفَّ مُهجتيَ الذَهاب
فمِنْ أهلي إلى أهلي رجوعٌ   وعنْ وطَني إلى وطَني إياب

(١) اللّد : من ضواحي يافا ، وفيه مطارها المعروف باسمه
(٢) لا أُحير : أي لا أجد كلاماً وماضيه حار

طرطرا!..

● نظمت عام ١٩٤٥ .
● نشرت ، في ٢٤ آذار ١٩٤٦ .

أيْ طرطرا تطرطري ... تقدّمي ، تأخّري
تَشيّعي ، تسنّني ... تَهوّدي ، تَنصّري
تكرّدي ، تَعرّبي ... تهاتَري بالعُنصرِ
تَعمّمي ، تَبَرنطي ... تعقّلي ، تسدَّري
تَقَلّبي تَقلُّبَ الدهـ ... ـرِ بشتّى الغِيَر
تصرّفي كما تشا ... ئينَ ولا تعتَذري
لمن؟!! ألِلناسِ؟!! وهم ... حُثالةٌ في سَقَر
أمْ لِلقوانين وما ... جاءَتْ بغَير الهَذَر
تأمرُ بالمعروف والمـ ... ـنكَر فوقَ المِنبَر
أمْ للضميرِ والضميـ ... ـرُ صُنْعُ هذا البَشَر؟!
تَعِلّةٌ لصائمٍ ... فَطيرةٌ لمُفطِرِ
لمن؟!! أللتاريخ؟!! وهـ ... ـو في يَدِ المُخَبِّر
مُسخَّرٌ طَوْعَ بنا ... نِ الحاكم المُسخِّرِ
بذَرْهَمٍ تُقلِّبُ الـ ... ـحالَ يَدُ المُحرِّر
قد تَقرأُ الأجيالَ في ... دُفّةِ هذا المحضَر
عن مِثلِ هذا «العَصْر» أن ... قد كان زينَ الأعصُر
وأنّه من ذَهَبٍ ... وأنّه من جَوهر
أم للمقاييس اقتضا ... هنَّ اختلافُ النَظَر؟
إنَّ أخا طَرْطَرَ من ... كلِّ المقاييس بَري!

وأنتِ إنْ لم تَجندي   أباً حميدَ الأثَر
ومَفخَراً من الجُدو   دِ طيِّبَ المُنحدَر
ولم تَرَي في النَّفْس ما   يُغنيكِ انْ تفتخري
شأنُ عِصامٍ قد كَفَتْ   ـه النفسُ شرَّ مَفْخَر
فالتَمِسي أباً سِوا   هُ أشِراً ذا بَطَر
طُوفي على الأعرابِ من   بادٍ ومن مُحتَضِر
اي طرطرا تطرطري   وهلِّلي وكَبِّري
وطَبِّلي لكلِّ ما   يُخزي الفَتَى وزمِّري
وسَبِّحي بحمدِ مأ   فونٍ وشكرِ أبتَر[1]
أعطي سماتِ فارعٍ   شَمَردَلٍ لبُحتر[2]
واغتَصِبي لضِفدعٍ   سماتِ ليثٍ قَسْور
وعَطِّري قاذورةً   وبالمديح بَخِّري
وصيِّري من جُعَلٍ   حديقةً من زَهَر
وشَبِّهي الظلامَ ظُلـ   ـماً بالصِبَاح المُسفِر
وألبسي الغبيَّ والأ   حمقَ ثَوبَ «عبقر»
وأفرِغي على المخا   نيثِ دُروعَ «عنتر»
إن قيلَ إنَّ مجدَهمُ   مزيَّفٌ فأنكِري
أو قيلَ إن بطشَهم   من بَطْشة المستعمِر
وانَّ هذا المستعيـ   ـرَ صولةَ الغَضَنفَر
أهوَنُ من ذبابةٍ   في مستَحَمٍّ قَذِر
فهي تطير حُرَّةً   جَناحُها لم يُعَر
وذاكَ لو لم يستعِرْ   جَناحَه لم يطر
فغالِطي وكابري   وَحَوِّري وزوِّري

(١) الأبتر : الخبيث من الحيّات .
(٢) الشمردل : الطويل . والبحتر : القصير .

ذكرى ابو التمن

● نشرت في ٥ كانون الثاني ١٩٤٦ .

قَسَماً بيومِكَ والفُراتِ الجاري ... والثورةِ الحمراء والثُّوّار[1]
والأرضِ بالدَّمِ ترتوي عن دِمْنَةٍ ... وتَمُجّهُ عن روضةٍ مِعطار[2]
والخيلِ تَزحفُ لم تَدَعْ لمُغيرها ... جِثثٌ تُغطّي الأرضَ أيَّ مَغار!
قَسَماً بتلكَ العاطفاتِ ولم تكُنْ ... لي قبلَها من حِلْفةٍ بالنّار
إنَّ الذينَ عهِدتَهم حطَبَ الوغى ... لولاهُمُ لم تشتعِل بأُوار
واللاقِحينَ نَتاجَها بأعزِّ ما ... مَلَكَتْ يمينٌ من حِمىً وذمار
والداهناتِ دماؤُهم لِمَمَ الثَّرى ... والمُؤنساتِ شواطىءَ الأنهار[3]
والناحرينَ مِنَ الضَّحايا خيرَ ما ... حَمَلَت بُطونُ حرائرٍ أطهار
ما إنْ تَزالُ حقوقُهُمْ كذَويهمُ ... في القَفْرِ سارحةً معَ الأبقار!
وأعزُّ ما تبغي «الحلائلُ» منهمُ ... أنْ تُستَرَ العَوراتُ بالأطمار[4]

* * *

خمسٌ وعشرونَ انقضَتْ وكأنَّها ... بشُخوصِها خَبَرٌ منَ الأخبارِ[5]

---

(١) اشارة الى الثورة العراقية في الفرات .
(٢) الدمنة : ما تجمع من فضلات البقر والأوساخ والمعنى أن دم الثوار سال على أرض مقفرة فأحالها ، بما سقاها وبما نفحها من كرامة وعزه ، روضة معطار .
(٣) اللمة : في الأصل ما جاور شحمة الأذن من شعر ويراد بها هنا وجه الأرض .
(٤) الحلائل : جمع حليلة وهي الزوجة .
(٥) اشارة الى المدة التي انقضت على ابتداء العهد البائد حتى عام وفاة الفقيد .

ضِقنا بها ضِيقَ السجينِ بقيدِهِ ... من فَرْطِ ما حمَلَتْ من الأوزار
وتَجَهَّمَتْ فيها السماءُ فلم تَجُدْ ... للخابطينَ بكوكبٍ سيَّار
شاخَ الشبابُ الطيِّبون وجُدِّدتْ ... فيها شَبيبةُ شِيخةٍ أشرار
وبدا على وَجهِ الحفيدِ وجدُّه ... للناظرينَ تقارُبُ الأعمار
مَن كان يحسَبُ أنْ يُمَدَّ بعُمره ... حُكْمٌ أقيمَ على أساسٍ هاري؟!
ومِن الفَظاعةِ أنْ تُريدَ رَعيَّةٌ ... في ظِلِّ دُستورٍ لها وشِعار
ما يَطلُبُ المأسورُ من يدِ آسرٍ: ... إسداءَ عارفةٍ وفكُّ إسار
وروايةٍ حبَكَ الزَّمانُ فُصولَها ... فبدَتْ لنا ممسوخةَ الأدوار
من شرِّ ما آختلقَ الرُّواةُ، ولَفَّقتْ ... جيلٌ، وضمَّتْ دَفَّةُ الأسفار
ومُمثِّلينَ تصنَّعاً ووراءَهمْ ... خَلْفَ الستارِ مُلَقِّنٌ مُتواري
ومفرِّقينَ مَذاهباً وعناصراً ... مُتَكَفِّلينَ سياسةَ استعمار
نزلوا على حُكم الغريبِ وعَرَّسوا ... في ظِلِّ مأثمةٍ له وفَجار[1]
وتحلَّبُوا أوطارَهُ فإذا بها ... وَشَلٌ لِما آستحلى من الأوطار
وآستفرَشَ الشعْبُ الثرى، ودُروبهُمْ ... مملوءةٌ بنُثارةِ الأزهار!

* * *

ذُعِر الجنوبُ فقيلَ: كيدُ خوارجٍ! ... وشكا الشَّمالُ فقيلَ: صُنْعُ جِوار!
وتنابزَ الوسَطُ المُدِلُّ فلم يَدَعْ ... بعضٌ لبعضٍ ظِنَّةً لفَخار[2]
ودعا فريقٌ أنْ تسودَ عَدالةٌ ... فرُموا بكلِّ شنيعةٍ وشَنار!
ومشى المُغيثُ على الجياع- يَقوتُهمْ- ... وعلى العُراقِ، بجحفلٍ جرّار!!
وتساءلَ المُتَعَجِّبونَ لحالةٍ ... نكراءَ: مَنْ هُم أهلُ هذي الدار؟
هِيَ للصحابةِ مِن بَني الأنصار ... من كلِّ بَدريٍّ، وكلِّ حَواري
للحاكمينَ بأمرِهم عن غيرِهم! ... ولصَفْوَةِ الأسباطِ والأصهار[3]

---

(١) عرسوا: أقاموا.
(٢) الوسط المدل: يراد به العاصمة العراقية «بغداد».
(٣) الأسباط: جمع سبط (بكسر فسكون)، ولد الولد، ويغلب على ولد البنت.

من كـل غـازٍ شـامـخٍ في صـدره زاهـي الـوسـامِ ، مـدوِّخِ الأمصـار
هيَ للذيـنَ لـو آمتـحنـتَ بَـلاءهـم لـعجِبـتَ مـن سُـخْـرِيَّـةِ الأقـدار [1]
هي للذي من كـلٍّ مـا يَصِـمُ الفـتى كـاسٍ ، ومن جُهْدٍ يُشـرِّفُ عـاري [2]

* * *

لـم يـبـقَ إلاّ أنْ تُـتَـمِّـمَ خـطوةً ويـظَلُّ يَـلعـبُ لاعـبٌ بـالـنـار
فـلَرُبَّـمـا نـفَـتِ الـشّـكـاةَ، وقـرَّبَـتْ يـومَ الـخـلاصِ سيـاسـةُ الإصـرار

* * *

(١) امتحن الشيء : اختبره . وأبلى في الأمر بلاء : أظهر فيه قدرته .
(٢) كاسٍ : أي مَكسوّ .

دجلة في الخريف

● نشرت في ٩ كانون الثاني ١٩٤٦

بَكَرَ «الخريفُ» فراح يُوعِدُهُ ... أنْ سوفَ يُزْبِدُه ويُرْعِدُهُ
وبَدَتْ من الأرماث، عائمةً ... فيه، طلائعُ ما يُجَنِّدُهُ[1]
وكأنَّ، من زَبَدِ الرِّمال على ... أمواجه، طِفْلاً يُهَدْهِده
وآستَثْقَلَ النوتيُّ مِجْذَفَه ... بَرِماً بمِقْبَضِه يُجَدِّده[2]
وتحفَّزَتْ شُمُّ الجبالِ لهُ ... بثُلوجها كِسَفاً تُهدِّده[3]
ظلَّتْ تَعُدُّ خُطاه تَرقُبُه ... في الصيف مُزدهِراً وتَحسُده
جَرداءُ، وهو يَضِجُّ مَلْعَبُهُ ... ظَلْماءُ، وهو يَشُبُّ مَوقِده!
خَرساءُ، والأنغامُ تُرقِصهُ ... وكأنَّها بالموج تَرْفِده
تَتَعَثَّرُ الأجيالُ خالدةً ... فيها.. ويَحضُنُها مُخَلَّده
«داودُ» بالمزمارِ يُوقِظه ... ويُنيمُهُ بالعُود «مَعبده»[4]
والهِيمُ تخزُنُهُ وتنهبُهُ ... والغِيدُ تَنزِلُهُ وتَصعَدُه[5]

---

(١) الارماث جمع رمث (بفتح الميم) وهو خشب يضم بعضه الى بعض ويركب في البحر . ويشاهد ذلك بكثرة في دجلة والفرات حتى الآن في مواسم الفيضان لسهولة انحداره مع التيار .

(٢) أي أن النوتي يستثقل مجذافه لأنه مصنوع من الخشب الثقيل لمقاومة الماء الطاغي وأنه ينهمك بتجديد مقبضه خوفا عليه من الانكسار .

(٣) في البيت اشارة الى أن فيضان دجلة ينشأ عن ذوبان الثلوج الذي يبتدىء من فصل الصيف حتى فصل الخريف . الكسف : القطع .

(٤) اشارة الى مزامير النبي «داود» المعروفة والى ألحان «معبد» من شيوخ المغنين في العهد الأموي وواضعي أسس الغناء وقواعده .

(٥) الهيم : العطاش . والغيد : النساء الحسان اللينات الأعطاف .

أَلْـقَتْ إلـيـهِ مِـن مـفـاتِـنِـهـا ... مـا لـيسَ إلاَّ الـلَّهُ يَـشـهَـده
ورمَـتْ لـه يـقـظانَ مِـن مُـتَـعٍ ... مـا نـحنُ في الأحـلامِ نَـنـشُـده
والـنـجـمُ حـارسُـهـا وحـارسُـه ... والـظلُّ مـوعـدُهـا ومـوعـده
الآنَ أُدْرِكُ سِـرَّ زَفْـرتـهِ ... إذ لـم يَـعُـدْ سِـرّاً تَـجَـلُّده
فَـلِفَـقـدِه نَـفَـسـاً تَـنَـفُّـسُـهُ ... ولِـذِكـره نَـهْـداً تَـنَـهُّـده
يَـتَـعَـقَّـبُ الـمـسـكـيـنُ موجَـتَـهـا ... عَـبَـثـاً بِـمَـوْجَـتِـهِ وتَـطْرُدُه
لم يَـدْرِ حتى الآنَ شِـيـمَـتَـهـا ... حـسِـبَ الـهـوى نَـغَـمـاً يُـردِّده
أمسِ آستـطابتْ فيـه مَقـصِـدَهـا ... والـيـومَ أهـونُ مـنـه مَـقـصِـده

* * *

لـو يـسـتـطـيـعُ لَـرَدَّ خُـضـرتَـهُ ... وبـرغـمِ سَـفْـحَـيْـهِ تـورُّده
وبـرغـمـهِ أنْ حُـبَّ خـابِـطُهُ ... لـلزارعـيـنَ وذُمَّ مَـورده
مـا سـرَّهُ «والـبِـيضُ» تُـنْـكِـرهُ ... أنَّ الـمـراعي الـخُضْـرَ تَـحْمـدَه!
فـالـذِّكْـرَيـاتُ الـغُـرُّ يَشـهـدُهـا ... رقـراقُـهُ الـصـافـي وتَـشْـهـده

* * *

يـا صـامـتـاً عِـيّـاً، ومَـنْـطِقُـهُ ... مُـتَـفَـجِّـرُ الـيَـنْـبُـوع سَـرْمَـده
تَـهـفـو فـرائـدُ عِـقْـدِهِ جَـزَعـاً ... مـمـا بهـا، وتـهـيـمُ شُـرَّده [1]
وتُـثيـرُ فـيـه الـذكـريـاتُ شجـاً ... يَـعـيـا بـه فـيَـخُـورُ أيِّـده [2]
ومُـوَكَّـلاً بـالـدَّهـر، يَـزرعُـهُ ... فـي شـاطـئـيـه ثـمَّ يـحـصُـده
يـا شَطُّ، أنـتَ أعـزُّ مُـنـقَـلـبـاً ... فـي الـنـاطـقـيـنَ بـمـا تُـخَـلِّده
وكـذا الـطبيعـةُ في عنـاصـرهـا ... جِـنٌّ خَبـيـثُ الرُّوحِ مجـهـدَه!
نَـرتـادُ جـامـدَهـا نُـفَـجِّـرهُ ... وعـقـيـمَ غـامـضِـهـا نُـوَلِّـده
فـلـعـلَّ ذا، ولـعـلَّهـا لُـغـةٌ ... مـن غـيـرِ مـا جَـرْسٍ نُـعـوِّده
ولـربَّـمـا ضَـحِـكـتْ بـسـائـطُهـا ... هُـزْءاً بـنـا مـمَّـا نُـعَـقِّـده

---

(١) يراد بفرائد العقد حبات الماء المتجمعة في النهر ، وكذلك الشرد . وتهفو : بمعنى تتعثر .
(٢) الأيِّد : القوي .

عمر الفاخوري

● نشرت في صيف عام ١٩٤٦ .

رِثـاؤُكَ مـا أشَـقَّ عـلى لـسـانـي ... ورُزْؤك مـا أشـدَّ عـلى جَـنـانـي
وكـيـفَ يُـطيـقُ عن ألـمٍ بيـانـاً ... تـكـولَ شَـلَّ مـنـهُ الأصـغَـران(1)
وفَـقـدُكَ مـا أمضَّ وقـد تـولَّـتْ ... جِيـادُ النصـرِ خَـوضَ المعمعـان
وشـرقٌ كـنـتَ أمسِ لَـهُ سِـراجـاً ... كثيـفُ الـجـوِّ منتـشـرُ الـدخـان
تَـهـاوَى الـطامِـعـونَ عـلى ثَـراهُ ... كمـا اختلفَ الـذُّبـابُ على خِـوان(2)
تَـعـبَّسُ مـن مَـزاحِـفِـمْ ثـغـورٌ ... وتـنـتَـفِضُ الـمـشـارفُ والـمـوانـي

* * *

ومـا أنـا مَصيـرَكَ عن مصيـري ... ومـا أدنى مكـانَـكَ من مكـانـي
اصـخْتُ لِمَـنْ نعـاكَ على ذُهـولٍ ... كـأني قـد أصخْتُ لِمَـنْ نعـانـي
وكـنـتُ أحِسُّ أنَّ هـنـاك رُزْءاً ... واجـهـلُ كُـنْـهَـهُ حـتّـى دهـانـي
صـفَـقْـتُ بـراحَـتَـيَّ مـنِ الـتـيـاعٍ ... وهـل أدنـتْ بـعـيـداً راحـتـان؟!
ورُحْـتُ ، وأيُّ جُـرحٍ فـي فـؤادي ... مـغـالَـطةٌ ، أعَضُّ عـلى الـبَـنـان
وعـانَـقَـنـي من الـذِكْـرَى خـيـالٌ ... كسيـرُ النَـفْسِ يَـشْـرَقُ بـالـهـوان
تـسيـلُ دمـاً جـوانِـبُـهُ اشـتـيـاقـاً ... إلى اللَّمَـحـاتِ والمُـتَـعِ الحِـسـان
إلَـى تـلـكَ الـلـيـالـي مُـشـرِقـاتٍ ... بـهـا « لُبنـانُ » مُـزدَهِـرُ المغـانـي
إلـى سَـمَـرٍ كـأنَّ عـلـيـه مـمـا ... تَـنِـثُّ مِن الشـذا عَـبَـقَ الـجِـنـان

---

(1) الأصغران : القلب واللسان .
(2) الخوان : الذي يؤكل عليه .

خيالٌ رُحتُ من يأسٍ وحِرْصٍ | أسَلّي النفْسَ فيه عن العِيان
أثارَ لِيَ العواطِفَ من عنيفٍ | ومُضطَرِبٍ، ومُرتفِقٍ، وحاني
وفكٌ من الأعِنَّةِ ذكرياتٍ | تَهُزُّ النفْسَ مُطلَقَةَ العِنان
لَمَمْتُ عُطورَها فشمِمْتُ منها | شذا الغَضَبِ المطَهَّرِ والحَنان
كِلانا مُعوِزٌ نُطْقاً عليهِ | طيوفُ الموتِ مُلقِيةُ الجِران[1]
لَعَنْتُ اللفظَ ما أقسَى وأطْغَى | وما أغصَى على صُوَرِ المعاني
تقاضاني بيومِكَ تَرْجُماناً | وكنتُ ألوذُ منه بتَرجُمان

* * *

فيا «عُمَرَ» النضالِ إذا تشكّى | شُجاعُ القَلْبِ من خَوَرِ الجبان
ويا «عُمَرَ» البيانِ إذا تغذّى | عِجافُ النَشْءِ بالفِكَرِ السِمان
ويا «عُمَرَ» الوفاءِ إذا تَخلّى | فُلانٌ في الشدائِد عنْ فُلان
ويا «عُمَرَ» الخلودِ إذا تغنّى | بمجدِ الخالِدينَ فمُ الزَمان
ضُمِنتَ مِن الردى لو كانَ حَولٌ | وأينَ القادِرونَ على الضَمان
وإنّا والحياةُ الى تبابٍ | وكلُّ تَجَمُّعٍ فإلى أوان[2]
لمُحترَبونَ أن نُمسي ونُضحي | وأنتَ بمعزِلٍ خالي المكان[3]
أسِيتُ لعاكِفينَ عليكَ حُبّاً | ومُختَصينَ فضلَكَ باحتضان[4]
رفاقِكَ يومَ مُزدَهَرِ الأماني | ودِرْعِكَ يومَ مُشتَجَرِ الطِعان
حبيتُكَ باسِماً والهمُّ يَمشي | على قَسَماتِ وجهِكَ باتّزان
تُغالِبُه وتَغلِبُه إباءً | كأنّكَ والهمومَ على رِهان
يُزَمُّ فمٌ فما تُفضي شِفاهُ | ويَخفى السِرُّ لولا المُقلتان[5]

---

(١) الجران: من البعير مقدم عنقه.
(٢) التباب: الهلاك.
(٣) لمحتربون: لمفجوعون.
(٤) أسيت: حزنت.
(٥) يزم: بمعنى يطبق ويسد.

اخي الياس

● نشرت في ٢٥ شباط ١٩٤٧

أخي إلياسُ: ما أقسى اللّيالي ... تُنيخُ بكَلْكَلٍ وتقولُ: ما لي[1]
تَسَمَّعُ إذ تَصامَمُ للنَّجاوى ... وتَهْمِسُ إذ تَخارَسُ للنِّمال
وتخدَعُنا بمُقْمِرةٍ لَعُوبٍ ... وتَرمينا بقوسٍ من «هِلال»
وتُعطينا اللّذاذةَ عن يمينٍ ... وتطعنُنا دِراكاً بالشِّمال[2]
وتَفرُشُنا أمانيَ من حريرٍ ... وفي طيّاتِها سُمُّ الصِّلال[3]
وتُدنينا، وتُبعِدُنا، وتلهو ... بنا لهوَ العواصف بالرِّمال
ونَلمِسُها، وتَلمِسُنا عِياناً ... وتمرُقُ مثلَ طَيفٍ من خيال

* * *

أخي إلياسُ: لا تَخَلِ المُبَقّى ... يُوقّى ما آحتواكَ من الحِبال
كأنَّ الشمسَ لم تَطلُعْ علينا ... ولم نَنعَمْ بوارفةِ الظِّلال
ولم نتروَّ من كأسٍ حرامٍ ... ولم نتمَلَّ من سِحرٍ حَلال
ولم نتمَنَّ أنَّ الدهرَ خُلْدٌ ... وأنّا لا نصيرُ إلى زَوال
ولم نسخَرْ بما نُملي عليه ... ولم يسخَرْ بناسِخةِ الأمالي!

* * *

(١) «الكلكل»: هو في الأصل ما بين محزم الناقة أو الفرس الى ما يمس الأرض منه اذا ربضت. ثم استعير لكل ما يلقى بثقله. وأناخ الدهر أو الخطب بكلكله أي نزل بساحة الرجل أو القوم.
(٢) الطعن الدراك: هو المتتابع.
(٣) «الصلال»: جمع صل وهو نوع من الحيات القتالة بسمها.

اليأس المنشود

● نشرت في ٢٧ شباط ١٩٤٧ .

رُدُّوا الى اليـأسِ مـا لم يَتَّسـع طَمَعـا ... شَـرٌّ من الشـرِّ خـوفٌ منـه أن يقـعـا
شَـرٌّ من الأمَـلِ المـكـذوبِ بـارقُـه ... ان تـحمِـلَ الـهمَّ والتـأميـلَ والـهَلَعـا
قـالـوا «غـدٌ» فـوَجَـدتُ اليـومَ يفضلُهُ ... و«الصبرُ» قالـوا: وكان الشَهمُ من جَـزِعا
ولم أجـدْ كمَجـالِ الصَبـرِ من وَطَنٍ ... يَـرتـادهُ الجُبْنُ مُصـطافـاً ومُـرْتَبَـعـا
وإنَّ مـن حَـسَـنـاتِ الـيـأس أنَّ لـه ... حَـدّاً ، اذا كَـلَّ حَـدٌّ غـيـرُه قَـطَعَـا
وأنَّـه مُـصـحِـرُ الارجـاءِ لا كَـنـفـاً ... لـمن يَلَصُّ ولا ظِـلّاً لـمـنْ رَتـعـا[1]

* * *

وَجَـدْتُ أقتَـلَ مـا عـانَت مصـايـرُنـا ... ومـا التَـوَى الشيبُ منـه والشَبـابُ معـا
أنّـا رَكِـبـنـا الـى غـايـاتِـنـا أمَـلاً ... رَخـواً اذا مـا شَـدَدْنـا حَبلهُ انقـطعـا
نـسـومُـه الخَسْف ان يَـطوي مـراحلَنـا ... وإن تَشَكّى الحَفَـا ، والأينَ ، والضلعـا[2]
هـذا هـو الأمَـلُ المزعـومُ فـاقتَـرِعُـوا ... واليـأسُ أجـدَرُ لـو انصَـفْتَ مُقتَـرعـا
الـيـأسُ أطعَـمَ بـالأشـلاءِ مِقـصَـلـةً ... عَـذلاً ، وطـوَّحَ «بـالبستيـل» فـاقتُلِعـا
و«طـارقٌ» منه أعـطَى النصـرَ كـوكَبـةً ... نَـزْراً ، وعَـدَّى الى «الاسبـانِ» فـانـدَفَعَـا

* * *

يـا نـادِبينَ «فِلَسـطينـا» وعِـنـدَهُـمُ ... عِـلْمٌ بـأنَّ القـضـاءَ الحـتمَ قـد وَقَـعـا

---

(١) مصحر : مكشوف ، واضح .
(٢) الاين : التعب .

جيلٌ تَصَرَّمَ مذ أبْدَى نَواجِذَه ... «وعدٌ لبلفورَ» في تهويدِها قطِعا[1]
نَما وشَبَّ بأيدي القَوم مُحتَضَناً ... ومن ثُدِيٍّ النتاج المَحضِ مُرتَضعا
والساهرونَ عليه كلُّ «منتخَبٍ» ... يبني ويهدِمُ ، إن أعطى وان مَنعا[2]
تهوِي «العروشُ» على أقدامهم ضَرَعا ... وتحتمي ساسةُ الدنيا بهم فَزَعا[3]
وعندَنا ساسةٌ سؤنا لَهُم تَبَعاً ... ذُلًّا ، وساؤوا لنا في الهدي مُتَّبعا[4]
من كل مُرتَخَصٍ إن عبَّسَت كُرَبٌ ... أو كَشَّرَ الخطبُ عن شدقيهِ فاتَّسَعا
ردُّ المُصيبةَ بالمِنديلِ مفتخِراً ... مثلَ الصبايا بأنَّ الجفن قد دَمعا
أو عابثٍ من «فِلَسطينٍ» ومحنتِها ... ألفى مَعيناً ، فألقى الدَلوَ وانتزَعا
أو سارقٍ لا لقَعر السِجنِ مَرجِعهُ ... لكنْ الى الجاهِ وَثّاباً ومُرْتفِعا

* * *

شَدُّوا بذَيل «غُرابٍ» امَّةً ظُلِمَت ... تَطيرُ ان طارَ أو تَهوي اذا وَقَعا
وخَوَّفوها بـ «دُبٍّ» سوف يأكلُها ... في حين «تسعون عاما» تألفُ «السَبُعا»
وضيَّقوا أفقَ الدنيا بأعينِها ... مما استجدُّوه مِن بغيٍ وما ابتَدعا
واودَعوا لغلاظٍ من «زَبانيةٍ» ... حَمْقى حَراسة قِرطاسٍ لهم وُضِعا
وذاك معناهُ أنْ بيعوا كرامَتكُم ... بيعَ العبيد بتشريعٍ لكم شُرِعا

* * *

---

(١) النواجذ : جمع ناجذ وهو السن .

(٢) المنتخب : يريد به النائب في مجلس النواب .

(٣) الضرع : التوسل .

(٤) سؤنا : فعل للذم أي نحن سيئون .

يابنت رسطاليس

● نشرت في ٢٨ نيسان ١٩٤٧.

يـا بنتَ «رِسـطاليسَ» امُـكِ حـرّةٌ تلدُ البنيـنَ فَـرائـداً وخَـرائـدا[1]
وأبـوكِ يحتضنُ السـريـر يَـرُبُّهـا ويقـوتُهـا قلبـاً، وذهنـا حـاشـدا[2]
مَشَتِ القـرونُ ومـا يـزالُ كعهـدِه في أمسٍ، «مَشّـاءً» يعـودُ كمـا بـدا
يستنـزلُ الخَطراتِ من عَليـائهـا عُضْمـاً ويُـدني العـالمَ المتبـاعـدا
لم يقتنصْ جـاهـاً، ولا سـامَ النُهى ذُلّاً، ولا آتخـذَ الحـريـرَ وسـائـدا
جـلَّ النُهى الفكـرُ أعـظمُ عصمـةً مـن أنْ يُـريـدَ وصـائفـاً وولائـدا

* * *

يـا بنتَ «رِسطاليسَ» قُصِّي نستمـعْ عن عـاشِقيـكِ أقـاربـاً وأبـاعـدا
عن واهبينَ حيـاتَهم، مـا استُعبِـدوا للشـاكـرين، ولم يَـذمُّوا الجـاحـدا
والصاعدينَ الى «المشانق» مثلما آر تَقتِ النُسـورُ الى السمـاءِ صـواعـدا
ومُـحَـرَّقيـن يُـغـازِلُـون وَقـودَهـا شـوقـاً اليـكِ، ويَحمَـدون الـواقـدا
والمُسـمَـلات، عُيـونُهم، وكـأنـهم بـطيُـوف شخصـك يُكحلون مـراودا[3]

* * *

قـل لـلمعـلم راجيـاً، لا راشـدا، كـن للشـبيبـةِ في المـزالقِ راشـدا

---

(١) الخرائد : جمع خريدة وهي الفتاة البكر لم تمس.
(٢) يربها : يربيها.
(٣) المراود : جمع مرود وهو العود الذي كان يستعمل في القديم للاكتحال.

يــا خــالقَ الأجيــالِ أبــدِعْ خَـلْقَهـا
وتَـوقَّ بـالإبـداعِ جيـلاً نـاقـداً[1]

سيقـولُ عـهـدٌ مُقبِـلٌ عن حـاضـرٍ
نُشـوى عليـه: لُعنتَ عهـداً بـائـدا

ولـســوفَ يـبـرأُ عــاقـبٌ عـن أهـلهِ
ولـســوفَ يَتَّـهِمُ الـبـنـونَ الـوالـدا

قـل للشبيبـةِ حينَ يعصِـفُ عـاصف
ألا يَـظلُّوا كـالـنـسـيـمِ رواكـدا

وإذا آغـتَلَتْ فينـا مـراجـلُ نـقـمـةٍ
ألا يـكـونـوا زمـهـريـراً بـاردا

هيِّء لنـا نشءاً كمـا آنصَبَّ الحيـا
لُـطفـاً، ونشءاً كـالـزلال راعـدا[2]

فـلقـد رأيتُ الـلّهَ يخـلُق رحـمـةً
مَـلَكـاً، ويخـلُقُ لـلتـمـرُّدِ ماردا

و«محمَّـداً» مـا إنْ أهـابَ بجيشـهِ
يـطأ الـبـلادَ روابـيـاً وفـدافـدا[3]

ويـكُبُّ جـبـاراً، ويُعـلي مُـدقـعـاً
ويُـنـيـرُ خـابـطـةً، ويُـنـهضُ راقـدا

لـو لـم يعـبّـىء لـلقـيـادةِ ثـائـراً
حَنِقـاً عـلى نُـظُمٍ بَليـنَ وحـاردا[4]

مـا إنْ يـروحُ مـع الضعيف مُطاوِعـاً
من لا يـروحُ على القـويِّ مُعـانـدا

وأذلُّ خـلقِ اللّهِ فـي بَـلَدٍ طـغـت
فيـه الـرزايـا من يكـونُ محـايـدا

* * *

أصلِحْ بنهجِـك مَنهجـاً مُستعبَـداً
صُنعَ الغريبِ، على الثقافةِ حاقدا

قـالـوا: قـواعـدُ يبتنيهـا غـاصبٌ
وسْطَ العـراق على الكـرامـةِ قـاعـدا

تـحتـلُّ منـه مَشـارفـاً ومَنـاهِـلاً
وتَسـدُّ منـه مَسـالكـاً ومنـافـدا[5]

سـاقَتْ جُيوشَ المـوبقـاتِ حـواشـداً
للرافـدين، مـع الجيـوشِ حواشِـدا

مـا كـان أهـونَ خـطبَـهُ مُستعمِـراً
لـو لم يُقِمْ وسْطَ العقـولِ قـواعـدا

* * *

---

(١) أي كن بابداعك حريصاً على الا تكون عرضة لذم جيل قادم .

(٢) الحيا : المطر .

(٣) الفدفد : الفلاة .

(٤) الحارد: الغضبان .

(٥) منافدا : منافذا .

المقصورة

● نظمت في أواسط عام ١٩٤٧

عند الوداع ...!

سلامٌ على هضبات العراق — وشطيه والجرف والمنحنى
على النخل ذي السعفات الطوال — على سيد الشجر المقتنى
على نبتة سمسم أعذاقه — ترف على الصدر عند الغنى
على دجلة فاض آذيّها — كما حُمّ ذو حرد فاغتلى
ودجلة تمشي على هونها — ويمشي رخياً عليها الصبا
ودجلة لهو الصبايا الملاح — تخوض منها بماءٍ صرى
تريك "العراقيّ" في الحالتين — يُسرف في شحه والندى
سلام على قمر فوقها — عليها هفا، وإليها رنا
تلوذ النجوم بأذياله — هفت إذ هفا، ودنت إذ دنا
كأنّ يداً طرزت فوقها — من الحسن موشية تجتلى
رواء النمير لها لحمة — وذوب الشعاع عليها سدى

* * *

على الجسر ما انفك من جانبيه — يتاح "الهوى من عيون المها"
سلام على جاعلات النقيق — على الشاطئين بريد الهوى
لعنتن من حبه لا تشيخ — ومن شيخة دهرها تصطلي
تفانين مما الجرف بين الصخور — وتندس تحت رهيل النقا

محمد الجواهري

برغمِ الإباءِ ورغمِ العُلى … ورغمِ أنوفِ كِرامِ المَلا
ورغمِ القلوبِ التي تستفيـ … ـضُ عطفاً تَحوطُكَ حَوْطَ الحِمى
وإذ أنتَ ترعاكَ عينُ الزمانِ … ويَهْفُو لجَرْسِكَ سمْعُ الدُّنى[1]
وتلتفُّ حولَكَ شتَّى النُّفوسِ … تَجيشُ بشتَّى ضروبِ الأسى
وتُعرِبُ عنها بما لا تُبين … كأنَّك من كلِّ نفسٍ حشا
فأنتَ مع الصبحِ شَذْوُ الرعاةِ … وحلْمُ العذارى إذا الليلُ جا
وأنت إذا الخطبُ ألقى الجِرانَ … وحطَّ بكلكلِهِ فارتمى[2]
ألَحْتَ بشِعرِكَ للبائسين ، … بداجي الخُطوبِ ، بَريقَ المُنى
تروحُ على مثلِ شَوكِ القَتادِ … وتغدو على مثلِ جَمْرِ الغضا[3]
وتطوي الضُّلوعَ على نافذٍ … من الصَّبرِ يُدمي كحزِّ المُدى[4]
دريئةَ كلِّ جذيمِ اليدينِ … رمى عن يَدَيْ غيرِهِ إذ رَمى[5]
رمى عن يدَيْ حاقدٍ نافسٍ … عليكَ احتشادَ العُلى والنَدى[6]
وحِلساً لدارِكَ والمُقْرِفون … يجولونَ كلَّ مجالٍ بدا[7]
على حينَ راحَ هجينُ الطباعِ … تَنطُّفُ أطرافُه بالخَنا[8]
أدَرَّ عليه ثُديُّ الخُمولِ … وهزَّتْهُ في المهدِ كفُّ الغَبا
يجرُّ ذيولَ الخنا والغِنى … وتهفو عليه ظِلالُ المُنى
وحولَكَ مثلُ فِراخِ الحَما … مِ لولا الشعورُ- وزُغْبِ القَطا
تدورُ عيونُهُمُ والذَّكا … ءُ يَلمَعُ فيها كحدِّ الظُّبا
إلى كلِّ شَوْهاءَ مرذولةٍ … وأشوَهَ مُستأثِرٍ بالغِنى

---

(١) الجرس : الصوت الخفيض ، والنغم .
(٢) جران البعير : رقبته . وكلكله : صدره . وألقى جرانه وحط بكلكله : برك وأناخ .
(٣) القتاد : شجر صحراوي شائك ، يضرب المثل بقوة شوكه .
(٤) المدى : جمع مدية وهي السكين .
(٥) من معاني الدريئة : «حلقة يتعلمون عليها الطعن» فهي كالهدف .
(٦) ينفس عليك عيشك : يحسدك عليه .
(٧) وحلساً لدارك : أي ملازماً له . والمقرفون : من يدعون إلى «القرف» أي إلى الاشمئزاز .
(٨) تنطف : تقطر وتنضح . والخنا : الفحش .

وتَرْجِعُ والعتبُ في موقِها تساءلُ : أيُّكما المُبتلى ؟
بـ «علقمةَ الفحلِ» أزجي اليمينَ أنّي ألَذُّ بمُرِّ الجنى[1]
وبـ «الشَّنْفَرى» أنَّ عينيَّ لا تَلَذّانِ في النومِ طعمَ الكرى
وبـ «المتنبيء» أنَّ البَلاءَ ، إذا جدَّ ، يَعلم «أني الفتى»[2]

* * *

سلامٌ على هَضَباتِ العراقِ وشطِّيهِ والجُرْفِ والمُنحنى
على النَّخْلِ ذي السَّعَفاتِ الطوالِ على سيِّدِ الشَّجَرِ المُقتنى
على الرُّطَبِ الغَضِّ إذ يُجتلَى كَوَشْيِ العروسِ وإذ يُجتنى
بإيسارِهِ يومَ أعذاقُه تَرِفُّ ، وبالعسرِ عندَ القنى[3]
وبالسَّعْفِ والكَرَبِ المُستجِدِّ ثوباً «تهرّا» وثوباً نضا
ودجلةَ إذْ فارَ آذيُّها كما حُمَّ ذُو حَرَدٍ فاغتلى[4]
ودجلةَ تمشي على هَوْنِها وتمشي رُخاءً عليها الصَّبا
ودجلةَ زهوِ الصَّبايا الملاحِ تُخَوِّضُ منها بماءٍ صَرى[5]
تُريكَ العراقيَّ في الحالتيـ ـنِ يُسرِفُ في شُحّهِ والنَّدى !

* * *

سلامٌ على قَمَرٍ فوقَها عليها هَفا وإليها رَنا
تُدغدِغُ أضواؤهُ صَدْرَها وتَمسحُ طيَّاتِها والثِّنى[6]
كأنَّ يداً طَرَّزَتْ فوقَها من الحُسنِ مَوشِيةً تُجتلى
رواءُ النميرِ لها لُحمةٌ وذَوبُ الشعاعِ عليها سَدى

---

(١) علقمة الفحل والشنفرى : شاعران جاهليان عرف عنهما خشونة العيش وصلابة العود .

(٢) إشارة إلى بيت المتنبي في مقصورته :

لتعلم مصرُ ومن بالعراق ومن بالعوصم أني الفتى

(٣) أي سلام عليه في حالة ايساره باعذاقه الرأفة وفي حالة اعساره اذ قنواته متعثكلة يابسة .

(٤) آذى البحر أو النهر : ماؤه الكثير «المواضع العميقة» . ذو حرد : صاحب ثأر ، يشبه دجلة في تدفق مياهها الفوارة بصاحب ثار يغلي غضبا .

(٥) ماء صرى : وشل بقية ماء .

(٦) الثنى : الكسر جمع ثنية وهي الطية .

ونجمٌ تَغَوَّرَ من حُبِّها ... ونجمٌ عليها آدَّنى فادَّلى

* * *

على الجسرِ ما انفكَّ من جانبيهِ ... يُتيحُ الهَوى مِن عيونِ المها[1]
فيا ليتَهُنَّ الذي يعتدي ... ويا ليتَكَ الرّجلُ المُعتدى
ويا ليتَ بلواكَ قُبُّ الصدورِ ... ولُعسُ الشفاهِ، وبيضُ الطُّلى[2]
ويا ليتَ أنَّكَ لا تشتكي ... ظَماءكَ إلَّا لهذا اللَّمى
وليتَ بهنَّ ولا غيرهنَّ ... تَنَقُّلُ في غضبٍ أو رِضا
بهنَّ ولا بغلاظِ الرقابِ ... قِباحِ الوجوهِ، خِباثِ الكُلى

* * *

سلامٌ على جاعلاتِ النَّقيقِ ... على الشَّاطئينِ، بَريدَ الهوى
لُعنتنَّ مِن صِبْيةٍ لا تشيخُ ... ومن شِيْخَةٍ دَهْرَها تُصطبى
تقافَزُ كالجنِّ بينَ الصخورِ ... وتندسُّ تحتَ مَهيلٍ النَّقا[3]
خلفتُ بِمنْ راءَكنَّ الحيا ... ةَ سمحاءَ أبدعَ ما تُرتأى[4]
والبسكُنَّ جمالَ الغديـ ... ـرِ مَن صافَ منكنَّ أو مَن شَتا
لأنتُنَّ من واهباتِ البيانِ ... جَمالاً ومن مُحيياتِ اللُّغى
على أنَّها لُغةٌ ثرَّةٌ ... عواطفُكنَّ بها تُمترى[5]
لقد عابكنَّ بما لا يُعا ... بُ فَدْمٌ بخُلْقٍ جميلٍ زَرى[6]
بسَمحٍ يُنادمُ رَكبَ الخلود ... ويُحسن للخابطينَ القِرى[7]

---

(١) يشير بهذا البيت الى بيت علي بن الجهم :

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

قب الصدور : مرتفعات الصدور ، والواحدة قباء ، وأقب للمذكر . لعس الشفاه : حمرة الشفاه المائلة الى السمرة

(٢) والطلى : الرقاب ، والواحدة طلية .

(٣) مهيل النقا : كومة الرمل .

(٤) راءكن : أراكن .

(٥) لغة ثرة : واسعة يسهل التعبير بها عن كل ما يخالج النفس والقلب .

(٦) الفدم : العيي عن الكلام في رخاوة وقلة فهم . زرى : انتقص ، ذم .

(٧) القرى : ما يقدم للضيف .

يَـدُلُّ عـلى الـمـاءِ مَـن ضَـلَّه ... ويَـرفـعُ وحـشـةَ لـيـلٍ طَـخـا
كـأنَّ بـعـيـنـيـكِ يـاقـوتـتـيـ ... ـنِ صـاغـهـمـا «جـوهـريٌّ» جَـلا
ولـو لـم يُـخـبِّـرْ بـريـقُ الـنـبـوغِ ... بعينيـكِ عن مثـلِ سفـعِ الـذّكـا[1]
لـنَـمَّ الـجُـحـوظُ عـلى «شـاعـرٍ» ... بعيـدِ الـخيـالِ ، عـنيـفِ الـرؤى[2]

* * *

سـجـا الـليـلُ إلا حـمـامـاً أجـدَّ ... هـديـلاً وتـرجـيـعَ كـلـبٍ عَوى[3]
وجُـنـدُبـةً طـارحَـتْ جُـنـدُبـاً ... وبُـومـاً زقـا وسـحـيـلاً ثغا[4]
وديـكـاً يـؤذِّنُ فـي جَـمـعـهـم ... بـأنْ قـد مضى الليـلُ إلا إنى[5]
ودوِّى قِـطـارٌ فـرَدَّ الـحـيـا ... ةَ عـفـواً إلـى عـالَـمٍ يُـبـتـنـى
ومـا بـرِحَ الـقـمـرُ الـمـسـتـديـ ... ـرُ يَـسـبـحُ فـي فـلَـكٍ مِـن سـنـا
تـلـوذُ الـنـجـومُ بـأذيـالـهِ ... هـفَـتْ إذ هـفـا ، ودَنَـتْ إذ دنـا
إلـى أنْ تَـصَـوَّرَ غـولُ الـصَّـبـاحِ ... ودَبَّ الـهُـزالُ بـه فـانـضـوى

* * *

سـلامٌ عـلى عـاطـراتِ الـحـقـولِ ... تـنـاثَـرُ مِـن حـولـهـن الـقُـرى
ويـا لَـلَطافـةِ هـذي الـدُّنـى ... يُـتـمِّـمـهـا لُـطفُ تـلكَ الـقُـصـى
وحـبـلٍ ضـيـاءٍ تـدلّـى بـه ... على أُفقٍ أُفـقٌ والـتـقـى
كـأنَّ يـدَيْ خـالـقٍ مُـبـدعٍ ... تـخـيَّـلَ عُـريـتَـهـا وارتـأى
يَـمُـرَّانِ فـوقَ الـرُّبى والـسـفـوحِ ... ويـخـتـرقـانِ سُـدوفَ الـدُّجـى[6]
ويـنـتـزعـانِ الـشُّـفـوفَ الـتـي ... تـدثَّـرَ كَـوْنٌ بـهـا وارتـدى
رويـداً رويـداً كـمـا سُـرِّحـتْ ... غـلائـلُ غـانـيـةٍ تُـنـتـضـى
وألـقـتْ عـلـيـهـا الـغـيـومُ الـلطافُ ... نَـسْـجـاً كـعـهـدِ الـغـواني وهـي

---

(١) السفع : الكدرة . والذكا : توهج النار ، وسفع الذكا : ما يشوب وقدة النار .
(٢) الجحوظ : بروز العينين . والرؤى : جمع رؤيا .
(٣) سجا الليل : خيم وهدأ .
(٤) الجندب : الصرصر . وسحيل : الثعلب .
(٥) إنى : بقية قليلة .
(٦) سدوف الدجى : ظلماته ، والواحدة سدفة .

تحرّقَ كاسٍ إلى عُريِهِ وأغرم عارٍ به فاكتسى
كأنَّ بها عالَماً واحداً تَلاقى، وإنْ بَعُدَ المنتأى

* * *

سلامٌ على بلدٍ صُنتُه وإيايَ مِن جفوةٍ أو قِلى[1]
كلانا يكابدُ مُرَّ الفراق على كبدَينا، ولَذْعَ النّوى
وكلٌ يُغِذُّ إلى طِيَّة لنا عند غايتها مُلتقى[2]
غداً إذ يَطِنُّ فضاءُ العراقِ طنينَ الثرى من هِزَبرٍ خَلا[3]
وإذ يستقلُّ بِضَبْعِي فتىً يَرى الغُنْمَ في العيش كسبَ الثنا[4]
ويقدُرُ إن ضمَّ منه اليديـ ـنِ ايَّ ثمينٍ نفيسٍ حَوى[5]
غداً إذ فريقٌ يحوزُ الثنا يَعَضُّ فريقٌ بصمٍّ الصفا

* * *

أقولُ لنفسي - إذا ضمَّها وأترابَها محفِلٌ يُزدهى
تسامَيْ فانكِ خيرُ النفوسِ إذا قيسَ كلٌّ على ما انطوى
وأحسنُ ما فيكِ أنّ «الضميرَ» يَصيحُ من القلبِ أنّي هُنا
وأنتِ إذا زيفُ المعجبينَ تلألأ للعينِ ثُمَّ انجلى
ولم تستطعْ هممُ المدّعيـ ـن صبراً على جمرةِ المدَّعى
خلَصْتِ كما خلصَ ابنُ «القُيون» تَرعرَعَ في النار ثمَّ استوى[6]
تسامَيْ فإنَّ جناحيكِ لا يَقرّانِ إلا على مُرتقى
كذلكَ كلُّ ذواتِ الطِما حِ والهمِّ، مخلوقةٌ للذُّرى
شهِدتُ بأنكِ مذخورةٌ لأبعدَ ما في المدى من مدى
وأنكِ سوفَ تدوّي العصورُ بما تتركينَ بها من صدى

---

(١) القلى : الكره والبغض
(٢) أغذَّ السير : أسرع الى طية : الى نية يقصد اليها .
(٣) يطنّ : يصفر أي يخلو .
(٤) الضبع : العضد ، ويستقل بضبعي أي يتعلق بها
(٥) يقدُر الشيء : يعرف قدره وفي القرآن : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ .
(٦) القيون : واحدها قين ، وهو الحداد ، وصانع السيوف وابن القيون هو السيف لأنه من نتاجهم .

بـآيـةِ أنَّ يـدَ الـمُـغـريـاتِ تـهـابُـكِ إلّا كَـلمسِ الـنَّـدى
وأنَّـكِ إنْ يَـلـتـمـعْ مـطـمـعٌ يُـخـافُ على الـرُّوحِ منـه العمـى
يـمـوتُ « الـنـبـوغُ » بـأحـضـانـه ويُـنـعـى بـه « الأمـلُ » الـمـرتـجـى
وتـمـشـي الـجـمـوعُ على ضـوئـهِ لـتـبـكـي عـلـى عـبـقـريٍّ قـضـى
وكـادتْ تَـلُـفُّـكِ فـي طـيِّـهـا حَـواشيـه .. رَدَّتـكِ كفُّ الـقضـا[1]

* * *

لِشـرِّ النِـهـايـاتِ هـذا « الـمـطـافُ » وكـلُّ مَـطـافٍ إلـى مُـنـتـهـى
مـتـى تـرعَـوي أُمَّـةٌ بـالـعِـراقِ تُـسـاقُ إلى حـتـفِـهـا بـالـعـصـا
تُـذَرَّى عـلى الضَّـيْمِ ذَرْوَ الـهـشـيـمِ ويَـعـرقُـهـا الـذُّلُّ عَـرْقَ الـلِّحـا[2]
وتـنـزو بـهـا شـهـوةُ الـمـشـتـهـيـنَ كـمـا دُحـرِجـت كُـرةٌ تُـرتـمـى
يُـجِـدُّ بَـغـيـضٌ بـهـا عـهـدَهُ إذا قـيـلَ عـهـدُ بَـغـيـضٍ مـضـى
وتـسـمَـنُ مـنـهـا عِـجـافٌ مَـشَـتْ إلـى الأجـنـبـيِّ تَـجُـرُّ الـخُـصـى
تُـراوِدُهـا عِـزُّهـا كـالـقُـرومِ هِـجـانٌ عـلـيـهـا غـريـبٌ نَـزا[3]
عـجـبـتُ وقـد أسلـمـتْ نـفـسَـهـا لـعَـرْكِ الـخُـطوبِ وعَـضِّ الـشَّـقـا
وقَـرَّ عـلـى الـذُّلِّ خَـيـشـومُـهـا كـمـا خـطـمَ الصعب جَـذبُ البُـرى[4]
وأغْـفَـتْ فـلـم أَدْرِ عـن حَـيْـرةٍ بـهـا : كيف إيـقـاظُـهـا أو مـتـى ؟
ولـم أدرِ مِـن طـيـبِ إغـفـائـهـا عـلى الـذُّلِّ ، أيُّ خـيـالٍ تَـرى
أهِـمّـاً تـغـشَّـاهُ بَـعْـدَ الـعـنـا كـرىً ، أمْ صبيـاً بـريـئـاً غفـا ؟[5]
مـتـى تـسـتـفـيـقُ وفـحـمُ الـدُّجـى عـلـيـهـا مـشـتْ فـيـه نـارُ الضُّحى ؟
وقـد نَـفَـضَ الـكـهـفُ عـن أهـلـه غُـبـارَ الـسـنـيـنَ ووَعْـثَ الـبِـلى ؟

---

(١) ردك : جواب شرط (ان) في قوله وانك ان يلتمع مطمع .
(٢) عرق العظم : أزال ما عليه من لحم . واللحاء : قشر جذع الشجرة .
(٣) القروم : السادة : واحدها قرم . الهجان : جمع هجين وهو الذي ولد من أبوين مختلفين في الجنس
(٤) قرّ على الذل : خضع للذل . والخيشوم : أعلى الأنف . البري : جمع برة ، وهي الخزامة وحلقة تجعل في أنف البعير الصعب القياد لينقاد . وخطم : ههنا بمعنى أذل وأخضع .
(٥) الهم : الشيخ الكبير .

تعيشُ على الأرضِ أمِّ الكفاحِ وتربُطُ أحلامَها بالسَّما
وتَصْبَغُ بالوَرْد آمالَها كما طرَّزَ الحائكونَ الرِّدا

* * *

وأصنامِ بَغْيٍ يصُبّونها ويَدْعُونها مَثلاً يُقتدى
يُثيرونَ من حولِها ضَجَّةً بها عن مَخازيهمُ يُلتهى
كما حَجَبَتْ بالغُبارِ العيون خِفافٌ مُهرّأةٌ تُحتذى[1]
فهذا سَيمضي ، وهذا مضى وهذا سيأتي ، وهذا أتى !!
وهذا « زعيمٌ » ، لأنَّ « السفيـ ـرَ » يرنو إليه بعينِ الرِّضا
وفي ذاكَ عن سُخطِ أهل البلادِ على حُكمِهِ أو رضاهم غِنى
وهذا بعِمَّتهِ ، ساحِرٌ ، من « الجنِّ » يَرفعُها للعلى
تَطُقُّ المسابحُ من حولِها لتُعلِنَ أنَّ مَلاكاً أتى
تجيءُ المطامعُ منقادةً إليه إذا شاءَ أو لم يَشا
وليتك تحسِبُ أزياءَهم فتجمعَ منها زهورَ الرُّبى
فتلكَ اللفائفُ كالأقحوانِ بها العِلمُ ينفحُ طيبَ الشذا !
وتلكَ الشراشيفُ كالياسميـ ـنِ تاهَ « العِقالُ » بها وازدهى !
تدلَّتْ عناقيدُ مثلُ الكرومِ على كتفَيْ « يابسٍ » كالصُّوى[2]
يَوَدُّ من « التِّيهِ » ! لو أنّه يَشُدُّ بها «جَرَساً »! إنْ مشى
ليعلَمَ سامعُه أنّه «ينوبُ» ! عن البلدِ المُبتلى
إذا رَفعَ اليدَ للحاكمينَ بدَتْ «نَعَمٌ» وهي في زيِّ «لا»!
وبينهما محدَثٌ ناشئٌ إذا خطَّ تَعرِفُه أو حَكى
تعوِّذُه أمُّه إنْ مشى إلى «البرلمانِ» بأمِّ القُرى[3]

* * *

(١) خفاف : جمع خف . ومهرأة : ممزقة بالية .
(٢) الصوى : العلامات توضع في الطريق لتدل السائرين . ويريد بالعناقد ما تدلى من خيوط «العقال» !
(٣) أم القرى : مكة .

ومُستسلمين يَرونَ الكفاحَ ... قَوراء مدحوَّةً تُمتطى[1]
فتُغرزُ في رَخوةٍ سَمْحَةٍ ... وتنفِرُ عن ذي مِضَنٍّ قَسا
يَرَوْنَ السياسةَ أنْ لا يُمَسَّ ... هذا ، وأنْ يُتَّقى شرُّ ذا
وهذا وذا في صميمِ البلا ... دِ سُلٌّ ، وفي العينِ مِنها قذى
مساكينُ يقتحمونَ الكفاحَ ... وقد شرعَتْ بابُه مِن كُوى[2]

بَنِيَّ إذا الدَّهرُ ألقى القناعَ ... وصرَّح من خَسوهِ ما ارتغى
ودالَتْ لهمْ دولةٌ كالَّتي ... لدى الناسِ في وجهها والقفا
سواءٌ فلا خَلْفُها من أما ... مٍ يبدو ، ولا وجهُها من ورا
ولا يستبيحُ بها سابقاً ... إلى المجدِ ركّاضةٌ مَن حَبا
ولا يقذفُ الشهمَ ذو لَوثةٍ ... ذميمٌ ، ولا يدّري مَن وعى[3]
وكانَ المُفَضَّلُ لا المُزدرى ... لهُ يُعتزى وبهِ يُؤتسى
وكان بها المُثُل الصالحا ... تُ ، لا الطالحاتُ ، هي المُقتدى
فلا تبخَلوا أنْ تزوروا أباً ... جريرتُه أنَّ ذُلّاً أبى
ولا تبخَلوا أنْ تَمُدوا يداً ... لتحضِنَ منه خيالاً سَرى
وطيفاً أتاكمْ يُهنّيكمُ ... بأنْ قد وُقيتمْ زماناً مضى
ولا تُنكِروا أنَّ «عُشّاً» به ... تلوحُ لكمْ قَسَماتُ الهنا
كطُهْرِ «الطفولةِ» أجواؤه ... وأفياؤه كرفيفِ الضحى
ضرَبنا لنجمعَ أعوادَه ... لكم في صميمِ زمانٍ جَسا[4]
ستدْرونَ أيَّ مطاويِ البلاءِ ... نزلنا إليها ، وأيَّ الهُوى[5]
وأيَّ الخصومِ مَددْنا له ... بأيِّ الأكفِّ بأيِّ القنا
ضربناهُ بالفكرِ حتى التوى ... وبالقلبِ حتى هفا بالرَّدى

---

(١) قوراء : مستديرة .
(٢) الكوى : جمع كوة وهي النافذة الصغيرة .
(٣) اللوثة (بالفتح) : الحماقة ، وبالضم : الضعف ، والمسُّ من الجنون .
(٤) جسا : يبس وقسا .
(٥) الهوى : جمع هوة .

وكـانَ الـقـريضُ الـذي تقرأو نَ أقـتـلَ مِـن ذا وهـذا شَـبـا [1]
ضـربـنـاه أنْ لـم يُـصِـبْ مَـقـتـلاً بـسـهـمٍ أراشَ ونـصـلٍ بـرى
وشـرٌّ « الـسـهـامِ » رُواءُ الـنـعـيـمِ وشـرُّ « الـنصـالِ » بـريـق الغِـنـى [2]

* * *

(١) شبا السيف : حده .

(٢) اذا احيط الانسان بالنعيم أو لوحوا له بالغنى ولم يكن صلبا في النضال تخاذل وفتر ، فالنعيم والغنى شر السهام وشر النصال .

مقطعات من لندن

المقام في لندن

مَـلِلتُ مُـقـامـيَ فـي لـنـدنـا   مُقـامَ «العَـذارى» بـدور الـزِنـا
مُـقـامَ «المـسيـح» بـدارِ اليَهـو   دِ مُقـام العـذابِ ، مُقـام الضَـنى

صاحبي !

صـاحبي لـو تكـونُ من أعـدائي   لـتمـنَّيـتَ أن تـمـوتَ بـدائـي
لتمـنيـت أن يـكـونَ لـك الـطُو   لانِ طُـولُ الأذى وطُـولُ الـبـقـاء

جين . . .

● نشرت في «خلجات» .

أسـرفـتِ فـي تَـرف الـجـمـالِ   وسـكِـرتِ مـن خـمـر الـدَّلالِ
وثـنـيـتِ طـرفَـكِ فـانـثـنـى   يـرمـي الـظِلالَ عـلى الـظلال
أعـيـا جـمـالُـك مـنـطقـي   وسـمـا خَـيـالُـك عن خيـالـي
يـا «جـيـنُ» لـطفُ الـخـمـر أنَّـكِ كـنـتِ مـاثـلـةً حِـيـالـي
مـا شـاء فـلـيـكـتـبْ عـليَّ   الـدهـرُ ، إنّـي لا أُبـالـي
إذ كـان خَـصْـرُكِ فـي الـيـمـيـ   ـنِ وكـان كـأسـي فـي الـشِّـمـال

آمنت بالحسين

● نشرت في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٧ .

فِـداءٌ لِـمـثـواكَ مِـن مَـضْـجَـعِ ... تَـنَـوَّرَ بـالأبـلَج الأروَعِ[1]
بأعبقَ مِـن نَفـحـاتِ الـجِـنـا ... نِ رَوحـاً ، ومِن مِسكِهـا أضـوعِ[2]
ورَعيـاً ليومِـكَ يـومِ « الـطُّفـوف » ... وسَـقيـاً لأرضِـكَ مِـن مَـصْـرَعِ[3]
وحُـزنـاً عـليـك بحَبْسِ الـنُّفـوسِ ... على نـهـجِـكَ الـنَّيِّرِ المَـهْـيَـعِ[4]
وصَـوتـاً لـمـجـدِكَ مِـنْ أنْ يُـذالَ ... بـمـا أنـتَ تـأبـاهُ مِـن مُـبـدَعِ[5]
فـيـا أيُّـهـا الـوِتْـرُ في الخـالِـدِيـ ... ـنَ فَـذّاً ، الـى الآنَ لـم يُـشْـفَـعِ
ويـا عِـظَةَ الـطامـحـيـنَ الـعِـظامِ ... لِـلاهـيـنَ عـن غَـدِهـمْ قُـنَّـعِ
تـعـالـيـتَ مِن مُـفْـزِعٍ لـلحـتُـوفِ ... وبُـورك قـبـرُكَ مِـن مَـفْـزَعِ
تـلوذُ الـدُّهـورُ فـمِـنْ سُـجَّـدٍ ... عـلى جـانـبـيـه ومِـنْ رُكَّـعِ
شَـمـمـتُ ثَـراكَ فـهـبَّ الـنـسـيـمُ ... نـسـيـمُ الـكـرامـةِ مِـن بَـلقـعِ
وعَـفَّـرتُ خـدّي بـحـيـثُ اسـتـرا ... حَ خـدٌّ تـفـرَّى ولـمْ يَـضـرَعِ
وحيثُ سـنـابِـكُ خـيـلِ الـطُّغـا ... ةِ جـالـتْ عـلـيـهِ ولـم يَـخـشـعِ

---

(١) «الأبلج» : الوضاء الوجه . و«الأروع» : المعجب بشجاعته أو حسنه

(٢) الروح هنا نسيم الريح . و« ضاع » من ضاع المسك يضوع اذا عبقت رائحته .

(٣) الطفوف : هي الأراضي المشرفة من جوانب الشواطىء ، وهي تطلق بصورة خاصة على ما أشرف من أراضي « الغاضرية » - وهي مدينة كربلاء الآن - على نهر الفرات وفيها كان مصرع الحسين الشهيد وآله وأبنائه .

(٤) المهيع : البين الواضح .

(٥) يذال : يهان . المبدَع بفتح الدال من «البدعة»

وخِلْتُ وقد طارتِ الذكرياتُ ... بِرُوحي إلى عالمٍ أرفعِ
وطُفْتُ بقبرِكَ طوفَ الخيالِ ... بصومعةِ المُلْهِمِ المُبْدعِ
كأنَّ يداً من وراءِ الضريـ ... ـحِ حمراءَ «مَبْتُورةَ الإصْبَعِ»[1]
تَمُدُّ الى عالمٍ بالخُنو ... عِ والضيمِ ذي شَرَقٍ مُتْرَعِ[2]
تَخَبَّطَ في غابةٍ أطبَقَت ... على مُذئِبٍ منه أو مُسْبِعِ[3]
لِتُبدِلَ منه جديبَ الضميـ ... ـرِ بآخرَ مُعشوشِبٍ مُمرِعِ
وتدفعَ هذي النفوسَ الصِغا ... رَ خوفاً إلى حَرَمٍ أمنَعِ

* * *

تعاليتَ مِن صاعِقٍ يلتظي ... فإنْ تَدْجُ داجيةٌ يَلمعِ
تأرَّمُ حِقداً على الصاعقاتِ ... لم تُنْءِ ضَيراً ولم تَنْفَعِ[4]
ولم تَبْذُرِ الحَبَّ إثرَ الهشيمِ ... وقد حرَّقَتهُ ولمْ تَزرعِ
ولم تُخلِ أبراجَها في السماءِ ... ولم تأتِ أرضاً ولم تُدْقِعِ
ولم تَقْطَعِ الشرَّ مِن جِذْمِهِ ... وغِلَّ الضمائرِ لم تَنْزعِ
ولم تَصْدِمِ الناسَ فيما هُمُ ... عليهِ من الخُلُقِ الأوضَعِ
تعاليتَ من «فَلَك» قُطْرُهُ ... يدورُ على المِحوَرِ الأوسعِ
فيا بنَ «البتولِ» وحَسْبي بها ... ضَماناً على كل ما أدَّعي
ويابنَ التي لم يَضَعْ مِثلُها ... كمِثلِكَ حَملاً ولم تُرْضِعِ
ويابنَ البطينِ بلا بِطنةٍ ... ويابن الفتى الحاسرِ الأنْزَعِ[5]
ويا غُصْنَ «هاشِمَ» لم ينفَتِحْ ... بأزهرَ منكَ ولم يُفرِعِ[6]

---

(١) مبتورة الأصبع : هي يد الحسين (ع) وقد بترت إصبعُه بعد مقتله .

(٢) ذو شرق : ذو شجا وغصة .

(٣) مذئب ومسبع : كثير الذئاب والسباع .

(٤) التأرم : حك الأسنان بعضها ببعض من الغيظ ، أي انك تتحرق اذ ترى الصاعقات لا تدفع ضراً ولا تجلب نفعا

(٥) البطنة : النهم . الأنزع : من انحسر الشعر عن جانبي جبهته . وكان يقال للامام عليّ «الأنزع البطين» .

(٦) لم تنون « هاشم » للضرورة فجرت بالفتحة .

تَمثّلتُ « يومَكَ » في خاطري وردَّدت « صوتَكَ » في مَسمعي
ومَحَّصتُ أمرَكَ لم «أرتَهِبْ» بنقلِ « الرُّواة » ولم أُخدَع
وقلتُ : لعلَّ دويَّ السنين بأصداءِ حادثِكَ المُفجِع
وما رتَّلَ المُخلصونَ الدُّعاةُ مِن « مُرسلِينَ » ومن « سُجَّع »
ومِنْ «ناثراتٍ» عليكَ المساءَ والصُّبْحَ بالشَّعْرِ والأدمُع
لعلَّ السياسةَ فيما جَنَتْ على لاصِقٍ بِكَ أو مُدَّعي
وتشريدَها كلَّ مَنْ يدَّلي بحبلٍ لأهليكَ أو مَقطع
لعلَّ لِذاكَ و«كونٍ» الشَّجيُّ وَلُوعاً بكلِّ شَجٍ مُولع
يَداً في اصطباغِ حديثِ « الحُسين » بلونٍ أُريدَ لهُ ممتِع
وكانتْ ولمَّا تَزَلْ بَرْزَةً يدُ الواثِقِ المُلْجَأ الألمعي
صَناعاً متى ما تُرِدْ خُطَّةً وكيفَ ، ومهما تُرِدْ تَصنع
ولمَّا أزَحْتُ طِلاءَ «القُرونِ» وسِتْرَ الخِداع عنِ المَخْدع
أُريدُ «الحقيقةَ» في ذاتِها بغيرِ الطبيعةِ لم تُطْبَع
وجدتُكَ في صُورةٍ لم أُرَعْ بأعظَمَ منها ولا أرْوَع
وماذا ! أأروعُ مِنْ أن يكونَ لحمُكَ وَقْفاً على المِبْضَع
وأنْ تتَّقي - دُون ما ترتأي - ضميرَكَ بالأسَلِ الشُّرَّع
وأنْ تُطْعِم الموتَ خيرَ البنينَ مِنَ « الأكهلينَ » الى الرُّضَّع
وخيرَ بني « الأمِّ » مِن هاشمٍ وخيرَ بني « الأب » مِن تُبَّع
وخيرَ الصِّحاب بخيرِ الصدورِ ، كانوا وِقاءَكَ ، والأذرع

* * *

وقدَّسْتُ « ذكراكَ » لم أنتحِلْ ثِيابَ التُّقاةِ ولم أدَّع
تَقَحَّمْتَ صدري وريبُ « الشُّكوكِ » يَضِجُّ بجدرانِهِ « الأرْبَع »
ورانَ سَحابٌ صَفيقُ الحِجاب عليَّ مِن القَلَقِ المُفزِع[1]
وهبَّتْ رياحٌ من الطيِّبات و «الطيِّبينَ» ولم يُقْشَع

(١) ران : غطى واطبق .

إذا ما تزحزحَ عن مَوضعٍ تأبّى وعادَ إلى موضع[1]
وجازَ بيَ الشكُّ فيما معَ «الـ ـجدودِ» الى الشكُّ فيما معي
الى أن أقمتَ عليه الدليـ ـلَ من «مَبدأ» بدمٍ مُشْبَع
فأسلَمَ طَوعاً إليك القِياد وأعطاكَ إذعانةَ المُهْطِع
فنَوَّرْتَ ما أظْلَمَّ مِن فِكرتي وقوَّمْتَ ما أعوجَّ مِن أضلُعي
وآمنتُ إيمانَ مَن لا يَرى سِوى (العقلِ) في الشكِّ مِن مَرْجِع
بأنَّ (الإباء)، ووحيَ السماء، وفيضَ النبوَّةِ، مِن مَنْبع
تجمَّعُ في (جوهرٍ) خالصٍ تَنَزَّهَ عن (عَرَضٍ) المَطْمَع

(١) تأبى : ابى ، امتنع .

ناغيت لبنانا . . .

● نشرت في ٣ كانون الأول ١٩٤٧.

ناغيت «لُبنانـاً» بشِعـريَ جِيـلا ... وضفرته لجبينهِ إكليلا
ورَدَدْتُ بالنغمِ الجميلِ لأرزه ... ظِلّاً أفاءَ به عليَّ ظَليلا
أوَ ما ترى شعري كأنَّ خِلالَه ... نسيَ النسيمُ جناحَهُ المبلولا
وحِسانَ لُبنانٍ منحتُ قصائدي ... فسحبنهنَّ كَدَلِّهنَّ ذُيولا
أهديتُهُنَّ عيونَهنَّ نوافِذاً ... كعيونِهنَّ إذا رَمَيْنَ قَتيلا
فردَّدنهنَّ من الأسى وجِراحِه ... كِسَراً.. فَرُحْتُ ألمُّهنَّ فُلولا
ورَجَعْتُ أدراجي أجرُّ غنيمةً ... من «بنتِ بيروتٍ» جوىً وغليلا
لُعنَ القصيدُ فأيُّ مُثرٍ شامخٍ ... سرعانَ ما آستجدى الحسانَ ذليلا
رَدَّتْ مطامِحَه البِعادَ دوانياً ... وكثيرَ ما خَدعَ الخَيالَ قليلا

* * *

ناغيتُ «لُبنانـاً» وهل أبقى الهوى ... بُقيـىً على قيثارتي لتقولا
طارحتُه النغماتِ في أعيادِه ... بأرقَّ من سجعِ الحمامِ هَديلا
ومَسحْتُ دمعَ الحُزنِ في أتراحِه ... وجعلتُ مَحْضَ عواطفي مِنديلا
وكذاكَ كنتُ وما أزالُ كما بنى ... أهلي أُجازي بالجميلِ جميلا

* * *

يا شيخَ «لُبنانَ» الأشمَّ فوارعاً ... وشمائلاً، ومناعةً، وقبيلا
مثَّلتَهُ في كلِّهنَّ فلم يُرِدْ ... بسواكَ عنكَ. ولن يريدَ بديلا
إنَّ العراقَ وقد نزلتَ رُبوعَهُ ... لَيَعُدُّ ساكِنَه لديكَ نزيلا
بُشرى «بِشارةُ» أنْ تجوسَ خِلالَها ... وتَزيرَ طرفَك أهلَها وتُجيلا
قف في ضفافِ الرافدينِ وناجِها ... وتفيَّ صَفصافاً بها ونخيلا

واسمَعْ غِناءَ الحاصدينَ حُقولَها ... للحاصداتِ من القلوبِ حُقولا
سترى القريضَ أقلَّ مِن أنْ يَجتلي ... لغةَ النفوسِ عواطفاً ومُيولا
وتلمَّسِ الآهاتِ في نَبَراتِهِمْ ... يُشعِلْنَ من حَدَقِ العيونِ فتيلا
واستنطِقِ « الرَّمَلاتِ » في جَنَباتها ... ولطالما استوحى النبوغُ رمولا
واستوحِ «كُوفاناً» و«بصرةَ» إذ هُما ... يتصدَّرانِ العالَمَ المأهولا
يستورِدانِ حَضارةً ومواهباً ... ويُصدِّرانِ فطاحلاً وفحولاً
وتَقرَّ « بغداداً » فإنَّ دُروبَها ... ستُريكَ من سِفْرِ الزمانِ فُصولا
ستُريكَ كيف إذا استتمَّتْ دولةٌ ... أعمى الغرورُ رجالَها لتدولا

* * *

يا شيخَ «لُبنانٍ» شكيَّةَ صارخٍ ... تتخلَّلُ الترحيبَ والتأهيلا [1]
كنّا نُريدُكَ لا القلوبُ « مُغيمةٌ » ... فينا . ولا خِصبُ النفوسِ مَحيلا
لنُريكَ أفراحَ العراقِ شَمالَه ... وجنوبَه ، وشبيبةً ، وكُهولا
جئتَ العراقَ ومِن فِلَسْطِينٍ به ... وَجَعٌ مُطبِّبُهُ يعودُ عليلا
والمسجدُ المحزونُ يُلقي فوقَه ... ليلاً - على الشرقِ الحزينِ - طويلا
ذهبتْ فِلَسْطِينٌ كأن لم تَعترِفْ ... مِن كافليها ضامناً وكفيلا
وعفَتْ كأنْ لم يمشِ في أرجائها ... «عيسى» ، و«أحمدُ» لم يَطِرْ محمولا
و«المسجدُ الأقصى» كأنْ لم يرتفعْ ... فيهِ أذانٌ بُكرةً وأصيلا
وثرى « صلاحِ الدينِ » دِيسَ وأنعلتْ ... منه جيوشُ الواغلينَ خُيولا
و « الحنظليُّ » بحِلْفِهِ ووُعودِهِ ... ما زالَ كاذبُ وعدِه ممطولا [2]
لم يرعَ شرعَ الكافرينَ ، ولا وفى ... حقَّيهما القرآنَ والانجيلا
أعطى « إلَنْبي » أهلَها فاستامهم ... « بلفورُ » ، فاستوصى بهم عِزريلا [3]
واليومَ يفخرُ « بالحيادِ » كفاخرٍ ... بالقتلِ إذ لم « يَسلَخِ » المقتولا

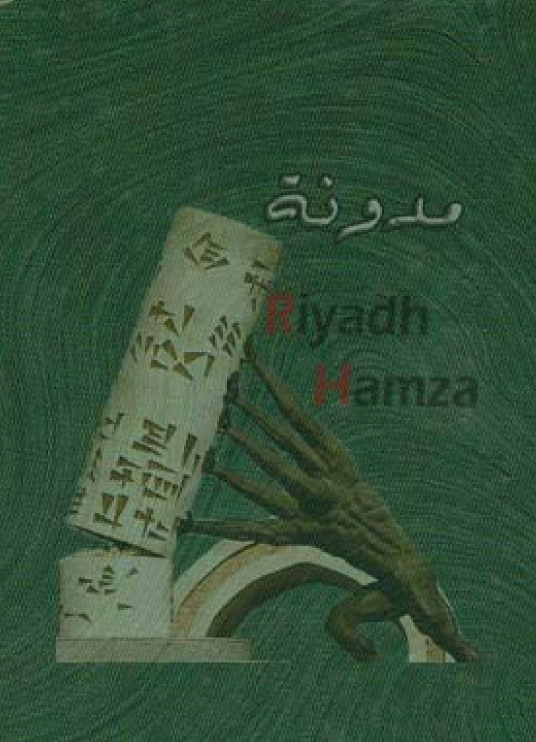
---

(١) التأهيل : الترحيب بـ «أهلا» .

(٢) الحنظلي : يريد به المستعمر البريطاني .

(٣) «إلَنبي» : القائد البريطاني المعروف وفاتح القدس في الحرب العالمية الأولى . وبلفور : هو الوزير البريطاني الشهير صاحب الوعد المعروف بتهويد فلسطين .

المحتويات



Bani-Alzahra Institute

Tel : 0098 251 7732730 - 7748555
Mob : 0098 9123514148

مكتبة رياض الغراوي ، النجف الأشرف – سوق الحويش/ نقال : ٠٧٨٠١٢١٤٥٨١